وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر –2–
أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الانسانية
قسم التاريخ

النظام التعليمي في تونس خلال الفترة الحسينية
(1117– 1298هـ/ 1705– 1881م)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ
الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة:
رزيقة محمدي

إشراف الأستاذ الدكتور:
أرزقي شويتام

السنة الجامعية: 1441– 1442هـ/ 2019– 2020م

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر –2–
أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الانسانية
قسم التاريخ

النظام التعليمي في تونس خلال الفترة الحسينية
(1117– 1298هـ/ 1705– 1881م)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة:
رزيقة محمدي

إشراف الأستاذ الدكتور:
أرزقي شويتام

أعضاء لجنة المناقشة		
الاسم واللقب	الجامعة	الصفة
أ.د/ فريد حاجي	جامعة الجزائر–2–	رئيسا
أ.د/ أرزقي شويتام	جامعة الجزائر–2–	مشرفا ومقررا
د/ رابح كنتور	جامعة الجزائر–2–	مناقشا
د/ ياسين بودريعة	جامعة البويرة	مناقشا
دة/ رقية شارف	جامعة الجزائر–2–	مناقشا
أ.د/ محمد بوطيبي	جامعة المدية	مناقشا

السنة الجامعية: 1441– 1442هـ/ 2019– 2020م

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

الآية 105 من سورة التوبة

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر والامتنان للأستاذ المشرف الدكتور أرزقي شويتام على المجهود الذي بذله في تصويب وتصحيح ومتابعة البحث في كافة مراحله، حتى صدر بهذه الصورة . فله مني كل التقدير وجزاه الله عني خيرا.

والشكر موصول إلى كل من ساعدني في إنجاز هذا البحث وعلى رأسهم عمال المركز الوطني للأرشيف التونسي، وعمال المكتبة الوطنية، وجامعة 09 أفريل، وجامعة منوبة، وجامعة الزيتونة، والمدرسة الصادقية بتونس على التسهيلات والمساعدات التي قدموها لي وكذا على حفاوة الاستقبال. كما لا أنسى عمال المكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة .

وأشكر أيضا الأستاذة صدق السلامي، والأستاذ أحمد سليماني من الشقيقة تونس، على المادة العلمية التي زودوني بها وتوجيهاتهم القيّمة. فلهم مني أسمى عبارات الشكر والتقدير.

كما أخص بالشكر أيضا السادة الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الذين تفضلوا بقبول مناقشة الأطروحة ومنحوني من وقتهم الثمين.

والشكر موصول أيضا إلى كل من ساهم في مساعدتي، ولو بالكلمة الطيبة .

إلى كل هؤلاء أقدم شكري وتقديري .

الإهداء

إلى اللّذين قال فيهما الله: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾

سورة الإسراء الآية 23

الوالدين الكريمين أطال الله في عمرهما ومدّهما بوافر الصحة والبركة.

إلى زوجي وأبنائي قرة عيني، الذين أخذ هذا البحث الكثير من وقتي على حسابهم .

إلى إخوتي وأخواتي .

إلى كل أساتذتي عبر كل المراحل التعليمية التي مررت بها .

إلى كل طالب علم .

إلى وطني الجزائر .

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي .

«إن المجتمع العلمي ليس ذلك الذي يشيد المدارس والجامعات، وينشر الكتب، وإنما ذلك المجتمع الذي يصوغ حياته اليومية ونظمه وأعرافه وفق المعارف والآداب التي يلقنها لأطفاله في المدارس» .

برتراند راسل، أثر العلم في المجتمع، ص 100 .

قائمة المختصرات الواردة في الدراسة :

أ. باللغة العربية:

الرمز	المعنى
أ . و . ت	الأرشيف الوطني التونسي
ب . ت . ن	بدون تاريخ النشر
ب .ت . و م .ن	بدون تاريخ ومكان النشر
ت	توفـــــــي
ج	جـــــــزء
ج. آ. خ. أ	جريدة آخر خبر أون لاين
ج . ر . ت	جريدة الرائد التونسي
ج . م . 24	جريدة مشاهد 24
ح	حافظـــة
ح .آ . ع . إج	حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية
د. ك. و	دار الكتب الوطنية
س.ت	السلسلة التاريخية
ش	شهـــري
ص	صفحـــة
ص. ب. ت	صفحة بدون ترقيم
صد	صنـــدوق
ظ	ظهـــــــر
ع	عـــــدد
ك.ت	الكراسات التونسية
م	ملف
م . ب . ت	مجلة البحوث التاريخية
م. ت. ب. ع. مع	مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات
م. ت .ع . للد.ع	المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية

م . ت . مغ	المجلة التاريخية المغربية
م . ث . م . د	مجلة ثقافة ومعرفة ودراسات
م. د. إ. ق	مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان
م . د .ت	مجلة الدراسات التاريخية
مج	مجـــــلد
م . ح . م	مجلة الحوار المتوسطي
مخ	مخـــــطوط
م . هـ	مجلة الهداية
ن. ع. ك. ز	النشرية العلمية للكلية الزيتونية
وج	وجـــــه
ي	يومـــي

ب.باللغة الفرنسية:

الرمز	المعنى
A	Année
B.P	Bas de Page
C.N.R.S	Centre National de la Recherche Scientifique
DHF.LESBM	Document pour l'histoire du français langue étrangère ou seconde dans le bassin méditerranéenne
Ed	Edition
IBLA	Institut des Belles Lettres Arabes
Imp	Imprimerie
Int	Introduction
N	Numéro
P	page
Prf	préface
Pub	publié / Publication
P. U. T	Publication de L'université de Tunis
R.A	Revue Africaine
R.T	Revue Tunisienne
R.O.M.M	Revue de l'occident musulman et de la méditerranée
S.D	Sans date
S.M.E	Sans maison d'Edition

مقدّمـــــة

لقد جاءت الآيات الأولى التي نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تحث على العلم، حيث قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) ﴾. وفي هذا دلالة واضحة على أهمية العلم والتعلم في حياة الإنسان، إذ يعتبر المحرك الأساسي في ازدهار وتطور الشعوب، إضافة لكونه أهم المقاييس التي يتم بها قياس مدى نماء وتطور المجتمعات أو تخلفها ، فحداثة الدولة من حداثة التعليم. كما أنه عنوان تحرر الشعوب من الأمية والجهل إلى العلم والمعرفة، وبالتالي إلى التقدم والرقي. لأن العلم يعدّ أساس كل إصلاح، وتاج كل نهضة. وهو السبيل والمنهج لنشر المعرفة، وتثقيف العقول وتهذيب النفوس .

ومن هذا المنطلق اكتسى موضوع التعليم ومناهجه أهمية جليلة لدى كل الشعوب والأمم عبر مختلف العصور، فقد اعتنى به الباحثون فألفوا فيه الكتب والرسائل، وما يزال موضع اهتمام المفكرين والمصلحين إلى يومنا هذا .

وفي هذا الإطار تندرج دراستنا الموسومة "بالنظام التعليمي في تونس خلال الفترة الحسينية"، وهي دراسة اجتماعية ذات منحى ثقافي باعتبارها تعالج إشكاليات تخص جوانب فكرية وعلمية. وتكمن أهمية الموضوع في كونه يندرج ضمن المعرفة التاريخية المتصلة بالتاريخ الاجتماعي والثقافي، إضافة إلى الوعي بأهمية التعليم لما له من تأثير مباشر على مختلف جوانب الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية .

وكثيرون هم المؤرخون والباحثون الذين تناولوا هذا الجانب الهام من الحياة اليومية في المجتمع التونسي، فجعلوه إما محورا لدراساتهم أو لجزء منها. نذكر منها، الدراسة التي أعدها "محمد الباجي بن مامي" حول مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني. كما تناولت الباحثة "مديحة المشرفية" موضوع المدارس الحرة الفرنسية. وتناول محمود عبد مولى "المدرسة الحربية بباردو"، و"أحمد عبد السلام" المدرسة الصادقية. كما قدم "محمد العزيز بن عاشور" دراسة مستفيضة حول جامع الزيتونة. كما تناول "علي الزيدي" موضوع التعليم بصفاقس في عهد المشير "محمد الصادق باي". ومن بين الدراسات الأجنبية التي تناولت التعليم الأجنبي في تونس نذكر ما كتبه المؤرخ الفرنسي "فرانسوا أرنولي" "François Arnoulet" بعنوان:

"la pénétration intellectuelle en Tunisie avant le protectorat"

والتي تم نشرها بالمجلة الإفريقية في العدد 438، 439. كما نذكر الدراسة القيمة والجادة التي قدمها "العروسي الميزوري" حول التعليم بإيالة تونس خلال العهد الحسيني الأول. لذلك فنحن لا ندعي أن الموضوع جديد ولم يتم تناوله من قبل، لكن هذا لم يمنعنا من البحث في موضوع التعليم، ومحاولة الوصول على الأقل إلى دراسة تكون متكاملة وشاملة انطلاقا من المادة الخام التي يمكنها أن تكشف الجديد، لتؤكد أو تفند ما كتب عن الموضوع سابقا. كما نود الإشارة إلى أن موضوع التعليم بإيالة تونس خلال الفترة الحديثة لم يكتب من قبل بأقلام جزائرية على حد علمنا.

ولعل أن وراء اختيار موضوع التعليم جملة من الدوافع الموضوعية والذاتية. فالأولى تتمثل في رغبتنا في تخصيص دراسة مستقلة حول موضوع يصب في قالب اجتماعي ثقافي، لكن بعيدا عن المواضيع التي تتسم بالطابع العام والشمولي. كما أن موضوع التعليم من المواضيع الهامة التي تشد اهتمام الباحثين لما يكتسيه من أهمية في حياة المجتمع خاصة والدولة عامة .

كما يعود التركيز على إيالة تونس، إلى عدة اعتبارات من بينها، المكانة العلمية والثقافية التي تُعرف بها منذ عصور خلت، فقد أعجب الرحالة الجزائري "حسين الورثيلاني" الذي زار تونس سنة 1180هـ/ 1766م بالمكانة التي حظي بها العلم في هذه المنطقة، حيث قال: "فإن تونس قاعدة من قواعد العلم ومدينة من مدن الفهم".

وتصب الأسباب الذانية ضمن الرغبة في إثراء المكتبة الجزائرية بالدراسات المغاربية الثقافية. بالإضافة إلى اهتمامنا الكبير بكل ما له علاقة بالتعليم والتربية، خاصة وأننا ننتمي إلى هذا القطاع.

أما اختيارنا للقرنين الثاني عشر والثالث عشر (12- 13هـ)/ الثامن عشر والتاسع عشر (18- 19م)، فقد كان بدافع حصر الموضوع في إطار الدولة الحسينية الحديثة أو كما يطلق عليها العهد الحسيني الأول، الذي يبدأ من فترة حكم أول بايات الأسرة الحسينية، "حسين بن علي" (1117- 1153هـ/ 1705- 1740م) إلى تاريخ انتصاب الحماية الفرنسية على تونس في 13 جمادى الثانية 1298هـ/ 12 ماي 1881م .

وقد حاولنا في هذه الدراسة رصد حركة التعليم بإيالة تونس خلال الفترة الزمنية المذكورة باعتبارها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية تتأثر بالبيئة وتؤثر فيها، كما يرتبط ارتباطا وثيقا بالمؤسسات التعليمية التي تعد وسيلة لنشره.

كما أن الفترة التي نود دراستها هي من أكثر الفترات حسما في تاريخ التعليم بالإيالة التونسية، فقد مرّ في هذه الفترة الطويلة التي دامت حوالي قرن ونصف قرن بمرحلتين، مرحلة التعليم

التقليدي والذي كان في الميدان وحده إلى غاية ظهور التعليم الحديث في النصف الأول من القرن19م، حيث أخذ يشارك التعليم التقليدي في الساحة الثقافية والعلمية، ليأخذ محله مع مرور الوقت بشكل تدريجي. وإلى جانب ذلك فقد عرفت البلاد أحداثا تاريخية غيرت من الهيكلة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. كالاصلاحات التي كانت جارية بالدولة العثمانية وببعض إيالاتها، مثل: مصر. كما أن الحضارة الأوربية بدات تلقي بظلالها على البلاد الاسلامي بما فيها تونس، منذ اواخر القرن 12هـ/ 18م، وراحت وتفرض نفسها اكثر خلال القرن 13هـ/ 19م .

بالاضافة إلى وقوع تونس في براثين الاحتلال الفرنسي مع أواخر الفترة المدروسة، بموجب معاهدة باردو في 13 جمادى الثانية 1298هـ/ 12 ماي 1881م، والتي سيكون لها بلا شك وقع على الحياة التعليمية.

ومن هذا المنطلق راودتنا الإشكالية الجوهرية التالية: هل كان اصلاح التعليم رغبة داخلية وأولوية، في منظور الداعين للاصلاح ؟

ولاثراء هذه الاشكالية قمنا بطرح تساؤلات فرعية، أهمها:

- ما بنية منظومة التعليم التقليدي ؟ ما خلفيات دعوى إصلاح منظومة التعليم ؟
- ما معالم وبنية سياسة إصلاح منطومة التعليم ؟ ما تمظهرات إصلاح التعليم التقليدي والمستحدث ؟
- هل تم تطبيق الإصلاحات على أرض الواقع أم بقيت حبرا على ورق؟ كيف استطاع التعليم أن يؤثر ويتأثر ببيئته؟
- هل كان للتعليم الاجنبي الذي بدأ يتقوى منذ الثلاثينات من القرن 19م أثر على التعليم المحلي؟

أفضت بنا هذه الإستفهامات وغيرها إلى ضرورة إيجاد إجابات، ولا يتم ذلك إلا من خلال الجمع بين مختلف المناهج العلمية أهمها، المنهج التاريخي الوصفي الذي استعنا به كثيرا في محطات كان لزاما علينا اللجوء إلى الوصف والسرد كالتعريف بالأعلام، وصف المؤسسات التعليمية... والمنهج الوصفي التحليلي عند تفسير بعض جوانب الموضوع. إضافة إلى المنهج التركيبي التاريخي، المبني على المقارنة والتحليل والاستنباط .

وعلى هذا النحو وعلى ضوء ما سبق قمنا بتقسيم دراستنا إلى مدخل وبابيين، كل باب يتناول ثلاثة فصول.

فالمدخل تناولنا فيه لمحة مقتضبة عن الوضع الثقافي والفكري في تونس خلال القرنين 10-11هـ/ 16-17م. وأردناه أن يكون قاعدة ننطلق منه لبناء أسس الموضوع .

أما **الباب الأول**: فجاء بعنوان التعليم التقليدي، والذي قسمناه بدوره إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تطرقنا فيه إلى المؤسسات والمراكز التعليمية التي ورثها الحسينيون عن العثمانيين والحفصيين، بالإضافة إلى تلك التي قاموا بتشييدها .

أما **الفصل الثاني**: عنوناه بالأطوار التعليمية ونظامها، عالجنا فيه الأطوار التعليمية، وقمنا بتقديم تفاصيل حول المناهج التعليمية وبرامجها، وطرائق التعليم في كل طور، كما عرجنا على الإجازات العلمية، التي تمثل همزة وصل بين الطالب وشيخه المدرس .

الفصل الثالث: خصصناه لفئة المدرسين والطلبة. وقد حاولنا انطلاقا من هذا الفصل كشف النقاب عن حياة المدرس والطالب داخل وخارج المؤسسات التعليمية، انطلاقا من الإطار الاجتماعي. وحاولنا أن ندرس كل فئة على حِدى لإعطائها حقها سواء من الناحية العلمية أو الاجتماعية، لنصل في ختام الفصل إلى العلاقة التي تجمع الطالب بمدرسه .

الباب الثاني: الموسوم بإصلاح التعليم التقليدي. قسمناه هو الآخر إلى ثلاثة فصول، بغرض إحداث توازن بينه وبين الباب الأول. وجاء مفصلا كالآتي:

الفصل الأول: جاء بعنوان التعليم التقليدي طور الإصلاح.

خصصناه لدراسة دوافع الإصلاح الداخلية والخارجية، ثم عرجنا إلى أهم رجال الإصلاح بمختلف وظائفهم ومكانتهم الاجتماعية ومدى تأثرهم بالأفكار الغربية. كما لم نغفل عن الجاليات الأجنبية التي كانت تعيش في تونس سواء أوربيين أو يهود، فقد تطرقنا في هذا الفصل إلى المؤسسات التعليمية الخاصة بهم، ونظامهم التعليمي. وكذا تعليم الفتيات المسلمات والأوربيات .

الفصل الثاني: المعنون بالإصلاحات الأحمدية والصادقية.

أردنا أن نجعل هذا الفصل تطبيقا للفصل السابق، أي ذكر أهم المشاريع والقوانين والترتيبات التي صدرت في شأن تطبيق الأفكار الإصلاحية. كما حاولنا القيام بقراءة تحليلية نقدية للوصول إلى مدى نجاح أو تعثر الإصلاحات.

أما **الفصل الثالث والأخير**، فقد تم تخصيصه لدراسة مصادر تمويل التعليم، من أوقاف وإحسانات وصدقات، وكذا الحصص المخصصة للنفقات من أجور للمدرسين والموظفين ومن منح للطلبة ونفقات أخرى كالترميم والبناء وشراء المعدات...

ختمنا دراستنا بخاتمة كما هو معتاد عليه، تشمل الإجابة على اشكاليات البحث وأهم الاستنتاجات التي أمكننا الخروج بها من دراستنا لهذا الموضوع. وفي الأخير ألحقنا دراستنا بملاحق توضيحية، تمثلت في مجملها وثائق أرشيفية استعنا بها أثناء البحث، بالإضافة إلى صور لبعض المدارس التي انتقلنا إليها شخصيا وقمنا بتصويرها، كالمدرسة السليمانية والباشية والصادقية...وكذا جداول وخريطة توضح موقع بعض المدارس التي تطرقنا إليها في دراستنا .

ولدراسة هذا الموضوع وفي محاولة للإلمام بجميع جوانبه والإجابة عن أهم إشكالياته، فقد حاولنا استغلال المادة المصدرية التي تميزت بوفرتها وغزارتها وتنوعها. تصدرتها وثائق الأرشيف الوطني التونسي، وفي مقدمتها "**السلسلة التاريخية "Série historique**" التي تهم تاريخ إيالة تونس في الفترة الحديثة بصفة عامة، وقد حاولنا الاستفادة منها وتوظيفها خاصة تلك المتعلقة بالمراسلات والتقارير التي كانت تصل الوزير "مصطفى خزندار" والوزير "خير الدين" من بعده. وأغلب تلك المراسلات موجودة في الصندوق 61 و 62 و 63، كما أفادنا الصندوق 64 في ملفاته 750و 752 و 753 بوثائق تخص المدرسة الصادقية، منها مراسلات واردة على الوزير الأكبر "خير الدين" متعلقة بإمكانية إرسال الأوائل من التلاميذ لمواصلة دراستهم بباريس. وجداول تحتوي على بيانات متعلقة بمدرسي وموظفي بالمدرسة الصادقية ونتائج الطلبة، وهي عبارة عن تقارير ترسل من طرف ناظر المدرسة كل ثلاثة أشهر إلى الوزير "خير الدين". وكذا الاتفاقيات المبرمة بين الوزير الأكبر ووزير الخارجية وبين بعض المدرسين الأجانب حول توليهم التعليم بالمدرسة. بالإضافة إلى الصندوق 183 الذي يحتوي على وثائق خاصة بالمدرسة الحربية ببباردو، وبالتحديد الملفان 1018و1019، فيهما مراسلات وأوامر علّية متعلقة بنظام التدريس والامتحانات والغيابات بالمدرسة ، واتفاقات مع ضباط أجانب حول التعليم بالمدرسة. ومراسلات خاصة بتوجيه تلميذين من المدرسة الحربية بباردو للدراسة بسان سير بفرنسا وأخرى تتعلق بإرسال إطارات من وزارة الحرب الفرنسية لإدارة المدرسة الحربية بباردو .

واعتمدنا كذلك على "**السلسلة C2**" التي تحوي مادة توثيقية غزيرة، شكلت رصيدا ثمينا حول الأوقاف، منها أوقاف جامع الزيتونة ومؤذنيه وقرائه، وأوقاف الجامع الأعظم بسوسة وجامع أريانة. ولمعرفة المصاريف التي كانت تنفق في مجال التعليم، قمنا بالعودة إلى الدفاتر الإدارية والجبائية، خاصة الدفاتر التي اهتمت بمصروف الدولة ومدخولها ودفاتر الإحسانات، نذكر على سبيل المثال دفتر رقم 2144، الذي يشتمل على الإحسانات المقدمة للبعض من سكان سائر أماكن البلاد، وبعض الزوايا والبلدان المجاورة. ودفتر رقم 2304، يشتمل على بيان محصول أوقاف

المدرسة الشماعية، وعلى بيان المصروف الخارج من ذلك في مصالح المدرسة (1186-1199هـ/ 1773- 1785م) .

وإلى جانب المصادر الأرشيفية المذكورة، فقد اعتمدنا كذلك على المادة المصدرية المكتوبة، خاصة المتعلقة بتاريخ العهد الحسيني الحديث بصفة عامة من تخليد لمآثر الحكام وتاريخهم السياسي، لكن هذا لم يمنع من وجود بعض الجزئيات بتفاصيلها حول موضوع التعليم. وبالرغم من اقتضابها إلا أنها كشفت لنا في الكثير من الأحيان عن بعض الأفكار الهامة والمحورية. نذكر منها:

- "ذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان"، لحسين خوجة:

خصصه صاحبه للباي "حسين بن علي" حيث أشاد فيه بمختلف انجازات هذا الباي، كما تضمن تراجم للعديد من شيوخ ومدرسي وعلماء الإيالة الذين عاصروا فترة الباي "حسين بن علي".

- "الحلل السندسية في الأخبار التونسية"، للوزير السراج:

كتب هو الآخر للإشادة بمنجزات الباي "حسين بن علي" لذلك فقد أفادنا كثيرا في التعرف على المؤسسات التعليمية والدينية التي تم تشييدها في عهد هذا الباي . وترجم لكثير من المدرسين الذين عرفهم، ومن بينهم بعض أساتذته. وبهذا يكون الوزير السراج قد أضاف معلومات جديدة لم يذكرها المؤرخ "حسين خوجة" .

- "مفاتح النصر في التعريف بعلماء العصر" لمؤلفه محمد المختار العياضي الباجي:

عاصر المؤرخ فترة حكم الباي "علي باشا"، يضم كتابه ترجمة لعلماء عصره، من بينهم أساتذته الذين تتلمذ عليهم، وكلما ترجم لأحد منهم إلا وأورد ما درسه عنه من مواد .

- "الْمَشْرَع الْمُلْكي في سلطنة أولاد علي التُرْكِي"، لمحمد الصغير بن يوسف:

إنفرد هذا المؤلف بكونه المصدر الوحيد الذي يتناول أحداث النصف الثاني من القرن 18م، خاصة تلك المتعلقة بالفتنة الحسينية الباشية. أما الأحداث السابقة لهذه الفترة فهي متوفرة في ذيل بشائر أهل الإيمان والحلل السندسية .

- "الكتاب الباشي"، لمؤلفه حمودة بن محمد بن عبد العزيز:

أُلِف هذا الكتاب على شرف "علي باي الثاني"، فأشاد فيه صاحب المؤلَف بمنجزات هذا الباي، خاصة منها المدارس المشيدة والمرممة. لذلك نجد "حمودة بن عبد العزيز" قد اتبع نفس المنهج الذي سلكه من قبله "حسين خوجة" في ذيله، في حين تناول هذا الأخير الفترة الممتدة ما بين (1117- 1148هـ/ 1705- 1735م)، غطى كتاب "حمودة بن عبد العزيز" الفترة

الممتدة تقريبا ما بين (1173- 1197هـ/ 1759- 1782م). ولهذا يمكن اعتبار أن عمل المؤلف الثاني هو تكملة لما قدمه المؤلف الأول.

- "اتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان"، لأحمد بن أبي الضياف:

عاش المؤرخ في القرن 13هـ/ 19م ، تناول كتابه الذي يشمل ثمانية أجزاء، وبالضبط الأجزاء الستة الأولى تاريخ تونس من الفتح الإسلامي إلى الفترة الحديثة مع التركيز على الفترة العثمانية، وخاصة منها فترات حكم البايات الحسينيين، ويعتبر الإتحاف بهذا الصدد أهمّ مصدر في تاريخ تونس الحديث. ويتضمن الكتاب معلومات غزيرة حول بايات الأسرة الحسينية، خاصة أولئك الذين عاصرهم في النصف الثاني من القرن 19م، وقد وردت فيه معلومات تتعلق بالتعليم والمدرسين ومحاولات الإصلاح .

- "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"، لمحمد بيرم الخامس:

عاصر هذا المؤلف فترة حكم المشير "محمد الصادق باي". تقلد مناصب هامة في وزارة "خير الدين"، منها رئيسا لجمعية الأوقاف، ومشرفا على جريدة "الرائد التونسي"، وعضوا في اللجان التي انبثق عنها إصلاح التعليم الزيتوني. وعضوا كذلك في اللجنة المكلفة لوضع برامج المدرسة الصادقية. ولهذا فقد مدنا "بيرم الخامس" في صفوته بمعلومات حول إصلاحات "خير الدين" في المجال التعليمي .

بالإضافة إلى كتب السيّر والتراجم التي خصّت التعريف بعلماء ومدرسي ورجال الدين بإيالة تونس. فالمعلومات الدقيقة الواردة في ثنايا التراجم كانت عونا لنا لإماطة اللثام والإجابة عن العديد من المسائل والإشكاليات الجوهرية في البحث، خاصة وأنها تحوي معلومات دقيقة حول حياة المترجم له (الاسم، النسب، تاريخ ومكان الميلاد والوفاة، أسماء شيوخه المدرسين، تلاميذه، إجازاته، المؤلفات التي قرأها، العلوم التي تخصص فيها...). نذكر منها: أبو عبد الله محمد بن عثمان السنوسي، "مسامرات الظريف بحسن التعريف"، وكتاب "عنوان الأريب عمّا نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب" لمحمد النيفر، وكذا "شجرة النور الزكية" لمحمد بن محمد مخلوف.

كما استعنا لسد بعض الثغرات، بتقارير ورحالات الأجانب، نذكر على سبيل المثال، رحلة الدكتور الانجليزي شو"shaw" الذي كان كاهنا بالوكالة الإنجليزية في الجزائر في الفترة الممتدة ما بين (1132- 1145هـ/ 1720-1732م). إذ استطاع "شو" أن يقدم عملا متميّزا بعنوان:

"Voyages de M. Shaw dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant"

وقد جاءت الرحلة في جزأين تضمنا أوصافا دقيقة وتفاصيل عن إيالة تونس، خاصة من الناحية الاجتماعية خلال النصف الأول من القرن 18م. كما استعنا بما كتبه الأطباء، مثل الدكتور "فرانك"Frank"، وهو طبيب فرنسي أقام في تونس لمدة طويلة ثم أصبح طبيب "حمودة باشا" الخاص، وهذا ما أهَلّه للإطلاع على كل صغيرة وكبيرة تجري في القصر. وهو على معلومات دقيقة لا يمكن الإغفال عنها.

ونظرا لطبيعة الموضوع الذي يصب ضمن تاريخ الذهنيات، فإنه كان لزاما علينا العودة إلى مصادر تناولت مسائل تربوية وتعليمية، والتي لا يمكن معرفة أصولها وجذورها إلا بالعودة إليها، نذكر في مقدمتها ما كتبه المؤرخ الشهير "ابن خلدون" في مقدمته.

كما أن شح وقلة المادة العلمية في بعض المواضيع التي تطرقنا إليها في دراستنا، دفعنا إلى ضرورة الاطلاع على كتابات سابقة لفترة بحثنا. وهي عبارة عن تآليف تربوية تعود إلى القرن 3هـ/ 9م، حيث قمنا بربطها بالفترة الزمنية التي نحن بصدد دراستها. نذكر منها، محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلمين، وابن جماعة بدر الدين في كتابه تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم.

أما بخصوص المادة المرجعية، فهي غزيرة جدا ومتنوعة باللغتين العربية والفرنسية، وللإلمام بها نحتاج إلى العديد من السنوات. لذلك حاولنا جمع البعض منها وذلك قدر الجهد، ولا ندعي أنها الأهم لكن يمكننا القول إنها خدمت موضوع بحثنا، وقد حرصنا أن تكون متنوعة من كتب ورسائل جامعية غير منشورة ومقالات منشورة بالمجلات العلمية.

- "تونس زمن حسين بن علي وعلي باشا" لمؤلفه أحمد السعداوي:

وهو كتاب قيّم نُشر فيه العشرات من رسوم الأوقاف التي تعود إلى عهد البايين. وقد كانت هذه الوقفيات قاعدة بنينا عليها بحثنا من خلال المعلومات الغزيرة التي تحويها في الجانب الاجتماعي بما فيها التعليم. لأن "حسين بن علي" و"علي باشا" من أكثر البايات الحسينيين تشييدا للمؤسسات التعليمية، وبالتالي فقد خصصوا أوقافا معتبرة كثلت قاعدة اقتصادية للمؤسسات المشيدة.

- "أليس الصبح بقريب"، محمد الطاهر بن عاشور:

استفدنا منه في الحديث عن الأطوار التعليمية، وفي التعرف على المناهج والبرامج التعليمية .

– "من تعليم الصبيان إلى التعليم الابتدائي في مدينة تونس في العهد العثماني"، لحياة الماجري: كتاب قيّم يهتم بالمرحلة التعليمية الأولى التي نطلق عليها اليوم التعليم الابتدائي، وقد تناولت فيه الباحثة أماكن تعليم الصبيان ونظام تأديبهم، كما تطرقت إلى دراسة فئة المؤدبين باعتبارهم مدرسي المرحلة الأولى من التعليم.

– "مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني"، محمد الباجي بن مامي:

ذلل لنا هذا الكتاب الكثير من الصعوبات حيث قام بمسح كلّي للمدارس المتواجدة بمدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، وهذا ما أكسب الكتاب أهمية كبيرة لدى الباحث.

أما بالفرنسية نذكر:

Louis Machuel, "L'enseignement public dans la régence de Tunis" : اشتغل "ماشويل" كمدير عام للتعليم التونسي من (1300- 1326هـ/ 1883- 1908م) يتناول كتابه نظرة عامة عن التعليم في تونس قبل وبعد الحماية. وقد أفادنا الكتاب كثيرا في معرفة المدارس التي أسستها كل من الجالية الأوربية واليهودية.

كما أفادتنا كثيرا الدراسات التي قدمها المؤرخ الفرنسي "فرنسوا أرنولي" François Arnoulet" حول المؤسسات التعليمية في تونس قبل وبعد الحماية الفرنسية.

François Arnoulet, « les problèmes de l'enseignement au début du protectorat Français en Tunisie 1881-1900 ».

François Arnoulet, « la pénétration intellectuelle en Tunisie avant le protectorat » .

وفي الأخير لا يسعنا إلا أن نحمد الله تعالى الذي أتم علينا نِعمه ووالى علينا مِننه، وأعاننا فأكملنا هذه الدراسة المتواضعة. ونتمنى أن نكون قد وفقنا في الإلمام والإحاطة بالموضوع المدروس من معظم جوانبه، وأعطيناه ما يستحقه من الاهتمام والتوضيح. من غير ادعاء بالكمال وما الكمال إلا لله وحده. فإن أصبنا فمن الله وإن أخطأنا فمن نفسنا والشيطان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مدخـــل:

الوضع الثقافي والفكري في تونس قبل الفترة الحسينية

1. الوضع الثقافي والفكري في تونس مع مجيء العثمانيين
2. دور الأسرة المرادية في إعادة بعث الحياة العلمية
3. النكسة العلمية ومحنة العلماء في عهد آخر بايات الأسرة المرادية

قبل البدء في موضوع دراستنا ارتأينا أن نعرج ونعود قليلا بالأحداث التاريخية إلى الوراء، من خلال مدخل يكون عبارة عن تمهيد لموضوع بحثنا. وقد حاولنا أن نضطلع من خلاله على الأوضاع الثقافية والعلمية التي كانت سائدة قبل تولي الأسرة الحسينية الحكم سنة 1117/ 1705م .

ونعتقد أن هذه الدراسة التمهيدية لا بد منها ولا يمكننا المرور عليها مرور الكرام إيمانا منا أنها ستساعدنا على فهم السياسة التعليمية التي انتهجها بايات الأسرة الحسينية من جهة، وإجراء مقارنات في الكثير من مواضع دراستنا من جهة أخرى. لذلك انتاب تفكيرنا العديد من التساؤلات أهمها، كيف كانت الأوضاع الثقافية والعلمية بإيالة تونس في القرن 11هـ/ 17م ؟ ما مدى صحة ما يقال عن العثمانيين أنهم اهتموا بالجانب العسكري وأهملوا الجانب العلمي والفكري؟ هذه الأسئلة وغيرها حاولنا الإجابة عنها في هذا المدخل الذي نعتبره تمهيدا، لذلك فقد وردت المعلومات بصفة عامة مختصرة ومقتضبة، محاولين الإحالة في الهامش إلى أهم المصادر والمراجع التي يجب أن يعود إليها القارئ للاستزادة والتفصيل.

1. الوضع الثقافي والفكري في تونس مع مجيء العثمانيين:

يكاد يحصل إجماع حول حقيقة التدهور الفكري والثقافي أواخر العهد الحفصي، ويرتبط ذلك التدهور بحالة التفكك الذي ميّز العهد الحفصي في آخر أيامه من جهة، وبنتائج الاحتلال الإسباني سنة 980هـ/1573م من جهة أخرى[1].

فقد عاث المحتل الإسباني في المؤسسات التعليمية فسادا، فهذا "ابن ابي الدينار" يصف لنا كيف عبث الجنود الإسبان بكتب جامع الزيتونة[2]، قائلا:"... ونُهبت خزائن الكتب التي به

---

[1]- دلندة الأرقش، "جدلية التجديد والتواصل في الحياة الفكرية في الإيالة التونسية في العهد العثماني"، م.ت.مغ، ع 57-58، جويلية 1990م، ص 84 .

[2]- جامع الزيتونة هو ثاني جوامع تونس بعد جامع عقبة بن نافع بالقيروان، بُني كغيره من المساجد لإعلاء كلمة الله. ويعتبر المؤسسة الثقافية الأولى في البلاد، حيث كان يمثل الجامع والجامعة والمجمع، كما هو حال الأزهر بمصر والقرويين بالمغرب الأقصى. واستطاع أن يحافظ على مكانته المميزة أمام منافسة المدارس والزوايا التي أنشأها الحكام. وما تجدر الإشارة إليه أن الجامع حظي بالدراسة من طرف الكثير من الباحثين، وتجنبا للتكرار والإطناب سنحيل إلى بعض الدراسات المتخصصة. أنظر:

- محمد بن عثمان الحشايشي، تاريخ جامع الزيتونة، تقديم وتحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى، دار نهى للطباعة والنشر والتوزيع، صفاقس، سبتمبر 2006م.

- مختار العياشي، الزيتونة والزيتونيون في تاريخ تونس المعاصر1883- 1958م،مركز النشر الجامعي وجامعة الزيتونة،تونس،2003م.

- الطاهر المعموري، جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1980م، ص ص45- 78 .

- محمد العزيز بن عاشور، جامع الزيتونة المعلم ورجاله، دار سراس للنشر، تونس، 1991م.

- ابن الخوجة، مرجع سابق، ص ص41- 115 .

ودوست بسنابك الخيل ...حتى قيل إن المار من شرقي الجامع حيث النواوريين الآن إنما يمر على الكتب المطروحة هناك"[1]. فما فعله الإسبان، كان نكبة عظيمة على الكتب والمكتبات، فقد تسبب هذا الفعل الشنيع في ضياع الكثير من مؤلفات الأدباء والعلماء، فضاع بذلك جانب مزهر من الحياة الأدبية والفكرية[2].

وفي ظل تلك الظروف شهدت تونس الحاضرة نزوح وهجرة نزر كبير من علمائها نحو المدن الداخلية، أو خارج البلاد مشرقا ومغربا[3]، حتى وصفت البلاد في تلك الفترة بأنها "خاوية من العلم"[4]، وهي إشارة إلى نقص عدد العلماء. فانزلقت البلاد في دائرة التحجر والجمود الفكري، بعد قرون من الإشعاع الثقافي الفكري الذي عاشته في الفترة الحفصية التي خلفت تراثا لا يستهان به[5].

إذن ورثت السلطة العثمانية أوضاعا ثقافية وتعليمية متدهورة كان عليها أن تعيد لها التوازن، وذلك بإعادة تنظيمها باعتبارها السلطة الجديدة[6].فحاول الأتراك العثمانيون بعد مغادرة الجيوش الإسبانية البلاد واستتباب الأمن لهم، من إعادة النشاط إلى الحياة العلمية والفكرية، وكان ذلك عن طريق جلب علماء من الأستانة، أمثال "أحمد أفندي" المعروف باسم "منلا أحمد"، الذي كان عالما في الفقه والتفسير والمنطق والعلوم العربية وآدابها[7] و"علي أفندي" أصيل الجزائر، و"رمضان أفندي"وهو أول من أفتى بالمذهب الحنفي، وأول خطيب بجامع يوسف داي وأول مدرس بالمدرسة اليوسفية[8]، و"أحمد أفندي"[9]وغيرهم.

والجدير بالذكر أن قدوم ثلة من العلماء والفقهاء العثمانيين لا ينفي وجود علماء، بل وحتى أسر علمية تونسية ذاع صيتها خلال القرن 11هـ/ 17م،بحيث كان لهم أيضا الدور الكبير في إعادة إحياء الحياة الفكرية والثقافية.

---

[1]- ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، المطبعة التونسية، تونس، 1869م، ص 166 .

[2]- أحمد الطويلي، مراكز الثقافة والتعليم بمدينة تونس في العهد الحفصي: الجوامع والمدارس والمكتبات، تونس، 2000م ، ص 53 .

[3]- الأرقش، مرجع سابق، ص 85 . أنظر أيضا:

Azzedine Guellouz et Abdelkader Masmoudi et autres ,Histoire générale de la Tunisie-Les temps modernes -, Sud Ed, Tunis, 2010, 3, p. 150.

[4]- حسين خوجة، ذيل بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق الطاهر المعموري، الدر العربية للكتاب، تونس، 1975م، ص 167 .

[5]- محمد العزيز بن عاشور، جامع الزيتونة المعلم ورجاله، دار سراس للنشر، تونس، 1991م، ص 86 .

[6]- الأرقش، مرجع سابق، ص 83 .

[7]- خوجة، مصدر سابق، ص 167 .

[8]- نفسه، ص 169 .

[9]- أنظر ترجمة هؤلاء بالعودة إلى: نفسه، ص ص 167، 169 .

لكن هذا لا يعني أن الحياة الفكرية والعلمية كانت في المستوى المطلوب، فحسب المؤرخ "عبد السلام" فإن رجال الدين في القرنين 10-11هـ/16-17م تعذر عليهم بلوغ ما يتطلبه الاجتهاد، حيث اضطر أصحاب الخطط الدينية إلى الاقتصار على البحث في كتب سابقيهم وشروحهم وحواشيهم عن الأجوبة الملائمة للأسئلة التي تُلقى عليهم. أما التعليم فقد اقتصر على قراءة كتب السلف والتعليق عليها بما لا يختلف كثيرا عن نصها. كما كان صحيح البخاري يُقرأ للتبرك، ولا يصحبه شرح أو تحليل وبالتالي لا تتطلب قراءته مجهودا فكريا[1].

ومهما يكن من أمر، فإن الثقافة التونسية لم تكن ثقافة محلية بحتة، بل تأثرت وتلقحت بثقافات أخرى منها، الثقافة التركية التي مثلها العثمانيون، والثقافة الأندلسية التي استجلبها المهاجرون الأندلسيون بعد قرار النفي الإجباري من الجزيرة. والثقافة المشرقية التي تسربت هي الأخرى إلى تونس عن طريق أسفارهم إلى المشرق من أجل الحج أو طلب العلم، إذ أن أغلب العلماء الكبار لم يكتفوا بما تلقوه عن مشايخهم بتونس، بل سافروا للأخذ والاستزادة وطلب الإجازة من أشهر العلماء بالمشرق، خاصة مصر. بالإضافة أيضا إلى التيار المغربي التصوفي، فأغلب المتصوفة الذين استقروا بتونس أصلهم من المغرب الأقصى[2]. ومن هذا المنطلق يمكننا القول إن الثقافة التونسية مثلتها ثلاثة تيارات رئيسية هي:

- التيار المحلي:

مَثل هذا التيار علماء إيالة تونس، خاصة أولئك الذين ينتسبون إلى أسر عريقة معروفة بعلمها ومنها من عرفت بنسبها الشريف، وأخرى جمعت بين هذا وذاك. لذلك فقد كان جلّ العلماء إن لم نقل كلهم، يتوارثون لأكثر من جيل واحد وفي صلب نفس العائلة الخطط العلمية والشرعية والعلمية للآباء والأجداد ليتم الجمع بين العلم والثراء وتوارثهما بصفة متوازية. فيكفي أن يشتهر العالم ويُكسب لنفسه ولعائلته مكانة لدى السلطة الحاكمة وفي الأوساط الشعبية، وتستمر بذلك الشهرة مدّة على حساب المكانة العلمية[3].

---

[1]- أحمد عبد السلام، المؤرخون التونسيون في القرون 19/18/17م ، نقلها من الفرنسية إلى العربية أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي، بيت الحكمة، تونس، 1993م، صص23، 24 .

[2]- خوجة، مصدر سابق، مقدمة المحقق، ص ص39- 42 .

وللتوسع أكثر حول التأثير المغربي والمشرقي في الثقافة التونسية، أنظر: محمد بن محمد الأندلسي السراج، الحلل السندسية بالأخبار التونسية، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، مج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984م، مقدمة المحقق، ص ص56- 58 .

[3]- السراج، مصدر سابق، مقدمة المحقق، ص 39 .

وعموما، فالعلماء كانوا يسعون إلى تأسيس سلالات تحتكر بصفة وراثية أعلى المناصب الشرعية[1]، يطلق عليها اسم "بيوت العلم" أو "البيوتات العلمية"، فكل البايات تقريبا سواء المراديين والحسينيين من بعدهم احترموا الوضع القائم والمتميز بهيمنة العائلات العلمية الكبيرة وهو ما يعني تبنيهم خلال هذه الفترة للقيم والعُرف الجاري داخل سلك العلماء، ومردّ ذلك إلى العلاقة الفردية التي أصبحت تربط العائلات العلمية الوجيهة بالأسرة الحاكمة[2]. ومن أشهر بيوتات العلم في القرن 11هـ/ 17م، نذكر:

– عائلة الرصاع[3] :

لقد أجمع المؤرخون على مكانة هذه العائلة في العلم، قال عنها "ابن أبي الضياف": "... ولبيت الرصاع في هذه الحاضرة مجد أصيل، وفخر أثيل"[4]. أما "العياضي" فقد قال عنها إنها: "دار علم ورئاسة وبيت فضل وسياسة"[5].

تنتسب هذه العائلة إلى "أبي عبد الله محمد الرصّاع" صاحب الفِهرست. توارث أفراد هذه العائلة إمامة جامع الزيتونة وخطابته سنوات طويلة إلى غاية عهد "أبي يحي الرصاع"[6] (ت 1034هـ/ 1624م) حيث أوصى قبل موته بالإمامة إلى الشيخ تاج العارفين البكري (ت 1110هـ/ 1698م)[7]. وبذلك انتقلت إمامة جامع الزيتونة من عائلة "الرصاع" إلى عائلة "البكري". لكن العائلة ضعفت في آخر أيامها، ولم تبقى لها المكانة العلمية التي اشتهرت بها في العهد الحفصي[8] .

---

[1]–M. H.Cherif, Pouvoir et société dans la Tunisie de H'usayn Bin'Ali (1705- 1740), T1, P. U. T, 1984, p.298 .

[2]– محمد علي الحناشي، الحياة الدينية والعلمية بمدينة الكاف خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف جمال بن طاهر، جامعة تونس، 2004– 2005م ، ص 88 .

[3]– أصل العائلة من تلمسان، أطلق عليها تسمية الرصاع نسبة إلى الجد الرابع من الوالد، الذي كان نجارا يرصع المنابر، ويزين السقوف. وهو الذي صنع منبر جامع الشيخ أبي مدين الغوث. أنظر: أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج7، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999م،ص ص 64، 65.

[4]– نفسه، ج8، ص 168 .

[5]– محمد المختار الباجي، مفاتح النصر في التعريف بعلماء العصر، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، ن.ع. ك. ز، ع 4، 1976م، ص 152.

[6]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 66 .

[7]– لما مرض الشيخ الرصاع وهو في فراش الموت استُشير فيمن يصلح للإمامة، وقيل له: "هل يصلح ابنك للإمامة؟" قال: لا . فقيل له "هل يصلح الشيخ براو". فقال: "يصلح إلا أن أهل المدينة تأنف منه لكونه ليس منهم"، فقيل له: "فالشيخ الغماد" فقال: "جوهرة عليها الران"، فقيل له: "وتاج العارفين" فقال: "جوهرة ما مستها يدان". أنظر: خوجة، مصدر سابق، ص 185 .

[8]– السراج، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص 40 .

– عائلة آل بكري:

يعود نسب هذه العائلة إلى ثالث الخلفاء الراشدين "عثمان بن عفّان". وقد ورثت إمامة جامع الزيتونة عن "بني الرصاع"، كما ورثت المجد والمال والعلم عن عائلة "القشّاش"، إذ أن "تـاج العارفين البكري" تزوج ابنة "أبي الغيث القشاش"، واستطاع أن يُورّث لذريته إمامة جامع الزيتونة من بعده، وأكسبها اسما ذاع صيته في منطقة شمال إفريقيا[1] .

– عائلة الشريف:

هي عائلة جمعت بين شرف الانتساب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبين شرف العلم. تولوا إمامة دار الباشا، من أشهرهم "أحمد الشريف"[2] (ت 1090- 1679م) وحفيده "أحمد بن محمّد بن أحمد" [3] .

بالإضافة إلى عائلات أخرى، كعائلة "العامري" التي اختصت بنيابة إمامة جامع الزيتونة في عهد البكريين، وعائلة "فُتاتة" التي أخرجت من أبنائها علماء مدرسين،أشهرهم"محمد فتاتة"[4] (ت 1115هـ/ 1704م) الذي تضلع في الفقه والنحو والأدب وعلومها، يقول عنه صاحب الذيل إنه "مستجمع العلوم والمعارف...ذا باع في الكتابة أنواعها"[5]، من تآليفه "شرح الدرة البيضاء للشيخ الأخضري التونسي في الحساب والفرائض. وعائلة "الغماد" التي اشتهرت هي الأخرى بالعلم والتدريس، وعائلة "السويسي"و"المسراتي"[6]، هذه الأخيرة التي قال عنها المؤرخ "حسين خوجة" أنها: "بيت قديم"[7]. وعائلة "آل عظوم" بالقيروان التي قال عنها "ابن أبي الضياف" بأنها "واضحة وضوح الصبح، غنية عن الشرح"[8]، وهذا دليل على مكانة وعراقة العائلة المذكورة في المجتمع التونسي .

---

[1]– السراج، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق ، ص49 .

[2]– أنظر ترجمتهما بالعودة إلى: نفسه، مج2، ص ص 486- 494 .

[3]– أنظر ترجمتهما بالعودة إلى: خوجة، مصدر سابق، ص ص 187، 262، 263 .

[4]- أنظر ترجمته بالعودة إلى: السراج، مصدر سابق، مج2، ص ص486- 494 .

[5]– خوجة، مصدر سابق، ص 198. أنظر أيضا: أحمد الطويلي، تاريخ مدينة تونس الثقافي والحضاري من الفتح إلى أواخر القرن التاسع عشر،ط1، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، 2002م، ص 101 .

[6]– السراج، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص ص 49، 50 .

[7]– خوجة، مصدر سابق، ص 186 .

[8]– ابن ابي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 19 .

وما تجدر الإشارة إليه أن الشهرة العلمية لم تقتصر فقط على العائلات المعروفة، بل برز في الساحة العلمية علماءلم يرثوا مناصبهم، أمثال "أبو الغيث القشاش"[1](ت1031هـ/ 1622م) الذي تجاوزت شهرته حدود القطر التونسي[2]. و"محمد قويسم"(ت 1114هـ/ 1702م) الذي اشتهر بتأليفه "سمط الآل في التعريف بما في الشفا من الرجال"[3]، ويذكر "مخلوف" أنه "كتاب غريب في بابه يحتوي على عشرة أجزاء ضمن فيه الكثير من شوارد المسائل والتحريرات واللطائف والتراجم والأخبار ما يسلي الغريب وما يفيد العالم اللبيب"[4]. وهذا دليل على الاطلاع الواسع لصاحب الكتاب في علوم الحديث واللغة والسير والتراجم[5]. و"ابن أبي الدينار القيرواني" (ت 1110/ 1698م)، الذي تولى مهنة التدريس، ثم القضاء بسوسة وبعدها بالقيروان في عهد "مراد باي" ابن "حمودة باشا". من تآليفه: "هداية المتعلم"، و"تخلّص ذوي المودة والصفا بختم أواخر الشفا"، وكتابه المعروف "المؤنس في أخبار افريقية وتونس"، الذي على الغالب انتهى من تأليفه سنة 1110/ 1698م لمخدومه "علي باي" ابن "مراد الثاني"[6].

ومهما يكن من أمر، فإن علماء تونس بصفة عامة كانوا يتطلعون إلى إبراز مكانة البلاد الثقافية تجاه العناصر الوافدة من أتراك وأندلسيين وحتى مغاربة، كما أنهم عملوا جاهدين للمحافظة على إقرار المذهب المالكي في أوساط الطبقات الشعبية التي التفّت حولهم، وربطوا معها علاقات وطيدة جعلتهم يتمتعون بشعبية قوية استعملوها أداة فرضوا بها على الحكام احترام آرائهم، والعمل على إرضائهم وتقريبهم[7] .

- **التيار العثماني:**

عمل العنصر التركي العثماني منذ دخوله تونس على نشر ثقافته ومذهبه الحنفي. ولتحقيق ذلك تم بناء مؤسسات ثقافية تؤدي الهدف المنشود. فبنيت المدارس والمساجد التي تقدم دروسا متعددة في علوم القرآن والحديث والفقه الحنفي. بالإضافة إلى الاعتناء بالعلماء الحنفية من خلال

---

[1]- عن ترجمته وكتابه "نور الأرماش في مناقب سيدي ابي الغيث القشاش"، أنظر: عبد السلام، مرجع سابق، ص ص154- 156 .

[2]- نفسه، ص 24 .

[3]- حول العالم "محمد قويسم" وكتابه "سمط الآل"، أنظر: نفسه، ص ص177- 189 .

[4]- محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، المطبعة السلفية، القاهرة، 1930م، ص 320 .

[5]- عبد السلام، مرجع سابق، ص 54 .

[6]- محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م، صص315- 318. ولمعلومات أكثر حول المؤرخ وكتابه "المؤنس في أخبار إفريقية وتونس"، أنظر: عبد السلام، مرجع سابق، ص ص 157- 174 .

[7]- السراج، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص 51 .

تشجيعهم والرفع من شأنهم وإشراكهم في سياسة الدولة. فبعد أن كانت وظائف القضاء والإفتاء مالكية،أضيفت إلى جانبها وظيفة قاضي الحنفية، ثم مع مرور الوقت أحدثت وظيفة مفتي الحنفية[1]، التي تولاها لأول مرة "رمضان أفندي"[2]. وبالتالي فقد أصبح للمذهب الحنفي منزلة كبيرة في إقامة الشعائر الدينية وفي التعليم، وهذا ما أدى إلى ظهور تنافس بين علماء المذهبين المالكي والحنفي[3].

– التيار الأندلسي:

وفدت على تونس هجرات متعددة من الأندلسيين أهمها الهجرة الأولى في القرن 7هـ/ 13م عند سقوط قرطبة وإشبيلية، وفي الهجرة الثانية في القرن 9هـ/ 15م عند سقوط غرناطة. بالإضافة إلى الهجرة الثالثة في القرن 11هـ/ 17م بعد صدور قرار الطرد[4]. فقد لجأ في عهد "عثمان داي"[5](1007-1019هـ/ 1598-1610م) عدد كبير من الأندلسيين إلى تونس، ولم يكونوا فقط من أصحاب الصناعات أو الفلاحة، بل كان منهم الطلبة والعلماء الذين أصبح لهم الأثر الكبير في الحياة الثقافية، أمثال: "شعبان الأندلسي"، الذي يعد من أعيان الأندلسيين، وهو أول مدرس بالمدرسة الأندلسية بتونس. والشيخ "مصطفى قردناش" الذي عُيّن شيخا للأندلسيين[6]، كان من بين أعيان علماء تونس الذين حضروا عقد الصلح بين "يوسف داي" (1030-1038هـ/1621-1628م) والجزائريين سنة 1038هـ/1628م[7]، بعد واقعة "سطارة" قرب مدينة الكاف سنة 1037هـ/ 1627م[8]. و"أحمد الشريف الأندلسي" وهو أول

---

[1]– السراج، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص ص 51 – 53 .

[2]– خوجة، مصدر سابق، ص 169. ما تجدر الإشارة إليه أن هناك العديد من العلماء العثمانيين الذين وفدوا على تونس، وقد قمنا بذكر البعض منهم. أنظر في نفس الفصل، ص 21 .

[3]– عبد السلام، مرجع سابق، ص 61 .

[4]– عن هجرة الأندلسيين الأخيرة ومدى تأثيرها على المجتمع التونسي في مختلف مجالات الحياة. أنظر: ابن ابي الدينار، مصدر سابق، ص193. وأبي عبد الله محمد الباجي المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء افريقية، ط2، مطبعة بيكار وشركائه، تونس، 1916م، ص 91 .وأيضا: السراج، مصدر سابق، مج2، ص 344 .

[5]– جاء رفقة سنان باشا، عرفت تونس في عهده موجة كبيرة من هجرات الأندلسيين إلى شمال إفريقيا، وصل عددهم في عهد "عثمان داي" ثلاثين ألف مهاجر. وقد استطاع أن يستفيد من هذا العنصر في مختلف مجالات الحياة خاصة في الجانب الاقتصادي. ارتقى إلى مرتبة داي سنة 1007هـ/ 1598م وتوفي سنة 1019هـ/ 1610م، دفن بسيدي أحمد بن عروس وترك خلفا صالحا منهم حفيدته"عزيزة عثمانة".

أنظر: حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، 1953م، ص ص 134 – 136 .

[6]– ظهرت هذه الوظيفة بعد حلول الأندلسيين بتونس، حيث سُمح لهم بالانتظام في طائفة خاصة يرأسها شيخ منهم، الذي كان يطلق عليه "القائد". أنظر: عبد السلام، مرجع سابق، ص 32 .

[7]– السراج، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص 55 .

[8]– عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 136 .

مدرس حنفي بالمدرسة الشماعية[1] وألف عدة كتب منها، "شرح المصلّي" في أربعة مجلدات[2]. كما نذكر أيضا "محمد الحجيج الأندلسي"(ت 1108هـ/ 1697م) الذي قال عنه المؤرخ "حسين خوجة" أنه كان "ماهر في علم الفقه والكلام، وعلم الحديث والتفسير ونوازل الأحكام، وعلم اللغة العربية والأصول والبلاغة وتوابعها، وعلم التاريخ وأخبار الناس وعلم الحساب والفرائض وسر الحروف والجدول وغيرها من العلوم الرياضية"[3].وغيرهم من العلماء الأندلسيين[4].

كما ساهمت هذه الشريحة في إحياء الحياة العلمية، من خلال المراكز التعليمية التي قاموا بتشييدها، كالمدرسة الأندلسية التي تم بناؤها رجب 1034هـ/أفريل 1625م بالقرب من مقام زاوية "سيدي محرز بن خلف"[5]، ويذكر "ابن الخوجة" أنها لُقبت أيضا باسم مدرسة الفتح تفاؤلا بالفرج بعد الشدة[6]،والتي أصبحت مركزا علميا كبيرا[7]. وأول مدرس بها هو الشيخ "شعبان الأندلسي"[8]. كما قاموا ببناء جامع سبحان الله خارج باب السويقة[9] .

- المراكز الثقافية:

كانت تمثل الحاضرة تونس مركز الحركة العلمية، وذلك راجع إلى وجود عدد كبير من المؤسسات التعليمية والدينية وعلى رأسها جامع الزيتونة. إلا أن المدد العلمي والثقافي الحقيقي كان يأتيها من دواخل البلاد. ومن أهم المدن التي امتازت بهذا المدد، القيروان –عاصمة العلم منذ الفتح الإسلامي–فقد بنى "عقبة بن نافع" المسجد الجامع في قلب مدينة القيروان بين 50 –

---

[1]– خوجة، مصدر سابق، ص 171 .

[2]– الطويلي، تاريخ مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 100 .

[3]– خوجة، مصدر سابق، ص 200 .

[4]– يمكن الاطلاع على المصادر التي ترجمت للعشرات منهم، أنظر: خوجة، مصدر سابق. والسراج، مصدر سابق، مج2 و3. وكذلك: مخلوف، مصدر سابق .

[5]– السراج، مصدر سابق، مج2، ص 344 .

زاوية الشيخ محرز بن خلف من أشهر الزوايا بتونس، يوجد بها قبر الولي الصالح والزعيم الديني " محرز بن خلف بن رزين الصديقي" المتوفى سنة 413هـ/ 1022م . ومناقب الشيخ "محرز" جمعت في تأليف "أبي طاهر الصقلي" الذي كان حيا سنة 430هـ/ 1038م . أنظر: أبو عبد الله محمد بن عثمان السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف، تحقيق وتعليق محمد الشاذلي النيفر، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994م، ص 189، هامش 3. وللاطلاع على ترجمة الشيخ وزاويته. أنظر: محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد، تحقيق وتقديم الجيلاني بن الحاج يحي وحمادي الساحلي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م، ص ص 197–210 .

[6]– نفسه، ص 297 .

[7]– الطويلي، تاريخ مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 97 .

[8]– ابن الخوجة، مرجع سابق، ص 297 .

[9]– نفسه .

55هـ/670-675م، وظل جامع عقبة المسجد الجامع الوحيد بتونس إلى أن حُوّل مسجد الزيتونة إلى مسجد جامع سنة 738هـ/1337م[1].

وما يؤكد مكانة وعظمة الجامع في تلك الفترة ، هو المؤرخ "مارمول" Marmoul" الذي عاش في القرن 10هـ/ 16م، إذ يخبرنا أن طلبة العلم كانوا يتوافدون على الجامع من كل مناطق إفريقيا، ويشبّههم بالطلبة الفرنسيين الذين يتنقلون إلى باريس أو طلاب الإسبان الذين يقصدون جامعة سلامانكا[2]. أما "بيسونال"Peyssonnel " الذي زار إيالة تونس وأقام فيها لمدة سنتين (1290- 1292هـ/1873- 1875م) فقد ذكر في رسالته التي بعثها إلى صديقه"ليمونيي"Lemonnier" أن جامع عقبة بن نافع أو الجامع الكبير هو من أكثر المعالم جمالا وقداسة في الإيالة[3]. وما زال جامع عقبة من أكبر مساجد القيروان إلى يومنا هذا [4].

وفي سوسة كان الطلبة يسكنون قصر الرباط العتيق حيث كانوا يحضرون دروسا مختلفة، بالإضافة إلى دروس أخرى كانت تلقى بالجامع الكبير، من طرف شيوخ مدرسين ذوو شهرة كبيرة أمثال: "يحي بن أحمد بدر الدين" (ت 1139- 1726م) و"محمد الريغي الحفيد"[5] الذي كان عالما بالفقه والنحو والتوحيد والحديث[6]. كما كانت صفاقس تمثل المركز التجاري والعلمي، بحكم علاقاتها بالدول المجاورة، كطرابلس ومصر والشام. ونشأ بها في أواخر القرن 11هـ/ 17م جيل من الفقهاء والعلماء[7]. وأصبحت مدينة جربة هي الأخرى مركزا لنشر العلم وتعليم المذهب المالكي بفضل المجهودات التي قام بها "إبراهيم الجمني"[8] .

ومما تجدر الإشارة إليه، فقد كان لكل مدينة من المدن الكبرى جامعها الأعظم الخاص بها الذي يمثل معهدا للتعليم، مثل الجامع الأعظم بصفاقس وجربة وزغوان وباجة[9]. أما عن علمائها

---

[1]- عثمان نجوى، مساجد القيروان، دار عكرمة، دمشق، 2000م، ص 65 .

[2]- كربخال، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمدحجّي وآخرون، ج3، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر،الرباط، 1988-1989م،ص98.

[3]-Peyssonnel et Desfontaines, Voyages dans les régences de Tunis et D'Alger, Pub par M. Dureau de la Malle, T2, Librairie de Gid, Paris, 1838, p. 60 .

[4]- وخلال هذه الفترة الزمنية الطويلة التي مرت عليه، وُسع وعدلت مكوناته أو أضيفت إليه عناصر معمارية جديدة. ولم يطرأ على الجامع بعد ذلك أي تغيير جوهري، إذ اقتصر الملوك والحكام على الإصلاحات الخفيفة التي لم تغيّر من مظهره الأول. أنظر: عثمان، مرجع سابق، ص 65 . وسليمان مصطفى زبيس، بين الآثار الإسلامية في تونس، منشورات دار الثقافة، تونس، 1963م، ص 46 .

[5]- أنظر ترجمتهما بالعودة إلى: خوجة، مصدر سابق، ص ص136- 138 .

[6]- نفسه، ص 138 .

[7]- عبد السلام، مرجع سابق، ص 48. قام المؤرخ "محمود مقديش" بالترجمة للعديد من علماء صفاقس. أنظر: مصدر سابق، مج2 .

[8]- أنظر ترجمته بالعودة إلى: الباب الأول، الفصل الثالث، ص 162 .

[9]- خوجة، مصدر سابق، ص 43.

فقد ترجم المؤرخ"حسين خوجة"لكل مدينة علمائها على حِدى[1].

كما يوجد بعاصمة الإيالة جوامع أخرى، منها جامع "يوسف داي"(1021-1047هـ/ 1612-1637م)[2] الذي يعتبر أول الجوامع الحنفية العثمانية بتونس، وهو الجامع المشهور باسمه والذي كان يعرف باسم "جامع البشامقية"، بُني سنة 1020هـ/ 1612م[3] من طرف المهندس "ابن غانم" الأندلسي الأصل[4]. وأول خطيب وإمام به هو "رمضان أفندي"[5]. كما نجد جامع "حمودة باشا المرادي" (1041-1073هـ/ 1631-1662م) الذي يوجد وسط الأسواق المحيطة بالجامع الأعظم. ومن أهم أسباب اختيار موقعه هذا، هو قربه من جامع الزيتونة، إذ لا يفصل بينهما إلا بضعة أمتار، وهو ناتج عن إرادة الحكام الجدد المتبّعين للمذهب الحنفي نشر مذهبهم بين العامة. وكانوا يعتبرون أن الحل الوحيد لنشر الحنفية، هو إنشاء جوامع ومدارس تحبّس على مذهبهم. وبما أن الزيتونة مثلت على مر التاريخ معقل العلماء والشيوخ المالكية، فإن إنشاء جامع قريب منهم يحبّس على المذهب الحنفي كان يشكل في نظرهم أهم الطرق لدعم وجودهم المذهبي، وبالتالي السياسي[6]. وأول صلاة أقيمت به هي صلاة الجمعة في شهر رمضان سنة 1066هـ/1655م[7].وفي سنة 1104هـ/1692م قام الباي "محمد باي المرادي"(1100-1107هـ/ 1688-1695م) ببناء الجامع المعروف "بجامع سيدي محرز" لوقوعه تجاه الزاوية المحرزية، لكنه توفي قبل إتمامه، فأكمله أخوه "رمضان باي"(1107-1110هـ/1695-1698م) سنة 1108هـ/1696م[8]. وأول مدرس أقيم لرواية الحديث بالجامع، هو"أمحمد قويسم" صاحب كتاب "سمط اللآل"[9].

2. دور الأسرة المرادية في إعادة بعث الحياة العلمية:

عاد النشاط العلمي في النصف الثاني من القرن 17م أقوى مما كان عليه في النصف الأول

---

[1]- خوجة، مصدر سابق، ص 43 .

[2]- ابن ابي الدينار، مصدر سابق، ص 194 .

[3]- السراج، مصدر سابق، مج2، ص 353. أنظر أيضا: ابن الخوجة، مرجع سابق، ص 177 .

[4]- زبيس، مرجع سابق، ص 40 .

[5]- السراج، مصدر سابق، مج2، ص 353.

[6]- محمد الباجي بن مامي، " جوامع مدينة تونس في العهد العثماني دراسة تاريخية وفنية ومعمارية"، م. ث .م .د ، 19 جويلية 2015م. مقال تم تحميله من الموقع :machahid24.com/études. تم الاطلاع عليه يوم: 2018/11/19م .

[7]- ابن الخوجة، مرجع سابق، ص 182 .

[8]- نفسه، ص 185 .

[9]- نفسه، ص 188 .

منه. وتحسنت ظروف البلاد وأصبحت أفضل مما كانت عليه في بداية القرن17م، فازداد عدد الكتب التي تُقرأ واتسع نطاق العلوم التي تدرس، كما أصبحت النخبة المثقفة أكثر عددا بالعاصمة وبالمدن الكبرى كالقيروان وجربة وصفاقس والكاف...[1]. وما أن استقر الحكم في إيالة تونس بيد المراديين حتى بدأ الاهتمام بشؤون العلم والتعليم من جديد، بعد الأزمات والحروب والمشاكل السياسية التي عرفتها البلاد والتي كانت سببا في إهماله وتراجعه[2]. فقد كان "حمودة باشا المرادي" (1041- 1073هـ/ 1631-1662م) من أكثر البايات المراديين اهتماما بالعلماء، حيث يذكر صاحب الحلل أنه "كان ولوعا بحب العلماء وجبر خاطرهم، يتلذذ مجالستهم وحصل لهم منه المدد الأفخم، فافتح له منهم الثناء الأعظم"[3]. كما قام ببناء المسجد المعروف باسمه، قال "حسين خوجة": "...بناؤه للمسجد المشهور به وهو من أجل وأحسن وأبدع المساجد، وصومعته من أحسن الصوامع شكلا"[4]. وذكر لنا أيضا أنه قام ببناء مدرسة ملاصقة لزاوية "أبي زمعة البلوي" بالقيروان، لكنه لم يذكر لنا اسمها[5].

كما أحاطوا بالمدارس عناية خاصة، فقد قام الداي "أحمد خوجة" (1640- 1647م) بترميم المدرسة الشماعية والمدرسة العنقية "وأحياها بعد اندراسها"[6]. ومن بعدهما المدرسة المنتصرية في عهد الباي "علي بن مراد"[7](1086- 1097هـ/ 1675- 1686م). كما تم تأسيس مدارس جديدة نذكر منها، مدرسة القائد "مراد"[8] التي أحدثها سنة 1093هـ/ 1682م وتسمى مدرسة السواري لوقوعها بزقاق السواري من حومة حوانيت عاشور، تدعى أيضا بالمدرسة الحفصية وحُبست لفائدة طلبة المذهب الحنفي[9].

---

[1]- عبد السلام، مرجع سابق، ص ص 40، 54 . أنظر أيضا: Guellouz et autres , Op. Cit., p. 150 .

[2]- حياة الماجري، من تعليم الصبيان إلى التعليم الابتدائي في مدينة تونس في العهد العثماني، مخبر دراسات مغاربية، ودار نقوش عربية للنشر، تونس، 2014م، ص 15 .

[3]- السراج، مصدر سابق، مج2، ص 367 .

[4]- خوجة، مصدر سابق، ص 95 .

[5]- نفسه .

[6]- السراج، مصدر سابق، مج2، ص 396 .

[7]- مختار العياشي، في تاريخ المدرسة التونسية خلاصة 32 قرنا من الكتابة والمعرفة والتعليم (1101ق.م – 2007م)، مركز النشر الجامعي والمركز الوطني للتجديد البيداغوجي والبحوث التربوية،تونس، 2012م، ص 180 .

[8]- هو مراد بن عبد الله من رجال "علي باي المرادي" المقربين إليه، يقول عنه "ابن أبي الدينار" في مؤنسه: "ومن مواليه من يعتمد عليه في الحضرة بأسراره، والمطلع على مكاتيبه الواردة بأخباره، الواقف عند باب الرؤساء وباب داره...هؤلاء أكبر مواليه، وأقرب من يليه". أنظر: مصدر سابق، ص 262 .

[9]- الشيباني بنبلغيث، التعليم والأوقاف في تونس خلال التاريخ الحديث والمعاصر، ط1،مطبعة قوبعة، صفاقس، 2018م، ص 52 .

بنى الباي "مراد الثاني"(1073- 1086هـ/ 1662- 1675م) المدرسة المرادية بالحاضرة تونس سنة 1084هـ/ 1673م بباب الربع قرب سوق القماش، مكان فندق كان يسكنه العساكر الانكشارية[1] تضم عشرين غرفة لطلبة العلم المالكية[2]. يذكر "ابن أبي الدينار" أنه يقال لها أيضا مدرسة التوبة وأوقف عليها حوانيت وأوقاف أخرى[3]، وأول مدرس بها هو الشيخ المالكي "محمد الغماد"[4] (ت 1115هـ/ 1703م) وكان ذلك سنة 1085هـ/ 1674م[5]. ولا تقل عنها شهرة المدرسة التي بناها سنة 1085هـ/ 1674م بجربة ليقدم فيها الشيخ "إبراهيم الجمني" دروسه، وكان أول مدرس بها[6]. كما بنى الجامع الحنفي الذي سمي باسمه بباجة. ثم أضاف إليها نجله "محمد باي المرادي" مدرسة لتدريس الطلبة وسكناهم مما جعل المدينة تسترجع بعضا من دورها القديم في بث العلوم الإسلامية واستقطاب الطلبة وجذب العلماء للاستقرار بها وهما معلمان كان لهما الدور الكبير في إنعاش الحركة العلمية المحلية[7].

كما أسس "محمد باي المرادي" (1086- 1108هـ/ 1675- 1696م) العديد من المدارس في الحاضرة تونس وفي مدن أخرى،منها المدرسة المرادية بقابس التي تأسست سنة 1086هـ/ 1675م في عهد "محمد باي المرادي" (1086-1108هـ/ 1675- 1696م)، والتي عرفت أيضا بالمدرسة اللبابية لأنها ملاصقة لمقام سيدي أبي لبابة الأنصاري[8]، "وهي من أجمل المدارس مقرا للعلم وطلاّبه"[9]. وقد لعبت المدرسة دورا هاما في نشر المذهب الحنفي. وقد جاءت هذه المدرسة ضمن عدد هام من المدارس التي بناها الباي بالعديد من المدن بإيالة تونس،

---

[1]- ابن الخوجة، مرجع سابق، ص 299 .

[2]- بنبلغيث، مرجع سابق، ص 44.

[3]- ابن أبي الدينار، مصدر سابق، ص 234 .

للاطلاع على أوقاف المدرسة، أنظر: بنبلغيث، مرجع سابق، ص ص44- 48. أنظر أيضا: ابن الخوجة، مرجع سابق، ص ص 300، 301 .

[4]- أنظر ترجمته بالعودة إلى: خوجة، مصدر سابق، ص 188 .

[5]- نفسه.

[6]- نفسه، ص ص 130-132 . أنظر أيضا: مقديش، مصدر سابق، مج2، ص ص 436- 442 .

[7]- زهير بن يوسف، "جامع الباي بمدينة باجة ومدرسته:دراسة تاريخية"، ك.ت ،ع 214 -215 ، السداسيان1و2، 2012م، ص ص 45، 46.

[8]- خوجة، مصدر سابق، ص 103 .

[9]- نفسه، ص 98 .

مثل: بنزرت وباجة والكاف والقيروان وتوزر[1]. فتأسيس المدرسة جاء في إطار حركة عمرانية واسعة شهدتها إيالة تونس أواخر القرن 11هـ وبداية القرن 12هـ/ 17م[2].

إذن يمكننا القول إن عناية البايات المراديين بالمؤسسات التعليمية والدينية، كان له دور كبير في إعادة الازدهار إلى عدة مدن، وبصورة خاصة انتعاش التعليم الذي ظهرت آثاره بصورة واضحة في بداية حكم الأسرة الحسينية[3]. كما أن حرص الحكم المركزي على نشر علوم الدين والتضلع فيها، كان بهدف نشر المذهب الرسمي في الإيالة[4] .

والجدير بالذكر أن تمويل ونفقات المؤسسات التعليمية والدينية التي تم ذكرها سابقا، يتحمل أعباءها مداخيل الأوقاف والحبوس المخصصة لها،كما تضمن لها هذه الأخيرة تواصلها واستمراريتها[5].

3. النكسة العلمية ومحنة العلماء في عهد آخر بايات الأسرة المرادية "مراد الثالث"(1110-1114هـ/1699- 1702م):

تولى "مراد بن علي"[6] المعروف"بمراد أبو البالة" الحكم سنة 1110هـ/1699م، الذي عاث في البلاد فسادا، كما تميز بأعماله الشنيعة وتعطشه للدماء، وقد لخص لنا سيرة هذا الباي المؤرخ "حسين خوجة" في قوله: "...وسار مراد باي سيرة خبيثة، وأخذ في قتل النفوس ونهب الأموال وهتك الستور والمجاهرة بشرب الخمر وأفعال الشنائع والفجور وارتكب كل قبيحة، وقتل الأطفال واستباح المحرمات، وهدم مدينة القيروان وقتل كبارها وعلمائها، وسلب منهم الدرهم

---

[1]- خوجة، مصدر سابق، ص 103.

[2]- نفسه، ص ص75- 77 .

[3]- عبد السلام، مرجع سابق، ص 46 .

[4]- ليلى جابر، "المدرسة المرادية بقابس"، أعمال المؤتمر الثامن لمدونة الآثار العثمانية حول: "العمارة المدنية في العهد العثماني: الدور والمدارس والقناطر والحمامات"، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات م.م.ت .ب. ع. م ، نوفمبر 2009م ، ص 80 . .

[5]- قام "بنبلغيث" بنشر العديد من الوقفيات الخاصة بالمؤسسات التعليمة والدينية في العهد المرادي.

أنظر: مرجع سابق، ص ص44-81.

[6]- " مراد بن علي ": هو ابن عم رمضان باي، ثار عليه وقتله سنة 1110هـ/1698م، وعرف باسم بوبالة لأنه يقال انه كان له سيف ذو شفرتين يعرف بالبالة ، وكان إذا مرّ عليه يوم ولم يقتل يقول: "إن البالة قد جاعت". وهذا دليل على حبه لسفك الدماء. كانت نهايته على يد "إبراهيم الشريف" (1114- 1117هـ / 1702-1705م) بمواطأة من كبار الجند، وهناك من قال من الباب العالي، وكان ذلك في 13 محرم 1114هـ / 8 جوان 1702م، وهكذا انقرضت دولة بني مراد بوفاة آخر بايتها. أنظر: عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 145 .

والدينار"[1].كما يذكره "الوزير السراج" في حلله أنه "انكب على شرب الخمر والمجاهرة بالمعاصي، ولم يفارق السلاح ليلا نهارا"[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن أكثر من تضرر من تصرفات وسيرة الباي "مراد الثالث" الشنيعة هم العلماء، حيث ذكرت لنا المصادر أنه كان يستدعي العلماء والمشايخ لشرب الخمر، ومن رفض عاقبه وعذبه، وكان من بين من هدده بالموت بسبب امتناعه عن شرب الخمر، "أبو عبد الله حسن العامري" الذي كان نائب خطيب بجامع الزيتونة[3].ومما يُروى عليه أيضا أنه غضب على جماعة من علماء القيروان فأتى بهم ومعهم كبيرهم "محمد العواني الشريف القيرواني" وقتله بنفسه، وجعل يقطع لحمه ويشويه ويأكل منه ويُطعم خاصته في مجلس الخمر[4]. وكان ذلك إثر عودته مهزوما من قسنطينة[5]في ربيع الأول سنة 1112هـ/ سبتمبر 1700م، حيث قام بتهديم مدينة القيروان[6]. كما أمر بضرب جميع مؤذني الجوامع الحنفية من العسكريين خمسمائة سوط، لحاجته إليهم في حروبه، وكان من بينهم "أحمد برنار"[7] والشيخ "محمد الكبير الصوفي ابن علي الصوفي"[8]. فعاش العلماء حالة من الخوف والذعر، مما أدى إلى حدوث قطيعة بين السلطة والعلماء .

ومن خلال ما تقدم ذكره يمكننا أن نذكر جملة من الاستنتاجات التي توصلنا إليها، أهمها:

شهدت الحياة العلمية والثقافية بصفة عامة تراجعا في القرن 10هـ/ 16م وأوائل القرن 17م، فقد كان للصراع الاسباني العثماني دور في الجمود الفكري الذي شهدته الإيالة في الفترة المذكورة. لتعرف نقلة نوعية خلال الثلاثينات من نفس القرن تزامنا مع حكم الأسرة المرادية، فقد سعى البايات إلى النهوض بالحياة العلمية والدينية من خلال إنشاء مؤسسات تخدمها، وتخصيص ريع الأوقاف لتغطية ما تحتاجه من نفقات ومصاريف.

---

[1]- خوجة، مصدر سابق، ص 106 .

[2]- السراج، مصدر سابق، مج2، ص 638 .

[3]- نفسه، ص 669 .

[4]- نفسه، مج 1، مقدمة المحقق، ص ص 63، 64 .

[5]- لتفاصيل أكثر حول حملة "مراد باي" على بايلك الشرق. أنظر: عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس في القرن 12هـ/18م، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2017م، ص ص 12 – 36 .

[6]- خوجة، مصدر سابق، ص ص 106،107 .

[7]- قمنا بالترجمة له في دراستنا، أنظر: الباب الأول، الفصل الثالث، ص ص 163- 164 .

[8]- السراج، مصدر سابق، مج2، ص 670 . أنظر أيضا: أحمد برنار، الشهب المخرقة لمن أدعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة، تحقيق وتقديم طاهر المعموري، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، مقدمة المحقق، ص ص 9، 10 .

توصلنا إلى أن الثقافة التونسية لم تكن ثقافة محلية محضة، وإنما ممزوجة وملقحة بثقافات الشعوب التي وفدت على الإيالة، من أندلسيين وعثمانيين ومغاربة وحتى مشارقة. مما أدى الى تشكل ثقافة متنوعة المشارب والروافد .

إن الهدف الرئيسي من وراء تأسيس العثمانيين للمؤسسات التعليمية والدينية هو نشر المذهب الحنفي وتشجيعه .

لاحظنا أن البايات المراديين، خاصة منهم "حمودة باشا المرادي" و"محمد باي المرادي" أنه لم يقع اهتمامهم على الحاضرة تونس فقط بل توجهت أنظارهم إلى دواخل البلاد، والدليل على ذلك والمساجد والزوايا والمدارس التي بنيت في توزر والكاف والمنستير و...

تأثرت الحياة الفكرية والثقافية بصفة العامة بالأوضاع السائدة في البلاد، فقد أدت الحروب والصراعات حول السلطة، ولجوء بعض الحكام إلى سياسة العنف وسفك الدماء كما فعل الباي "مراد الثالث" مع العلماء، إلى تراجع الحياة الفكرية. وتعتبر الأرقام التي قدمها صاحب الحلل السندسية حول عدد الدروس التي أصبحت تقام بجامع الزيتونة في عهد الباي "حسين بن علي" دليل صارح على الضعف الذي كانت عليه أواخر حكم الأسرة المرادية، فقد تضاعف الرقم بشكل كبير[1].

[1]-السراج، مصدر سابق، مج3، ص ص 132، 133 .

الباب الأول:

التعليم التقليدي

الفصل الأول:

المؤسسات والمراكز التعليمية

1. القصور ودور العلماء
2. الكتاتيب
3. الزوايا والرباطات
4. المساجد
5. المدارس
6. المكتبات

يعود الفضل في ظهور مراكز التعليم إلى الحفصيين، لأنه لم يكن يوجد قبل ذلك مراكز وأماكن مخصصة للتعليم، فقد كان مكان التعليم يختاره إما المعلم أو المتعلم. ومع تولي الأسرة الحسينية الحكم، واصلت على نفس منوال الحفصيين، فقامت ببناء البعض منها وترميم البعض الآخر.

ومما لا شك فيه أن المؤسسات والمراكز التعليمية التي وجدت بالإيالة خلال القرنين 12-13هـ/ 18-19م – وهي فترة بحثنا – كانت تقوم أساسا على الكتاتيب والمدارس والمساجد والزوايا التي انتشرت في المدن والأرياف. وهي من المؤكد أنها استمرارية للمؤسسات التعليمية التي وجدت من قبل، والمتمثلة في المؤسسات التعليمية الحفصية والعثمانية، حيث كانت تقدم في مجملها تعليما دينيا يغلب عليه الطابع التقليدي الكلاسيكي. ومن هذا المنطلق بحثنا في المؤسسات التعليمية التي كانت توفر التعليم الضروري، محاولين ترتيبها حسب الأولوية والأهمية .

1. القصور ودور العلماء :

وُجد التعليم بالمنازل منذ العهد الأول للإسلام، فقبل التعليم بالمسجد اتخذ رسولُنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، دار"الأرقم" مركزا يلتقي فيه بالصحابة لتعليمهم مبادئ الدين الإسلامي. ومع مرور الوقت أصبح لها دورا أساسي في انتشار العلوم على يد الوالدين والأقارب، فقد ساهمت مساهمة هامة في تعليم الطفل في سنواته الأولى بعض الآيات القرآنية والكتابة والأعداد وذلك قبل ذهابه إلى المكتب. فالأم المتعلمة بصفة خاصة تقوم بدور رئيسي في هذه الناحية باعتبارها المعلم الأول في حياة طفلها سواء بطريقة مباشرة حيث تتولى بنفسها تعليمه أو بطريقة غير مباشرة كأن تحثه على التعليم وتحبّبه فيه[1].

والأمثلة عن الذين اتخذوا المنازل أماكنا للتعليم أو التعلم عديدة، سواء تعلق الأمر بتلقي الدرس عن الآباء أو عن علماء وفقهاء متضلعين في شتى المعارف، فمن الذين تلقوا العلم عن آبائهم نذكر– على سبيل المثال لا الحصر–"محمد الصغير داود"[2] (ت بعد 1137هـ/ 1725م)

[1]– صفية ديب، التربية والتعليم في تونس الحفصية (7– 10هـ / 13– 16م)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف بوبة مجاني، جامعة الجزائر– 2– ، 2011– 2012 م، ص 145 .

[2]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: خوجة، مصدر سابق، ص ص 235 – 239 . أنظر أيضا: مخلوف، مصدر سابق، ص 327. ومحمد النيفر، عنوان الأريب عمّا نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب، تذييل واستدراك علي النيفر، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م، ص ص 504– 506 .

الذي حفظ القرآن الكريم وتفقه على والده، وكذا الفقيه "محمد الخضراوي"[1]، و"محمد الرصاع"[2] (ت 1285هـ/1868م) الذي يقول عنه "ابن أبي الضياف" إنه "قرأ على أبيه"[3]. والظاهر أن التعليم لم يكن مقصورا على الآباء فقط، بل أحيانا نجد حتى الأجداد لهم نصيب في تعليم الأحفاد. وهذا ما تؤكده لنا ترجمة خاصة بالمؤرخ "محمد بن سلامة"[4](ت 1266هـ/1850م) صاحب "كتاب العقد المنضد في أخبار المشير الباشا أحمد" أنه "نشأ بين يدي جدّه، واعتنى بتمرينه وتدريبه، وتعليمه وتهذيبه"[5].

ومن بين المدرسين الذين اتخذوا من منازلهم أماكن للتدريس نذكر "محمد الصغير داود"(ت بعد سنة 1138هـ/ 1725م) الذي "اتخذ بداره بيتا زاوية مختصة للتدريس وإفادة المريدين صباحا ومساءً "[6]. كما اتخذ "أبو الفداء إسماعيل التميمي"[7] (ت 1248هـ/ 1832م) من عُلُو منزله مكانا للتدريس، بعد نفيه مدة شهر وعزله عن منصبي الإفتاء والتدريس[8]. ومثله أيضا اتخذ "محمد بن نصر القابسي"(ت 1233هـ/1818م) من سقيفة داره بزقاق الأندلس بمدينة تونس مكانا للتعليم، بسبب المرض الذي أقعده بالمنزل ومنعه من الالتحاق بجامع الزيتونة لإلقاء دروسه[9].

وقد أورد لنا المؤرخ "محمد النيفر" أخبارا عن طلبة كانوا يترددون إلى منزل والده لأخذ العلم، منهم "محمد بن الحاج محمد طريفة الصفاقسي" الذي قال عنه: "كان يأتي إلى دارنا للقراءة على وادي أبقاه الله، مع جماعة من الطلبة فختموا عليه هناك جملة من الكتب"[10].

أما الحكّام، فكانوا يجلبون إلى قصورهم مدرّسين خاصين لتعليم أبنائهم وأبناء خاصتهم. منهم العالم "محمد الخضراوي" الذي عيّنه الباي "حسين بن علي"[11] (1117-1153هـ/

---

[1]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: الباب الأول، الفصل الثالث، ص ص 164، 165 .

[2]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج8، ص ص 168، 169 .

[3]– نفسه، ص 168 .

[4]– للإطلاع على ترجمته أنظر: نفسه، ص ص 77 – 79 . وأيضا: النيفر، مصدر سابق، ج2، ص ص 101- 103.

[5]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ص 77 .

[6]– خوجة، مصدر سابق، ص 236 .

[7]– ترجم له كل من: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ص 11. ومخلوف، مصدر سابق، ص 370 . والسنوسي، مصدر سابق، ج2، ص ص 194- 205 .

[8]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص ص 132، 133. أنظر أيضا: نفسه، ج8، ص 12 .

[9]– نفسه، ج7، ص 105 .

[10]– النيفر، مصدر سابق، ج2، ص 971 .

[11]– "حسين بن علي": ولد سنة 1086هـ/ 1675م بمدينة الكاف، جاء والده إلى تونس من جزيرة كندية كريتية في بداية الدولة المرادية متطوعا للخدمة العسكرية. بعد وفاته، انتقل ابنه حسين –المترجم له– إلى العاصمة تونس، وولاه "رمضان باي المرادي" خطة آغا صبايحية الترك، وتولى

1705- 1740م) معلما وجليسا لابن أخيه "علي باشا"[1](1153-1169هـ/1740-1756م). كما اتخذ لابنه "محمد الرشيد" (1153- 1169هـ/ 1759-1756م) مؤدبا يعلمه القرآن الكريم[2]. واستعان بإمامه الخاص "يوسف برتقيز"[3] (لم نقف على تاريخ وفاته) لتعليم أبنائه[4].

وقد كان للمرأة هي الأخرى نصيبها في التعليم، فها هي آمنة ابنة "علي باي الثاني"(1172-1196هـ/1759-1782م) تحظى بالتعليم جنبا إلى جنب مع أخيها حمودة اللذان خصصا لهما والداهما مُعلما بالقصر، وهو العالم "حمودة بن باكير"[5](ت 1220هـ/ 1805م) يعلمهما الفقه على المذهب الحنفي[6]. كما كان المؤرخ "حمودة بن عبد العزيز" من الذين ضمّهم الباي إلى قصره لتعليم أبنائه وفي هذا السياق يقول: "فضمني إليهم سنة ست وثمانين

ولاية الأعراض في الجنوب التونسي في عهد "مراد الثالث"، ثم أولاه كاهية دار الباشا وولاية دار الجلد. أما "إبراهيم الشريف" (1113-1117هـ/ 1702- 1705م) فأولاه من جديد خطة آغا صبايحية الترك. ومكنته هذه الوظائف المتنوعة من اكتساب تجربة جيدة في المجال الاقتصادي والإداري والسياسي والعسكري. تولى الحكم رسميا سنة 1117هـ/ 1705م بتأييد من العلماء والعسكر والأعيان. عرفت البلاد خلال فترة حكمه تحسنا للأوضاع في مختلف المجالات. مات مقتولا من طرف ابن أخيه "علي باشا" قرب القيروان سنة 1153هـ/ 1740م، إثر الفتنة الحسينية الباشية. لتفاصيل أكثر حول شخصية "حسين بن علي"، أنظر: خوجة، مصدر سابق، ص ص 111- 114 . أنظر أيضا: أحمد السعداوي، تونس زمن حسين بن علي وعلي باشا (1705-1756م) وثائق أوقاف من العهد الحسيني، ط1، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2015م، ص ص 14، 15 .

[1]- هو علي بن محمد بن حسين ابن أخ حسين بن علي، كان وليا للعهد في حكم عمه إلا انه غير ولاية العهد لابنه الأكبر ومنح ابن أخيه لقب الباشا. ومن ثم أبعد عن الحكم فتمرد على عمه ودخلت البلاد في فتنة وحرب أهلية – سيتم الحديث عنها لاحقا-. وقد قدم لنا المؤرخ "الصغير بن يوسف" وصفا دقيقا لشخصية الباي "علي باشا" التي تحوي الكثير من التناقضات والتعقيدات، يقول: " الباشا رجل عاقل بهلول، عادل ظالم، فطن غبي، مستحذر واقع، عالم جاهل، متأني مستعجل، حليم معاقب، كريم بخيل، سيفه سابق غضبه، فعله سابق قوله، لا يعاود في كلام ولا تنقض له أحكام، قد خافه الخواص والخدم". وقد أدت هذه السياسة المتناقضة إلى تمرد الجند والدخول في صراعات حتى مع ابنه الأكبر "يونس"، كما تدهورت علاقات الدولة مع الجزائر وبعض الدول الأوربية. لكن هذا لم يمنع من وجود ايجابيات في تاريخ حكم الباي، منها تلك الإنجازات التي قام بها في مجال التعليم، وهو موضوع دراستنا. توفي سنة 1169هـ/ 1756م . أنظر: المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي التركي، تقديم وتحقيق أحمد الطويلي، المطبعة العصرية، مج3، ط1، تونس، 1998م ، ص 61. وأيضا: بنبلغيث، مرجع سابق، ص 111.

[2]- الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج1، ص ص 44، 45 .

[3]- "يوسف برتقيز": ولد بزغوان سنة 1092هـ/ 1681م، نشأ وتعلم بها. ثم انتقل إلى باجة لمواصلة تعليمه، فدرس النحو والوحيد على أفضل شيوخ المنطقة. رحل إلى مصر طالبا للعلم فدرس بالأزهر، ثم أدى فريضة الحج. وبعد عودته إلى تونس عينه الباي "حسين بن علي" إماما خاصا لتأدية الصلوات الخمس. مات مشنوقا بأمر من الباي "علي باشا" بعد التنكيل به وتعذيبه، بحجة أنه كان من الموالين لعمه. أنظر: خوجة، مصدر سابق، ص ص 257- 259. أنظر أيضا: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3، ص 11 .

[4]- خوجة، مصدر سابق، ص 258 .

[5]- "حمودة بن باكير":هو حمودة بن حسين بن ملا باكير قدمت أسرته من تركيا، كان عالما فاضلا قدمه "علي باي الثاني" إماما لباردو. أنظر: السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 118، هامش1.

[6]- حمودة بن محمد بن عبد العزيز، الكتاب الباشي (قسم السيرة)، تحقيق محمد ماضور، ج1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970م، ص 223.

لتعليمهم العلم الشريف، فشرعوا يقرءون عليّ العربية"[1]. ولم يقتصر تخصيص معلم للأبناء على الطبقة الحاكمة فحسب، بل تعدى ذلك إلى العلماء والمدرسين الكبار في البلد، ومن ذلك "إبراهيم الرياحي"[2] الذي خصّص لابنه "طيب الرياحي" بمعلم خاص وهو تلميذه "أحمد بن حسين الكافي" (ت 1285هـ/ 1868م)[3].

2. الكتـــــــاتيب :

اشتق اسم الكتاتيب من الفعل كَتَبَ، كما اشتق اسم الكتّاب من التَكَتُّب وتعليم الكتابة[4]. والمكتب[5] والكُتّاب[6] مؤسسة تعليمية قديمة يعود ظهورها بالبلاد التونسية إلى الفتوحات الإسلامية في أواسط القرن الأول للهجرة، ويذكر لنا "عبد الوهاب" أن الفاتحين العرب بعد دخولهم إلى افريقية وترتيب أمورهم، توجهت أنظارهم إلى تعليم صبيانهم "فاتخذوا لهم محلا كتّابا بسيط البناء يجتمعون فيه لقراءة كلام الله العزيز"[7].

تُمثل الكتاتيب في وقتنا الحالي المدرسة الابتدائية التي يقصدها طالب العلم عند بداية مشواره الدراسي. ولم يكن الكُتَّاب في الغالب بِناية متعددة الغرف، كما هو الحال اليوم في دور الحضانة أو المدارس الابتدائية، وإنما هو غرفة واسعة أو ضيقة أو غرفتان على الأكثر، متواضعة الفرش والأثاث، تتسع لعدد من الصبيان[8]. وقد كتب "علي باش حامبه" مقالا بالفرنسية في "جريدة التونسي" بتاريخ 25 رمضان 1325هـ/31 أكتوبر1907م، وصف فيه الكتّاب في العاصمة التونسية، فذكر أنه:"عبارة عن محل تابع للخواص يتربع على مساحة تتراوح ما بين عشرة إلى عشرين متر مربع، يوجد عادة في الطابق الأول محمول على بناء سفلي، ويُصعد إليه بدرج تفضي مباشرة إلى الشارع، وجدرانه مطلية بالجير وعارية من الصور والمعلقات، وليس به نوافذ –

---

[1]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 223 .

[2]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: الباب الأول، الفصل الثالث، ص ص 167، 168 .

[3]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج8، ص 171 .

[4]– اختلف اللغويون في اشتقاقات هذه الكلمة، ودلالة كل اشتقاق، فعند "ابن منظور" لها معنيان، الكتّاب موضع التعليم ومكانه، كما تعني عنده الصبيان وجمعها كتاتيب ومكاتب. أنظر: ديب، مرجع سابق، ص 147، هامش 2 .

[5]– وهي كلمة أصلها عثماني، فالمكتب عندهم هو المدرسة، وهذا المصطلح بدأ تداوله في تونس منذ القرن 10هـ / 16 م. والدليل على ذلك عقود التحبيس. أنظر: أحمد قاسم، "الكتاتيب بالبلاد التونسية "، م . ت . مغ ، ع 89 – 90، ماي 1988م، ص 143.

[6]– كلمة كتّاب قليلة الاستعمال بالجزائر وبالجريد التونسي، فهم يستعملون كلمة جامع عوضا عنها. أنظر: إبراهيم لعبيدي التوزري، تاريخ التربية بتونس، ج1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1967م، ص 104 .

[7]– محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلمين، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، 1972م، ص 33.

[8]– محمد أسعد طلس، التربية والتعليم في الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012م، ص 67 .

النور والهواء غير كافيا– ومفروش بالحصير، ويستوعب حوالي 20 إلى 30 تلميذا. ويوجد في كل حي أربعة أو خمسة كتاتيب وهي محلات قديمة كونها للخواص"[1].

تميزّت كتاتيب المدينة بهندسة معمارية بسيطة تكاد تخلو من كل زخرف باستثناء القليل النادر[2]، الذي بني من طرف المهاجرين الأندلسيين الذين أتوا بهندسة خاصة للكتاتيب، وأجمل الكتاتيب الأندلسية هو كتّاب "سيدي نصر القرواشي" بتستور، وكتّاب "سيدي علي عزوز" بزغوان[3].

وفضاء العلم هذا عادة ما يكون دكانا مستقلا أو حجرة مجاورة للمسجد أو جامع وأحيانا غرفة في منزل بعض العائلات العريقة[4]. وكثيرا ما يكون المكتب في علو معتلي على بناية من البنايات. فقد ورد في رسم تحبيس للباي "علي باشا"، ذكر فيه أن المحبّس"أحدث مكتبا شرقي الباب معتليا على حانوتين شرقي المفتح أيضا محدثي البناء بساحة المدرسة المذكورة"[5]. كما تذكر وقفية أخرى للباي "حسين بن علي" لصالح مدرسة القيروان أنه:" أنشأ فوق بعض حوانيت الصفة الغربية المفتح من السوق المذكور والحوانيت المقتطعة منها الشرقية المفتح الخارجة من السوق مكتبا لتعليم أولاد المؤمنين قراءة كلام رب العالمين"[6]. ويعود تخصيص البناء السفلي للمحلات التجارية إلى حرص صاحبها على توفير الراحة لحرفاء المحل عند كرائه، خاصة منهم العجزة والمسنين الذين لا يمكنهم اعتلاء الدرج. أما المكتب فيكون في الطابق الأعلى لأن الصبية بإمكانهم الصعود إليه بيُسر وسهولة لصغر سنهم [7].

والظاهر أن الكتاتيب كانت منطلقا لنشر العلم، لهذا نجد أن حكام الأسرة الحسينية سعوا إلى توفيرها لأبناء الأهالي. فقد تزايد انتشارها وكثر عددها في كامل أنحاء البلاد، يقول

---

[1]– قاسم، مرجع سابق، ص 143 .

[2]– سكينة عصامي، "آليات ومناهج تعليم الكتاتيب بالجريد التونسي من بداية القرن التاسع عشر إلى سنة 1889م"، م.ب.ت ،ع3، جانفي 2018م، ص 117 .

[3]– التوزري، مرجع سابق، ص 103. أنظر أيضا: عثمان الكعاك، محاضرات في مراكز الثقافة بالمغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، 1958م،ص 95 .

[4]– عصامي، مرجع سابق، ص 117 .

[5]– "رسم تحبيس "الباي علي باشا" لصالح مدرسة حوانيت عاشور بتاريخ أواسط ربيع الثاني 1159هـ/ أوائل ماي 1746م". أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 419-432.

[6]– "وقفية بتاريخ أواسط ربيع الأول عام 1132هـ / أواخر جانفي 1720م". أنظر: نفسه، ص ص 374- 378 .

[7]– قاسم، مرجع سابق، ص 144 .

"قرين":"وكان لكل حي كُتّابه الذي يشغل غرفة شاغرة أو جزءا من مسجد أو زاوية"[1]، فالمسجد والزاوية والحانوت، كلها يمكن أن يكون مقرا للكتّاب في المدينة. أما في الربض[2]والقرى والبوادي، فيمكن أن يكون البيت والدار والجامع وبيت ملاصق له وصحن الجامع، وحتى مقام الولي صالحا لاحتواء الكتّاب أيضا[3]. كما قد يكون الكتّاب في خيمة[4] أو في كوخ بمزرعة[5].

بلغ عدد الكتاتيب بالإيالة التونسية 588 كتّابا سنة 1292هـ/ 1875م[6]، لتصل سنة 1298هـ/1881م إلى حوالي 1250، ستون منها بعاصمة الإيالة[7]. ويشمل هذا التوزيع تقريبا كل المدن الداخلية للإيالة، وهو ما يوفر على الطالب عناء المصاريف والتنقل، وهذا ما جعلها في متناول كل السكان تقريبا، خاصة وأن المقابل المادي للتعليم كان ضئيلا مقابل ما يتلقاه الصبي من معارف التي هي الأخرى ضئيلة[8]. والغالب أن الصبي لا يتعلم إلا بكتّاب موجود بمقر سكناه –حومته– [9].

---

[1]– دون أرنولد هنري قرين، العلماء التونسيون، ترجمة حفناوي عمَايريّة، أسماء معَلَّى، ط1، دار سحنون للنشر والتوزيع والمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 1995م، ص 44.

[2]– الربض في اللغة ما حول المدينة جمعه أرباض. يستعمل هذا الاصطلاح في مدينة تونس للدلالة على حَيَّيْن كبيرين ملاصقين للمدينة أحدهما من جهة القبلة وهو ربض باب الجزيرة ، والثاني من جهة الجوف وهو ربض باب السويقة . أنظر: السعداوي ، مرجع سابق ، ص 171 ، هامش 2.

[3]– أ.و.ت، س.ت، صد 63، م 742، "أوامر علية ومراسلات متعلقة بتعليم القرآن بالحاضرة وببقية بلدان المملكة"، وث رقم 30 . أنظر أيضا: علي الزيدي، التعليم بصفاقس قبيل انتصاب نظام الحماية الفرنسية على البلاد التونسية في عهد محمد الصادق باشا باي (1275–1298هـ / 1859 –1881م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الكفاءة في البحث، إشراف عبد الجليل التميمي، الجامعة التونسية، 1978م، ص 18 .

[4]– التوزري، مرجع سابق، ص 103.

[5]– العادة الجارية هي أن رب المزرعة عندما يُبرم عقدا مع العاملين بالمزرعة –الخماسين– يضع كشرط أساسي ضمن شروط العقد إنشاء"كُتّاب قُرْبي" لأبناء الفلاحين في المزرعة وما جاورها، فيجلب المؤدب، ويُبنى له كوخ لسكناه وآخر للتعليم. أنظر: الكعاك، مرجع سابق، ص 94 .

[6]– يذكر "العروسي الميزوري" أن هذه الإحصائيات التي قام بها الأستاذ "الحبيب الشابي"،لم تأخذ بعين الاعتبار الجهات التالية: الكاف، القصرين، باجة، تالة، الوطن القبلي، القيروان .

أنظر: التعليم في تونس منذ قيام الدولة الحسينية إلى انتصاب الحماية، أطروحة دكتوراه دولة، إشراف وسيلة بلعيد بن حمدة، جامعة الزيتونة، 1993– 1994م، ص 107، هامش 05 .

ملاحظة: قمنا برصد قائمة لعدد التلاميذ والكتاتيب في بعض مناطق الإيالة لسنة 1292–1293هـ/ 1875–1876م. أنظر: الملحق رقم03، ص 339 .

[7]– François Arnoulet, « Les problèmes de l'enseignement au début du protectorat Français en Tunisie (1881-1900) » , IBLA , N° 167,1991, p. 32 .

[8]– الحناشي، مرجع سابق، ص 16 .

[9]– محمد بن عثمان الحشايشي، العادات والتقاليد التونسية – الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية –، دراسة وتحقيق الجيلاني بن الحاج يحي، تقديم محمد اليعلاوي، دار سراس للنشر والتوزيع، تونس، 1994م، ص 85 .

ويجمع الكتّاب عادة كل الصبيان بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم وانتماءاتهم، غير أن المصادر تورد لنا أخبارا ما يفيد بعض الخصوصيات، فالبايات مثلا كانوا يتخذون لأبنائهم مؤدبا خاصا بهم. فقد ذكر المؤرخ " الصغير بن يوسف" أن الباي "حسين بن علي" اتخذ لابنه محمد "مؤدبا يعلمه القرآن الكريم واختار له من يعلمه ويفقهه"[1]. كما كان لمماليك الحكام مؤدبا خاصا بهم، فقد كان الفقيه "مبارك" مؤدبا لمماليك "علي باشا" ومماليك ابنه "يونس"[2]. والظاهر أن كبار موظفي الدولة اتخذوا هم أيضا لأبنائهم مؤدبين، فقد ذكر "ابن ابي الضياف" أن "محمود قابادو"[3] عمل مؤدبا بدار سيدي الكاهية لتعليم ابنه "البشير"[4].

وفي بعض الأحيان كانت الظروف تحتم على الآباء اتخاذ مؤدب خاص للأبناء، كما حدث مع الشيخ "محمد الشافعي التونسي"(لم نقف على تاريخ وفاته) في عهد الباي "حسين بن علي" حيث اتخذ له والده مؤدبا خاصا لأنه توقف عن الالتحاق بالمكتب الذي تم غلق أبوابه بسبب الطاعون الذي وقع سنة 1116هـ/1704م، ويقول في هذا السياق: "فاتخذ لي والدي مؤدّبا يقال له الحاج أبو القاسم المازوني"[5]. لكن هذا لا يعني أن كل الصبيان يحضون بمؤدب خاص، وإنما يعود ذلك إلى المستوى المادي لعائلة المتمدرس فهناك من بإمكانه تخصيص مؤدب لابنه، وهناك من ليس باستطاعته ذلك.

إن هذه الخصوصيات والامتيازات أدت إلى ظهور صنفين من الكتاتيب، صنف عام وهي كتاتيب يُدرس فيها أبناء عامة المجتمع، وصنف خاص يُدرس فيها أبناء بعض العائلات المعروفة بجاهها وسموها،[6] ويسمى مؤدبها "بمؤدب الصراية"[7]. أما من حيث الانتماء الثقافي، فتنقسم إلى قسمين: قسم يشمل الكتاتيب ذات الطابع التونسي الإفريقي، والآخر يشمل الكتاتيب ذات الطابع الأندلسي. فالأول كثير الانتشار، والثاني لا نجده إلا في الأماكن التي استقر فيها

---

[1]– الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج1، ص 44 .

[2]– قاسم، مرجع سابق، ص 144.

[3]– أنظر تعريفه بالعودة إلى: الباب الأول، الفصل الثالث، ص ص 168– 170 .

[4]– ابن ابي الضياف، مصدر سابق، ج4، ص 61 . أنظر أيضا: الصادق الزمرلي، أعلام تونسيون، تقديم وتعريب حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص 66 .

[5]– محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، ط1، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ودار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2006م، ص 87 .

[6]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 95 .

[7]– الماجري، مرجع سابق، ص 117 .

الأندلسيين المهاجرون. وتشمل هده الأماكن، زقاق الأندلس بتونس العاصمة، وقرى غار الملح، وعسوجة ورفراف، وقلعة الأندلس، والجديدة، وطبربة، وقريش الوادي، ومجاز الباب، وتستور، وقرمبالية، ونيانو، وحي الأندلس ببنزرت، وغيرها[1].

3.الزوايا والرباطات :

مفرد كلمة الزوايا "زاوية"، وهي في اللغة من الانزواء، ومعناه الانعزال والخلوة، ويطلق عليها في المشرق "خانقاه"، وهي كلمة فارسية تعني "بيت العباد المتصوفين"[2]. أما في الاصطلاح، فهي اسم لمكان منعزل عن الناس يكون خاصا بالمتصوفة[3].أما الرحالة الفرنسي "بيسونال"Peysonnel" الذي زار تونس سنة 1137هـ/ 1724م، فيعرفها بقوله:" هي أماكن للتحصّن والاعتصام ... يتم فيها توفير الغذاء والسكن للمسافرين، ويجد فيها المساكين ملجأ مضمونا. ولا يمكن القيام فيها بأي عمل عدواني..."[4]. والظاهر أن الزاوية حلت تدريجيا محل الرباط[5]، وتعتبر الابنة الشرعية لهذه الأخيرة حيث أنها تتشابه معها إلى حد كبير في الغرض من قيامها وتوعية النزلاء بها وإن اختلفت في الحجم والمساحة[6].

فالزاوية عموما هي عبارة عن هيكل أو مؤسسة لها تنظيماتها ومشرفيها (الشيخ، والمقدم ووكيل الأوقاف، والوقاد، والفرّاش...) وتحوي على: "غرفة للصلاة فيها محراب، وضريح لأحد المرابطين أو ولي من الإشراف تعلوه قبّة، وغرفة قصرت على تلاوة القرآن، ومكتبا أو مدرسة

لتحفيظ القرآن، وغرفا مخصصة لضيوف الزاوية وللحجاج والمسافرين والطلبة. ويُلحق بالزاوية عادة تربة تشمل قبور أولئك الذين أوصوا في حياتهم بأن يدفنوا فيها"[7]. وتنقسم الزوايا إلى:

---

[1]– ذكر "عثمان الكعاك" قائمة طويلة، يمكن الإطلاع عليها. أنظر: مرجع سابق، ص ص 94، 95 . أنظر أيضا: الميزوري، مرجع سابق، ص ص 128، 129 .

[2]– محمد الزمزمي، الزاوية وما فيها من البدع والأعمال المنكرة، مطبعة أسبارطيل، طنجة، 1999م، ص ص 15، 16 .

[3]– نفسه ، ص 12 .

[4]– أندريه بيسونال، الرحلة إلى تونس، ترجمة وتحقيق محمد العربي السنوسي، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003م، ص 27 .

[5]– الرباط: معناها في اللغة مَرَابط الخيول، ثم تحولت الكلمة إلى المكان الذي يعد لملاقاة العدو، ثم تطورت الربط لتصبح أماكن للعبادة. والمرابطة هي المداومة على هذه الأماكن والثبات فيها. وتعد مركزا علميا لتعليم المرابطين الثقافة الإسلامية والمعارف الدينية وإقامة للصوفية، حيث يتولون فيها جهاد النفس وترويضها مطبقين بذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ – الآية 200 من سورة آل عمران– ولهذه الأغراض تكاثرت الأربطة . أنظر: ديب، مرجع سابق، ص 161 .

[6]– نفسه، ص 164 .

[7]– الحناشي، مرجع سابق، ص 53 .

– الزاويا الطرقية:

تُنسب إلى الطرق الصوفية التي برزت بتونس، كالشاذليـة[1]، والتيجانيـة[2]، والسنوسيـة[3]، والرحمانية[4]، والعيساوية[5]. وبحكم اعتمادها على الرجال الصلحاء والأعلام المتصلين دائما بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم. استطاعت كل طريقة أن تُكوِّن أرضية لها، فانتشرت زوايا تابعة لهذه الطرق عبر مختلف مناطق الإيالة، موزعة على النحو التالي :

---

[1]– الطريقة الشاذلية: تفرعت عن الطريقة القادرية، مؤسسها هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي، أصله من المغرب الأقصى، ولد بمدينة غمارة بالقرب من سبتة سنة 593 هـ /1197م ، توفي سنة 656هـ/ 1258م. جاء الى تونس وكان أول مكان أقام به هو قرية "شاذلة" الواقعة بين تونس ومجاز الباب (بباجة)، ثم انتقل إلى تونس العاصمة ، واعتكف بمغارة في سفح التل المطل على مقبرة الجلاز. وهناك بنيت أول زاوية شاذلية، التي لا تزال مقر الطريقة الشاذلية. هاجر إلى الإسكندرية تاركا وراءه أربعين من أتباعه في تونس يمثلون الطريقة الشاذلية. وفي نهاية القرن 13هـ/ 19م، أصبح الشيخ "عمر بن مؤدب"(أنظر ترجمته في : ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 156.) شيخ الطريقة الشاذلية في مدينة تونس. ولا تزال الأسرة التي أصبحت فيما بعد تسمى "بلحسن" تترأس الطريقة إلى يومنا هذا . أنظر: قرين، مرجع سابق، ص90، هامش 40 . وأيضا: أحمد دركوش، مواقف الطرق الصوفية من الاستعمار في الجزائر وتونس (1830– 1914م)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، إشراف بن يوسف تلمساني، جامعة الجزائر –2– ، 2010– 2011م، ص ص 31 ، 32 .

[2]– الطريقة التيجانية: تنسب التيجانية إلى صاحبها الشيخ " أبو العباس أحمد بن محمد التيجاني الحسيني" ولد سنة 1150هـ/1737م، بعين ماضي بولاية الأغواط الجزائرية، لُقب بالتيجاني نسبة للقبيلة التي تنتمي لها والدته وأخواله (بنو توجين). تتميز الطريقة التيجانية بسهولة تعاليمها وتلازمها مع التطور، وهي طريقة تقوم على الموازاة بين الحياة الدنيا والآخرة ، فهي لا تدعو إلى العزلة والفقر وإنما تنادي إلى الكسب والعيش الرغد. ويرجع فضل دخول هذه الطريقة إلى تونس إلى الشيخ "إبراهيم الرياحي"، فأثناء سفارته إلى المغرب الأقصى سنة 1803م قام بزيارة الشيخ "أحمد التيجاني " الذي عينه لنشر طريقته في تونس، فأسس الشيخ "إبراهيم الرياحي" أول زاوية تيجانية بالعاصمة سنة 1816م. وبعد وفاته أمر "محمد باي" ببناء الزاوية ذات الشكل المورسكي الأندلسي في نهج سيدي إبراهيم. وقد انتشرت الطريقة بسرعة كبيرة، وذلك راجع إلى شخصية الشيخ "إبراهيم الرياحي" ، فقد صار لها أتباع من الأسر المرموقة في العاصمة وفروع في مدن أخرى. أنظر: دركوش، مرجع سابق، ص 39 . وأيضا: قرين، مرجع سابق، ص 92، هامش 43 .

[3]– الطريقة السنوسية: تنتسب الطريقة إلى مؤسسها "محمد بن علي السنوسي" أصيل مستغانم، زار المغرب الأقصى وتونس وطرابلس ومصر والحجاز، ثم رجع إلى برقة وأسس زاوية البيضاء بالجبل الأخضر، التي سرعان ما غادرها والتحق بواحة الجغبوب بليبيا، أين توفي فيها سنة 1230هـ/ 1855م. أنظر: الميزوري، مرجع سابق، ص 120، هامش 4 .

[4]– الطريقة الرحمانية: الطريقة لها أصل شريف حسني، ترجع إلى "علي بن أبي طالب". تأسست الطريقة حوالي سنة 1183 هـ/ 1769م، من طرف "مَحمد بن عبد الرحمان القشطولي"، المعروف "ببوقبرين" (ت سنة 1208هـ/1793م). وأصل الطريقة من الجزائر. فالمؤسس المذكور من مواليد سنة 1127هـ/1715م، بآيت إسماعيل بمنطقة القبائل. انتقل إلى المشرق ليتعلم أصول الطريقة الخلواتية هناك، ثم عاد لبثها بمسقط رأسه. تسربت هذه الطريقة من الجزائر إلى تونس من ثلاثة أطراف: 1/تأسيس يوسف بن حجار زاوية تابعة لهذه الطريقة في مدينة الكاف سنة 1800م. 2/ تأسيس البشير المغربي زاوية أخرى تابعة للطريقة في مدينة تونس في نفس السنة .3/كان للطريقة الرحمانية فرع هام في بسكرة وكان على رأسها الشيخ "محمد بن عزوز "، وأثناء الاحتلال الفرنسي لبسكرة سنة 1259هـ/ 1843م فرّ إلى نفطة، وهناك أسس زاوية أصبحت مقرا للطريقة، مشتركة بين الجنوب التونسي والشرق الجزائري. و خلفه من بعده قريب له ثم ابنه "مصطفى بن عزوز" الذي ذاع صيته. أنظر : دركوش، مرجع سابق، ص 32 . وأيضا: الحناشي، مرجع سابق، ص ص 36–41 . وكذلك: قرين، مرجع سابق، ص 91، هامش 42 .

[5]– الطريقة العيساوية: مؤسسها هو سيدي محمد بن عيسى أصيل مكناس، الذي انتمى في البداية إلى الطريقة الشاذلية بعد حجه إلى البقاع المقدسة، ثم أسس طريقة باسمه. دخلت الطريقة العيساوية إلى تونس منذ القرن 10هـ/ 16م. ومع مرور الوقت وجدت الطريقة صدى كبير، وانتشرت في الكثير من مناطق إيالة تونس. أنظر: دركوش، مرجع سابق، ص 33. وأيضا: الميزوري، مرجع سابق، ص 121، هامش 1.

جدول رقم(1): توزيع الزوايا الطرقية عبر مختلف مناطق الإيالة[1] .

العمالة	عدد الزوايا بها	عدد شيوخ المشايخ	عدد شيوخ الأحزاب
تونس وضواحيها	5	1	4
سليمان	12	–	12
طبربة	2	–	2
الرقبة	3	–	3
تبرسق	2	–	2
مجاز الباب	1	–	1
زغوان	5	–	5
أولاد سعيد	3	–	3
بنزرت وغار الملح	2	–	2
القيروان	2	–	2
سوسة	3	–	3
جمّال	1	–	1
المنستير	4	–	4
المهدية	2	–	2
صفاقس	4	–	4
الأعراض	4	–	4
قفصة	2	–	2
توزر	1	1	2
نفزاوة	6	–	6
نفطة	1	–	1
باجة	1	–	1
الكاف	3	1	2
أولاد بوغانم	1	–	1
شارن	1	–	1
أولاد عيار	1	–	1

[1]– الميزوري، مرجع سابق، ص ص 121، 122 .

أولاد بوسالم	2	-	1
المجموع	75	3	71

والجدير بالذكر أن بعض الزوايا الطرقية خُصصت لتعليم المريدين والمنخرطين الأذكار، والأناشيد، والقصائد، والأزجال، والموشحات المستمدة ألحانها من الموسيقى الأندلسية[1]. ومن أبرز هذه الزوايا، نذكر زاوية "الشيخ إبراهيم الرياحي" حيث انتمى الشيخ في البداية إلى الطريقة الشاذلية، ونظرا لتعلّق الشيخ بالطريقة، فقد مدحها وابتكر لها أدعية[2]. لكن مع مرور الوقت وفي سنة 1211هـ/1801م تعرف بالشيخ "علي حرازم الفاسي"[3] أثناء زيارته إلى تونس. فأصبح ملازما له، وتأثر به وأخذ عنه الطريقة الأحمدية التيجانية، حيث يقول في هذا الصدد:" ... فأخذنا عنه والمنة لله الطريقة التيجانية المنسوبة لشيخنا أمير الأولياء... مولانا وسيدنا أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد بن محمد بن سالم...أواسط جمادى الأولى من سنة 1216 فأجازنا في الوِرد[4] والوظيفة[5] "[6]. فقام بنشرها في تونس، وأسس لها زاويته المشهورة قرب حوانيت عاشور[7]، وبعد وفاته دُفن بزاويته. وفي عهد المشير "محمد الصادق باي"[8] (1276- 1299هـ/

[1]- بلعيد بن حمدة وسيلة ، "الزاوية ودورها التربوي والاجتماعي"، م . هـ ، ع 4 ، جانفي 1995م، ص 31 .

[2]- محفوظ، مرجع سابق، ص 387 .

[3]- يذكر" إبراهيم الرياحي" أن للشيخ "حرازم" كرامات، فقد أيقضه من منامه وقال له: " قم واطلب من الله تعالى ما تريد فهذه ساعة إجابة إن شاء الله". أنظر: عمر الرياحي، تعطير النواحي بترجمة الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي، ط1، مطبعة بكار وشركائه، تونس، 1320هـ/ 1902م، ج1، ص 11 .

[4]- يتمثل الوِرد في: "استغفر الله مائة مرة، وصلاة الفاتح لما يُنهي مائة مرة ، والهيللة مائة مرة ، ووقته من صلاة الصبح إلى الضحى الأعلى، ومن العصر إلى صلاة العشاء". ويقول الشيخ "إبراهيم الرياحي" إنه إذا فات وقته فلا بد من قضائه وشرطه مثل شروط الصلاة. أنظر: نفسه، ص 12 .

[5]- وأما الوظيفة فهي "استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ثلاثين مرة ، وصلاة الفاتح المتقدمة خمسين مرة ، ولا إله إلا الله مائة مرة جوهرة الكمال إحدى عشر مرة وهي: "اللّهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحايطة بمركز الفهوم والمعاني ونور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الرباني ...صلاة تعرفنا بها إياه ووقتها في اليوم والليلة ." أنظر: نفسه، ص 13 .

[6]- نفسه، ص 12.

[7]- محفوظ، مرجع سابق، ص ص 387 ، 388 .

[8]- ولد محمد الصادق بن حسين بن محمد باي في 06 صفر 1228هـ/ 07 فيفري 1813م، ورث الحكم عن أخيه بشكل طبيعي في 29 جمادى الأولى 1276هـ/ 23 ديسمبر 1859م. وهو الباي الثاني عشر من سلسلة الأسرة الحسينية الحاكمة في تونس منذ سنة 1117هـ/ 1705م. وقد حصل على لقب مشير دون صعوبة من السلطان العثماني مثل سابقيه – أخيه وابن عمه–. وأصبح يدعى بالمشير الثالث، ودام حكمه 22 سنة. ولم يختلف هذا الباي عن أخيه كثيرا، سوى أنه أقل منه أمية وجهلا. إلا أنه كان أكثرهم ضعفا في الشخصية. ومن بين صفاته، امتيازه بالخمول الذهني والميل إلى الترف دون حدود. وهو متهم بضعف خلقه الديني، بسبب انقياده لهواه ولمن يجلب له وسائل اللهو، حتى وقع أسيرا لبعض وزرائه الذين وفروا له كل ما يطلب لكي يبقى بعيدا عن الحكم فأصبح قليل الاكتراث بشؤون البلاد تاركا الاهتمام بالسياسة وحاجيات الناس إلى الوزير الأكبر وأعوانه. ظهر خلال حكمه عهد الأمان الذي ينص على تحقيق العدل بين الرعية ويؤكد على حقوق الأجانب

1859–1882م) أذن لوزيره "خير الدين باشا" بترميم الزاوية وتجديد قبتها سنة 1295هـ/ 1878م[1]. كما نجد زاوية "الشيخ مصطفى بن عزوز"[2]بنفطة بالجنوب التونسي، وهي من أهم زوايا الطريقة الرحمانية. وبالرغم من وجود الكثير من الزوايا بمدينة نفطة، إلا أن زاوية "الشيخ مصطفى بن عزوز" استطاعت أن تستقطب الكثير من سكان تونس وحتى المهاجرين إليها، وكان لها دورا كبير في دعم المقاومة في الجزائر، وربط علاقات وطيدة بين زوايا البلدين[3]. أما مدينة الكاف فعرفت هي الأخرى العديد من الزوايا التابعة للطرق الصوفية، أهمها زاوية "علي بوحجر" التابعة للطريقة الرحمانية التي تأسست سنة 1199هـ/ 1784م، و"الزاوية القادرية" التي أسسها سيدي "محمد بن عمار الميزوني الغربي" أصيل مدينة مازونة سنة 1250هـ/ 1834م، والتي تعتبر من أهم الزوايا بالبلاد التونسية، بها أكثر من 500 طالب وتأوي أكثر من ألف زائر في السنة[4].

يبدو أن للزاوية بُعد ودور روحي، فهي كما يقول عنها "المعموري": "مركزا من مراكز التأثير الرّوحي، ينتصب فيها الشيخ يحيط به المريدين الذين يخضعون لخطته ويأتمرون بأوامره"[5]. لكن هذا لا يعني إغفال دورها التعليمي، حيث اتُخذت كمكان للتدريس ومعاهدا للتعليم وتنوير العامة[6]. وقد بلغت تسمية المدرس في مثل هذه المؤسسات إلى حدّ صدور أمر علّي فزاوية "سيدي اسحاق الجبنياني" ببلد جبنيانة بصفافس على سبيل المثال، صدر أمر علّي أول بتاريخ 1197هـ/1782م

في المملكة، التي ستسمح لهم بالتدخل في الحياة السياسية. كما أصدر خلال عهده أول دستور تونسي بدأ العمل به يوم 16 شوال 1277هـ/ 26 أفريل 1861م. الذي ينص على تنظيم الحياة السياسية بالفصل بين السلطات الثلاث والحد من سلطة الباي، الأمر الذي دفع بإلغائه سنة 1280هـ/ 1864م. وفي سنة 1299هـ/ 1881م، وقّع على معاهدة باردو التي شكلت بداية الاستعمار الفرنسي لتونس. توفي في 07 دو الحجة 1299هـ/19 أكتوبر 1882م . أنظر: الشيباني بنبلغيث، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859 – 1882م)، تقديم عبد الجليل التميمي، م. ت. ب. ع. مع ، زغوان، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، 1995م، ص 65 .

[1]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 190 .

[2]– لمزيد من معلومات أكثر حول الشيخ، أنظر ترجمته في : ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج8 ، ص ص 142 ، 143.

[3]– فتيحة عبد النوز، الروابط الثقافية بين الجزائر وتونس ما بين 1860–1954م ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، المدرسة العليا للأساتذة، إشراف صبيحة بخوش، جامعة الجزائر، 2013–2014م ، ص ص 78، 79 .

[4]– الحناشي، مرجع سابق، ص 44 .

[5]– خوجة، مصدر سابق، مقدمة المحقق، ص 49.

[6]– أسماء خوالدية، "الوظائف التعليمية لزوايا الجنوب الغربي للبلاد التونسية خلال العصر الحديث: بين حُلوة المعلم ورحلة المتعلم"، أعمال الندوة العلمية الدولية بعنوان: "حركة المعارف والمؤسسات التعليمية بالمجال العربي والمتوسطي"، الحمامات، أيام 28–30 نوفمبر 2014م، إعداد وتنسيق مختار العياشي،ط1، تونس، 2017م، ص 373.

ينصّ على تسمية الشيخ الفقيه القارئ "محمد بن الحاج حسين" بخطة للتدريس بها. كما صدر أمر علّي ثانٍ يُجدد لهذا الشيخ نفس الخطة بنفس الزاوية[1].

– زوايا الأولياء الصالحين:

تنشأ حول ضريح ولي مشهور، وتعتبر الزاوية المحرزية نسبة إلى سيدي "محرز بن خلف"[2] من أقدم زوايا هذا الصنف بإيالة تونس، ومع مرور الوقت كثرت زوايا الأولياء الصالحين بالمدن والأرياف، واستعملت خلال العهد الحسيني لغرض تعليمي[3]، إذ تولى فيها المؤدبون تعليم الصبيان الكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم[4].

كان للزاوية تأثير بالغ في المجتمع التونسي، وتزايد هذا التأثير مع مرور الزمن فاكتسبت أهمية كبيرة داخل البوادي والقرى، إذ كانت تمثل المركز الوحيد لتعليم الصبيان الكتابة والقرآن العظيم ومبادئ الدين كما أسلفنا الذكر–، ويُحتفظ فيها بأقوال صاحبها الولي، وتُعتبر من الأدب الشفوي العامي[5].

والجدير بالملاحظة أن الزوايا كانت تقوم بدور كبير وفاعل في تحسين المستوى العلمي والثقافي في البلاد، ويمكننا أن نستشهد "بالزاوية النورية" التي أسسها الشيخ "علي النوري"[6] بعد

---

[1]– الميزوري، مرجع سابق، ص 123 .

[2]– أنظر: مدخل دراستنا، ص 27 .

[3]– الميزوري، مرجع سابق، ص 123 .

[4]– يمكن الاطلاع على العديد من الزوايا في عاصمة الإيالة تونس ودواخلها، استعملت لغرض التعليم . أنظر: أ.و.ت، س.ت، صد 63، م 742، "أوامر علية ومراسلات متعلقة بتعليم القران بالحاضرة وبقية بلدان المملكة" .

[5]– الطويلي، مراكز الثقافة...، مرجع سابق، ص ص 10 ، 11 .

[6]– هو الشيخ أبو الحسن سيدي علي النّوري بن محمد، ولد بصفاقس سنة 1053هـ / 1643.–1644م) نشأ بها وحفظ القرآن الكريم وهو ابن عشر سنين، قرأ على مشايخها، ثم رحل إلى تونس وهو ابن أربع عشرة سنة، وتعلم على أفضل مشايخ ذلك العصر، عمل خيّاطا . رحل إلى مصر واستكمل دراسته هناك، فنبغ في علم الحديث وروايته . ثم عاد إلى مسقط رأسه – صفاقس – وقام بتحويل بيته إلى زاوية ومدرسة لطلب العلم. وبالإضافة إلى ما قدمه من جهود في سبيل العلم. فقد كان يجاهد في سبيل البلاد ، حيث يذكر "حسين خوجة ": "...وكان يبذل من ماله وكسبه ما يجهز به الغزاة في البحر على الكفار ، ثم أنشأ سفنا وصرف عليها مالا، واعدّها لدفع ضرر قرصان النصارى، وكان يجهزهم دائما مستعدين مترصدين، فمهما ظهر قرصان النصارى على تلك السواحل، ويخرجون إليهم، ويأتون بغنائم مستكثرة عديدة، حتى انقطع ضرر الكفار من تلك السواحل". بصفاقس يوم الجمعة الموافق لـ 12 ربيع الأول 1118هـ / 1706م. وقد خلّف العالم "علي النوري" الكثير من المصنفات منها : – تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين في تجويد كلام رب العالمين. – المنقذ من الوحلة في الفلك. – معين السائلين في فضل رب العالمين في الدعاء. – غيث النفع في القراءات السبع. وعقيدة النوري.(للإشارة هنا نذكر أن هذه التصنيفات هي كلها مخطوطات محفوظة في المكتبة الوطنية التونسية). توفي سنة 1117هـ/ 1705م. أنظر: خوجة، مصدر سابق، ص ص 128 ، 129 و ص 129 هامش 59. مقديش، مصدر سابق، مج2، ص ص 358– 368 .

عودته من مصر إلى مسقط رأسه – صفاقس – سنة 1078هـ / 1668م ، "إذ أعطت الزاوية شرارة نهضتها ....فكان الشيخ علي النوري رائد هذه النهضة، ورأى بعضهم أن حلوله في مدينته كالغيث في البلد القاحل الجديب، أروى العقول من ظمأ الجهل"[1]. كما نذكر زاوية سيدي"إبراهيم الجمني" بجربة التي كانت مخصصة لدراسة الفقه المالكي في وسط يسوده المذهب الإباضي، وقد وقع توسيعها بعد موت مؤسسها، وكانت قِبلة للعديد من الطلبة من بينهم طلبة إقليم الساحل[2]. حيث بلغ عددهم مائتين وسبعين طالبا عندما كان "محمود مقديش"[3](ت 1228هـ/ 1813م) واحدا منهم، ويذكر هذا الأخير أن طلبة هذه الزاوية تميزوا بالاجتهاد والمثابرة [4].

كان للزاوية النورية دور كبير في تكوين الطلبة الذين عملوا على نشر ما تلقوه من علوم وتربية بمساجد وزوايا المدينة، نذكر منهم "محمد" و"أحمد النوري" ولدا الشيخ "علي النوري"، اللذان أخذا مشعل الزاوية بعد وفاة والدهما[5]. ويقول عنهما صاحب الذيل "حسين خوجة":"وقام مقامه ابنه الأرشد الأسعد الشيخ سيدي أحمد بن علي النوري فعمر زاوية والده، وسار سيرته من بعده، وهو في الطبقة العليا من العلم والعمل به، في الغاية القصوى من الورع، حركاته وسكناته موافقه لوالده، عاملا بطريقته ...وأخوه الأكبر سيدي محمد معاضد له، وموافق"[6]. كما نذكر الشيخ "علي بن محمد المؤخر" (كان حيّا سنة 1118هـ/1706م) ، حيث أخذ عن الشيخ "علي النوري" علوم اللسان والشريعة، والميقات والحساب، وتولى الإمامة والتدريس والتجويد بضريح الشيخ سيدي "أبي الحسن اللخمي"، و"محمد الغراب" الذي خلفه بعد وفاته[7].

---

[1]– مقديش، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص10.

[2]– ناصر الدين سعيدوني، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس الغرب) من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري/ السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ميلادي."، ح . آ . ع . إج ، عدد 31، 2010م ، ص 74 .

[3]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 85، 86. ومخلوف، مصدر سابق، ص 366 . وأيضا: مقديش، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص ص 13– 17. وعبد السلام، مرجع سابق، ص ص 305، 306. وأيضا: محفوظ، مرجع سابق، ج4، ص ص 356– 363. كما يوجد بالمكتبة الوطنية التونسية مخطوط تحت رقم 235 به ترجمة المؤرخ لمؤلف مجهول. أنظر: مقديش، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص 13، هامش 13.

[4]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 443 .

[5]– نفسه، مج1، مقدمة المحقق، ص 10 .

[6]– خوجة، مصدر سابق، ص 129 .

[7]– مقديش، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص ص 10، 11 .

وللزاوية النورية مستوى علمي كبير ورفيع، وهذا ما أهلها لتكون من أهم الزوايا في صفاقس خلال القرن الثامن عشر، "وكان بعض الطلبة يكتفي بما يتلقاه فيها ليصبح فقيها أو شاعرا أو ميقاتيا"[1].

وقد ضمت العديد من زوايا الأولياء الصالحين مدارس لصيقة لمعالمها الروحية، واحتكرت وظيفتي تعليم فقه الباطن أو ما اصطلح تسميته بعلوم الحقيقة أو علوم التصوف، وتعليم فقه الظاهر بما يحويه من علوم نقلية وعقلية مع التركيز على علوم الدين. ويظهر ذلك جليا في مدرسة "سيدي علي بن صالح" أسسها هذا الأخير بحومة الحوارث بالكاف في النصف الثاني من القرن 12هـ/18م، والتي لم يكن طلبتها فقط من مريدي الزاوية وأتباعها، بل كانت مفتوحة لكل الطلبة. وهي مدرسة تُدرّس القرآن والعلوم الدينية لسبعة عشر طالب آفاقي[2] ولكل من يأتي من طلبة الكاف، ويتعلمون تحت إشراف مؤدب لتعليم الكتابة ومدرس لتعليم العلوم. وبذلك تصبح المدرسة والوظيفة التعليمية كامتداد طبيعي لكل الزوايا تقريبا[3].

– الزوايا العسكرية:

وهي زوايا خاصة بالجنود، يتعلمون فيها كل ما يتعلق بالتدريب العسكري (الرماية، المدفعية، الفروسية...)، كما يتعلمون فيها أيضا روح القبلية والتضامن. وقد كانت هذه الزوايا بمثابة المدارس الحربية التي يتخرج منها الجنود والعسكر. ومن أشهر هذه الزوايا: الزاوية البقطاشية لأبناء المماليك، والبشيرية لأبناء الزواوة، وزاوية حلق الوادي[4].

وتثبت الإحصاءات أن عدد الزوايا كان يفوق عدد الجوامع والمدارس، فقد كان بمدينة تونس لوحدها حوالي 144 زاوية سنة 1235هـ/ 1819م، بالمقابل وصل عدد المدارس في نفس السنة إلى تسع عشرة مدرسة، وسبعة عشر جامع[5]. وقد ذكر الرحالة "الورثيلاني" الذي كان مغرما بذكر الصلحاء والأولياء[6]، الكثير من الزوايا وأضرحة الصلحاء التي زارها أو سمع بها أثناء رحلته إلى تونس، منها زاوية سيدي "إبراهيم الجمني" بجربة، وزاوية "سيدي محرز بن خلف"، و"سيدي علي بن زياد"، و"الشيخ المرجاني"، و"ضريح ابن عبد السلام" و"ابن عرفة" و"البُرزلي" و"ابن هارون"،

[1]– مقديش، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص 11.

[2]– الآفاقي، تعني الانتساب بالولادة أو الإقامة إلى مناطق خارج العاصمة . أنظر: قرين، مرجع سابق، ص 98 .

[3]– الحناشي، مرجع سابق، 69 .

[4]– الكعاك، مرجع سابق، ص 98 .

[5]– فتحي المرزوقي، " المؤسسات الدينية والمؤسسات الخيرية بمدينة تونس في القرن الثامن عشر: مقوماتها الاقتصادية ووظائفها الاجتماعية "، مج . ت . مغ، ع 83- 84، جويلية 1996 م، ص 193 .

[6]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 266 .

و"ابن راشد القفصي" بمدينة تونس وغيرهم. كما يذكر أن بمدينة صفاقس العديد من المزارات منها: "ضريح سيدي أبي الحسن اللخمي"، و"ضريح الشيخ النوري" وغيرهم من العلماء والأولياء والصلحاء ممن لا يمكن إحصاؤهم[1].

وما دام الإطار الزماني الذي نحن في صدد دراسته يخص القرن 18 وأواخر القرن 19م/ 12-13هـ، فإننا سنحاول التركيز أكثر على الزوايا التي تم تأسيسها أو تجديدها في هذه الفترة سواء من طرف الحكام أو أعيان البلاد أو الصلحاء أو غيرهم.

جدول رقم (2): نماذج لبعض الزوايا التي تم تأسيسها في الفترة الحسينية[2] :

الزاوية	مقرها	مؤسسها	تاريخ التأسيس أو الترميم
سيدي محرز بن خلف	مدينة تونس	اعتنى حكام الأسرة الحسينية بهذه الزاوية العريقة، فقد بنى حسين بن علي قبابا للزاوية، ثم أعيد تجديدها في عهد محمد الصادق باي	كانت في الأول منزل سيدي محرز بن خلف ثم حولت الى زاوية بعد وفاته.
سيدي إبراهيم	نهج العرافين بمدينة تونس	–	في النصف الثاني من القرن11هـ/18م
سيدي نصر القرواشي	تستور	بناها الحاج عبد الواحد المغراوي	1149هـ/1736م
سيدي المحجوب	قصور الساف بالمهدية	علي باي الثاني	–
سيدي عبد القادر	الحمامات	زاوية قديمة جددها الباي حمودة باشا	1213هـ/1798م
سيدي محمد البشير الزواوي (ت سنة	مدينة تونس أما خلوته وزاويته الأصلية فتوجد في	الباي حسين بن محمود	1242هـ/1826م

[1]– الحسين بن محمد، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار– الرحلة الورثيلانية– ، ج2، ط1،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006م، ص ص 753، 756، 770 .

[2]– تم انجاز الجدول من المصادر والمراجع التالية: خوجة، مصدر سابق . وابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7 . والسنوسي، مصدر سابق، ج1. و أيضا: الحناشي، مرجع سابق . للإشارة هنا أنه لم يتم ذكر الصفحات بسبب كثرتها وتفرقها .

1242هـ/1827م)	الطريق الرابط بين ماطر وباجة		
القادرية	الكاف	سيدي محمد بن عمار الميزوني	1250هـ/ 1834م
سيدي عبد القادر	نهج الديوان بمدينة تونس	–	1263هـ/1846م
إبراهيم الرياحي (ت سنة 1266هـ/1850م)	مدينة تونس	بناها المشير أحمد باي وجدّد قبتها محمد الصادق باي سنة 1295هـ/1878م	1267هـ/1850م
سيدي علي شيخة	مدينة تونس	الوزير مصطفى خزندار	1224هـ/1852م
سيدي أبي لبابة الصّحابي	قابس	حسن بن الطيب التونسي	1291هـ/1874م
العيساوية	قابس	–	1293هـ/1876م

وأخيرا نستنتج أن للزوايا دور تعليمي كبير لا يمكن أن يُستهان به، حيث كان يُخصص فضاء مستقل أو ملحق بالزاوية للتدريس، فقد شكلت مرحلة تحضيرية لزومية للانتقال إلى المراحل التعليمية العليا .

4. المساجد:

كانت المساجد وما تزال الركيزة الأولى للتعليم وأهم المنافذ الثقافية والعلمية، فإلى جانب ما تقدمه هذه المؤسسات من خدمات في الجانب الديني باعتبارها مؤسسة تقام فيها الشعائر الدينية، فإن لها دور تعليمي كبير. فمع مرور الوقت تطورت هذه المساجد حيث أصبحت جامعات تُدرس فيها المراحل النهائية للتعليم، مثل:الجامع الأعظم بالقيروان، والزيتونة بتونس العاصمة[1]. فهي قبلة ومنارة لتلقي العلوم من داخل وخارج الايالة[2]. والمساجد نوعان: مساجد صغيرة ومساجد كبيرة– الجوامع– وقد وضح "محمد بن الخوجة" الفرق بين الجوامع والمساجد، قائلا: "... غير أنه وقع الاصطلاح في تونس على جعل تمييز بين الجامع الذي تقام فيه الخطبة، وبين الذي لا خطبة له،

[1]– ديب، مرجع سابق، ص ص 153 ، 154 . أنظر أيضا: الحناشي، مرجع سابق، ص 18 .

[2]– الحناشي، مرجع سابق، ص 18 .

فخصصوا لفظ الجامع في المدن بالمسجد الجامع الذي تقام فيه الصلوات مع خطبة الجمعة والعيدين، وأطلقوا لفظ المسجد على مصلّى الخمس دون الجمعة والعيدين"[1].

والجدير بالذكر أن إيالة تونس تزخر بعدد كبير من المساجد المنتشرة بالحاضرة وفي الدواخل، فقد ذكرت "نجوى عثمان"[2] أن عدد المساجد بالقيروان التي يعود تاريخها إلى العهد العثماني تقدر بـ 43 مسجدا، موزعة بين الحومات والأنهج والأرباض[3]، وفي هذا السياق يذكر "حسين خوجة" أن الباي "حسين بن علي" أحيا في هذه المدينة ما ينيف عن الخمسين مسجدا[4]. أما في مدينة تونس، فوصل عددها إلى 294 مسجدا سنة 1234هـ/1819م[5]، منها من تأسست في العهد العثماني ومنها من يعود إلى قبل. وقد أشار الضابط "دوماس"Daumas" مبعوث وزير الحربية الفرنسية إلى تونس سنة 1266هـ/1850م، أن مدينة تونس كانت تعجّ بالمساجد، من بينها تسعة مساجد تقام فيها الخطبة – العيدين والجمعة– خمسة منها مالكية وأربعة حنفية [6].

والحديث عن المساجد يدفعنا للإشارة إلى تلك التي كانت تُبنى في قصور وبيوت الحكام، تقام فيها الصلوات الخمس جماعة، ومن هؤلاء الباي "حسين بن علي"، ويخبرنا "حسين خوجة" بذلك قائلا:"...إذ بنى في بيت مسكنه مسجدا مختصا للصلوات الخمس بالجماعة واستقاء سننها ونوافلها وأذكارها ...وما ينزل من منازل استراحته حين سفره وديار إقامته إلا وبنى به مسجدا في بيت سكناه."[7]

أما النوع الثاني من المساجد، هي المساجد الكبرى الجامعة، فقد عرفت هي الأخرى تطورا على مرّ العصور. كانت تقوم ببنائها السلطة الحاكمة وتتولى الإنفاق عليها وترتب لها الأئمة، ويتم تفقدها كما كان يفعل الباي "حسين بن علي" في شهر شعبان من كل سنة، ويعيّن منها

---

[1]– ابن الخوجة، مرجع سابق، ص 239 .

[2]– قدمت "نجوى عثمان"دراسة أكاديمية ميدانية جديرة بالاهتمام، تناولت فيها المهندسة الدكتورة دراسة تفصيلية لمساجد وجوامع القيروان عبر العصور. أنظر: مرجع سابق .

[3]– نفسه، ص 228 .

[4]– خوجة، مصدر سابق، ص 117 .

[5]– ابن الخوجة، مرجع سابق، ص ص 239 - 261 .

[6]– M. Philippe Daumas ,Quatre ans à Tunis, Tissier, Alger, 1887 , p.55 .

[7]– خوجة، مصدر سابق، ص 155 .

المحتاجة للإصلاح والترميم[1]. ويقوم بأمرها الحاكم أو من تُفوض إليه شؤونها كالقاضي والإمام وتُقام فيها الصلوات الخمسة والجمعة والعيدين والاستسقاء[2]. ومن أشهر المساجد الجامعة[3]، جامع الزيتونة– الجامع الأعظم– بالعاصمة تونس، الذي أصبح مع مرور الوقت محلا للتعليم تُلقى فيه الدروس العلمية على اختلاف مواضيعها وأنواعها. ولا يُعلم بالضبط تاريخ جعله مكانا للتعليم ولا تاريخ تنظيم التعليم فيه لأن تلك الدروس لم تكن في البداية نظامية بالأسلوب المتعارف عليه اليوم، فمن العسير ضبط تاريخ وجودها به.

بدأت الدروس تلقى فيه في القرن 3هـ/9م، ثم أخذت تنتظم شيئا فشيئا إلى بداية الدولة الحفصية سنة 603هـ/ 1206م، عندئذ بدأ يزدهر التعليم بالجامع، وظهرت تخصصات في مختلف الفنون والعلوم، فأصبح هناك تبادل في الآراء والأبحاث بين علماء الزيتونة وبقية علماء المشرق والمغرب[4]. وقد تخرجت منه في العصر الذي نؤرخ له كوكبة من العلماء أبرزهم، "محمد زيتونة"[5] و"محمد الخضراوي"، وغيرهما من العلماء والأدباء الذين لا يسعنا المجال لذكرهم جميعا.

هكذا إذن أصبح للجامع شأن عظيم، وعرف كمعهد علمي شهير، يتوافد عليه الطلبة والعلماء من مختلف أنحاء الإيالة، ومن خارجها (الجزائر، والمغرب الأقصى، والناحية الغربية للأندلس). ولهذا أصبح جامع الزيتونة أهم جامعة علمية بالمغرب الإسلامي[6].

عَرَف الجامع في القرن 10هـ/16م، تقهقرا وتراجعا في نشاطه العلمي، نتيجة لضعف الدولة الحفصية، ثم سقوطها نهائيا بعد الاحتلال الإسباني سنة 941هـ/1535م[7]. فقد نقل المؤرخون ومنهم "ابن ابي الدينار" الذي وصف لنا الإهانة التي تعرض لها الجامع: "أُهين المسجد الأعظم ونهبت خزائن الكتب التي به ودوست بأرجل الكفرة ...حتى قيل أن المار من شرقي الجامع حيث النواوريين الآن إنما يمر على الكتب المطروحة هناك...وسمعت أن النصارى ربطوا

---

[1]– خوجة، مصدر سابق، ص 159 .

[2]– ديب، مرجع سابق، ص 154 .

[3]– نود الإشارة هنا أنه تم ذكر نماذج فقط من المساجد الجامعة وليست كلها، والغرض هو الاستئناس بهاته النماذج والتوضيح للقارئ أنها تعتبر من أبرز وأعرق الجوامع بالإيالة التونسية، كما يمكننا أن نستخلص منها الدور الذي كانت تلعبه في تأدية الوظيفتين التعليمية والدينية في نفس الوقت .

[4]– محمد المختار بن محمود، "جامع الزيتونة "، م. ز، رمضان 1356هـ/ نوفمبر 1937م، مج2 ، ج2، ص 51 .

[5]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: الباب الأول، الفصل الثالث، ص ص 162، 162 .

[6]– Guellouz et autres , Op. Cit., p. 339.

[7]– محمد الباجي بن مامي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2006م، ص 22 .

خيولهم بالجامع الأعظم"[1]. وحسب "ابن الخوجة" الذي اطلع على كناش جدّه وهو من شيوخ الجامع، يخبرنا أنه لم يبقى في مكتبة الجامع إلا نحو عشرين مجلّدا، بقيت من خزائن سلاطين بني أبي حفص التي كانت تشتمل على أكثر من ثلاثين ألف مجلد مخطوط باليد[2].

أما عن العثمانيين فلم تسجل المصادر عناية الحكام بالجامع، خاصة في الفترة الأولى من حكمهم (982-1041هـ/1574-1631م)، حيث لم يسعوا إلى إحياء معالمه وترتيب دروسه، إذ قلّ التخصص في العلوم ونقصت التآليف، ولعل سبب ذلك ارتباطه بالمذهب المالكي، وهو ما يخالف مذهبهم الرسمي الحنفي[3]. لكن لم تدم هذه الحالة طويلا إذ استعاد الجامع مكانته الأولى بداية القرن 11هـ/17م نظرا لأهمية المذهب المالكي، ولِما يتمتع به الجامع من مكانة لدى مختلف الطبقات وخاصة منها العلماء[4].

أما في العهد الحسيني فقد عرف الجامع ازدهارا في الحياة العلمية، حيث دخل التعليم الزيتوني طور الترتيب، وذلك منذ تولي الباي "حسين بن علي"، ففي عهده زاد من عدد المدرسين والدروس المرتبة، وقد أشار "الوزير السراج " إلى ذلك في حلله بقوله: "بحيث إن الجامع الأعظم جامع الزيتونة غاية ما بلغ فيه قبل من عدد المدرسين من الشروق إلى الغروب نحو ثمانية... والحمد له إنه اليوم به نيف وأربعون مدرسا"[5]. وهذا ما يؤكده "الورثيلاني" من خلال رحلته حيث ذكر أنه لا يمكن إحصاء المجتمعون في جامع الزيتونة للإقراء والتدريس[6]. ونفس الفكرة يدعمها المؤرخ "محمد سعادة" الذي زار الأزهر وعاش فيه مدّة يقول: " يفوق هذا الجامع بذلك الجامع الأزهر"[7].

أما في مجال الشعائر الدينية، فقد رتب الباي "حسين بن علي" سنة 1117هـ/1706م حزبين[8] يرتل فيهما القرآن الكريم كل يوم بعد صلاة العصر من طرف أربعة عشر قارئا[1]، وعين "محمد زيتونة" شيخا عليهما[2]. كما أوقف الوزير "يوسف صاحب الطابع"[3] أوقافا لإقامة حزب

---

[1]– ابن أبي الدينار، مصدر سابق، ص 166 .

[2]– محمد بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص 289 .

[3]– ابن محمود، مرجع سابق، ص 52 .

[4]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 22 .

[5]– السراج، مصدر سابق، مج3، ص ص 132، 133 .

[6]– الورثيلاني، مصدر سابق، ص 763 .

[7]– السراج، مصدر سابق، مج1، ص 62 .

[8]– اشترط المحبس الباي "حسين بن علي" أن يُقرأ الحزبين بعد موته على قبره هذا في حالة ما إذا دفن في مدينة تونس أو أحوازها، أما إذا وافته المنية خارج البلاد التونسية، فاشترط أن تبقى عادة قراءة الحزبين بجامع الزيتونة كما كان معمول به في حياته . أنظر: "وقفية الباي حسين بن علي

لترتيل القرآن. وللنساء أيضا مساهمة في إحياء القرآن بالجامع الأعظم فقد أسست الأميرة "تركية بنت علي باشا" حزبا وجعلته وقفا عليها. وهكذا عُمر الجامع بترتيل الأحزاب التي كانت ترتب بفضل المحسنين من كبار الدولة[4].

والجدير بالذكر أن الأسرة الحسينية لم ينصب اهتمامها على الجامع الأعظم فقط واتخاذه مركزا وحيدا للإشعاع الديني والعلمي، وإنما سعت إلى إنشاء وتأسيس مساجد أخرى مماثلة لجامع الزيتونة منها:

– الجامع الجديد:

يقع بحي الصباغين بعاصمة الإيالة، وهو أول جامع شيّد في الفترة الحسينية، بناه الباي "حسين بن علي" في النصف الأول من القرن 12 هـ/ 18م[5]، قال "ابن ابي الضياف": "ومن مآثر هذا الباي جامعه المعروف بالجامع الجديد"[6]، أما "الصغير بن يوسف" فيصف الجامع قائلا : " ...ثم أمر بجدّ واجتهاد في بناء الجامع بإزاء التربة المشهورة باسمه، وأنفق على بنائه أموالا عظيمة وجلب إليه العمد الرخام من بلاد النصارى، والجليز من بلاد الترك، لا يقدر على صنعة مثله غيرهم لا غربا ولا شرقا...وجاء جامعا من أرفع الجوامع"[7]. ويخبرنا الرحالة الألماني"هابنسترايت"

لصالح القراء والمجودين بجامع الزيتونة"، بتاريخ أواسط ربيع الأول 1118هـ/ أواخر جوان 1706م". السعداوي، مرجع سابق، ص ص 350-354 .

[1]– نفسه، ص 352 . وأيضا: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج1، ص 30 .

[2]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 57 .

[3]– ولد حوالي سنة 1170هـ/ 1756م، يُكنى بأبي المحاسن أصله من البغدان – ملدافيا– حاليا، جُلب صغيرا من موطنه إلى استانبول وهناك اشتراه"بكار الجلولي" قايد صفاقس، وجلبه معه إلى تونس ليعيش في عائلة الجلولي. تعلم اللغة العربية وأخلاق أهل البلاد وعاداتهم. وفي سنة 1196هـ/ 1782م أهداه صاحبه للباي "حمودة باشا" يوم مبايعته بالحكم. ونظرا لما كان يتمتع به من فطنة وذكاء حاول الباي أن يقربه إليه ويمنحه خطة صاحب الطابع وكان ذلك سنة1197هـ / 1783م، وما أن توفي الوزير الأول "مصطفى خوجة"، حتى عين يوسف صاحب الطابع مكانه حاملا لقب "الوزير الأول"، ونظرا للمكانة المهمة التي حظيها الوزير لدى حاكمه، يخبرنا "ابن ابي الضياف" انه منعه من الزواج لأنه كان يبيت معه في سرايا الرجال. وهذه المكانة التي بلغها يوسف صاحب الطابع جعلته يتعرض لحسد الكثيرين . توفي سنة 1230هـ/ 1815م.
لمزيد من التفاصيل حول هذه الشخصية. أنظر: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 89-100 .
S.Zemerli, « Une fugure oubliée: Youssef Saheb Et-Tabaà »,R .T, N°21,1935, p p. 37- 44.

[4]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 57 . أنظر أيضا: ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 78. وكذلك: الحشايشي، تاريخ جامع الزيتونة، مرجع سابق، ص ص 26- 28 .

[5]– زبيس، مرجع سابق، ص 40 .

[6]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 161 .

[7]– الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج1، ص ص 31، 32 .

"Hebenstreit" أثناء زيارته لمدينة تونس سنة 1145هـ/1732م، أنه أُعجب بهذا الجامع الذي قال عنه، إنه رائع البناء وزاد من جمال المدينة، ويذكر أن تصميم الجامع من انجاز مهندس فرنسي حيث جعل تصميمه يشبه "قبة الأنفليد" " Invalides " بباريس[1].

أقيمت بالجامع أول صلاة ظهر يوم الأحد 14 شعبان 1139هـ/ 05 أفريل 1727م[2]. وأول خطيب عُيّن بالجامع، هو "أبو العباس أحمد بن مصطفى النميشي الحنفي". ومن خلال رسوم التحبيس الخاصة بالجامع، نجد أن الباي "حسين بن علي" اشترط أن يكون إمام الجامع من الحنفية وأن يكون الإمام هو الخطيب[3].

– جامع يوسف صاحب الطابع :

الظاهر أن المساجد لم يقتصر بناؤها على الحكام فقط، بل شارك في تأسيسها كبار موظفي ورجال الدولة، ونخص بالذكر الوزير"يوسف صاحب الطابع" والمعروف "بأبو المحاسن"، الذي بنى جامعا في عهد "الباي حمودة باشا" (1196-1229هـ/1782-1814م) من ماله الخاص[4] بسوق الحلفاوين[5]. ويقال أن مكان بناء المسجد كان موضع رمي للقمامة، فبدأ الوزير بإزالتها وتهيئة المكان سنة 1222هـ/ 1807م[6]. وتمّ ابتداء البناء فيه يوم الأحد غرة محرم 1223هـ/ 27 فيفري 1808م، وأقيمت به أول صلاة يوم الجمعة المصادف لعيد المولد النبوي الشريف 12 ربيع الأول 1229هـ/ 2 أفريل 1814م[7]، حضرها الباي ووزراءه[8]. وبعد الانتهاء من بناء الجامع انهالت القصائد من الأدباء والعلماء تمدح فيها الوزير ومنجزاته، منها القصيدة التي نظمها "إبراهيم الرياحي"، جاء في مطلعها[9] :

---

[1]– ج. أو. هابنستريت، رحلة إلى الجزائر وتونس وطرابلس(1145هـ / 1732م)، ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، ب.ت . ن، ص 113 .

[2]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد ...، مرجع سابق، ص 161 .

[3]– "وقفية خاصة بالجامع الجديد ومدرسته بتاريخ ذي الحجة 1142هـ/ جويلية 1730م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 194-219.

[4]– الهادي بن يونس بن محمد الانكشاري، الدولة الحسينية (1705- 1855م)، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، ب. ت . ن، ص 79 .

[5] – M. Philippe Daumas , Quatre ans à Tunis ,Tissier , Alger,1887, p. 48 .

[6]– الحشايشي، العادات والتقاليد...، مرجع سابق، ص 235 .

[7]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 91 .

[8] – نفسه. أنظر أيضا: نفسه، ج3، ص 59 .

[9]– نفسه، ج7، ص 92 .

ذكر جميل يوسف قد جدده *** وذخيرة في الصالحات مخلده

ذا الجامع الحسن الذي هو جنة *** لولا رسوم الدين فيه مردده

أما عن موقعه فتذكر وثيقة خاصة بتحابيس يوسف صاحب الطابع لصالح جامعه المذكور أنه بُني "جوار الشيخة مسيكة[1] بالمحطب قرب الحلفاوين من ربض باب السويقة من محروسة تونس"[2]. باشر في بناء الجامع ومعه المدرسة الملاصقة له[3]، المهندس الحاج "ساسي بن فريجة"[4]، والظاهر أن الأسرى الأوربيين أيضا ساهموا في البناء، فقد عثر"ابن الخوجة" على قائمة أسماء سبعة وعشرين أسيرا، نعتهم فيها كاتبها بلفظ" نابليطان"[5]. فقد وافق بناء الجامع وجود الكثير من الأسرى بدهاليز أبراج غار الملح، وترسخانة حلق الوادي وسجون تونس. ولهذا أذن الباي "حمودة باشا" بجعلهم تحت تصرف وزيره لاستخدامهم في البناء[6].

وقبل أن نختم الحديث عن جامع صاحب الطابع لابد الإشارة إلى أن الوزير قام بإعادة بناء وتصليح الجوامع والمساجد المهددة بالانهيار، منها جامع العبيدي بالزاوية البكرية. وجامع آخر بحومة السبخاء بربض باب الجزيرة، وهنا يذكر لنا "ابن أبي الضياف" كيف أن الوزير ساهم في إعادة إحياء هذا الجامع الذي تداعى للانهيار وكان ذلك صدفة بعدما نزل لصلاة العصر في الجامع المذكور وهو في طريقه للمحمدية، وبعد انتهاء الصلاة لاقاه أهل المنطقة وقالوا له: " إن جامعنا تداعى للخراب وليس له وقف يفي بإصلاحه، نطلب منك إصلاحه". واستجاب الوزير لطلبهم وأعاده أحسن مما كان عليه وفي وقت قصير، وبنى بقربه مكتبا وخصص له أوقافا[7].

كما عرفت القيروان خلال العهد الحسيني، حركة علمية نشيطة خاصة بعد أعاد "حسين بن علي" بناء المدينة جراء الخراب الذي تعرضت له من طرف الباي المرادي "مراد الثالث"[8] فقد أصبح فيها ما يفوق الخمسين مسجدا، يدرس فيها أشهر المدرسين، بمرتبات حسب كفاءتهم[9].

---

[1]– ولية صالحة يوجد ضريحها قرب الجامع. كان هناك نهج باسمها، ولكنه تهدم في حركة توسيع نهج الحلفاوين. أنظر: محمد الطاهر المعموري، "وثيقة عن تحابيس جامع صاحب الطابع"، م.ت.مغ، ع 55– 56، ديسمبر 1989م، ص 246، هامش 4 .

[2]– نفسه، ص ص 246، 247 .

[3]– سيأتي الحديث عنها لاحقا في الموضوع الخاص بالمدارس .

[4]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 92 .

[5]– أصيلي مدينة نابولي الواقعة جنوبي إيطاليا .

[6]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد ...، مرجع سابق، ص 223 .

[7]– ابن ابي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 94، 95 .

[8]– تمت الإشارة إلى ذلك سابقا، أنظر: مدخل دراستنا، ص 33 .

[9]– خوجة، مصدر سابق، ص 117 .

5. المدارس:

وُجدت المدارس منذ العهد الإسلامي المبكر لتدريس المذاهب الأربعة إلى جانب قراءة وحفظ القرآن وتجويده وتفسيره وتدريس الحديث والشريعة والفقه. ويُقال أنه ربما حتى درست فيها علوم عقلية كالطب والكيمياء[1]. وتعتبر المدارس مقرا ومكانا للعلم في المغرب الإسلامي الكبير منذ العهد الحفصي، تقليدا للمدارس التي أنشأت بالمشرق[2]، ولهذا كانت الدولة الحفصية أول مُؤسِسَة لمدارس العلم في المغرب. فقد أسس الخلفاء والأمراء والأميرات المدارس، فسنوا بذلك سنة حميدة لوزرائهم وأصحاب الجاه والثروة في عهدهم[3]، وسعوا لتأسيسها خدمة للدعـوة الموحديـــة وضمانا لتخريج الموظفين الأكفاء للقيام بأعباء الحكم[4].

ومما لا شك فيه أن ما ساعد على بعث المدارس في جميع أنحاء العاصمة هو ضيق رحاب جامع الزيتونة بحلقات التدريس وازدحامه بالطلبة والعلماء والوافدين من داخل وخارج الإيالة، وتهافت رواد العلم والمعرفة على علماء وشيوخ الزيتونة[5].

ومع مجيء الأتراك العثمانيين في القرن 10هـ/ 16م، اعتبروا أن نشر المذهب الحنفي لا يكون إلا عن طريق المدارس التي يعين فيها مُدرسين لتدريس المذهب الحنفي[6]، على خلاف المساجد فالشخص حر يدرس المذهب الذي يريده، كما أنها تنشر العلم بصفة عامة لا مذهب معين[7].

وبالرغم من ميول البايات والدايات من قبل نحو المذهب الحنفي، إلا أنهم اتبعوا سياسة تتميز بالحنكة، فقد عملوا على تجديد المدارس القديمة كالمدرسة الشماعية والمنتصرية[8]، وبناء الجديدة منها. وبالتالي فقد أفسحت المدارس التي انتشرت في مختلف أنحاء البلاد، المجال للطلبة

---

[1] – الحناشي، مرجع سابق، ص 18.

[2] – يعود ظهور المدارس في المشرق إلى عهد الدولة العباسية، وأولى المدارس كانت في بغداد، لما وضع أبو جعفر المنصور حلقة الطب التي فوض أمرها إلى "فرات بن سحتاثا" الطبيب الفارسي. أنظر: محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 50 .

[3] – الطويلي، مراكز الثقافة...، مرجع سابق، ص 33 .

[4] – خوجة، مصدر سابق، ص 47 .

[5] – الطويلي، مراكز الثقافة...، مرجع سابق، ص ص 33، 34 .

[6] – بنى يوسف داي مدرسته ومسجده اللذان سميا على اسمه، بسوق الترك قرب الجامع وعين على رأسها رمضان أفندي لتدريس المذهب الحنفي. أنظر: مدخل دراستنا، ص ص 21، 29

[7] – خوجة، مصدر سابق، ص 48.

[8] – نفسه .

للإقامة وتلقي التعليم الذي يؤهلهم للالتحاق بجامع الزيتونة[1]، فكانت تمثل المرحلة الثانية في العملية التعلمية بعد الكتاتيب. وتَمثل دورها في تأهيل الطلبة لمزاولة التعليم في جامع الزيتونة وفروعه. وتنقسم إلى صنفين:

الصنف الأول: ويشمل المدارس التي أسسها الحكام، والتي يتصرف فيها ويشرف عليها بصورة عامة نظام الحكم – الدولة –[2]، وبالتالي يمكننا أن نطلق عليها مصطلح "المدارس الرسمية" [3].

الصنف الثاني: يشمل المدارس التي أسسها الخواص كالأولياء الصالحين والأثرياء والشخصيات الكبرى في الدولة...[4] لتكون رباطا لطلبة العلم[5]. ولهذا فقد تعددت مدارس العلم في القرون الثلاثة التي عاشها الحكم العثماني بإيالة تونس، ولكن القرن 12هـ/18م استأثر بالنصيب الوافر، حيث تأسست فيه العديد من المدارس .

علما أن إنشاء المدارس كان يرتبط ارتباطا وثيقا بالحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تكون عليها البلاد آنذاك. فإن كانت الفترة يسودها رخاء وازدهار تكون الحظوظ أوفر لإنشاء مدرسة أو أكثر. وإن كانت فترة أوبئة ومجاعات وحروب أو عدم استقرار سياسي، يكون من الصعب إقامة أي مَعلم. كما أن وجود اضطرابات أو حرب أهلية أو تصادم عسكري مع دولة أخرى، يفسر في كثير من الأحيان عدم تأسيس مدارس في تلك الفترة. ففي الفترة الأولى من حكم الباي "حسين بن علي" التي دامت من (1117-1140هـ/1705-1728م) كانت من أفضل وأزهى الفترات، ويعبر عن ذلك الرخاء "حسين خوجة" في قوله : "...وأمنت الطرقات وكثرت في أيامه الخيرات، فعمرت الرباع والرباض وبنوا القصور بأمنه المستفاض ما لم يكن في زمن غيره من المتقدمين"[6].

وأثناء هذه الفترة بنى هذا الباي ثلاث مدارس[7]، ولأول مرة في تاريخ تونس يؤسس شخص واحد أكثر من مدرسة. فأرجع بهذا للعلم هيبته ورواجه[8]. ولكن هذا الأمن والاستقرار لم

---

[1]- المرزوقي، مرجع سابق، ص 201 .

[2]- نفسه، ص 194 .

[3]- ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 87 .

[4]- نفسه .

[5]- خوجة، مصدر سابق، ص 47 .

[6]- نفسه، ص 115 .

[7]- سيأتي الحديث عنها لاحقا .

[8]- ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 120 .

يستمر بسبب الحرب الأهلية[1] التي قامت بين هذا الأخير وابن أخيه "علي باشا" الذي ثار عليه، مطالبا بالحكم. واستمرت الفتنة أزيد من عشر سنوات، وانقسم سكان البلاد إلى "باشية" وهم أتباع "علي باشا" "وحسينية" وهم أتباع "حسين بن علي"[2]. وفي خِضم هذه الظروف السياسية والأمنية الصعبة التي سيكون عليها تأثيرات جانبية على الحياة العلمية والفكرية، نجد أن الباي "حسين بن علي" لم يبن أي صرح ثقافي أثناء الحرب الأهلية، فآخر مدرسة بناها، هي مدرسة الجامع الجديد سنة 1139هـ/1727م. وطِوال الحرب الأهلية التي بدأت سنة 1142هـ/ 1728م لم تُبن أية مدرسة [3]. وهذا دليل على أن المدارس وغيرها من المؤسسات العلمية لا تبنى إلا في فترات السلم. فبعد أن أصبح "علي باشا" (1148-1170هـ/1735-1759م) حاكما للبلاد واستتبت الأمور له، استطاع هو الآخر أن يبني ويشيد أربع مدارس أخرى[4] .

أ. المدارس الرسمية :

أ.1. المدارس الحسينية بمدينة تونس :

– المدرسة الحسينية الصغرى :

تسمى أيضا "بمدرسة ساباط عجم"[5] بناها الباي "حسين بن علي" مع بعض المنشآت الأخرى، منها تربته[6] المعروفة حاليا باسم "تربة الفلاري" التي أعدها لنفسه ولقرابته، وبقربها كُتّابا

---

[1]– ففي بداية الأمر لم يشغل بال "حسين بن علي" قضية الوراثة لأنه لم يرزق بودل في الأول، فتبنى ابن أخيه علي بن محمد، وأحسن تربيته وتعليمه، وبدأ يرسله إلى سفر المحال بدءا من سنة 1118هـ/ 1706م، لكن الأمور تغيرت بعد أن رزق بأربعة أولاد(محمد، وعلي، ومحمود، ومصطفى) من أسيرة جنوية. أنظر: محمد صالح مزالي، الوراثة على العرش الحسيني ومدى احترام نظامها، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969م، ص 15 .

[2]– للاطلاع على تفاصيل هذه الفتنة يمكن الرجوع إلى العديد من المصادر، منها: السراج، مصدر سابق، مج3. وأيضا: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3 . أنظر أيضا: Cherif, Op.Cit., T2 .

[3]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 121، هامش 948 .

[4]– نفسه، ص 121.

[5]– وهو حي صغير من أحياء المدينة تونس يوجد داخل الباب الجديد. أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 159، هامش 4 .

[6]– يعتبر الباي "حسين بن علي" أول من فكر في بناء مكان يدفن فيه هو وعقبه، ويقول السراج: "...وباشر في بناء تربة لشدة ما له من استحضار الموت، وخوف الفوت، ووقوفه بين يدي ربه سبحانه وتعالى". أنظر : مصدر سابق، مج3، ص 133 .

توجد المدرسة الحسينية الصغرى والتربة الملاصقة لها في حي تربة الباي، عند التقاء نهج تربة الباي بنهج سيدي الصوردو. أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص141، هامش 165 .

يذكر "ابن مامي" الذي أعد دراسة قيّمة حول مدارس مدينة تونس، أن هذه المدرسة تعرضت إلى اقتحام عائلة تونسية قامت بتحويلها إلى مسكن خاص بها، لذلك يذكر أنه تعذر عليه الدخول إليها ودراستها من الداخل، بحكم الوضعية غير قانونية لهذه العائلة (كان هذا في الثمانينات من القرن العشرين). لكن فيم بعد تم تجديد المدرسة وبيعت أخيرا لشخصين قسّما المعلم إلى جزأين . أنظر: مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 265 .

لتعليم القرآن الكريم[1]، ويذكر "الوزير السراج" أن بداية أشغال بناء التربة كان سنة 1120هـ/1708م، والانتهاء منها كان سنة 1122هـ/1710م[2]، أما أشغال المدرسة، فكان الانتهاء منها سنة 1124هـ/ 1712-1713م[3]. وقد أشاد "الوزير السراج" بانجاز الباي في قصيدة جاء فيها[4] :

أروض مغفرة بالنور قد غُشِيَ *** أم تاجُ مملكة بالحُسْنِ قد وَشِيَ

أم تربة نشأت عن إذن مُعْترفٍ *** بأنَّ راحَ المنايَا للفنا مُلِيَ

حسين بن علي باي مملكةٍ *** من عَدْلِهِ كلّ ملك في الوَرَى نُسِيَ

ولبناء كل هذه المنشآت، قام الباي بهدم دار وطاحونة ودار لصنع الصابون الواقعة بالقرب من دار الداي "أسطا مراد" ، كان قد اشتراها لهذا الغرض[5]. أما عن موقعها فتوجد هذه المدرسة في نهج سيدي الصوردو– نهج ساباط عجم سابقا–، وبغض النظر عن تربة الفلاري والكتّاب اللذين يوجدان بقربها، فإنها مكانيا تقابل المدرسة الحسينية الكبرى التي بناها ابن الباي "حسين بن علي" وهو "علي باي الثاني "، وبحذوها مسجد ابن سالم. أما تربة الباي فإنها تبعد بضعة أمتار عن هاتين المدرستين. كما يوجد خلفها نهج تربة الباي الذي تقع فيه المدرسة المغربية. أما في الجهة الجنوبية الشرقية لهذه المدرسة، فيوجد أحد القصور الجميلة ويعرف باسم" دار بن عبد الله"[6]. وهذا يدفعنا للقول أن البايات الحسينيين اهتموا بهذا الحي، وما يؤكد ذلك كثرة المعالم الدينية الموجودة به.

– مدرسة النخلة:

أسندت إلى هذه المدرسة عدة تسميات، فقد عرفت بالحسينية الكبرى[7]، ثم بمدرسة

---

[1]– الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج1، ص 30 .

[2]– مصدر سابق، مج3، ص ص 133 ، 134 .

[3]– خوجة ، مصدر سابق، ص 159 .

[4]– السراج، مصدر سابق، مج3، ص 134 .

[5]– "وقفية للباي حسين بن علي لصالح المدرسة الحسينية الصغرى، بتاريخ أواخر صفر 1123هـ/ أفريل 1711م". السعداوي، مرجع سابق، ص ص 141 – 151 . أنظر أيضا "رسم تحبيس بتاريخ أواخر صفر 1125هـ / أواخر مارس 1713م" . نفسه ، ص ص 159 ، 160 .

[6]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، ص 263 .

[7]– كانت تعرف في القرن 12هـ/ 18م بهذا الاسم، وعند بناء "علي باي الثاني" لمدرسته الكائنة بنهج سيدي الصوردو– سيأتي الحديث عنها لاحقا– ، أطلق عليها اسم "الحسينية الكبرى"، وأصبح يطلق على مدرسة "حسين بن علي" بمدرسة النخلة ليقع التمييز بينهما. أنظر: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 412 .

الطّيبيّين[1]، وأخيرا أطلق عليها اسم مدرسة النخلة[2]، نسبة إلى النخلة الموجودة بالمدرسة التي رآها المؤرخ "محمد الصغير" بأم عينه حيث يقول: "...وبها اليوم نخلة قصيرة في وسط المدرسة، رأيتها طعمت عراجن البسر"[3].

تعتبر النخلة المدرسة الثانية التي أسسها "حسين بن علي"، وذلك بعد فترة وجيزة من الانتهاء من بناء المدرسة الحسينية الصغرى. كان بناؤها سنة 1126هـ/ 1714م[4] بالقرب من جامع الزيتونة في مكان فندق معد لبيع الزبيب متصل من جهاته الأربع ببيوت للجَرابَة[5] –نسبة إلى جزيرة جربة–. وقد ورد في رسم حبس للمدرسة أن : " مولانا حسين باي المالك المذكور هدم جميع الفندق المبدأ بذكره وجميع الحوانيت الموالية له في الذكر المجاورة له، وجعل في ساحة ذلك مدرسة ذات باب شرقي ... وجعل المدرسة المذكورة مشتملة على أربعة عشر بيتا ومسجدا وميضأة"[6]. وللإشارة فان هناك من المؤرخين من يذكر أن المدرسة الحسينية الكبرى بنيت على أنقاض مدرسة قديمة، ومن هؤلاء "الوزير السراج" الذي يقول: "إنها كانت في قديم الزمان مدرسة أيضا ثم انتقل أمرها عند اضطراب الفتن والفناء الخارق"[7].

ومن الطبيعي أن يكون موقع هذه المدرسة هاما، فهي من أقرب المدارس للجامع الأعظم، كما تلتصق بها مدرستان أخريان، وهما المدرسة الباشية والسليمانية، ويذكر "ابن مامي"، أن هذه المدارس الثلاث تمثل كتلة واحدة، وهو المثال الوحيد في الإيالة لاجتماع ثلاث مدارس في نفس المكان، وقد فتحت أبواب داخلية تسمح بالمرور من مدرسة لأخرى. إلا أنه فُصلت عنها مدرسة النخلة. وخلال السنوات الأخيرة فُصلت السليمانية عن الباشية[8].كما بُني في الجدار المواجه لها

---

[1]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 158 .

– أطلق عليها هذا الاسم نسبة لوجودها في الشارع الذي كانت تباع فيه الزهور، والذي كان يعرف باسم الطيبيين . أنظر: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 267 .

[2]– المسعودي، مصدر سابق، ص 120 .

[3]– الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ص 31 .

[4]– المسعودي، مصدر سابق، ص 120 .

[5]– السراج ، مصدر سابق، مج3، ص 167 . أنظر أيضا: خوجة، مصدر سابق، ص 160 .

[6]– "رسم تحبيس لصالح مدرسة النخلة ، بتاريخ أوائل جمادى الثانية 1126هـ/ جوان 1714م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 186.

[7]– السراج، مصدر سابق، ص 167 .

[8]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 267، هامش8 .

حمام القشاشين، ويوجد شرقي هذه المدرسة الكثير من المعالم الدينية (المساجد، والزوايا، والتّرب...). وفي جنوبي المدرسة السليمانية مسجد الخمسة الذي يعود إلى العهد الفاطمي[1].

– مدرسة الجامع الجديد:

هي آخر المدارس الثلاث التي بناها "حسين بن علي" بمدينة تونس، وهي تعد نوعا خاصا ومثالا فريدا، إذ لا تحتوي على مسجد خاصّ بها مثلما هو الشأن بالنسبة للمدارس الأخرى، فهي المدرسة الوحيدة التي تستعمل الجامع الملاصق لها وهو مسجد سيدي خليل المسدوري[2]. بنيت المدرسة في صحن الجامع الجديد ويعرف أيضا بجامع الصباغين، وهو من تشييد الباي "حسين بن علي"[3]. ويعلمنا "حسين خوجة" أن الباي أزال ثلاث خمارات كانت متواجدة قرب مسجد الشيخ سيدي خليل المسدوري، وبنى عوضها دورا للسكنى، أما بقية المكان فقد بنى عليه مدرسة وجامع وصومعة وتربة أعدها لنفسه[4]. وكان الابتداء في وضع الأساس أوائل جمادى الأخرى 1136هـ/ أوائل مارس 1724م[5]. وقد ورد في رسم تحبيس للجامع تفاصيل أكثر دقة مما أوردته المصادر عن المنشآت التي قام الباي ببنائها بالقرب من دار "عثمان داي" (1007-1019هـ/ 1598-1610م) حيث قام: "بهدم جميع الحمام المبدأ بذكره والزّندالة[6] الموالية له في الذكر وما هو من حقوقهما وما أضيف للحمام من الفرناق، وأحدث في ساحة جميع ذلك مسجدا جامعا للصلوات الخمس والجمعة والعيدين ذا أبواب وبصحنه مدرسة مشتملة على خمسة عشر بيتا وبإزاء الجامع من الناحية الغربية تربة أعدها لدفنه بعد العمر الطويل في عزّ مستطيل، وبإزاء التربة المذكورة من الناحية الغربية تربة أخرى أعدها لبعض محارمه، وميضأة مشتملة على كنف ومحلّ وضوء وغير ذلك

---

[1]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 267 .

[2]– يقع داخل باب الجزيرة بمدينة تونس. أنظر: خوجة، مصدر سابق، ص 161.

[3]– يذكر "ابن مامي" أنه باستثناء هذا الجامع لا يوجد مثال آخر لجامع استُعمل صحنه كمدرسة. لأنه حتى في صورة بناء جامع ومدرسة في نفس المكان –كالجامع والمدرسة التوفيقية وكذلك اليوسفية– فإن كلا من المعْلَمين يكون مستقلا بنفسه (أي تكون المدرسة مستقلة عن الجامع). واختيار الباي "حسين بن علي" لهذا الحل، راجع ربما إلى ضيق المكان . أنظر: مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 279، هامش 1 .

[4]– أمر الباي أن يدفن فيها "سيدي قاسم الصبابطي"(تعرف اليوم هذه التربة باسمه)، وكذا الولي "سيدي قاسم الزواوي" ، وطلب أن يترك له مكانا بينهما لدفنه. لكنه لم يُكتب له أن يدفن في التربة لأن ابن أخيه "علي باشا" طلب أن يدفن خارج التربة، بينما دَفَن والده "محمد بن علي التركي" في المكان الذي خصصه الباي "حسين" في حياته لدفنه فيه. أنظر: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج1، ص 31 .

[5]– خوجة، مصدر سابق، ص 161 . أنظر أيضا: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج1، ص 31 .

[6]– تطلق كلمة زندالة في مدينة تونس على السجن أو الحبس عامة وتعني بالخصوص المكان الذي يحبس فيه الأسرى الأوربيون. أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 41 .

مدخلها من المدرسة، وجعل الله ذلك في خالصا لوجهه الكريم..."[1]. أقيمت فيه أول صلاة، ظهر يوم الأحد في المنتصف من شهر شعبان 1139هـ/ 06 أفريل 1727م، وحضرها الباي بنفسه[2].

وبما أن صحن الجامع قد احتوى على المدرسة، فمن الراجح أن الابتداء في تشييد الجامع كان قبل بناء المدرسة، إلا أن المؤرخ "الصغير بن يوسف" يذكر عكس ذلك حيث أن الباي "حسين بن علي" بنى أولا المدرسة، ثم أمر بعد ذلك ببناء الجامع. لكن ما نعلمه أن صاحب"المشرع الملكي" قد حرّر الكتاب بعد حوالي سبع وثلاثين سنة[3] من تشييد هذا المعلم وهو لم يأت إلى تونس إلا في فترة حكم "علي باشا"[4]. إلا أن هذا المؤرخ يمدنا بمعلومات هامة حول بناء الجامع والمدرسة، فيذكر أنّ الباي أنفق أموالا طائلة على بنائهما، وأنه جلب أعمدة الرخام من بلاد النصارى –ولم يذكر البلد بالضبط. نعتقد أنها ايطاليا لأنها كانت مشتهرة بإنتاجه–، أما الجليز، فأتى به من استانبول [5].

– مدرسة حوانيت عاشور[6]:

تعرف أيضا بالمدرسة العاشورية، وهي أول مدرسة أسسها الباي "علي باشا"(1148-1170هـ/1735-1759م) سنة 1151هـ/1738م[7]، لفائدة الطلبة المالكية. جاء في رسم

---

[1]– "حبس لفائدة الجامع الجديد والمدرسة بتاريخ أواسط حجة الحرام عام 1142هـ / جويلية 1730م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 213، 214 .

[2]– خوجة، مصدر سابق، ص 161 .

[3]–كان تأليف كتاب "المشرع الملكي" سنة 1177هـ/1763- 1764م، وهي السنة التي توفي فيها المؤرخ. أنظر: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص 5 .

[4]– الصغير بن يوسف كرغلي النسل، والكرغلي يتميز بانتفاعه براتب شهري، إلا أنه مطالب بالخدمة العسكرية إذا ما اقتضى الأمر. لذلك فقد اشتغل بالجيش طيلة فترة الحرب الباشية الحسينية في كثير من القرى والمدن . لذلك من الطبيعي أن نجد هذا المؤرخ الجندي لا يصبّ اهتماماته على المنشآت المعمارية، وربما هذا الذي جعله يقع في الخطأ . أنظر: نفسه، ص ص 5 ، 6.

[5]– نفسه، مج3، ص 31 .

[6]– اشتق اسمها من اسم الحي الذي توجد فيه .

[7]–"رسم حبس الدار على الشيخ المدرس بمدرسة حوانيت عاشور بتاريخ أواخر شعبان عام 1151هـ/11 ديسمبر 1738م". أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 432، 433 .

– إن هذه الوثيقة تصحح تاريخ تأسيس المدرسة المتداول عند بعض المؤرخين، أمثال: ابن خوجة، تاريخ معالم التوحيد...، ص 315. وابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 307. حيث يذكران أن المدرسة تأسست سنة 1159هـ/1746م. وهذا غير منطقي، لأنه من غير المعقول أن يتم تحبيس منزل لمدرس المدرسة، والمدرسة في حد ذاتها لم يكتمل بناءها .

التحبيس[1]، أن الباي "أحدث مدرسة شرقية الباب، ضخمة البناء واسعة الفناء، مشتملة على بيوت[2] ومسجد وميضأة، أعدها لقراءة العلم الشريف الكائنة بقنطرة ابن شاكر وحوانيت عاشور داخل باب السويقة من تونس المحروسة"[3].

وعند إتمامه لبناء هذه المدرسة، بنى حذوها مكتبا وتربة خاصة به. إذ تفيدنا إحدى الوقفيات المؤرخة في أواسط ربيع الثاني عام 1195هـ/ ماي1746م بمعلومات متعلقة بهذه المنشآت، جاء فيها:"...التربة الغربية[4] الباب المحدثة البناء الكائنة جوار المقام الشاذلي بجبل الجلاّز، خارج باب عليوة من تونس المحروسة". وجاء فيها أيضا: "وبعد صدور ما ذكر أحدث المحبّس المذكور مكتبا شرقي الباب معتليا على حانوتين شرقي المفتح أيضا محدثي البناء بساحة المدرسة المذكورة"[5].

ولبناء هذه المدرسة يفيدنا "الصغير بن يوسف" أن الباي "علي باشا" صرف على المدرسة أموالا طائلة[6]. أما عن موقعها فهي تقع بمقربة من مدرسة ابن تافراجين[7]، في ملتقى أنهج سيدي "إبراهيم الرياحي" من ناحية، ونهج حوانيت عاشور الذي يفضي إلى نهج سيدي محرز من ناحية أخرى.

- **المدرسة الباشية:**

أسسها "علي باشا" سنة 1166هـ/1752م[8]، أي بعد ثلاث عشرة سنة من توليه الحكم، وهي ثاني المدارس التي بناها بمدينة تونس، وتعرف "بمدرسة القشاشين" لكنها اشتهرت "بالباشية" نسبة إلى مؤسسها، وتصنّف من بين أجمل المعالم التي أنشأها. ويحدثنا "الصغير بن يوسف" أن

---

[1]– "رسم تحبيس علي باشا لصالح مدرسة حوانيت عاشور بتاريخ أوائل رجب 1154هـ/ 12 سبتمبر 1741م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 414-417 .

[2]– وجدنا برسوم التحبيس أن المدرسة احتوت على خمس وعشرين غرفة أو بيتا. أنظر : "رسم تحبيس الباي "علي باشا"على مدرسة حوانيت عاشور وتربته الواقعة جوار المقام الشاذلي بجبل الجلاّز، بتاريخ أواسط ربيع الثاني عام 1159هـ/6 ماي 1746م" . نفسه، ص 425 .

[3]– "رسم تحبيس "علي باشا" لصالح مدرسة حوانيت عاشور بتاريخ أوائل رجب 1154هـ/ 12 سبتمبر 1741م" . نفسه، ص 414.

[4]– تعرف "بتربة الجلاز أو تربة كبيرة مامية"، بناها "علي باشا" سنة 1156هـ/1743م وخصصها لدفنه فيها، لكن بعد بنائه لتربة أخرى قرب المدرسة الباشية ، خصصها لدفن النساء من أفراد عائلته، وأول من دفن فيها زوجته "كبيرة مامية" المتوفاة سنة 23 ربيع الثاني 1160هـ/ 4 ماي 1747م، والتي سميت التربة على اسمها. ولا تزال التربة قائمة إلى اليوم وهي تحوي قبور الأميرات من أفراد العائلة الباشية. أنظر: نفسه، ص 419، هامش1 .

[5]– نفسه، ص ص 419- 432 .

[6]– الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3، ص 35 .

[7]– نسبة إلى أبي محمد عبد الله بن تافرجين المتوفى سنة 766هـ/ 1364م . أنظر: خوجة، مصدر سابق، ص 48، هامش 58 .

[8]– يوجد هذا التاريخ في كتابة تعلو مدخل المدرسة . أنظر: الصور الخاصة بالمدرسة، ملحق رقم 07، ص 345 .

المدرسة كلفت الباي أموالا طائلة، وأنه جلب إليها من بلاد النصارى مواد بناء جميلة باهضة الثمن منها: "الرخام الملون، الجليز العظيم التزويق، الصافي اللون البراق...أزرق في أبيض"[1].

وتفيدنا وقفية للباي "علي باشا" المؤرخة في أواسط حجة الحرام سنة 1177هـ/ جوان 1764م بتفاصيل مهمة حول المدرسة ومنشآتها التابعة لها، هذا نصها: "الحمد لله، بعد أن ظهر أن الأمير الأشهر والعلم الأظهر، الأسعد الأرشد، المنعم المرحوم أبي الحسن علي باشا باي، تغمده الله بالرحمة والرضوان، وأسكنه فسيح الجنان، أحدث مدرسة شرقية الباب ضخمة البناء واسعة الفناء مشتملة على ثلاثة عشر بيتا أعدها لقراءة العلم الشريف وعلى مسجد منيف[2] ومطبخة وميضأة بها بئر محدثة ودولاب... وسبيلا أعده لشرب عامة المارين[3]، كائنا جوفي سقيف المدرسة المذكورة ...وتربة شرقية المفتح كائنة قبلي سقيف المدرسة المذكورة أعدها لدفنه[4] "[5].

أما عن موقعها فتوجد المدرسة بنهج الكتبيين، وهي شرقية الاتّجاه كائنة بالقشاشين داخل مدينة تونس بالقرب من جامع الزيتونة ملاصقة لها تربة ذات مدخل مستقل، وهي تقع بجوار المدرسة السليمانية وأمام حمّام القشاشين. وقد بنيت في مكان فنادق قديمة أخذها "علي باشا" بالمعاوضة[6]. ويصف صاحب "المشرع الملكي" موقعها فيقول: "جاءت هذه التربة والمدرسة في أغبط مكان وأعزّه بقرب جامع الزيتونة ما بينه وبينهما إلا زنقة الربّع الضيقة"[7].

---

[1]– الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3، ص 37 .

[2]– هو أكبر مسجد مقارنة بمساجد مدارس مدينة تونس، وربما لهذا السبب ذكر "الصغير بن يوسف" أن الباي "علي باشا " بنى "التربة والمدرسة والجامع". أنظر: نفسه .

[3]– يقول "الصغير بن يوسف" في وصف دقيق لسبيل المدرسة الباشية : "وجعل بقرب الشارع شباكا نحاسا عليه باب رخام من صنيع برّ النصارى مركّبا على ذلك الشبّاك، وفي داخل الشباك حوض رخام فيه ماء حلو، عليه ثلاث طاسات بسلاسل حديد في وسط دلك الحوض، فالعاطش يشرب بذلك الطاسات من ذلك الماء الذي في الحوض، وفي وسط الحوض أنبوب من الرّخام مثقوب، فإذا فرغ الماء من ذلك الحوض طلع الماء من رأس ذلك الأنبوب، ونزل في وسط الحوض، وانتفع العطشان كبير وصغير بشرب هذا الماء، وعليه خاطر– أي جمع كثير من الناس– كثير ليشربوا الماء لأنه جاء في ممر الثّنيّة طالعا وهابطا ". أنظر: نفسه، مج3، ص ص 36، 37 .

[4]– على ما يبدو أن الباي "علي باشا" تأثر بما قام به عمه "حسين بن علي" من إنجاز تربته بمدرسة الجامع الجديد. ولهذا فقد بنى هو الآخر تربته بالمدرسة الباشية، إلا أن مدخلها مستقل بنفسها. أنظر: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 321.

[5]– السعداوي، مرجع سابق، ص ص 436-441 .

[6]– "رسم تحبيس لفائدة المدرسة الباشية بتاريخ رجب 1166هـ/ ماي 1753م" . أنظر: نفسه، ص ص 441-456. أنظر أيضا: ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، ص 316 . وكذلك: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص321 .

[7]– الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج 3، ص 38 .

– المدرسة السليمانية:

هي ثالث المدارس التي أسسها "علي باشا" سنة 1168هـ/1754م، بنيت لفائدة الطلبة المالكية[1]. وسميت بالسليمانية نسبة إلى ابنه سليمان[2]. ويخبرنا صاحب "المشرع الملكي" أن الأموال التي بنى بها الباي المدرسة يقال أنها أموال ابنه سليمان، وإنها "جاءت من أبهى المدارس، ومحلها يحنّ إليها الجالس"[3].

توجد المدرسة بالنهج الذي يحمل اسمها، وهي ملاصقة لتربة مؤسسها[4]، يربط بينها وبين المدرسة الباشية الجدار الجنوبي للباشية، والواقع شمال المدرسة السليمانية[5]. وهذه المدرسة شأنها شأن المدرسة الباشية بنيت مكان فنادق قديمة أخذها الباي بالمعاوضة، إذ كان من الصعب على أي كان أن يحصل على مكان قرب جامع الزيتونة، لذلك اضطر الباي لانتزاع بعض المباني، وهذا يذكرنا بما قام به عمه "حسين بن علي" من تهديم فندق لبناء مدرسة النخلة في نفس المكان[6].

– مدرسة بئر الحجار:

هي آخر المدارس التي أسسها الباي "علي باشا"، لكنه وافته المنية قبل الانتهاء من بنائها[7] فأتمها صهره "رجب بن مامي" سنة 1170هـ/ 1756م، أي بعد سنة من وفاة الباي[1]. وهذا ما تؤكده مجموعة من الأبيات المنقوشة بأعلى باب مدخل المدرسة جاء في مطلعها[2]:

---

[1]– الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج 3، ص 38 .

[2]– تذكر المصادر أن "سليمان" مات مسموما من طرف أخيه محمد، الذي أراد التخلص منه خوفا من اعتلائه للعرش بعد أبيه . طلب "علي باشا" دفن ابنه في تربته، وبذلك يكون سليمان أول مدفون بها. وكان ذلك ظهر يوم الجمعة 22 صفر عام 1168هـ/7 ديسمبر 1754م . أنظر: السنوسي، مصدر سابق، ج1 ، ص 95 . وكذلك: العياضي، مصدر سابق، ص 126 .
لتفاصيل أكثر حول جنازة سليمان وحزن والده عليه. أنظر: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3، ص ص 190–192 .

[3]– نفسه ، ص 38 .

[4]– نفسه .

[5]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 339 .

[6]– يذكر "ابن مامي" أنه كان من الصعب جدا العثور على موقع لبناء مدرسة في مدينة تونس، إذ تكاثرت المباني بها وأصبح السكان ابتداء من الفترة الحفصية مضطرين لبناء مساكنهم بالربضين الشمالي والجنوبي. وبالتالي لم يجد العديد من مؤسسي المدارس أماكن قريبة من الجامع الأعظم . أنظر: نفسه، ص 339، هامش 4 .

[7]– اتسمت آخر أيام "علي باشا" بالاضطراب وعدم الاستقرار، فقد حدثت فتنة أهلية بينه وبين ابنه يونس دامت حوالي شهرا كاملا، كما مات ابنه الأصغر سليمان سنة 1168هـ/ 1754م. ولم تنته مصائب الباي عند هذا الحد، حيث عرفت سنة 1169هـ/ 1755م دخول الأخوين (محمد وعلي) ابنا "حسين بن علي" إلى تونس مدعمان بجيش من إيالة الجزائر– باي قسنطينة– لاسترجاع عرش والديهما. وكانت لهما الغلبة وقتل "محمد ابن الباي علي باشا" أما هذا الأخير فقد أُسر من طرف "حسن باي" قسنطينة، ثم أمر بشنقه وكان ذلك في أواسط ذي الحجة سنة 1169هـ/ 1755م .ودفن في تربته، ورثاه كاتبه الشاعر "محمد الورغي" بقوله:

مضت دولة الباشا عليّ كأنه *** من الدهر في البريّة ما عاشا

بنا الباشا علي دار علم *** لوجه الله يسعى في الثواب

وفي البيت الأخير جاء فيه:

وقد تمت لسبعين وألف *** ومع ماية فمن غير ارتياب

توجد المدرسة بنهج الباشا، وهي مواجهة لنهج الحفصية، وفي وقفية لصالح المدرسة تفاصيل حول موقعها، جاء فيها :" ... مدرسته التي أحدث بنائها وأسس أركانها الشرقية الباب، الكائنة بسويقة الجرو قرب الشيخ الولي الصالح سيدي أبي حديد[3] على محجّ دار الباشا داخل مدينة تونس المحروسة"[4]. ويذكر أيضا "الصغير بن يوسف" أن الباي: "بنى المدرسة التي في المدينة قرب دار رمضان باي عل ممرّ ثنيّة دار الباشا."[5] وهي المدرسة الوحيدة الموجودة في هذه الجهة من المدينة. فقد تحول نهج الباشا في الفترة الحسينية إلى أحد الممرات الرئيسية، حيث يربط الربض الشمالي بداخل المدينة. وقد سكن فيه أو قريبا منه الكثير من وجهاء العاصمة، وكما نعلم أن الباي "علي باشا" نفسه سكن بهذا النهج قبل توليه منصب الباي، وهذا ما حفزه لبناء المدرسة به.[6]

- **المدرسة الحسينية الكبرى:**

أسسها الباشا "علي باي الثاني"[7](1173-1196هـ/1759-1782م)، ويستغرب "ابن الخوجة" تسميتها بهذا الاسم بالرغم من أنها ليست من منجزات "حسين بن علي"، ويذكر

أتته المنايا وهو في عُظم قوة *** وجيش كثيف مثله قط ما جاشا

فصار دفينا بعد ما كان دافنا *** فقلت وقد أرخته: دفن الباشا

أنظر: السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص ص 97 ، 98. وأيضا: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج4 . وكذلك: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص ص 304، 305 .

[1]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 320 .

[2]– نفسه .

[3]– يقع مسجد سيدي بوحديد على بعد بضعة أمتار شمالي مدرسة بئر الحجار.

[4]– "رسم تحبيس لفائدة مدرسة بئر الحجار بتاريخ أواسط ذي الحجة 1177هـ/جوان 1764م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 459- 464.

[5]– الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3، ص 36 .

[6]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 357 .

[7]– هو أبو الحسن علي بن حسين بن علي تركي، ولد سنة 1124هـ/1712م، نشأ بين يدي والده، واخذ العلم من الشيخ "الحاج يوسف برتقيز". قضى هذا الباي أكثر من ربع قرن في محاربة ابن عمه علي باشا(1140-1153هـ/1727-1740م) ثم لجأ إلى الجزائر برفقة أخيه محمد الرشيد باي، مطالبين حاكمها مساعدتهم لاسترجاع الحكم، لكن لم يتم ذلك إلاّ سنة 1169هـ/1755م . وبعد وفاة أخيه أجمع أهل الحل والعقد على تقديمه للحكم، فبويع يوم الاثنين 14 من جمادى الثانية سنة 1172هـ/ 11 فيفري 1759م، يقول السنوسي:"ووفدت عليه الوفود بالتهنئة، واستقر على كرسي المملكة وأقرّ رجال دولة أخيه على مناصبهم وقرر الأمور على ما كانت عليه واستعمل من الرفق والحنان ما جلب به جميع القلوب". عرفت الفترة الأولى من حكمه اضطرابات فقد ثار"إسماعيل بن يونس بن علي باشا" محاولا استرجاع حكم جده، ودامت ثورته

أن "علي باي الثاني" ربما أطلق عليها هذه التسمية للمبررات التالية، فيقول: "ولعلهم نعتوها بالكبرى تمييزا لها عن المدارس الحسينية، فيلوح أن ذلك كان لصرف الأنظار عن السمعة التي حصل عليها الباشا علي باي الأول بسبب بنائه لعدة مدارس باشية، وعلي هذا كان خصيم الفرع الحسيني الأشرف فلا غرابة حينئذ في سعي ابن عمه "علي باي الثاني" في إحداث مدرسة فخمة، خصصها بشرف الانتساب لاسمه أبيه "حسين بن علي التركي"، تعلية لها على المدارس الباشية المحدثة قبلها"[1].

وعُرفت أيضا هذه المدرسة باسم "المدرسة الجديدة"[2]، يقول "حمودة بن عبد العزيز" في باشيه: " فمن ذلك المدرسة الرفيعة التي أحدثها بساباط عجم من أحسن المدارس وأبدعها"[3]. وتعتبر من أفخم المدارس الحسينية وأفسحها، لاحتوائها على أكثر من أربعين بيتا[4].

لم تخبرنا المصادر بتاريخ تأسيس المدرسة، إلا أنه من الراجح لم يتم بناؤها إلا بعد سنة 1176هـ/1763م، أي بعد استقرار الأوضاع في البلاد[5]، ويبدو أنها أسست أواخر حياة "علي باي الثاني". لكن يمكننا التقرب من تاريخ التأسيس من خلال الأخبار التي أوردها لنا وزير الباي "حمودة بن عبد العزيز"، إذ يخبرنا أن الباي " لَمّا أنشأ تربته المطهرة بساباط عجم أنشأ مدرسة مجاورة لها". كما أن الباي عمّر التربة بطلبة يقرؤون القرآن العظيم والأوراد اليومية، "واستمر الأمر على ذلك إلى أن يتم بناء المدرسة وتعمر بالطلبة...فلما تم بناء المدرسة وصرفت غلات الأوقاف في مصارفها أرسل للقراء مالا ووزعه عليهم إحسانا وصرفهم"[6]. ونفهم من هذا أن المدرسة لم يتم بناؤها إلا بعد الانتهاء من بناء التربة الذي كان حوالي سنة 1190هـ/1776م[7]، وبهذا يكون

حوالي ثلاث سنوات (1173-1176هـ/1759-1762م). ثم ثار أيضا سكان جبل عمدون وكان ذلك سنة 1176هـ/1762م. إذن حتى هذا التاريخ لم تستتّب الأمور "لعلي باي الثاني". ثم بعد ذلك استطاع أن يوجه عنايته للبلاد والعباد. توفي سنة 1196هـ/ 1782م، ودفن بتربته. أنظر: ابن عبد العزيز، مصدر سابق. – هو وزير الباي وتحدث في كتابه بإسهاب عن خصاله ومآثره– . وأيضا: السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص ص 112-117. وكذلك: مخلوف، مصدر سابق، ج2، ص ص 166، 167 .

[1]–ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 323 .

[2]– نجد هذه التسمية واردة في الوثائق الأرشيفية، أنظر: أ. و .ت ، س. ت ، صد 63، م 739 . أنظر أيضا: دفتر رقم 2144. أنظر كذلك: عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 155 .

[3]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 299.

[4]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 323

[5]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 372 .

[6]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 301 .

[7]– يذكر "ابن مامي" أنه اطلع في إحدى السجلات الموجودة بالتربة على وثيقة وقف، أن امرأة قد عُيّنت لتنظيف المعلم وذلك بداية من سنة 1190هـ/ 1776م ، أي تاريخ الانتهاء من بناء التربة . أنظر: مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 372، هامش 8 .

تاريخ الانتهاء من أشغال المدرسة في حوالي سنة 1191هـ/1777م. أما عن موقع المدرسة، فهي تقع بنهج سيدي الصوردو، وهي مقابلة للمدرسة الحسينية الصغرى .

– المدرسة البشيرية:

أسسها الباي "حسين الثاني"(1240-1251هـ/1824-1835م) بزاوية الولي سيدي محمد البشير الزواوي[1] (ت 1242هـ/ 1827م) الواقعة بنهج سيدي البشير في ربض باب الجزيرة، وكان ذلك حوالي سنة 1240هـ/1824م وجعلها وقفا عليه[2]. وللمدرسة أحباس خاصة بها وتصرفها في يد ذرية الشيخ، وحبست لصالح طلبة أتباع الطريقة الرحمانية[3].

– مدرسة ابن ملوكة:

بناها الوزير مصطفى خزندار[4] على أنقاض زاوية صغيرة تقع قرب باب القرجاني في الجنوب الغربي من العاصمة، كان يسكنها الشيخ "محمد بن ملوكة"[5] (ت 1276هـ/ 1860م). إلا أن وفاة هذا الأخير قبل إتمام بناء المدرسة[6]، جعلت الوزير يحجم عن إكمالها[7]. وبقيت على

---

[1]– "محمد البشير الزواوي": هو أبو عبد الله البشير بن عبد الرحمان السعدي الونيسي، نسبه متصل بالشيخ عبد السلام بن مشيش صاحب الطريقة الشاذلية. أصيل منطقة الزواوة، صاحب الزاوية المعروفة بزاوية سيدي البشير. جاء بعد وفاة عمه سيدي لونيس الزواوي، الذي يوجد مقامه بالجلاز. وتجدر الملاحظة أن بلاد الزواوة، المقصود بها بلاد القبائل بالجزائر، هي موقع الطريقة الرحمانية التي انتشرت في عدة جهات، منها تونس.
أنظر: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 145 – 147 . أنظر أيضا: مخلوف، مصدر سابق، ج1، ص 369 .

[2]– كان الباي حسين الثاني من الذين كانوا شديدي الاعتقاد بالشيخ، حتى انه عند مماته تبرك الباي وآل بيته بحمل نعشه . ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 326 . أنظر أيضا: مخلوف، مصدر سابق، ج1، ص 369 .

[3]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص ص 325، 326 .

[4]– "مصطفى خزندار": يوناني الأصل والولادة، فُقد صغيرا في إحدى جزر اليونان سنة 1232هـ/ 1817م. وبيع في أسواق استانبول مع أخ له، ثم بيع مرة ثانية إلى بايات تونس. فتربى في قصور الأسرة الحسينية الحاكمة في تونس، حيث تعلم الإسلام وعلوم الدين صحبة "المشير أحمد باي" الذي نشأ معه في قصر أبيه وبمجرد أن تولى "المشير أحمد باي" الحكم اختاره إلى جانبه لتسيير الأمور المالية، وزوجه أخته. وبرز بشكل أكبر في عهد "محمد الصادق باي"، حيث تولى الوزارة الكبرى لمدة ست وثلاثين سنة (1253- 1290هـ/ 1837- 1873م)، ففتح البلاد لسياسة القروض الأجنبية، بعد فراغ الخزينة وإفلاسها . ومن أهم صفاته انه كان محبا للمال، ويعمل على جمعه بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة. لكن انتهى به الأمر إلى محاسبته من طرف الوزير خير الدين. وبقي يعيش منفردا في قصره بالحلفاوين بالحاضرة يتردّد عليه قلّة منْ أتباعه والأجانب، إلى أن توفي 1295هـ/ 1878م . أنظر: الشيباني بنبلغيث، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859 – 1882م)، تقديم عبد الجليل التميمي، م. ت. ب. ع. مع، زغوان، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، 1995م، ص ص 68، 69 .

[5]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج8، ص ص 109 – 111 .

[6]– عبد السلام، مرجع سابق، ص 78 . أنظر أيضا: ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص ص 327، 328 .

[7]– من عادات سكان تونس التشاؤم بوفاة من ينسب إليه البناء قبل انتهائه، ولذلك لا يتم إنهاء البناء المنسوب إلى المتوفي. أنظر: نفسه، ص 328 .

حالها حتى عهد الحماية الفرنسية حيث تم توسيعها، واختارها "ماشويل" Machuel"[1] لتصبح مدرسة للعلوم العصرية، وأطلق عليها سنة 1301هـ/ 1884م اسم المدرسة العلوية، نسبة إلى "علي باي الثالث"[2] (1299- 1320هـ/ 1882- 1902م).ويذكر"ماشويل"Machuel" أن المدرسة تقع بمكان جدّ مميّز بمدينة تونس، وأنها تتربع على مساحة واسعة، مما ساعد على عملية التوسعة للمدرسة[3].

أ.2 . مدارس الخواص:

يبدو أن بناء المدارس بإيالة تونس خلال العهد الحسيني لم يكن مقصورا على الحكام فقط، وإنما نجد أيضا الأغنياء من رجال الدولة وأهل العلم الذين بذلوا جهدا في المشاركة في ازدهار حركة النهضة العلمية وتشييد المدارس، فظهرت العديد من المدارس منها:

– المدرسة المتيشية:

اختلفت المصادر في شأن مؤسس وتاريخ تأسيس المدرسة، يذكر "ابن مامي" أن مؤسس المدرسة هو زوجة الآغا "أحمد بن متيشة"، مستندا في ذلك إلى وثيقة من الأرشيف الوطني التونسي[4]. بينما يرى "ابن الخوجة" أن المؤسس هو الآغا "أحمد بن متيشة" نفسه[5].

أما عن تاريخ تأسيس المدرسة، فلا يوجد تاريخ مضبوط وإنما هناك احتمالات أوردها المؤرخون من بينهم "ابن الخوجة" الذي يذكر أن تأسيس المدرسة تمّ في الفترة ما بين 1117هـ/

---

[1]– "ماشويل" Machuel": ولد بالجزائر سنة 1258هـ/ 1843م، وتمكن بفضل بيئته التي ترعرع فيها أن يتلقى تعليما مزدوجا – أوربيا وإسلاميا– كما تعلم اللغة العربية، حيث تكلمها بطلاقة. اشتغل كمدير عام للتعليم التونسي من (1300- 1326هـ/ 1883- 1908م). استطاع خلال فترة قصيرة أن يحدث تغييرا كبيرا في التعليم التونسي، وهذا بفضل كثرة نشاطه وبعد نظره. أنظر: ريشارد ماكن، "لوي ماشويل والإصلاح التربوي بتونس خلال السنوات الأولى للحماية الفرنسية"، م. ت. مغ، ع 3، جانفي 1975م، ص 63 .

[2]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 328 .

[3]– Louis Machuel, L'enseignement public dans la régence de Tunis, Imprimerie nationale, Paris, 1889, p. 24 .

[4]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 295 .

[5]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق،ص 312 .

"أحمد بن متيشة": هو أحد رجال "حسين بن علي"، لكنه خان سيده وانضم الى الباي "علي باشا" خلال الفتنة الحسينية الباشية، فكان جزاؤه الإعدام من طرف الآغا سليمان الصباغ ببرج الحامّة حيث أدخله غدرا وقام بقطع رأسه وإرساله الى الباي "حسين بن علي" وكان ذلك سنة 1148هـ/1735م. أنظر: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج 1، ص ص221-225 . وأيضا: ابن الخوجة ، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص ص 312، 313 .

1705م هو تاريخ تولي "حسين بن علي" الحكم، و1148هـ/1735م وهو تاريخ مقتل "أحمد بن متيشة"[1]. أما "ابن مامي" فيورد احتمالين :

الأول: أن زوجة هذا الآغا بنت المدرسة قبل فرار "ابن متيشة" سنة 1140هـ/1727م، كما أنه لم يكن بإمكانها تأسيسها قبل سنة 1130هـ/ 1717م، إذ لم يكن لزوجها قبل هذا التاريخ وزن كبير لدى "حسين بن علي"، وإنما انطلاقا من هذه الفترة، أصبح يعد من المقربين إلى حاكم البلاد. فمن الممكن أنه نتيجة لمكانته الهامة، استطاعت زوجته آنذاك أن تبني مدرسة.

الثاني: تم إنشاء المدرسة بعد استقرار الأمور للباي "علي باشا" أي بداية من سنة 1153هـ/1740م فكاعتراف بالجميل، منح هذا الباي زوجة صديقه الذي مات في سبيل نصرته، الأموال اللازمة لبناء المدرسة وذلك تخليدا لاسم "أحمد بن متيشة"[2]. توجد المدرسة بنهج "بن متيشة"، الواقع بربض باب السويقة مقر إقامة عائلة "بن متيشة"، وربما كان هذا سبب بناء المدرسة بالمكان المذكور[3].

وفي الأخير نستنتج انعدام أخبار دقيقة تتعلق بهذه المدرسة، وكل ما سبق عرضه يبقى في إطار الاحتمالات والافتراضات .

- **المدرسة الطابعية:**

تنتسب إلى مؤسسها الوزير "يوسف صاحب الطابع"، الذي كان يمثل الساعد الأيمن للباي "حمودة باشا" (1196-1229هـ/1782-1814م)، ووصل به الأمر إلى أن أوكل إليه جميع أمور الإيالة، فقد اعتمد عليه في المباشرة اليومية لشؤون التعليم والمشايخ ورجال الدين[4]. وتبعا لذلك، قدم الوزير خدمات جليلة للبلاد تمثلت في البناء والتعمير من جهة والعمل على نشر العلم من جهة أخرى[5].

يعدّ "يوسف صاحب الطابع" أثرى شخص في دولة الباي "حمودة باشا"، حيث كانت ثروته كما قال "ابن أبي الضياف" "توازي جباية الدولة يومئذ"[6]. ويذكر ذات المؤرخ أن ثروته تأتّت

---

[1]- ابن الخوجة ، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق ، ص 313 .

[2]- ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 295 .

[3]- نفسه، ص 297 .

[4]- عبد السلام، مرجع سابق ، ص 76 .

[5]- الميزوري، مرجع سابق، ص 91 .

[6]- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 97 .

من التجارة مع الدول الأوربية، واستعماله لسفنه الكثيرة في الغزو البحري، وكذلك إقراضه للأموال بفوائد[1]، وهذا ما جعل قناصل بعض الدول الأوربية يعتبرونه تاجرا يبحث عن الربح والفائدة الشخصية أكثر من نفع البلاد[2]. قام الوزير "يوسف صاحب الطابع" بجهود كبيرة في سبيل نشر العلم، ومن ذلك بنائه بحي الحلفاوين جامعا ومدرسة وكُتابا، ويخبرنا "ابن أبي الضياف" أن أشغال البناء بدأت يوم الأحد المصادف لأول محرم سنة 1223هـ/ 20 فيفري 1808م[3].

أما عن موقع المدرسة فقد اختار الوزير بناءها بنهج سيدي العلوي بجوار جامعه[4]، وهو أحد الأنهج المتفرعة عن الحلفاوين الواقع في الربض الشمالي من المدينة، أين يقع منزله. وربما اختار الوزير هذا المكان بفعل النمو العمراني في هذه الجهة التي لاحظ أنها تحتاج الى مؤسسة تعليمية ودينية. ليس هذا فقط، بل بنى أيضا منشآت أخرى في نفس الحي والمتمثلة في الأسواق والوكالة والمخازن والحمام[5]. كما كانت توجد شمالي هذه المدرسة، المدرسة والزاوية البكرية، وكذلك شرقيها زاوية "سيدي عبد السلام الأسمر" وسبيله[6].

حبّس المؤسس مدرسته على المذهب الحنفي، إلا أنه عند ترتيب الدروس بها أخذ بعين الاعتبار طلبة المذهب المالكي الذين كانوا يمثلون الأغلبية فرتب لهم درسا في الفقه على مذهبهم، واشترط أن يكون من مختصر خليل أو من مختصر ابن الحاجب أو من كتاب التهذيب[7].

لكن المدرسة لم تبقى على نفس العطاء والإشعاع، ففي عهد "محمود باي" (1229-1240هـ/ 1814- 1824م) أصدر أمرا بنقل المدرسين من جامع صاحب الطابع إلى الزيتونة، والظاهر من ذلك أن منافسه الوزير "أبو عبد الله محمد زروق"، أراد أن يطفئ شمعة المدرسة الطابعية بعد وفاة صاحبها[8]. إلا أن العلماء رفضوا قرار الباي، وسمح لهم بالتدريس في كلا

---

[1]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 96 .

[2]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 383 .

[3]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 91 . أنظر أيضا: نفسه، ج3، ص 59 .

[4]– المعموري، وثيقة عن تحابيس...، ص 247 .

[5]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 91 .

[6]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 384 .

[7]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 325 .

[8]– نفسه، ص 216 .

يمكن الإطلاع على تفاصيل الدسائس التي حيكت لصاحب الطابع من طرف الوزير"محمد زروق" والتي انتهت بمقتله. بالعودة إلى: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 98 ، 99 .

المعهدين[1]. ومن بين العلماء الرافضين للقرار "محمد الفاسي"[2] (ت 1232هـ/ 1817م) و"محمد الأبي"[3] و"إبراهيم الرياحي" هذا الأخير الذي عارض هو الآخر بشدة نقل دروس المدرسة الطابعية إلى جامع الزيتونة، وقال: "...لا موجب شرعي لهذا النقل فإن العلم يُؤتى إليه ولا يأتي، والأجر لطالبه على قدر تعبه. نعم إذا قصدتم محو ذكر اسم الرجل فلكم ذلك بمقتضى التنافس في الوضيف ولا يتم هذا إلا بهدم غالب مباني الحاضرة فالأحسن بمروءتكم أن تنتهي المنافسة بالموت. وعلي أن اقرئ بجامع الزيتونة درسا ولا أبطل دروس جامع صاحب الطابع، أخذت المرتب أم لا "[4].

ومن جهة أخرى كان لرجال الدين والصلحاء دور كبير في دعم التعليم في العهد الحسيني، فقد وجدنا العديد منهم يبنون مدارسا من مالهم الخاص، ومن هؤلاء الشيخ "أحمد الباهي"[5] الذي بنى مدرسة الزاوية الباهية[6] سنة 1160هـ/1747م من ماله الخاص، ورفض أية مساعدة حتى من الباي نفسه – علي باشا – حيث اقترح عليه أن يمدّه بمال وبأوقاف لصالح المدرسة لكنه أبى[7]. وبمدينة الكاف أسس الشيخ "سيدي علي بن صالح" في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، بالقرب من ضريح جده "صالح بوحمبل" مدرسة سميت عليه [8]. كما أسس الشيخ "محمد المازوني المغربي" (ت سنة 1296هـ/ 1879م) بالحاضرة تونس مدرسة الزاوية القادرية. بدأ في بنائها سنة 126هـ/ 1846م، وانتهى منها سنة 1266هـ/ 1850م، وتولى إدارتها بنفسه[9].

ب. مدارس خارج مدينة تونس – دواخل البلاد –

لم ينصب اهتمام الحكام الحسينيين ببناء المدارس بمدينة تونس فقط، بل قاموا على نشرها في طول الإيالة وعرضها، إذ تعدّت المنجزات المعماريّة التعليمية من حاضرة البلاد تونس إلى مناطق

---

[1]– قرين، مرجع سابق، ص 44 .

[2]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 102 ، 103 .

[3]– الرياحي، مصدر سابق، ص 86 .

[4]– نفسه .

[5]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 120.

[6]– تقع بمدخل نهج الزاوية البكرية في حي باب سعدون، وقد تم ترميمها وتحويل قسم منها إلى مكتبة عمومية . أنظر: ابن الخوجة ، تاريخ معالم التوحيد..، ص 333، هامش 28 .

[7]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 120 .

[8]– الحناشي، مرجع سابق، ص 135 .

[9]– الميزوري، مرجع سابق، ص 92. أنظر أيضا: ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص ص 326، 327 .

مختلفة تأسيسا أو ترميما[1]. ويعتبر"حسين بن علي" أبرز باي حسيني مهتم بإصلاح المدارس، منها المدارس التي أنشأها "محمد باي المرادي"(1098-1108هـ/1686-1696م) بتوزر وقفصة وباجة[2] وقابس والكاف، وتفقدها سنويا والنظر في حاجياتها وحاجيات طلبتها[3].

كما أصبحت مدرسة جربة مأوى للدروس التنظيمية التي كان يلقيها "سيدي إبراهيم الجمني" الذي استطاع أن يجمع حوله حركة علمية، تمثلت في إرسال تلاميذه للجبال النائية لتثقيف الناس وتنويرهم[4]. وقد أشاد الرحالة "الورثيلاني" بهذه المدرسة بالرغم من أنه لم يزرها، وذكر أنها "مدرسة عظيمة معلومة تكاد أن تكون من المواسم المعلومة"[5]. كما قام الباي ببناء مدرسة بمدينة سوسة ونسبها إلى الشيخ "سيدي عبد القادر الجيلاني"[6] .

أصل هذه المدرسة زاوية قديمة تعرف بزاوية الشيخ الزقاق، ورد في رسم تحبيسها: "المدرسة الكائنة بداخل سوسة، وتعرف سابقا بالشيخ الزقاق، والتي استجد بنائها المعظم الأرفع والصدر الأمنع سيدنا حسين باي"[7]. أما "الوزير السراج" فيورد هذه المدرسة باسم "المدرسة الكيلانية"[8]. وممن تولى التدريس بها "قاسم المؤخر"[9] ومن بعده "أحمد الريغي"[10]. كما نذكر المدرسة التي بناها بنفطة ببلاد الجريد وسماها "القطب الرباني والغوث الصمداني الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني". وكان "علي المقدمي" من المختارين للتعليم بالمدرسة[11].

---

[1]– صدق السلامي، "بوادر تنظيم التّعليم الزّيتوني في عهد حسين بن علي باي"، الندوة العلمية حول جامعة الزيتونة تاريخ وعلوم، نزل روايال سالم بسوسة، 15 و 16 نوفمبر 2014م، ص 53. المقال بصدد النشر في كتاب جماعي يشمل أشغال الندوة. وقد مدتنا صاحبة المقال بنسخة منه.

[2]– بشأن هذه المدرسة، أنظر: الدراسة التي أعدها : زهير بن يوسف، مرجع سابق، ص ص 56 – 58 .

[3]– خوجة، مصدر سابق، ص ص 142 – 144 .

[4]– نفسه، ص 131 .

[5]– الورثيلاني، مصدر سابق، ص 753 .

[6]– ويعرف أيضا باسم عبد القادر الكيلاني ولد سنة 471هـ/1078م ، مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والمتصوفين، ولد في جيلان ثم انتقل إلى بغداد وهو شاب سنة 488هـ / 1095م حيث تفقه واشتهر أمره. شغل مدرسا ومفتيا. توفي سنة 561هـ/ 1166م . أنظر: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج1، ص 22، هامش 34 .

[7]– من أحباس زاوية سوسة، "وقفية بتاريخ أوائل محرم 1139هـ/ أوت 1726م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 385، 386 .

[8]– مصدر سابق، مج3، ص ص 228، 229 . ونفس التسمية يوردها "الصغير بن يوسف". أنظر: مصدر سابق، مج 1، ص 22 .

[9]– يذكر لنا "الوزير السراج" أن هذا المدرس كان عالما، يتقن العلوم الرياضية وعلم الميقات، وله الخبرة في تسطير البسائط الوقتية، كما كان بارعا في في علم الحساب والفرائض. مصدر سابق، مج3، ص 229 . يمكن الاطلاع على ترجمة العالم بالعودة إلى: خوجة، مصدر سابق، ص 134 .

[10]– خوجة، مصدر سابق، ص ص 134، 135 .

[11]– نفسه، ص ص 141، 142 .

كما توجهت أنظار الباي إلى مدينة القيروان، فأعاد إعمارها[1]، واهتم بمنشآتها العلمية، فبنى بها مدرسة سنة 1132هـ / 1720-1721م[2] حيث يقول "حسين خوجة": "ومن حسناته إيجاده للمدرسة التي أحدثها وبناها بمدينة القيروان ... فجاءت من ألطف وأحسن وأشكل المدارس"[3]. ومنها أيضا مدرسته التي بناها بمدينة صفاقس بالقرب من المسجد الأعظم[4]، والمعروفة باسم "المدرسة الحسينية"[5]، بناها الباي خصيصا "لأبي عبد الله محمد الشرفي" (ت 1157هـ-1744م) بعد عودته من مصر[6]. ويصفها لنا "مقديش" في قوله:" ...ولها نور زائد وتميل إليها عند الدخول"[7].

أورد "حسين خوجة" أن بناء المدرسة كان سنة 1126هـ/1714م[8]، لكن "الوزير السراج" يحدد تاريخ البناء في عام 1124هـ/1712م[9]، ولعلها تكون سنة بداية أشغال البناء، وبذلك يكون تواصل البناء نحو السنتين . وبعد الانتهاء من بناءها مدحه "محمد الشرفي" بقصيدة نذكر بعض الأبيات[10] منها:

سعد الزمان وأشرقت أنواره *** وبدا السرور وهذه أثاره

بحسين بن علي الباي الذي *** طابت بطيب فعاله أخباره

يا حبّذا للعلم مدرســـــة *** بصفاقس فعلا بذاك مناره

---

[1]- تم التطرق سابقا إلى أن مدينة القيروان تعرضت لتخريب من طرف الباي "مراد الثالث"، إثر عودته مهزوما من قسنطينة.أنظر: مدخل دراستنا، ص 33 .

[2]- ذكر حسين خوجة أن تاريخ تأسيس المدرسة كان سنة 1133هـ/ 1720-1721م، لكن هناك عقد تحبيس خاص بالمدرسة يصحح تاريخ التأسيس، جاء في آخر الوقفية مايلي: " ... بتاريخ كان وقوع الإشهاد فيه من السيد الباي المذكور حفظه الله تعالى حال حلوله بالقيروان في أواسط شهر ربيع الأول النبوي عام اثنين وثلاثين ومائة وألف ، وتأخر الكتب هنا لأواسط رجب الفرد الأصب من العام الموالي له (1133هـ) منعقد ذلك بشهادة عدلين من عدول محروسة القيروان". أنظر: "رسم تحبيس للباي حسين بن علي لصالح مدرسة القيروان، بتاريخ أواسط شهر ربيع الأول عام 1132هـ/25 جانفي 1720م" . السعداوي ، مرجع سابق، ص ص 374-378 .

[3] - خوجة، مصدر سابق، ص 118 .

[4]- مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 391 .

[5]- الزيدي، مرجع سابق، ص 54 .

[6]- مقديش، مصدر سابق، مج2،ص 391 . أنظر أيضا: محمد النيفر، مصدر سابق، ج1، ص 499.

[7]-مقديش، مصدر سابق، ص 158 .

[8]- خوجة، مصدر سابق، ص126.

[9]- السراج، مصدر سابق، مج3، ص 231 .

[10]- مقديش، مصدر سابق، مج2، ص ص 391، 392 .

وقال أيضا:

أنشأت للعلم في ذا العصر مدرسة *** تحيي بها من علوم الدين ما اندرس

حسين بن علي الباي أسسها *** من لم يزل لضياء المجد ملتمسا

والجدير بالملاحظة أن عدد المدارس في أوائل القرن12هـ/18م فاقت في شهرتها العلمية الجوامع [1]، وقد كان غرض الأمراء الحسينيين من تأسيس المدارس في العاصمة وفي غيرها من المدن الأخرى بالبلاد هو سياسي ديني. فهذه المؤسسات من شأنها أن تجلب لهم احترام الرعية وتقدير وطاعتهم، وتؤمن لهم مراكز إشعاع يمكن أن تثبت وجودهم. واعتبرت أهم مراكز لتدريس العلوم العقلية والنقلية[2].

إلا أنّ دورها سيتراجع مع منتصف القرن التاسع عشر[3] خاصة بالحاضرة العاصمة لتتحول إلى مجرد مبيتات للطلبة الوافدين من كافة أنحاء البلاد التونسية لمزاولة تعلمهم بجامع الزيتونة، في حين تبقى المساجد والجوامع الكبرى خاصة جامع الزيتونة تستقطب طالبي العلم [4] .

6. المكتبات :

تعددت تسميات المكتبة في العالم العربي الإسلامي، وتشمل على ستة ألفاظ، ثلاثة منها تتعلق بالموضع أو المكان وهي:(بيت، خزانة، دار) والثلاثة الأخرى تتعلق بالمحتوى(حكمة، علم، كتب) وعن طريق الجمع بين هذه الألفاظ استخرج الباحثون ستة أسماء اصطلاحية كانت تسمى بها المكتبات وهي (بيت الحكمة، خزانة الحكمة، دار الحكمة، دار العلم، دار الكتب، خزانة الكتب، بيت الكتب)[5]. وقد استعملت هذه التسميات للدلالة على المكان الذي تحفظ فيه الكتب، ولازالت إلى يومنا هذا تطلق في المغرب الأقصى، فيقال "الخزانة العامة"و"الخزانة الحسنية". أما في الجزائر وتونس، فقد عرفت "بالمكتبة الوطنية".

ومن بين المظاهر الدالة على الحضارة، هو عناية السلطة والشعب بالمكتبات لأنها الوسيلة الضرورية لخدمة الثقافة وترقية المستوى العلمي والمعرفي، إذ أن أقوى ركيزة تستند عليها الثقافة، هي

---

[1]– قرين، مرجع سابق، ص 44 .

[2]– الحناشي، مرجع سابق، ص ص17، 18 .

[3]– يعود السبب إلى إلحاق البايات الحسينيين، خاصة في الفترة ما بعد سنة 1287هـ/ 1870م، كل المدرّسين الذين كانوا يدرسون بالمدارس بجامع الزيتونة. أي أن تراجع دور المدارس يعود سببها إلى الحكام الذين حاولوا التقزيم والإنقاص من قيمتها، لأنها كانت تنافس جامع الزيتونة . أنظر: قرين، مرجع سابق، ص 44 .

[4]– الحناشي، مرجع سابق ، ص 18 . أنظر أيضا: قرين، مرجع سابق، ص ص 44، 45 .

[5]– ديب، مرجع سابق، ص 188، هامش 3 .

المطالعة وليس المدرسة. لأن هذه الأخيرة تقوم بتلقين المتعلم طرق الفهم والاستنباط وإرشاده إلى قواعد البحث وكيفية استغلالها. أما الأولى، فتساعد على كسب المعرفة[1]، لذلك كانت ومازالت المكتبات من أهم المؤسسات التعليمية، فهي منبع من منابع المعرفة تُحفظ فيها العلوم ومؤلفاتها في شتى فروع العلم، فتجعل حياة من يعتمد عليها امتداد لحياة السابقين، ومن هنا كان اهتمام المسلمين بالمكتبات بصفة عامة وتونس بصفة خاصة. فقد عرفت هذه الأخيرة انتشار المكتبات منذ زمن الأغالبة. فكانت بيت الحكمة بالقيروان أعظم مكتبة بإفريقية ترجع نشأتها إلى إبراهيم الأصغر (216-289هـ/874-901م) حيث يجلس فيها العلماء والطلبة للمطالعة والدراسة، وكان محلا لنسخ الكتب ومقابلتها على الأصول المعتمدة[2]. وكانت تحوي كتبا في مختلف المواضيع من علوم الدين وكتب الجدل والمناقشات، كما نجد الكتب المترجمة من فلسفات شتى كاليونانية والفارسية والسريانية والهندية، وهي لا تقل أهمية عن مكتبة بيت الحكمة ببغداد[3] .

وهذا، فإن حكام الأسرة الحسينية كانوا حريصين على تدعيم النهضة الثقافية والتعليمية، فقد أرفقوا المساجد والزوايا والمدارس بمكتبات مزودة بأنفس المخطوطات والكتب، كما شجعوا على نسخها، وفي هذا الشأن يقول "مخلوف": "...جمعوا الكتب العلمية على اختلاف أنواعها ...وعملوا على اقتنائها وحفظها في الخزائن بقصورهم للمطالعة بالمدارس وبجامع الزيتونة لنفع العموم"[4]. فنجد "حسين بن علي" مؤسس الأسرة الحسينية من البايات المهتمين بجمع الكتب ونسخها، لا سيما منها كتب الحديث والتفسير[5]، واجتهد في ذلك لحد تكوين خزانة معتبرة وقفها على المحكمة الشرعية بتونس، منها النسخة المحفوظة حاليا بالمكتبة العبدلية[6]، التي تحوي كتبا من مختلف التخصصات خاصة منها كتب التفاسير والأحاديث النبوية[7]. وفي هذا السياق يخبرنا

[1]– محمد بن الشاذلي العنابي، " المكتبات عناية الأمم الحية بها وتفريطنا فيها "، م . ز، مج 1، ج 4 ، شوال 1355هـ/ ديسمبر 1936م ، ص 202 .

[2]– الطويلي، مراكز الثقافة...، مرجع سابق، ص 53 .

[3]– ديب، مرجع سابق، ص ص 188، 189 .

[4]– مخلوف، مصدر سابق، ص 441 .

[5]– محمد الحبيب الهيلة،" المادة التاريخية في كتاب قرة العين"، مج. ت. مغ، عدد 23، 24، نوفمبر 1981م، ص 386 .

[6]– محمد بن الخوجة ،"كيف نشأت خزائن الكتب لدراسة العلوم بجامعة الزيتونة المعمور"، م . ز ، مج1 ، ج1 ، رجب 1355هـ/سبتمبر 1936م ، ص74 .

[7]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 85 .

"حسين خوجة" أن هذا الباي: "اعتنى بجمع الكتب، وحصل على خزانة عظيمة وانتفع منها الناسخون"[1].

كما اشتهر "علي باشا" بشغفه وحبه لجمع الكتب واكتسابها[2] إلى درجة أنه أصبح يطلق عليه اسم "أبو النهضة العلمية الأولى"[3]. حيث كان يتابع حركة التأليف، ويسأل عن المؤلفات الجديدة ويأمر أن يودع كل كتاب يصدر بالمكتبة بخط صاحبه حتى ولو كان خارج تونس. فكانت مصادر الكتب متنوعة، يأتي بها من مختلف بلدان العالم. فقد أرسل إلى فاس لشراء "تاريخ ابن خلدون"، ويذكر "صاحب المشرع" أنه "صرف على جلبه مالا كثيرا". وكان الباي لا يبالي بثمن الكتب حيث يقتنيها "ولو بلغ الكتاب ألف ريال"[4]. ومن ذلك أيضا إرساله لجلب "حاشية السّعد على الكشاف"[5]التي لم تكن موجودة إلا في آية صوفية[6] باستانبول. وهي من المخطوطات المحبسة هناك، فقام بإرسال مفتي دولته "حسين البارودي"[7] ليأتي بنسخة منها "وجاءه بها واشترى له كتبا كثيرة بأموال عظيمة"[8].

وقد شكل من كل تلك الكتب مكتبة عظيمة بمسجد بيت الباشا بقصر الباردو[9] تحتوي على أنفس المخطوطات[10]. كما حظيت كل مدارسه التي أسسها بخزائن من الكتب العلمية لإعانة طلبة العلم[11]. ويذكر في هذا السياق المؤرخ "ابن الخوجة" عن مكتبة المدرسة الباشية، قائلا:" ولما تم بناؤها عمرها بنفائس الكتب ليسهل على من يسكنها من الطلبة اقتناء العلوم، وهذه الكتب بقيت منها لعهود متأخرة"[12]، لتؤدي دورها في انتفاع الطلبة والمدرسين بما تحتويه من معلومات.

---

[1]– خوجة، مصدر سابق، ص 156 . أنظر أيضا : الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج1، ص 27.

[2]– مخلوف، مصدر سابق ،ج2 ، ص 165

[3]– ابن الخوجة، "كيف نشأت خزائن الكتب..."، مرجع سابق، ص 74 .

[4]– الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3، ص ص 51، 55 .

[5]– هي حاشية سعد الدين التفتزاني (ولد سنة 467هـ/ وتوفي سنة 538هـ/ 1143م) وهي حاشية على تفسير جار الله ابي القاسم محمود الزمخشري للقرآن الكريم " الكشاف".

[6]– كان في السابق كنيسة ثم تمّ تحويله إلى جامع، بعد فتح إستانبول سنة 1453م .

[7]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص ص 25 – 30 .

[8]– الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3، ص 50 .

[9]– يفيدنا المؤرخ "ابن الخوجة" الذي اطلع على فهرس قديم بمحفوظات الدولة التونسية أن الكتب التي كانت بمسجد بيت الباشا بقصر الباردو عند تولي "محمود باي الحكم" كانت جملتها 2726 مجلد. أنظر: "كيف نشأت خزائن الكتب..."، مرجع سابق، ص 74 .

[10]– عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 153 .

[11]– مقديش، مصدر سابق ، مج1، ص ص 162 ، 163 .

[12]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 317 .

كانت الكتب تصل إلى تونس عن طريق الحج والرحلة لطلب العلم. فقد روى لنا "مقديش" قصة "أبي عبد الله محمد الغراب" (ت 1135هـ/1723م) الذي أعطى له والده مبلغا من المال ليحج، والباقي منه طلب أن يُتاجر به. لكنه عند عودته من الحج نزل بمصر واشترى بذلك المبلغ المتبقي كتبا كثيرة[1].

ويعتبر "علي باشا" من الحكام الذين شجعوا حركة نسخ واستنساخ الكتب، فقد كان النسّاخ لا يتوقفون من نسخ الكتب، فإذا أتموا نسخ الكتاب يأخذون النسخة للباي ويردون الأصل لصاحبه[2]. وكان يحب أن يرى الكتب التي يتم نسخها في أجمل وأبهى حُلّة، فكان يستعين بكل من له خط جميل، فقد كتب له "الورغي" بخطه المشرقي الجميل كتبا كثيرة أشهرها "نسخة القاموس البديعة"[3]، ونسخ له "أحمد الطوبي" (ت 1193هـ/ 1779م) الكثير من الكتب لجمال خطه[4]. كما نسخ أيضا "عمر المحجوب" (ت 1222هـ/ 1807م) لحمودة باشا "كتبا تبهر العقول بحسن خطها وتنميقها"[5] .

وكان الحكام ورجال الدولة يحتفظون بالكتب والمخطوطات، وحتى مصاحف بمكتباتهم الخاصة ومكتبات المدارس والجوامع التي أسسوها. فقد احتفظ "يوسف صاحب الطابع" بمصحف عظيم، ويقال عنه إنه مصحف ثمين لا يقدر بثمن، نُسخ أوائل عام 1230هـ/ 1815م بخط الثُلث، تضمن بآخره اسم ناسخه، وهو الشيخ "مصطفى رفقي الأيوبي" من تلاميذ "الحاج مصطفى أفندي" ببغداد[6].

وكان للمكتبات الخاصة اعتناء واضح من طرف الحكام، ويظهر ذلك جليا من خلال الخزانات الراقية التي أمر الباي "علي باشا "صناعتها لتخزن فيها كتبه بمكتبته الخاصة بقصر الباردو، فقد أمر بجلب من يصنعها من بلاد النصارى. ويذكر المؤرخ "الصغير بن يوسف" أنه قلّما

[1]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص ص 370، 371 .
[2]– الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3، ص 49 .
[3]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 82 .
[4]– السنوسي، مصدر سابق، ج3، ص 81 .
[5]– نفسه، ص 85 .
[6]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 223 .

تجد مثل تلك الخزائن عند الملوك، فهي"موشحة بالبقم[1] أحمر وأسود على بياض فضي أو ذهب يحيّر العقول، آية للناظرين". كما جعل للمكتبات قائما عليها يحفظها من الغبار[2].

والجدير بالإشارة أنه بالرغم من كل الجهود المبذولة والأموال المدفوعة لجمع هذا الكم الهائل من الكتب، إلا أنه ستتعرض للتلف والإهانة في أواخر حكم الباي "علي باشا"، بسبب الصراع الذي حدث بينه وبين أبناء عمه "حسين بن علي". حيث يقدم لنا "صاحب المشرع الملكي" صورة حقيقية عن تلك الكتب التي كانت تغتصب وتباع بأثمان زهيدة يقول: "ونهبها كل بهلول وحاذق، وباعوها بأبخس دريهمات عدوها وما عرفوا قدرها ولا كم ثمنها"[3]. كما يروي بلغته العربية التي تغلب عليها العامية، ما حدث له مع شاب نهب عددا معتبرا من الكتب، وباعها بسعر واحد سلطاني ذهبي للكتاب، ويضيف متأسفا لعدم قدرته على شرائها، وما فعله الشاب بتلك الكتب[4].

ويبدو أن الحكام الحسينيين لم يكونوا وحدهم شغوفين بجمع الكتب وإنشاء المكتبات وتزويدها بالكتب وتخصيص أوقاف لها، بل شاركهم في تلك الحركة رجال الدولة منهم الوزير "يوسف صاحب الطابع" الذي أوقف بمكتبة جامع الحلفاوين[5] أربع خزائن مملوءة بنفائس الكتب المخطوطة باليد، وجعل تسييرها والنظر في أمورها لإمام الجامع وشيخ المدرسة الطابعية [6]. ونجد أيضا من العلماء الذين يمتلكون كتبا كثيرة يأخذونها معهم خلال رحلاتهم العلمية، لكن هناك من يفقدها أثناء الرحلة. وهذا ما حدث "لمحمد سعادة"[7] (ت1171هـ/1758م) الذي كان يملك عددا هائلا من الكتب والمذكرات، ويذكر في كتابه "قرة العين" أنها ضاعت منه في عرض البحر عن طريق الغرق أثناء عودته من المشرق بميناء الإسكندرية[8]. ونفس الواقعة حدثت "لإبراهيم الجمني" (ت 1134هـ/ 1721م) الذي ضاع منه هو الآخر خلال عودته من مصر إلى تونس

---

[1]– هو شجر من أمريكا الوسطى يحتوي خشبه على مادة ملونة تستعمل في الصباغ، ورقه كورق اللوز. أنظر: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3، ص 5، هامش 1 .

[2]– نفسه، ص51 .

[3]– نفسه، ص 55 .

[4]– يمكن الإطلاع على القصة كاملة، بالعودة إلى: نفسه، ص51 .

[5]– يسمى أيضا بجامع يوسف صاحب الطابع، تم التطرق إليه سابقا. أنظر: في نفس الفصل، ص ص58، 59 .

[6]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 91 . أنظر أيضا: ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص ص 214، 216 .

[7]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: مخلوف، مصدر سابق، ج1، ص 346 .

[8]– عبد السلام، مرجع سابق، ص 206 .

عبر البحر عدد كبير من كتبه التي جمعها، ويخبرنا "مقديش" أنه غرق كل من كان على متن السفينة[1]. كما فقد العالم "يوسف برتقيز"(لم نقف على تاريخ وفاته) هو الآخر في الإسكندرية مكتبته التي كان يحملها معه[2].

كما امتلك "علي النوري" بمحل سكناه مكتبة ضخمة نفيسة، صرف عليها أموالا كثيرة، تجاوزت شهرتها حدود البلاد. واحتوت على كتب في مختلف العلوم منها: علوم القرآن من قراءات وتفسير، كتب الحديث والفقه والتصوف والحساب والفلك والطب، والقليل من كتب اللغة والأدب والتاريخ والتراجم[3]. وفي نفس السياق يذكر لنا "ابن ابي الضياف" من خلال ترجمته "لمحمد الجلولي"(ت 1255هـ/ 1839م) أنه يملك مكتبتين إحداهما بصفاقس والأخرى بمدينة تونس، ويخبرنا أنه لا يمنع من يريد الانتفاع بها، خاصة طلبة العلم وهو واحد من الذين استفادوا من مكتبته الموجودة بالحاضرة تونس[4]. كما كان "لإبراهيم بن علي شعيب الباجي" مكتبة خاصة أثناء تواجده بمصر وبقيت هناك بعد وفاته، وقد حاول أخوه "أحمد" استرجاعها لكن وافته المنية وهو في طريقه إلى مصر[5].

ونظرا لأهمية المكتبات ودورها في التعليم والتثقيف، ستعرف هذه الأخيرة في عهد "المشير أحمد باي" ومن بعده "محمد الصادق الباي" على يد وزيره "خير الدين باشا" تطورا واهتماما أكثر خاصة مكتبة جامع الزيتونة، سواء من ناحية الترتيب وحفظ وجمع الكتب، وحتى القائمين عليها. كما سيشهد عهد "محمد الصادق باي" مكتبات تسير في نمطها على النموذج الأوربي خاصة ما يتعلق بالإعارة والنسخ وغير ذلك[6].

ومن كل ما تقدم نستطيع الوصول إلى جملة من الاستنتاجات وهي كالآتي:

وجد الحسينيون بعد توليهم الحكم، مؤسسات تعليمية يعود بعضها إلى العهد الحفصي، والبعض الآخر إلى العهد العثماني، لكن هذا لم يمنع من إضافة الجديد، ويعتبر الباي "حسين بن علي" والباي "علي باشا" من أكثر البايات الحسينيين تشييدا للمؤسسات التعليمية . ولم يكن

[1]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 438 . أنظر أيضا: محفوظ، مرجع سابق، ج2، ص 57 .

[2]– خوجة، مصدر سابق، ص258 .

[3]– علي الزواوي، " الزاوية النورية وتأثيرها على الحركة التعليمية والعلمية خلال القرن الثامن عشر"، مج.ت.مغ، ع 57– 58، جويلية 1990م، ص 269 .

[4]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج8، ص 42 .

[5]– زهير بن يوسف، مرجع سابق، ص 61 .

[6]– أنظر: الباب الثاني، الفصل الثاني، ص ص 279– 282 .

بنائها مقتصرا على الحكام فقط فهناك أيضاً بعض الشخصيات من ذوي الجاه والنفوذ وبعض الأخيار الذين شاركوا في هذا العمل، خاصة منهم كما تطرقنا في دراستنا كبار رجال الدولة أمثال "يوسف صاحب الطابع"، وحتى بعض الأولياء والصالحين.

لاحظنا أن أبناء الحكام وكبار الدولة لا يدرسون بالجوامع أو المدارس أو غيرها من الأماكن الأخرى الخاصة بالتعليم، بل يختص بتدريس كل عائلة منهم بمدرس أو فقيه .

تعليم الكتاتيب كان له دورٌ كبير في التوعية ونشر العلم في المجتمع التونسي، وهو القاعدة الثانية بعد المنزل ينطلق منهما الصبي في عالم العلم ويهيئانه للانتقال إلى مرحلة أخرى من التعليم، ألا وهي المرحلة العليا الأكثر شمولية واتساعا، وهذا القدر من التعليم هو الذي يسمح له بمواصلة التعليم بمؤسسات أخرى كالمساجد والمدارس.

كان للزوايا دور تعليمي كبير لا يمكن أن يُستهان به، حيث كان يُخصص فضاء مستقل أو ملحق بالزاوية للتدريس، فقد شكلت مرحلة تحضيرية لزومية للانتقال إلى المراحل التعليمية العليا.

دور المساجد لم يكن قليلا في تونس، فقد كانت من المؤسسات التي ساهمت في نشر العلم والتثقيف، بالموازاة مع دورها الديني المتمثل في العبادة، واتضح لنا أن العناية ببيوت الله كان ظاهرة بارزة في المجتمع التونسي، فقد كانت شاهدة على التطور الفكري والازدهار العمراني اللذين عرفتهما تونس .

نستنتج أن عدد المدارس في أوائل القرن الثامن عشر فاقت في شهرتها العلمية الجوامع، وقد كان غرض الحكام الحسينيين من تأسيس المدارس في العاصمة وفي غيرها من المدن الأخرى بالبلاد هو سياسي ديني. فهذه المؤسسات من شأنها أن تجلب لهم احترام الرعية وتقديرهم وطاعتهم، وتؤمن لهم مراكز إشعاع يمكن أن تثبت وجودهم، واعتبرت أهم مراكز لتدريس العلوم العقلية والنقلية. إلا أن دورها تراجع مع منتصف القرن 12هـ/18م خاصة بتونس الحاضرة لتتحول إلى مجرد مبيتات للطلبة الوافدين من كافة أنحاء البلاد التونسية لمزاولة تعلمهم بجامع الزيتونة، في حين بقيت المساجد والجوامع الكبرى خاصة جامع الزيتونة تستقطب طالبي العلم .

بالرغم من سيطرة كتب العلوم الدينية على المكتبات إلا أن هذا لم يمنع من وجود كتب من علوم أخرى، وهذا ما جعل المكتبات غنية بجميع أنواع المعارف. وهي إما كتب محلية، أو جلبت من الخارج (استانبول، المغرب، مصر...).

الفصل الثاني:

الأطوار التعليمية ونظامها

1. الطور الأول: التعليم في الكتاتيب –التعليم الابتدائي–
   1.1. سن ومدة تمدرس الصبي
   2.1. المقررات الدراسية وطرائق التمدرس
   3.1. الثواب والعقاب
   4.1.أيام الدراسة والعطل
2. الطور الثاني:التعليم ما بعد الكتاتيب – التعليم الثانوي والعالي –
   1.2.سّن الالتحاق بالطور الثاني
   2.2. المواد والمحتويات الدراسية
   3.2. أيام الدراسة والعطل
   4.2. الإجازات العلمية

كان لا بد على طالب العلم التحلي بالصبر الطويل حيث يمّر تعليمه عبر مراحل محورية وأساسية. فبعد أن يأخذ نصيبه من القرآن الكريم ومبادئ بعض العلوم في مرحلته التعليمية الأولى، ينخرط في سلك أحد المعاهد ويترقى في درجات المعرفة، كل بحسب مؤهلاته وإمكانياته المادية ومواهبه الفطرية التي تؤهله لاستكمال دراسته أو الوقوف في درجة لا يستطيع تخطيها وتجاوزها إلى درجة أعلى.

ومن هذا المنطلق أُثير في ذهننا العديد من التساؤلات التي دفعتنا إلى طرح الإشكالية الأم والمتمثلة في: الخصوصيات ولمقررات والطرائق التعليمية السائدة في كل مرحلة من مراحل التعليم.

1. الطور الأول: التعليم في الكتاتيب – التعليم الابتدائي – :

اعتبرت الكتاتيب القرآنية إحدى المؤسسات التي تنتمي إلى منظومة التعليم الديني والشرعي أو التعليم التقليدي العتيق، هذه المؤسسة التي ظلت لفترات زمنية طويلة الحلقة الأساسية والأولى التي ينهل منها المتعلم المعارف الدينية والعلوم. وفي هذا الإطار اهتم سكان تونس عبر العصور بتعليم الأطفال وتحفيظهم القرآن الكريم، وكان لهم في ذلك طرقهم الخاصة والمناهج التعليمية والآليات التدريسية التي تمكن الطالب من أخذ زاده الأولي من الكتّاب[1].

لا يختلف التعليم الابتدائي الذي كان قائما بإيالة تونس خلال العهد الحسيني، عمّا كان عليه قبل ذلك، كما أنه لا يختلف عن التعليم الذي كان قائما في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ذلك لأن مناهج التعليم اتسمت بالتوحيد بين كل البلدان الإسلامية عامة والمغاربية خاصة منذ زمن بعيد[2].

1.1. سّن ومدة تمدرس الصبي بالكتّاب:

تميزت الكتاتيب منذ عصر بعيد بعدم تحديد واشتراط سن معين للالتحاق الصبيان بها، فإذا بلغ الصبي الخامسة أو السادسة من العمر، ساقه أبوه إلى الكتّاب[3]، وهذا ما يؤكده لنا "الحشايشي" قائلا: "إعلم أن الطفل في الغالب لا يدخل الكتّاب إلا إذا بلغ سنه إلى ستّ

[1]– عصامي، مرجع سابق، ص 114 .

[2]– الزيدي ، مرجع سابق . ص 13 .

[3]– ابن سحنون، مصدر سابق، ص 50 .

سنين"[1]. وتذكر الدراسات أن سن السادسة أو السابعة هي السن المعتدلة التي يمكن فيها للصبي أن يستوعب ما يُلقى إليه[2].

وما زلنا إلى يومنا هذا نشاهد الكثير من الأولياء الذين يحبذون إرسال أبنائهم إلى المساجد لتعلُّم القرآن والكتابة في مرحلة ما قبل التمدرس، حتى يتعودوا على نظام التعليم ومخالطة زملائهم قبل الانتقال إلى التعليم المدرسي النظامي[3]، وكذا تهذيبهم وإعدادهم لتلقي الأخلاق الحميدة[4].

وللتعليم في الصغر أهمية كبيرة فكلنا يحفظ المثل القائل: " العلم في الصغر كالنقش على الحجر"، ويؤكد هذا الكلام العلامة "ابن خلدون" في قوله: "والسبب في ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخا، وهو أصل لما بعده "[5].

فإذا كان الكتّاب لم يقيد سن التحاق الأطفال بالدراسة، فقد تركت الحرية للآباء في إرسال أطفالهم إليه متى شاءوا. ومتى كان التبكير في طلب العلم كانت له فائدة كبيرة وجدوى عظيمة لنشاط الجسم وصفاء النفس وفراغ البال[6].

إنه من الصعب علينا تحديد سن التحاق الصبي بالكتّاب. فكتب السيّر والتراجم لا تمدنا بالمعلومات الدقيقة، فأثناء تفحصنا لتراجم الشيوخ والعلماء لا نجد ذكرا لسن التحاقهم وحتى السن الذي أكملوا فيه دراستهم بالكتاتيب. فما عثرنا عليه هو إحالة عن طريق العبارات التالية:"...وحفظ القرآن في صغره"[7]، "...وقرأ بها القرآن العظيم"[8]،"...فحفظ القرآن العظيم"[9]. لكن يمكننا الاستعانة بالمادة الأرشيفية المتوفرة بين أيدينا لإعطاء صورة حتى ولو لم تكن دقيقة – تقريبية– عن سن التحاق الصبي بكتّابه، فعلى سبيل المثال اشترط الباي "علي باشا" في وقفيته

---

[1]– الحشايشي، العادات والتقاليد...،مرجع سابق، ص 85 .

[2]– طلس، مرجع سابق، ص 74 .

[3]– ديب، مرجع سابق، ص 83 .

[4]– الحشايشي، العادات والتقاليد... ، مرجع سابق، ص 84 .

[5]– عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة –كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر–، ط8، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008م، ص ص 461 ، 462 .

[6]– ديب، مرجع سابق، ص ص 83 ، 84 .

[7]– خوجة، مصدر سابق، ص 234 .

[8]– نفسه، ص 198 .

[9]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج8، ص ص 44 ، 60 ، 111 .

الخاصة بمدرسة حوانيت عاشور والتي تحتوي على مكتب مجاور لها، أن يكون سن التحاق الصبي بهذا الأخير "من خمسة أعوام فأكثر إلى بلوغه الحُلُم"[1]. يعني هذا أن أقل سن هو خمسة أعوام وأقصاه بلوغ الحُلُم وهذه السن تتراوح عند الذكور بين الثالثة عشر والخامسة عشر[2]. كما يذكر "الحشايشي" أن هناك في الكتّاب صبيان ومراهقين[3]. ونفس السن تقريبا تورده الكتابات الأجنبية، فقد أشار "أرنولي"Arnoulet" أن سّن الصبيان بالكتاتيب يتراوح ما بين ستة إلى ستة عشر سنة[4]. وهذا ما يؤكد أن سن التعليم يختلف من صبي لآخر تماشيا مع درجة الاستيعاب.

والظاهر أن مدة البقاء في الكتّاب تختلف من صبي لآخر، حيث يقصد الكتّاب منذ سنّ الخامسة أو السادسة من عمره، ولا يغادره إلاّ وهو في العاشرة أو حتى في السابعة عشر، أي لمدة ثماني سنوات أو أكثر[5]، وهذا حسب نباهته وسرعة حفظه، فالصبي الذكي قد يختم القرآن حفظا وهو في العاشرة، ومن ذلك "علي النوري الصفاقسي" (ت 1118هـ/ 1706م) الذي قال عنه "حسين خوجة" في ترجمته أنه حفظ القرآن الكريم ابن عشر سنين، ثم رحل إلى تونس وهو ابن أربع عشرة سنة[6]. ومن هنا نستشف أن سن حفظ القرآن كله هو الثانية عشرة، ويقضي بقية السنوات إلى غاية الرابعة عشر أو أكثر في تكرير القرآن على شيخه برواية ورش أو غيرها، كما أنه يأخذ في إتقان الكتابة والقراءة وتعلم مبادئ الحساب وقواعد الدين وحفظ بعض المتون التي ستكون أساس تعلمه في المرحلة المقبلة[7]. فعلى سبيل المثال صاحب "عنوان الأريب" يروي لنا قصة تعلّم جده "محمد النيفر" (ت 1277هـ/1860م) ويذكر أنه أتم حفظ القرآن في السنة الثانية عشر من عمره، فأراد أن ينقله والده من المكتب إلى جامع الزيتونة، لكن مؤدبه "أبو عبد الله محمد القسنطيني"(لم نقف على تاريخ وفاته) منعه من ذلك وطالب والده إبقاءه بالمكتب ليحفظ المتون العلمية، وبقي بالمكتب إلى أن بلغ أربعة عشر من عمره[8]. ولا يفوتنا التنبيه إلى أن مدة التعليم تتحكم فيها رغبة الولي في تعليم ابنه، فمنهم من يكتفي بتعليمه القليل، وسرعان ما

---

[1]– "وقفية بتاريخ أواسط ربيع الثاني 1159هـ/ أوائل ماي 1746م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 428 .

[2]– طلس، مرجع سابق، ص 75 .

[3]– الحشايشي، العادات والتقاليد... ، مرجع سابق ، ص 85 .

[4]– Arnoulet, Op.Cit. , p 32 .

[5]– الزيدي، مرجع سابق، ص ص 13 ، 14 .

[6]– خوجة، مصدر سابق، ص 127 .

[7]– سعد الله، مرجع سابق، ص 346 .

[8]– النيفر، مصدر سابق، ج2، ص 838 .

يوجهه إلى العمل والبحث عن الرزق[1]، وذلك ما بينه "ابن أبي الضياف" في ترجمته "لأحمد بوعبده" (ت 1222هـ/ 1808م) الذي كان يمنعه والده من مواصلة تعليمه، ويحمله معه مكرها إلى نوبة العسة بجربة، بالرغم من صغر سنه وحبه للتعليم[2].

وعلى كلّ فبعد أن يتّم الصبي مدة دراسته في الكتّاب يمتحنه مؤدبه، ويُتوّج الذين حفظوا القرآن الكريم حفظا كاملا عن ظهر قلب في حفل تخرج [3].

2.1. المقررات الدراسية وطرائق التدريس:

يجتمع الصبيان أثناء الفترة الصباحية داخل قاعة واحدة متربعين على حصير أو نحوه حول مؤدبهم مشكلين نصف دائرة [4]. وبيد كل واحد منهم لوحة خشبية[5] مستطيلة الشكل يكون في الغالب مقاسها ما بين 30 إلى 80 سم طولا وما بين 20 إلى 60 سم عرضا –حسب عمر الصبي–، وأقلام من قصب وحبر للكتابة يسمى "الصمغ"[6].

يتعلم الصبيان في الكتّاب القراءة والكتابة والقواعد الأولية للّغة العربية[7]، بالإضافة إلى تعليمهم القرآن الكريم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أن يتعلم الصبيان القرآن، وقد روي عنه أنه قال: "تعليم الصبيان كتاب الله يطفئ غضب الله"[8]. وكان يتم بطريقتين، إما بالكتابة في الألواح وإما بالتلقين باللفظ، وتسمى الطريقة الأولى "النظر"، والثانية "الظهر" أي عن ظهر قلب[9]. وكانت طريقة "التلقين" من الطرائق المتبعة في المرحلة الأولى من التعليم، فقد كان المؤدب يُلقن الصبية الحروف بترديد العبارات التالية خلف معلمهم بصوت عالٍ :

---

[1]– الماجري، مرجع سابق، ص 170 .

[2]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 56 .

[3]– الزيدي، مرجع سابق، ص 15 .

[4]– ديب، مرجع سابق، ص 85 .

[5]– يذكر الحشايشي أن هذه الألواح خشبها من أشجار الجوز أو التوت. أنظر: العادات والتقاليد..، مرجع سابق، ص 85 .

[6]–Mahmoud Abdel Maoula, L'université Zaytounienne et la société tunisienne, centre national de la recherche scientifique, Tunis,1971, p 75 .

للحصول على الصمغ يتم أخذ الصوف من إبطي الخروف أو من الفخذين ويكون جافا، بعد وضعه في الشمس يدّق بحجر ثم يوضع في إناء من طين فوق النار ويغطى بحجر بين الحين والآخر يحرك إلى أن يسوّد لونه ويصب عليه الماء والملح .بعد ذلك يوضع في قوارير صغيرة مع إضافة القليل من الماء ويغطى بالصوف. أنظر: عصامي، مرجع سابق، ص 117، هامش 407 .

[7]– العياشي، الزيتونة والزيتونيون...، مرجع سابق، ص 24 .

[8]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 24 .

[9]– نفسه، ص 44 .

أليف لا شيء عليه
باء وحدة من أسفل
التاء اثنين من فوق ...[1]

كما يتم تعليم الصبي في هذه المرحلة الكتابة، ويكون ذلك على لوحه الذي يتم طليُه بمادة تسمى "الطْفَلْ"[2] وعندما يجفّ يسطرّ المؤدب بقلم القصب الجاف دون غمسه في الصمغ، ثم تُكتب له الحروف ليقوم الصبي المتعلم بإعادتها بعد غمس القلم في الحبر[3]. ثم يلقنه التهّجي على حسب حركات الإعراب من الرفع والنصب والخفض والجزم، وبعد تمرنه على ذلك وحفظ الحروف من ((أ)) إلى ((ي)) ، يبدأ له بكتابة أم القرآن وهي "بسم الله الرحمان الرحيم"، ثم شيئا فشيئا إلى أن يصبح قادرا على كتابة آيات ثم سور من القرآن الكريم[4]. وللإشارة هنا أنه كثيرا ما كان المؤدب يستعين بقدماء تلامذته أي أكبرهم سنا مقدّما عليهم وفي نفس الوقت مؤتمنا على مجموعة الألواح والمحابر وأقلام القصب والعصي، وكذلك مكلّفا بتصحيح الألواح[5].

ويؤكد هنا "أحمد برنار"[6](ت1138هـ/ 1726م) على ضرورة إتباع طريقة التكرار والإعادة للتعليم في هذه المرحلة، حيث يقول:"...والإعادة الكثيرة نافعة جدا، ولا يكتب المتعلم شيء لا يفهمه فإنه يورث كلالة الطبع ويذهب الفطنة ويضيع أوقاته"[7]. وفي هذا السياق يورد لنا المؤرخ "ابن أبي الضياف" قصته مع مؤدبه "صالح بن عبد الجبار" الذي كان يطلب منه تكرار ما حفظه من القرآن، ثم يفسره له بألفاظ بسيطة تتماشى مع سن ومستوى الصبيان[8].

وبهذا يكون الصبي قد تعلم القراءة والكتابة معا، فينتقل إلى مرحلة أخرى حيث بإمكانه أن يكتب ما يمليه عليه مؤدبه، أي الانتقال إلى مرحلة التعليم "بالإملاء". فيبدأ المؤدب في إملاء آية مستعملا طريقته الخاصة، ذلك أنه يملي على الصبي الأول آية ويتركه يكتب ثم يقبل على الثاني، فيملي عليه آيته ثم يلتفت إلى الثالث فالرابع وهكذا دواليك. وبعد ذلك يعود إلى الأول،

---

[1]– قاسم ، مرجع سابق ، ص 145 .
[2]– طين أبيض اللون .
[3]– عصامي، مرجع سابق، ص 117 .
[4]– الحشايشي، العادات والتقاليد...، مرجع سابق، ص 85 .
[5]– عصامي، مرجع سابق، ص 118 .
[6]– يمكن الإطلاع على ترجمته بالعودة إلى: الباب الأول، الفصل الثالث، ص ص 163، 164 .
[7]– إعلام الأعيان بتخفيفات الشّرع عن العبيد والصّبيان، مخ رقم 6242، د. ك. و، تونس، و 56 (وج) .
[8]– ابن ابي الضياف، مصدر سابق ، ج7 ، ص 116 .

فيُملي عليه متوخيا الطريقة الأولى نفسها، إلى أن يحصل استيعاب الآيات المزمع إملاؤها على كل واحد منهم. وقد يكلف كبار التلاميذ نسخ أحزابهم من المصحف مباشرة ثم يتعقب المؤدب كتابتهم لتدارك ما قد يقع بها من أخطاء[1]. وإذا كان عدد الصبيان مرتفعا، اتخذ المعلم معه عريفا –مساعدا– يُعِينه على الإملاء والكتابة ويحفظ النظام ويحذر الصبيان من ارتكاب الأخطاء. وتنويعا للمعرفة، كان يوظف المؤدب الأمثال والحكم والأقوال المأثورة كنماذج لتدريب المتعلمين على جودة الخط إذ لا يكتفي بمعرفة الصبي الكتابة، بل يطالبه بتوضيحها وتنسيقها وجمالها[2].

بعد اجتياز مرحلة تعليم الكتابة، يتم الانتقال إلى مرحلة ثانية والمتمثلة في التلقين والحفظ، حيث يتم إتباع طريقة تعلمية تتمثل في "الاسترجاع" ولا يتم ذلك إلا بالمراجعة المستمرة والتكرار[3]. إذ لابد عليه أن يحفظ ما يمليه عليه المؤدب عن ظهر قلب ليستظهره عليه في اليوم الموالي، وعندما يتم الحفظ يجيز له مؤدبه محو لوحه في حوض من الماء — محبس– مخصص لذلك، موجود في أحد أركان القاعة، وتتكرر هذه العملية يوميا[4].

والجدير بالإشارة أن الصبيان الذين يحفظون عن ظهر قلب ما كانوا يكتبونه، يعرضونه في غدهم دون فهم أو تفكير، لأن المؤدب لا يقدّم تفسيرا ولا شرحا لما يمليه من آيات[5]. ونجد هنا أن المؤرخ "ابن خلدون" انتقد هذه الطريقة في التعليم ويؤكد أنها لم تترك مجالا للمتعلم للمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية: "فتجد طالب العلم منهم، بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية،سكوتا ولا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة. فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم"[6]. بينما هناك من يؤيد هذه الطريقة، بحجة أن هذه المرحلة من التعليم تقتصر على التحفيظ وتقوية الذاكرة لاختزان أكبر قدر ممكن من المعلومات، لأن ذهن الصبي في هذه المرحلة يستعد للنسخ أكثر من استعداده للإبداع

[1]– ديب، مرجع سابق، ص 87 .
[2]– نفسه .
[3]– التوزري، مرجع سابق، ص 112 .
[4]– الزيدي، مرجع سابق، ص ص 14 ، 15 .
[5] – نفسه، ص 14 .
[6]– ابن خلدون، مصدر سابق، ص 343 .

والفهم[1]. إذ يعلمنا "ابن أبي الضياف" أنه سأل الشيخ "محمد بن الطاهر بن مسعود"(ت 1234هـ/1818م) ذات يوم وهو صغير عن الطريقة المناسبة للتعلّم، فقال له: "لا طريقة لي إلا هذه، أكتب في لوح قراءتك الأجرومية والألفية وأحفظهما مع حفظك لوحتك..."[2].

ويوصي "ابن خلدون" بإتباع طريقة التدرّج في التعليم وعدم إثقال كاهل المتعلم بكثرة البرامج، إذ يقول:"لا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكّب على التعليم منه بحسب طاقته، وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان أو منتهيا"[3]. أما المواد المخصصة للحفظ، فهي عادة النصوص الفقهية والرسائل الأدبية وقواعد النصوص[4]. وعندما يكبر الصبي يجد نفسه في المرحلة العليا من التعليم، فيكون ملزما باستظهار أمهات الكتب أو المختصرات من كل فنون العلم[5].

سبق وأن ذكرنا أن البرامج التعليمية في الكتاتيب لم تشهد تغييرا يذكر في تونس منذ زمن بعيد، وهي مشتركة ومتشابهة بين الدول الإسلامية عامة والمغاربية خاصة. لذلك سنعتمد على رسالة "ابن سحنون"، حيث بيّن فيها أن العلوم التي تدرس في الكتاتيب مقسمة إلى إجبارية واختيارية. فالبرنامج الإجباري يحتوي في مقدمته على تحفيظ القرآن الكريم، ويتم ذلك على طريقتين: طريقة تبتدئ القرآن من سورة البقرة ثم السّور التي بعدها إلى غاية ختمه على ترتيب المصحف، والطريقة الأخرى تبتدئه من آخر سورة من على ترتيب المصحف من المعوذتين. وقد كانوا يبتدئون بفاتحة الكتاب في كلتا الطريقتين[6]. كما يتم تعليم إعرابه والشكل والهجاء والخط والقراءة الحسنة والتوقيف والترتيل[7]. ويذكر "ابن سحنون" أن الأنسب أن تكون القراءة برواية "نافع" لأنها من أحسن القراءات لأن مالك أخذ عن نافع، وسكان المغرب يتبعون المذهب المالكي[8].

---

[1]– صدق السلامي، "مرجعية مؤلفات الإمام سحنون في النصوص الحنفية المتأخرة بتونس"، ندوة دولية: موقع القيروان في الثقافة الإسلاميّة من تاريخ التأسيس إلى اليوم، م. د. إ. ق، 21–23 أفريل 2009م، ص13 . نود الإشارة هنا أن المقال مدتنا إياه صاحبته .

[2]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 109 .

[3]– ابن خلدون، مصدر سابق، ص 458 .

[4]– ديب، مرجع سابق، ص 85 .

[5]– نفسه ، ص 86 .

[6]– نقلا عن الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص ص43، 44 .

[7]– ابن سحنون، مصدر سابق، ص 102 .

[8]– نفسه، ص 42 .

لكن شهدت الكتاتيب في العهد العثماني قراءة القرآن برواية "حفص" لأن الأتراك العثمانيين يتبعون المذهب الحنفي، وهذا ما تؤكده الوقفيات التي تم الإطلاع عليها منها وقفية "علي باي الثاني" على المكتب الملاصق للجامع الجديد الذي بناه والده الباي "حسين بن علي"، حيث يذكر فيها أنه خصص أوقافا لصالح درسي التجويد أحدهما برواية "حفص" والثاني برواية "قالون"[1].

والظاهر أن التعليم في هذه المرحلة يقوم أساسا على تحفيظ القرآن "فكان لابد للصبي التحلي بالصبر الطويل، وكان عليه أن يحفظ القرآن بالتردّد على كتّاب من الكتاتيب"[2]. وقد ذكر "شاو"Shaw" الذي زار تونس في النصف الأول من القرن 18م، أن تعليم القرآن يعتبر من المواد الأساسية التي يدرسها الصبي في هذه المرحلة[3] .

والجدير بالذكر أن حفظ القرآن لا يسهل إلا بتعلم القراءة والكتابة اللتين جاء القرآن حاثا على تعلمهما في أول سورة أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(1)خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) ﴾[4]. وتحفيظ القرآن الكريم للصبي في مرحلة عمرية مبكرة، يساعد على تقويم النطق ويُقوي مخارج الحروف، إضافة إلى قدرة الصبي على الحفظ والاستيعاب في تلك المرحلة العمرية. ومن هنا تتأتى أهمية الكتاتيب نظرا لدورها الفاعل في تحفيظ القرآن الكريم.

منذ بداية القرن 12هـ/ 18م أضيف إلى البرنامج التعليمي بالكتاتيب علم الحديث والذي لا يخضع إلى القاعدة التعليمية التي تقوم على "الحفظ" وإنما على "السمع"[5]. وهو ما بينه "أحمد برنار" في كتابه "إعلام الأعيان" حيث ذكر انه أصبح يسمح للصبي في زمانه بسماع الحديث وكتابته وتقييده. كما بيّن أن العديد من الصحابة تعلموا الحديث في سن مبكرة[6].

---

[1]– "وقفية بتاريخ أواخر رمضان 1178هـ/ أواسط مارس 1765م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 272 .

[2]– عبد السلام، مرجع سابق، ص 83 .

[3]– Shaw Thomas, Voyages de M. Shaw dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant, trad de l'anglais, 1743,T1, p. 338 .

[4]– الآية 1 و2 من سورة العلق . نقلا عن التوزري، مرجع سابق، ص 107 .

[5]– الماجري، مرجع سابق، ص 179 .

[6]– برنار، مصدر سابق، و 44 (وج) .

ويدخل في هذا الطور تعليم الصلاة التي هي عماد الدين، وما يتبعها من وضوء وتشهد وأدعية[1]، ويتم تطبيق ذلك في مسجد الكتّاب أو في مسجد الحي[2]. ويأمر المؤدب الصبيان بتطبيق ذلك إن كانوا بني سبع سنين ويضربهم إن كانوا بني عشر، عملا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "مُروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها". فمن الطبيعي إذا أن ينّص المنهج الإجباري على تعليم القرآن والحديث والصلاة والدعاء والكتابة والنحو وبعض العربية، فكلها ترمي إلى غاية واحدة هي معرفة الدين والعبادات مما هو مفروض على المسلمين كافة[3]، كما أن التعليم في تلك الفترة كان دينيا بالأساس[4]، فالكتاتيب مهمتها تعليمية وتأديبية في نفس الوقت .

أما البرنامج الاختياري، فحسب "ابن سحنون" فإنه يحتوي على الفنون التي يمكن أن يعلمها المعلم للصبيان تطوعا أو بشرط يُشرط، وهي الحساب والتاريخ وجميع النحو والعربية، ففي ذلك يقول: "وينبغي له أن يعلمهم الحساب، وليس ذلك بلازم له إلا أن يُشترط ذلك عليه. وكذلك الشعر، والعربية، وجميع النحو، وهو في ذلك متطوع... ولا بأس أن يعلمهم الشعر مما لا يكون فيه فحش من كلام العرب وأخبارها. وليس ذلك بواجب عليه"[5].

والهدف من تعليم الصبيان الحساب هو غاية عملية، فالحساب يساعد على إجراء عمليات الفرائض والمعاملات، وهو صالح للتاجر في تجارته والصانع في مصنعه. أما تعليمه أيام العرب وأخبارها، هو تعليم التاريخ، وقد جاء القرآن الكريم بذكر قصص الأنبياء والبعض من الأحداث التاريخية، مثل قصة يوسف وعاد وثمود و... وذلك لأخذ المواعظ والعبر. كما يمكن للمؤدب أن يعلم الصبي الشعر، لكن يشترط الفقهاء أن يكون بعيدا عن الفحش وقبح الهجاء، مستندين إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " إنما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح"[6].

---

[1]– التوزري، مرجع سابق، ص 107 .

[2]– الكعاك، مرجع سابق، ص 97 .

[3]– ديب، مرجع سابق، ص 45 .

[4]– عصامي، مرجع سابق، ص 116 .

[5]– ابن سحنون، مصدر سابق، ص 102 .

[6]– التوزري، مرجع سابق، ص 108 .

أما من الناحية الأدبية فيتم حفظ المتون مثل: المرشد المعين والأجرومية[1]، وألفية ابن مالك[2]، والهمزية والبردة وبعض اللاميات[3]، والجوهرة وتلخيص القزويني[4]. كما أن المختصرات الفقهية من بين البرامج التعليمية التي درست في الكتاتيب منذ العهد الحفصي[5]، ولا نستبعد أنها بقيت تدرس للصبيان في العهد العثماني. أما من الناحية الفنية فيتعلم الصبي تحسين الخط وزخرفة الألواح بالألوان والأشكال الخطية والهندسية والنباتية، فيُجيد بذلك الفن الزخرفي. كما يتعلم الألحان في التجويد وأناشيد المولد النبوي، فتصبح لديه ثقافة فنية وموسيقية[6] .

تنتهي المرحلة الابتدائية بالحصول على شهادة الاستحقاق[7]، ويكون ذلك من نصيب النجباء الحافظين للقرآن الكريم حفظا تاما عن ظهر قلب، حيث يقوم المؤدب بامتحانه للتأكد من مدى حفظه، فإذا اجتاز الامتحان بنجاح احتفل "بالختمة"[8] في حفل بهيج، والذي يعتبر حدثا هاما بالنسبة للصبي والمؤدب معا. فقد أورد لنا المؤرخ "محمد النيفر" أخبارا عن احتفال "الختمة" في ترجمته للشيخ "محمد بن الحاج محمد طريفة الصفاقسي" جاء فيها: " وكان حسن الصوت، ذكر لي من حضر ختمته أن يومه كان يوما مشهودا، جمع الخاصة والعامة واحتفل به إلى الليل"[9]. وهذا دليل على أنه يوم مميز في المرحلة التعليمية الأولى للمتعلم، والذي هو عبارة عن يوم تخرجه من الكتّاب حيث يمكنه بعد ذلك الانتقال إلى المرحلة العليا .

ويمدنا "الحشايشي" أيضا بصورة دقيقة عن ذلك اليوم، فيقول: " وإذا ختم القرآن كله أخذ لوحا أكبر من الكل، فيذهب الطفل بذلك اللوح[10] مسرورا إلى أبويه، فينظرانه، ثم يعلقه في أعز مكان في داره مدة أيام من ثلاثة إلى سبعة، وبعد ذلك يرفعه الطفل إلى المكتب ومعه شيء من

---

[1]– اسم الكتاب الكامل" المقدمة الأجرومية في مبادئ علم العربية" لأبي عبد الله محمد الصنهاجي ، المعروف بابن أجروم (ت سنة 723هـ/ 1323م). كان أستاذا وفقيها ومقرئا وأديبا ومصنفا . كان جل إقرائه مقامات الحريري. أنظر: ديب، مرجع سابق، ص 46، هامش 7 .

[2]– وتسمى" أرجوزته المشهورة بالخلاصة الألفية "، غير أنها اشتهرت بالألفية وقد اختصر فيها أرجوزته الأخرى "الكافية الشافية . أنظر: نفسه.

[3]– الكعاك، مرجع سابق، ص 97 .

[4]– النيفر، مصدر سابق، ج2، ص 838 .

[5]– ديب، مرجع سابق، ص 47 .

[6]– الكعاك، مرجع سابق، ص 97 .

[7]– Abdel Maoula, op.cit. , p.77.

[8]– طلس، مرجع سابق، ص 68 .

[9]– النيفر، مصدر سابق، ج2، ص 791 .

[10]– يقول الحشايشي أن هذا اللوح بمثابة الشهادة في المدارس الأوربية . أنظر: العادات والتقاليد...، مرجع سابق، ص 85. يمكن الإطلاع على صور لألواح تمم ختم القرآن، ملحق رقم 02، ص 340 .

الدراهم، ولا يولم للطفل على ذلك إلا إذا ختم القرآن كله، فيجعل له طعام يسمى ذو الحذاق عند العرب، ولا يزال العمل جاريا لذلك في باديتنا وبعض القرى والحاضرة في البعض أيضا"[1].

وما يجدر ذكره أن المرحلة التعليمية الأولى بالكتاتيب، تعاني العديد من السلبيات التي كان لها وقع على الجانب النفسي والفيزيولوجي للمتعلمين، وتتلخص هذه السلبيات في حرمانهم من الاستراحة واللعب، بالإضافة إلى أن الجلوس والسكون الطويلين لهما أثر عميق في نمو أجسامهم. كما أن النظام التأديبي والتربوي به كان يعتمد على الزجر والضرب "بالفلقة"[2]، وغالبا ما كان ولي الصبي شريكا مع المؤدب في زرع الرعب والخوف في نفسية الطفل، حيث يوصيه بعدم الرأفة وعدم الاقتصاد في استعمال العصا[3]. ثم إنّ هذا التعليم كان يقوم على الحفظ والذاكرة ويهمل كل ملكات الطفل الأخرى. فأصبحت الكتاتيب تقدّم للمجتمع خرّيجين أقل ما يقال فيهم أن أغلبهم عاجز عن تحرير رسالة بالعربية، أو قراءة نص كامل بطلاقة[4].

3.1. الثواب والعقاب :

كان المتعلم في هذه المرحلة التعليمية يُثاب إذا أحسن ويُعاقب إذا أساء أو أخطأ، ويكون ذلك إما لفظيا أو جسديا. فالثواب اللفظي يكون بمختلف العبارات التي تدل على التقدير والتشجيع والمدح والشكر والثناء[5]. أما المادي، فيكون بالمكافآت المالية والجوائز. وكان الصبيان يلقون على نشاطهم واجتهادهم الدءوب للوصول إلى الختمة تحفيزات من آبائهم الذين كانوا يحثوهم عليها ويرغبوهم فيها لترسيخ حب التعليم في قلوبهم وذلك عن طريق اقتناء الهدايا وإغداق الأموال عليهم. ومن مظاهر التكريم في الختمة، حمل الصبي على حصان أنيق وارتدائه أجمل ملابسه، ويتبعه زملائه وأصحابه بالتصفيقات والهتافات، ويسير ذلك الموكب في الشوارع[6].

وتقام له وليمة كبيرة في المنزل يستدعى إليها الأهل والأقارب وحتى زملائه في المكتب، وعادة ما تقوم عائلة الصبي بطبخ الكسكسي ولحم الخروف ويشترى له بهذه المناسبة ثيابا جديدة تتمثل في: شاشية مجيدي، بدعية ، جبة ملف وبرنس ملف[7]. وهذا كله تشجيعا له على مواصلة

---

[1]– الحشايشي، العادات والتقاليد...، مرجع سابق، ص ص85 ، 86 .

[2]– الزيدي، مرجع سابق، ص ص 15 ، 16 .

[3]– قاسم، مرجع سابق ، ص 145 .

[4]– الزيدي، مرجع سابق ، ص 16 .

[5]– ديب، مرجع سابق، ص 88.

[6]- Shaw, Op.Cit., p.339 .

[7]– عصامي، مرجع سابق، ص 119. أنظر أيضا: Abdel Maoula, op.cit., p. 77.

الحفظ أو مجازاة له جزاءا محمود عند حصوله على شهادة من الشهادات أو مؤهل من المؤهلات تماما،كما تجرى العادة في عصرنا الحالي[1].

أما المتعلم المهمل والمتقاعس في دراسته وسيء السلوك مع مؤدبه وزملائه، فان مصيره العقاب إما لفظيا — معنويا–كالعتاب والتوبيخ أو جسديا –حسّيا– كالضرب.

- العقاب المعنوي: وذلك عن طريق الترهيب وبثّ الرعب، وإطلاق ألقاب تلحق العار بالصبي المذنب. وقد يلازمه ذلك اللقب زمنا طويلا. أو عن طريق السب والشتم كقول: "يا قرد"، والنهر والتوبيخ والقدح[2]. ويذكر لنا المؤرخ "محمد الطاهر بن عاشور" بعض الأبيات التي تعطي لنا صورة حية عن العقاب اللفظي الذي يوجهه المؤدب للصبيان عند غضبه، ومن ذلك تلك الأبيات التي كان يخاطب بها مؤدب القيروان صبيانه[3]:

يا فراخ المزابل	***	ونتاج الأراذل
اقرأوا لا قرأتمُ	***	غير سحر وباطل
روح الله منكمُ	***	عاجلا غير آجل

وقد وجد هذا الصنف من العقاب استحسانا من طرف الأولياء، اقتناعا منهم بفاعليته، عملا بالمثل القائل: "كلام الوْجّاع نْفّاعْ "[4]. لكن الفقهاء نهوا عنه، من بينهم "ابن عرفة" واعتبره مكروها لِما قد ينجر عنه من ضرر نفسي للصبي[5]. ونفس التشريعات الوضعية تُلزمها المنظومات التربوية في وقتنا الحالي، فهي تلح بشدة ضرورة تجنب العنف اللفظي لما له من آثار سلبية على المتعلم. إلا أنه قد يبدو أقل ضررا من العقاب الجسدي .

أما النوع الثاني من العقاب، فهو العقاب الجسدي الذي يكون عن طريق الضرب، فمن عادة المؤدب حمل عصا بيده أثناء التعليم يضرب بها كل من تَلَهى عن الحفظ[6]. وكانت أقسى

يذكر "سعد الله" نفس الأجواء الاحتفالية عندنا في الجزائر، بالصبي الذي يختم جزءا أو كل القرآن. أنظر: مرجع سابق، ص 347 .

[1]– ديب، مرجع سابق، ص 88.

[2]– الماجري، مرجع سابق، ص 144 .

[3]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 67 .

[4]– الماجري، مرجع سابق، ص 144 .

[5]– برنار، مصدر سابق، و41 (ظ) .

[6]– ديب، مرجع سابق، ص 85 .

العقوبات التي تسلط على الصبي في هذه المرحلة "الفلقة"[1]، وكان كل خطأ في النطق أو الكتابة يقابله عدد الضربات بالعصا[2]، وذلك عملا بوصية الأولياء الشائعة في البلاد التونسية تقريبا "لا تحاسبنا إلا بالجلد"[3]. فأغلب الآباء كانوا يرضون بتصرف المؤدب، لأنه موضع ثقتهم ويوجهون اللوم إلى أبنائهم. وقد يقولون للمؤدب أيضا: "العصا لمن عصى"، وهم يقصدون بذلك أن الذي يستحق العقوبة هو العاصي أو المتمرد، ومن ثمة يستحق الضرب بالعصا. ولكن اللجوء إلى هذه المعاملة القاسية نادر جدا وهو يعود أساسا إلى مزاج المؤدب، فإذا تكرر منه ذلك وكثرت ضده الشكاوى يعفيه الآباء من مهمته[4].

أجمع المربون المسلمون على ضرورة معاقبة الصبي لتقويمه منذ الصغر حتى يشب على الخصال الحميدة، وقد حدّوا الضرب بشروط حتى يؤدي المؤدب وظيفته التربوية المتمثلة في الزجر والإصلاح والتأديب، ولا يخرج عن ذلك إلى مجرد التشفي والانتقام[5]. ومن ذلك المؤرخ "أحمد برنار" الذي انتقد المؤدبين الذين تجاوزوا الحدّ في تأديب الصبيان في كتابه "إعلام الأعيان بتخفيفات الشرع عن العبيد والصبيان"، وذكر فيه حدود وشروط الضرب، ويؤكد أن من يكفل هذا الأخير هو الشرع ولا يجوز للمربي أن يتجاوزه.

وللدعم والحجة قام باستحضار أقوال الفقهاء من المذهبين أمثال: "سحنون"و"القابسي" وغيرهم. وللإفادة نستحضر في هذا المقام البعض منها: يقول العلامة "سالم السّنهوري" في شرحه مختصر خليل، في الكلام على ضرب الأولاد، يضربون على الصّلاة ثلاثة أسواط، وعلى اللّوح خمسة وعلى الهرب عشرة بسوط ليّن. فإن زاد، فهو قصاص... لا يزيد على ثلاث ضربات بغير آلة جارحة". وقال" القابسي":" يضربهم على كلّ شيء ثلاثة أسواط تحت القدم"، وقال" أشهب":"يضربهم على الهروب من المسجد عشرة أسواط وعلى السّبّ سبعة وعلى الحفظ ثلاثة

[1]– هي من وسائل العقاب التي يبدو أنها تعود إلى الفترة الحفصية. أما عن طريقة العقاب فتكون بطرح الصبي على الأرض ثم توضع رجلاه في الفلقة، ويتم ذلك بوضع قدمي الطفل بين حبلين ممسوكين بعصا والضغط على القدمين بالحبلين حتى لا تنفلتا، ثم يتم ضربه من عشر إلى عشرين ضربة أو أكثر وأحيانا حتى تدمى القدمان. ولا يستطيع المؤدب أن يقوم بهذه العملية لوحده ولذلك يلجأ إلى كبار التلاميذ ليساعدوه عليها. أنظر: سعد الله، مرجع سابق، ص ص 345، 346 . أنظر أيضا: الماجري، مرجع سابق، ص 148 .

[2]– قرين ، مرجع سابق ، ص 44 .

[3]– الزيدي ، مرجع سابق ، ص 16 .

[4]– سعد الله، مرجع سابق، ص 345 .

[5]– ديب، مرجع سابق، ص 91 .

ومحل الضرب تحت القدم. ولا ينبغي له أن يضرب الظهر أو البطن كما يفعل من لا دين له"[1]. كما أوصى "ابن سحنون" مؤدب الصبيان أن لا يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط [2].

هذا من ناحية الفقه، أما من ناحية السلطة الحاكمة، فقد استنكر الحكّام الضرب المبرح على الصبي، وهذه الإشارة وردت في ترجمة "أبي الحسن علي الجزيري"[3] الذي يروي عنه "ابن ابي الضياف" أنه "سمع مؤدبا يضرب صبيا صغيرا، وأكثر من ضربه، فأرسل إليه وقال له: أي ذنب لهذا الصغير الذي بالغت في ضربه؟ فقال له:لم يحفظ، فقال له: إن بُنيته لا تطيق هذا المقدار، ولعلك أيها المؤدب لم تعلم معنى الضرب، وجلده بنفسه وأوجعه". وبعد سرد القصة، يقول "ابن أبي الضياف "وسمع الأمير – حمودة باشا– ولم ينكرها عليه"[4].

نستشف من خلال هذا الموقف أن حاكم البلاد كان ضد ضرب الصبيان، والدليل على ذلك استنكاره لسلوك المؤدب. فكثيرا ما أدت الفلقة وقسوة المعاملة إلى هروب الصبيان من الكتّاب وانقطاعهم عن التعليم لفترة مؤقتة أو دائمة. والطريف في الأمر أن العقوبة لم تكن مقتصرة على صبيان المكتب فقط، وإنما هناك من المدرسين من كانوا يلجئون إلى العقاب الجسدي مع طلبتهم[5]. فأثناء تفحصنا لكتب التراجم والسيّر صادفتنا ترجمة "أبي الحسن علي المصمودي" (ت 1199هـ/ 1785م) الذي اشترط على تلميذه القاضي "محمد المصمودي"، أثناء تعليمه معاقبته بضربه عشرة أسواط،"كالمعلم مع أطفال المكتب"، فقَبِل منه ذلك، وانتفع به في مدة قصيرة"[6]. وهذا ما يثبت أن الضرب حافز للتعلّم. ويذكر المؤرخ "سعد الله" أن هناك من أشاد وأكد على ضرورة الضرب، واعتباره طريقة بيداغوجية جيدة ووسيلة ناجعة في هذا المستوى من التعليم[7]. وهذا ما يؤكده أحد الشعراء في قصيدة مطلعها[8]:

---

[1]– برنار، مصدر سابق، و 51 (ظ) . أنظر أيضا: السلامي، مرجعية مؤلفات الإمام سحنون...، مرجع سابق، ص 14.

[2]– ابن سحنون، مصدر سابق، ص 53 .

[3]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 7، ص 37 .

[4]– نفسه، ص 37 .

[5]– الظاهر أنها حالات شاذة جدا .

[6]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 436.

[7]– سعد الله، مرجع سابق، ص 346 .

[8]– برنار، مصدر سابق، و 52 (وج).

لا تندمن على الصبيان إن ضربوا *** فالضرب يبرا ويبقى العلم والأدب

والجدير بالذكر أن هناك من الآباء من لم يقبل العقاب بشتى أنواعه، خاصة ذوي الجاه والنفوذ. ذلك ما يمكن قراءته جلّيا من قول "سحنون" لمعلم ابنه: "لا تؤدبه إلا بالمدح ولطف الكلام، ليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف". وهو ما يؤكد أن العقاب مسألة يحددها الآباء[1]. ويشير "السنوسي" في مسامراته من خلال ترجمته للشيخ "علي محسن" (ت سنة 1284هـ/ 1868م)، أنه حدث وأن انتهره مؤدبه "حسن بن عمر" لأجل القراءة، لكنه في نفس اليوم انتقل إلى منزل الصبي وأخذ يقبل يديه ويعطيه الفواكه، ويسترضيه[2]. والظاهر جلّيا أن هذا المؤدب لم يتكلف مشقة ذلك الاعتذار، ما لم تكن له ريبة من ردة فعل والد الصبي. لذلك لم يتأخر عن تقديم اعتذاره، الذي في الحقيقة هو استرضاء لوالده الذي كان ذا شأن وصاحب رفعة اجتماعية مرموقة[3] – إمام ثالث بجامع الزيتونة –.

أما عن العلاقة بين الصبي ومؤدبه، فلم تكن قائمة دائما على الصرامة والعصا، وإنما كانت تنبني أيضا على روابط حميمية مبدأها احترام الصغير للكبير، ويمكننا أن نلتمسها في علاقة "أبي الحسن علي الأومي" (ت سنة 1204هـ/ 1790م) بمؤدبه "سيدي عبد الله الجمّوسي" الذي كان يحبه ويُجلّه كثيرا ويدني مجلسه منه[4]. وكذلك بالنسبة لـ"أحمد بن أبي الضياف" الذي تحدث عن علاقته الحميمية التي ربطته بمؤدبه، الذي كان يهرول إليه بمجرد رؤيته لتقبيله[5]. وتظل العلاقة الطيبة التي تجمع الصبي بؤدبه محفوظة حتى عندما يصبح الصبي رجلا مسؤولا، فهو دائما ينظر إلى مؤدبه نظرة إجلال واحترام، فهو حسب التقاليد والده الروحي[6].

4.1. أيام الدراسة والعطل :

ظلت الكتاتيب وإلى غاية حكم الأسرة الحسينية، تتبع نفس أوقات الدراسة والراحة التي كانت متبعة من قبل فلم يطرأ عليها أي تغيير، حيث يلتحق الصبي بالكتّاب مرتين في اليوم،

[1]– الماجري، مرجع سابق، ص 147 .
[2]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 345 .
[3]– الماجري، مرجع سابق، ص 147 .
[4]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 424 .
[5]– ابن ابي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 100.
[6]– سعد الله، مرجع سابق، ص 346 .

صباحا ومساءً[1]، أما أوقات راحته، فيذكر "أحمد برنار" أن المؤدب يقوم بتسريح الصبيان من المكتب ثلاث مرات في اليوم، بعد محو الألواح للإفطار وقبل الظهر للغداء والراحة، ومع عشيّة النهار، وذلك بحسب طول النهار وقصره[2].

وللإشارة فإن هناك كتاتيب تبقى مفتوحة إلى قبيل الغروب، ومن ذلك المكتب الملاصق للجامع الجديد، حيث اشترط محبسه " علي باي الثاني" أن يتم تقديم درس التجويد برواية "ورش"من طلوع الشمس إلى قرب الزوال، بينما درس التجويد برواية "حفص" من بعد صلاة العصر إلى قرب الغروب[3]. إذن هكذا كان الصبيان يبدأون يومهم الدراسي بحفظ القرآن من الصباح الباكر إلى الضحى، ثم يتعلمون الكتابة من الضحى إلى الظهر، وتخصص حصة المساء لتدريس بقية المواد التي ينص عليها البرنامج كالنحو والحساب والعربية والشعر. أما عشية الأربعاء وصباح الجمعة فيخصصان للمراجعة والتخابر والاستظهار، وتدوم إلى ما بعد صلاة العصر[4]. وبالتالي يكون معدل الحجم الساعي الدراسي تقريبا بالكتّاب من سبع إلى ثمان ساعات في اليوم[5].

وكان للصبيان عطلة[6] للاستراحة نهاية الأسبوع وتكون في النصف الثاني من يوم الخميس وكامل يوم الجمعة، بالإضافة إلى أيام عيد الفطر الثلاثة وأيام عيد الأضحى الخمسة[7]. وعطلة تدوم أسبوعا كاملا بمناسبة المولد النبوي الشريف، حيث يشير "الحشايشي" إلى أنه في هذه المناسبة يقوم المؤدب بتزيين ألواح الصبيان بمختلف أنواع الأدهان، ثم يحمل كل صبي لوحه إلى والديه[8]. بالإضافة إلى عطل في مناسبات أخرى كمناسبة ختم كامل القرآن أو عدة أحزاب منه، حيث تمنح للصبيان عطلة قدرها ثلاثة أيام أثناء الختمة الكاملة[9]، تعظيما لهذا الحدث المبارك في

---

[1]– طلس، مرجع سابق، ص 67 .

[2]– برنار، مصدر سابق، و 62 (وج) .

[3]– "وقفية بتاريخ أواخر رمضان 1178هـ/ أواسط مارس 1765م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 272 .

[4]– التوزري، مرجع سابق، ص 109 .

[5]– الزيدي ، مرجع سابق، ص 14 .

[6]– كانت تسمى في العهد الحفصي "البطالة" وتذكر المصادر أن أصل العطلة يعود إلى "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه عند خروجه إلى فتح الشام حيث مكث فيها شهرا، ثم رجع إلى المدينة وقد اشتاق الناس إليه فخرجوا للقائه ، فتلقاه الصغار على مسيرة يوم . وكان ذلك يوم الخميس فباتوا معه ورجع معهم يوم الجمعة، فتعِبوا في خروجهم ورجوعهم فشرّع لهم الاستراحة في اليومين المذكورين فصار ذلك سُنة.
أنظر: ديب، مرجع سابق، ص 93 .

[7]– برنار، مصدر سابق، و63 (وج). أنظر أيضا: التوزري، مرجع سابق ، ص ص 109، 110. وكذلك: طلس، مرجع سابق، ص 67 .

[8]– الحشايشي، العادات والتقاليد...، مرجع سابق، ص 86 .

[9]- Abdel Maoula, op.cit. , p.77 .

حياة الصبي الذي بموجبه يصبح نبراسا ينير الآخرين بحفظه القرآن[1]. كما تعطى للصبي عطلة بمناسبة طهوره[2].

وما تجدر الإشارة إليه هنا أن مثل هذه العطل والمناسبات كانت كما قال عنها المؤرخ "سعد الله" "تخفف على التلميذ والمؤدب أيضا، بعض الملل والرتابة"[3]. وهنا تبرز أهمية العطل والاستراحة البيداغوجية في تحسين المردود التعليمي، وبعث النشاط في المتعلمين.

2. الطور الثاني: التعليم ما بعد الكتاتيب – التعليم الثانوي والعالي –

ينتقل المتعلم الذي يرغب الاستزادة في العلم، والذي يطمح في وظيفة مستقبلا إلى المرحلة الثانية من التعليم والتي تمثل الطور الثاني الذي يشمل التعليم الثانوي والعالي معا[4]. ويكون على مستوى المدارس والمساجد وحتى الزوايا. لذلك نجد منهم من يفضل الخروج من مدنهم وأريافهم الأصلية ليلتحقوا بالمراكز التعليمية التي اشتهر فيها بعض المدرسين، أو اشتهرت هي بأنها قد أخرجت عددا من العلماء[5]، مثل: جامع الزيتونة بالعاصمة، والجامع الأعظم بصفاقس والمدارس والزوايا المنتشرة في مختلف المدن والأرياف كمدرسة الزقاق بسوسة ومدرسة صفاقس والمدرسة الحسينية الصغرى والكبرى وزاوية سيدي إبراهيم الجمني بجربة وغيرها كثير[6]. وتقوم هذه الأخيرة مقام المعاهد الثانوية ذوات المبيت، إذ نجد بكل مدرسة مسجدا يكون محل الدروس[7]. أما من يرغب في التهيُّء لوظائف أرقى كالوظائف الشرعية وكتابة الدواوين وغيرها[8]. فما عليه إلا الالتحاق بالزيتونة[9]، فهو المسلك الوحيد لبلوغ مرتبة ومصاف العلماء[10]، ويعتبر التعليم فيه أعلى درجات التعليم – التعليم العالي– .

ومن هنا يمكننا القول أنه من الصعب التمييز بين التعليم الثانوي والعالي وتحديد الفاصل بينهما لأنه بالإضافة إلى جامع الزيتونة الذي كان يقدم تعليما زيتونيا عاليا، فإن هناك من

---

[1]– ديب، مرجع سابق، ص 93 .

[2]– طلس، مرجع سابق، ص 67 .

[3]– سعد الله، مرجع سابق، ص 347 .

[4]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 45 .

[5]– سعد الله، مرجع سابق، ص 348 .

[6]–Arnoulet, Op.Cit., p. 32 .

[7]– الهادي حمودة الغزي ، الأدب التونسي في العهد الحسيني (1705–1881م)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972م، ص 25 .

[8]– عبد السلام، مرجع سابق، ص 526 .

[9]– ابن مامي، التعليم بجامع الزيتونة...، مرجع سابق، ص . ب. ت .

[10]– الحناشي، مرجع سابق، ص 15 .

المدارس والزوايا التي كانت تتميز هي الأخرى بمستوى علمي رفيع وبرامج تعليمية راقية[1]. ولهذا كان بعض الطلبة يكتفي بما يتلقاه فيها ليصبح فقيها أو مدرسا أو ميقاتيا[2]. ومن هذا المنطلق فإن اعتبار جامع الزيتونة يقدم تعليما عاليا، بينما باقي المؤسسات التعليمية تقدم تعليما ثانويا، هو حكم لا يستند إلى قاعدة دقيقة، حيث أنه من الصعب التمييز بين التعليم الثانوي والعالي، لأنها مراحل تعليمية متداخلة فيما بينها.

1.2. سّن الالتحاق بالطور الثاني:

إن سّن الطلبة الملتحقين للتعلّم في هذه المرحلة يختلف اختلافا كبيرا، فمن كان من أبناء العاصمة وخصوصا أبناء بيوت العلم نجده لا يتجاوز سنه الخامسة عشرة، في حين نجد الطلبة القادمين من دواخل البلاد، فيتجاوز سنهم في بعض الأحيان العشرين. ويعود ذلك إلى سبب مهم والمتمثل في صعوبة اقتحام الحياة الداخلية بالمدارس، فالطالب القادم من الآفاق لا بد عليه من السكن ببيوت المدارس، ويستلزم عليه أن يقوم بكامل شؤونه من غسل وطهي و...، وهذا ما لا يمكن لصغير السن أن يقوم به[3]، وهذا ما يفسر تأخر سن تمدرس الطلبة الآفاقيين. وبالتالي لا يشترط في الطلبة سنا محددة، ولذلك كان يجتمع في الحلقة الواحدة بين يدي الشيخ المدرس الواحد طلبة يمكن أن تتفاوت أعمارهم كثيرا [4].

2.2. المواد والمحتويات الدراسية:

أ. البرنامج الدراسي:

لم تكن هناك مقررات وبرامج محددة على الطلبة في هذه المرحلة من التعليم، وإنما يعود إلى اجتهاد المدرّس، فهو حر في وضع البرنامج الدراسي[5]، وهذا راجع إلى غياب هيئة رسمية تابعة للدولة تقترح البرامج والمقررات التعليمية كما هو معمول به في وقتنا الحالي. والظاهر أن المقررات كانت تحدّد في شكل كتب تكون إما باقتراح من الشيخ المدرس ورغبة منه في تدريس كتاب

[1]– هذا راجع حسب "سعيدوني" إلى محافظتها على التقاليد الحفصية والأندلسية ولاتصالها الوثيق بالمشرق. أنظر: مرجع سابق، ص 73.

[2]– مقديش، مصدر سابق، مج1، ص 11 .

[3]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 95 .

[4]– الزيدي، مرجع سابق، ص ص 54، 55 .

[5]– سعد الله، مرجع سابق، ص 349 .

معيّن، أو باقتراح من طلبته لتدريسهم الكتاب الذي يرغبونه. وكان لا ينتقل المدرس إلى كتاب آخر إلا بعد ختمه [1].

ويتم في هذه المرحلة شرح المتون التي حفظها الطالب في مرحلته التعليمية الأولى –الكتاتيب– ودراسة عدد معين من الكتب في علوم مختلفة منها، النحو والصرف والبلاغة والفقه والكلام وأصول الدين وأصول الفقه والمنطق والتفسير والحديث، بشروحها وحواشيها[2]. وتعتبر كل مادة مستقلة بذاتها عن غيرها، وتتألف من مجموعة كتب متتالية من حيث الدرجة والمستوى. فَيُدرّس كل كتاب منها، ولا يرتقي إلى دراسة الكتاب الموالي إلا بعد أن يجيزه شيخه في الكتاب الذي هو دونه، وإلا تحتم عليه إعادة دراسة نفس الكتاب. ومن مظاهر استقلالية المواد المدرسة أن الطالب يمكن أن يُجاز في كتاب من مادة معينة، ويرسب في كتاب آخر في مادة أخرى[3] .

وفيما يلي عرض للعلوم والكتب التي كانت تدرس في الفترة التي نحن في صدد دراستها:

أ.1. العلوم النقلية[4]:

– العلوم الشرعية :

يقصد بالعلوم الشرعية الدراسات القرآنية، كالتفسير والقراءات ورواية الحديث ودرايته بما في ذلك الإثبات والإجازات، وفِقه العبادات والمعاملات كالنوازل والفتاوى. ومن العلوم الشرعية التي دُرست في العهد الحسيني نذكر:

*** علوم القرآن :**

يأتي في مقدمتها القراءات[5]، من أشهرها القراءات السبع والعشر. أما بالنسبة لإيالة تونس فقد اتبعت طريقة الإقراء بالسبع، وبصورة أقل الإقراء بالعشر. ويمكن أن يقرأ القرآن بالإفراد،

---

[1]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 86 .

[2]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 45 . أنظر أيضا: عبد السلام، مرجع سابق، ص 84 .

[3]– الزيدي، مرجع سابق، ص ص 58 ، 59 .

[4]– تسمى أيضا بالعلوم الوضعية، يعرفها "ابن خلدون" بأنها "علوم مستندة إلى الخبر عن الواضِع الشرعي. ولا مجال فيها للعقل، إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول، لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة، لا تندرج تحت النقل الكلّي بمجرد وضعه فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي. إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل، وهو نقلي، فرجع هذا القياس الى النقل لتفرعه عنه. وأصل هذه العلوم النقلية كلها من الشرعيات، من الكتاب والسنة... وأصنافها كثيرة منها، علم التفسير، وعلم القراءات، وعلوم الحديث ". أنظر: مصدر سابق، ص ص 345، 346 .

[5]– وهي جمع قراءة، وفي الاصطلاح هي مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القرّاء، مخالفا به غيره في النطق بالقرآن، مع اتفاق الروايات والطرق عليه، سواء كانت هذه المخالفة في نطق الحروف أو في نطق هيئتها. وقد روى الصحابة القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكن اختلفوا

ويُتلى كله أو جزء منه برواية القراء السبع أو العشر. ويمكن أن يُقرأ القرآن جمعا، أي يجمع القارئ بين روايتين أو أكثر. وتمكُن القارئ من سبع قراءات أو أكثر يسمى "الجمع الكبير"، وأقل من ذلك فيسمى "الجمع الصغير". ويبدو أن التونسيون اتبعوا رواية نافع[1] وجعلوا منها القراءة الأكثر اتباعا[2].

والظاهر أن حكام الأسرة الحسينية كان لهم اهتمام بالقراءات، وهذا ما نستشفه من خلال رسوم التحابيس الموجودة بين أيدينا، إذ تذكر لنا أن مؤسس المدرسة يشترط من طلابها قراءة القرآن، ومن ذلك "علي باشا" الذي اشترط في وقفياته قراءة القرآن بمدارسه مع إهداء الثواب له[3]، و"علي باي الثاني" الذي اشترط هو الآخر أن يقرأ طلاب المدرسة الحسينية الكبرى حزبين من القرآن العظيم بعد صلاة الصبح وحزبين بعد صلاة المغرب[4]. كما أمر والده "حسين بن علي" بالقراءة بجامع الزيتونة، فقد عين "حسين بن علي" بجامع الزيتونة شيخا واثنى عشر قارئا يقرؤون له حزبين كل يوم[5]، واشترط على طلاب مدرسة الجامع الجديد قراءة حزبين من القرآن العظيم يوميا بعد صلاة الصبح، وبعد صلاة المغرب[6]. ونجد نفس الشرط اشترطه يوسف "صاحب الطابع" على الطلبة المقيمين بالمدرسة الطابعية[7]، والدليل على اهتمام الحكام بعلم القراءات تلك الأوقاف التي كانت مخصصة للمقرئين والمجودين[8].

ولفهم معاني القرآن وأسباب نزول سوره أو بعض آياته، لا بد من اللجوء إلى التفسير فقد كان للباي "حسين بن علي" الفضل الكبير في إحياء علم تفسير القرآن[9] بعد انقطاعه لمدة

في طرق هذه الرواية وذلك في بعض الألفاظ. وفي كيفية النطق بالحروف، فالمصاحف لم تكن منقوطة ولا مُعربة، ولهذا يمكن أن تأخذ الكلمة عدة معان محتملة . ومن بين هذه الطرق اشتهرت القراءات السبع وبصورة أقل القراءات العشر. وعرفت كل قراءة باسم الشخص الذي رواها .

أنظر : ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 59 .

[1]– وهي قراءة أهل المدينة، ووصلت إلى تونس عن طريق العلماء الذين كانوا يتوجهون إلى الحج .

[2]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 59 .

[3]– يمكن الإطلاع على العديد من الوقفيات الخاصة بالمدارس التي أسسها الباي "علي باشا". أنظر: السعداوي مرجع سابق، ص ص 414– 459 .

[4]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 300.

[5]– خوجة، مصدر سابق، ص 158 .

[6]– "وقفية الجامع الجديد والمدرسة بتاريخ أواسط ذي الحجة 1142هـ/ جويلية 1730 م" . السعداوي، مرجع سابق، ص ص 215، 216 .

[7]– المعموري، وثيقة عن تحابيس...، مرجع سابق، ص 261.

[8]– أنظر: الباب الثاني، الفصل الثالث، ص ص 308، 327– 328 .

[9]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص ص 80 ، 81 .

سبعين سنة[1]. فقد لقي عناية كبيرة خاصة من قبل الشيوخ المدرسين والطلبة. ومع مرور الوقت، كثرت التفاسير والمفسرين حتى أصبح علما مستقلا بذاته. ومن أشهر التفاسير التي كان علماء تونس يدرسونها في العهد الحسيني والتي لم تنقطع منذ العهد الحفصي، نذكر منها تفسير "القاضي البيضاوي" في"أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير" لخص فيه صاحبه من "الكشّاف"ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن "التفسير الكبير" ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن "تفسير الراغب" ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق[2]. ومن بين العلماء الذين درّسوا التفسير في العهد الحسيني، نذكر "محمد زيتونة"(ت 1138هـ/1726م) الذي ألف حاشية واسعة على تفسير أبي السعود، و"محمد الخضراوي"(ت 1144هـ/ 1731م) الذي وصفه "ابن عبد العزيز" في كتابه "التاريخ الباشي" بأنه عالم إفريقية على الإطلاق[3]. ومنهم أيضا "أبو عبد الله محمد الفاسي"[4](1232هـ/ 1817م) الذي يعتبر أول مدرس ابتدأ بمدرسة صاحب الطابع بتفسير "القاضي ناصر الدين البيضاوي"[5]. كما وجدت بعض مصنفات التفسير حظوة لدى الطبقة المثقفة في العهد الحسيني، ونذكر من بينهم الباي "علي باشا" الذي أمر أن يقرأ له ليلا [6] كتبا في التفسير منها "تفسير الخازِن"[7] .

*** علم الحديث[8] :**

من بين العلوم الأخرى التي دُرست بانتظام، وكان إقبال الطلبة عليها كبيرا، علم الحديث الذي عرف ازدهارا كبيرا عبر مختلف عصور التاريخ الإسلامي. واستمر العلماء في حفظه

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 80 .

[2]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 62 .

[3]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق ، ص ص 80، 81 .

[4]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 102 ، 103 .

[5]– نفسه، ص 91 .

[6]– يذكر لنا صاحب الباشي أن الباي قام بانتخاب جماعة من العلماء، ورتبهم للمبيت عنده للتحصيل والمباحثة والمذاكرة والمحاضرة . ووزعهم على ليالي الأسبوع، بحيث يبيت عنده في كل ليلة منهم طائفة يدْرُسون كتابا لا يُقرأ إلا في تلك الليلة . وكلما خُتم كتاب بُدئ مكانه غيره. فيقول المؤرخ أنه "قُرأ بمجلسه العالي كتبا كثيرة" . أنظر : ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 191.

[7]– نفسه .

[8]– هو كل ما يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم من أفعال وأقوال. وعلوم الحديث كثيرة ومتنوعة، لأن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه، وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ لطفا من الله بعباده وتخفيفا عنهم. ومن بين علوم الحديث النظر في الأسانيد لمعرفة ما يصح منها وما نسب للرسول. لمعلومات أكثر أنظر: ابن خلدون، مصدر سابق، ص ص 349– 353 .

وتدريسه، وأخذ الطلبة ينتقلون من مدينة إلى أخرى ومن بلد لآخر سعيا وراء علماء الحديث للسماع منهم[1]. ومن أهم كتب الحديث المدرّسة في تونس كتاب"موطأ الإمام مالك"[2]، بالإضافة إلى الصحيحين "البخاري ومسلم"، ويعتبر صحيح البخاري[3] من أهم الكتب المعتمدة عليه في الفترة الحسينية، خاصة في ختم الحديث سواء في الجوامع أو المدارس[4]، فقد كانت تخصص له ثلاثة أشهر في السنة لإقرائه رجب وشعبان ورمضان[5]. وينتهي بحفل اختتام مشهود أواخر أيام شهر رمضان[6]. وهناك مدارس وجوامع يشترط أصحابها قراءة صحيح البخاري يوميا، مثل"حسين بن علي" الذي اشترط روايته يوميا بعد الضحى بالجامع الجديد[7]. وأصبح جميع الطلبة يحفظونه لكونه يعتبر من الكتب المباركة والمقدسة. حتى وصل الشأن بالعامة إلى القَسَم باسم البخاري، كقول النسوة مثلا: "بجاه الشفاء[8] والبخاري"[9].

وبالإضافة إلى الموطأ والصحيحين مسلم والبخاري، وُجدت الكثير من الشروح والحواشي التي دُرست في أغلب جوامع ومدارس الإيالة، نذكر ما دُرّس منها في الفترة الحسينية، "عمدة السامع والقارئ إلى شرح صحيح البخاري"، ويسمى أيضا "بشرح العيني"[10]، وهو شرح ضخم

---

[1]– ديب، مرجع سابق، ص ص 56، 57 .

[2]– هو أبو عبد الله مالك بن أنس، بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن حارث الأصبحي. إمام دار الهجرة – المدينة – الوارث لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ولد سنة 93هـ / 712م، يقول الإمام الشافعي في الإمام مالك: " فمالِك النجم الثاقب ولم يبلغ أحد مبلغ مالك في العلم لحفظه وإتقانه وصيانته" وقال: "مع على الأرض كتاب أقرب إلى القرآن من كتاب مالك بن أنس الموطأ"، وهو أحد أئمة المذاهب الأربعة. نشأ بالمدينة وتفقه فيها وأقام بها مفتيا حوالي 60 سنة ، توفي سنة 179هـ/ 795م . أنظر : مخلوف، مصدر سابق، ص ص 52-55. وأيضا: ابن مامي ، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 63 .

[3]– كان تدريس هذا المصنف في البداية لفهم محتواه واشتقاق معانيه ، إلا أن قراءته أصبحت في الفترة الحسينية تبركا لا غير، فقراءته أصبحت رواية أكثر منها دراية. فعلى سبيل المثال نذكر الشيخ "محمد الحجيج" الذي أخذ صحيح البخاري عن "أبي الحسن الأشرلي" "رواية في أكثره ودراية". أنظر : خوجة، مصدر سابق، ص 201 . وابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 64 .

[4]– نفسه، ص ص 63 ، 64 .

[5]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 300 .

[6]– خصص "ابن أبي الدينار" خاتمة المؤنس للحديث عن تعظيم أهالي تونس لختم البخاري . ولمزيد من التفاصيل، أنظر: مصدر سابق، ص ص 318- 320 .

[7]– "وقفية جامع الجديد ومدرسته بتاريخ أواسط ذي الحجة 1142هـ/ أوائل جويلية 1730م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 214 .

[8]– وهو كتاب في السيرة النبوية اسمه الكامل هو: "الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض"، وقد بلغت شهرته بتونس شهرة الصحيحين البخاري ومسلم. أنظر: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 66.

[9]– نفسه، ص 64 .

[10]– هو أبي محمد بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد العيني الحلبي، يلقب بـ"عمدة القارئ"، وهو فقيه ومُحدث ولد سنة 762هـ/ 1360م، وتوفي سنة 885هـ/1480م . أنظر: خوجة، مصدر سابق ، ص 178 ، هامش 64 .

جدا[1]. ويتضح لنا من خلال المصادر أن هذا الشرح اعتُمد عليه كثيرا في الفترة الحسينية لشرح البخاري، فوزير الباي "علي باي الثاني" "حمودة بن عبد العزيز" يذكر لنا أن العلماء الذين كانوا يقرءون على الباي "صحيح البخاري" كانوا يجلبون معهم "شرح العَيْني" للعودة إليه فيما تعسر فهمه أو ضبطه[2]. ولم يقتصر استخدامه من طرف العلماء المفسرين فقط، بل اعتمد عليه المدرسون أيضا فقد أصبح "صحيح البخاري" يُدرس في أيام الحسينيين بشروح عديدة نذكر منها: "شرح القسطلاني"[3] في شروح عديدة، مثل:"إرشاد الباري على صحيح البخاري"و"تحفة السامع والقارئ لختم صحيح البخاري"[4]. ويعتبر العالم "إبراهيم الرياحي"(ت 1266هـ/ 1850م) من الذين درسوا "صحيح البخاري" "بشرح القسطلاني" لمدة تزيد عن ثلاثين سنة بجامع صاحب الطابع[5]. أما "صحيح مسلم" فيوجد عليه هو الآخر شروح منها "إكمال الإكمال" الذي تواصل تدريسه إلى غاية القرن 14هـ/ 20م[6].

كما دُرست كتب أخرى في الحديث خصوصا منها بقية الصّحاح الستة وهي "جامع الصحيح للترمذي" ويقال له أيضا "السنن" وهو أقل أهمية من صحيح البخاري ومسلم، إذ كان تدريسه أقل انتشارا منهما[7]. كما ظهرت في العهد الحسيني منظومة في مصطلح الحديث "للبيقوني"[8] وتسمى "البيقونية"، ويعتبر"محمد زيتونة" من الذين شرحوا هذه المنظومة[9]. بالإضافة إلى "الجامع الصغير للحافظ السيوطي"[10] وهو تلخيص من كتابه "جمع الجوامع"[11].

---

[1]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 65 .

[2]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 191 .

[3]– هو شهاب أحمد بن محمد بن حسين علي القسطلاني المصري الشافعي ولد سنة 851هـ/1448م وتوفي سنة 923هـ/1517م . أنظر: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 65 ، هامش رقم 399 .

[4]– نفسه، ص 65 .

[5]– السنوسي، مصدر سابق، ج 1، ص 319 .

[6]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 66 .

[7]– نفسه، ص ص 65، 66 .

[8]– هو طه بن عمر بن محمد بن فتوح البيقوني الدمشقي الشافعي، المحدث الأصولي كان حيا قبل سنة 1080هـ/ 1669م . أنظر: خوجة، مصدر سابق ، ص 228 ، هامش 365 .

[9]– نفسه، ص 228 .

[10]– يذكر لنا صاحب كتاب الباشي، أن الباي "علي باشا" كان يُقرأ بمجلسه العديد من كتب التفسير والفقه والسير منها كتاب السيوطي . أنظر: ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 191 .

[11]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 66 .

الظاهر أن دروس الحديث والقرآن لم تكن قليلة، إلا أنها كانت لا تتجاوز التلاوة المصحوبة بشروح الألفاظ شرحا بسيطا. وفيما يخص القرآن، فقد كانت دروس القراءات أكثر من دروس التفسير، ويعود ذلك إلى وجود خطط عديدة للقراء في المساجد[1].

*** علم الفقه[2] :**

احتل الفقه المكانة العليا في العلوم، فقد كان مُقدَّما على جميع العلوم الأخرى، وكانت أفضل أوقات اليوم تخصص له، لأن الطالب لا بد عليه من التضلّع في هذا العلم إذا ما أراد تقلد الوظائف الشرعية، كالقضاء والتوثيق والإفتاء وغيرها[3]. لذلك فقد اهتم الشيوخ المدرسون والطلبة بهذا العلم أكثر من أي علم آخر[4].

والمعروف أن معظم سكان تونس يتبعون المذهب المالكي، ولكن منذ مجيء العثمانيين انتشر أيضا المذهب الحنفي، وبالتالي ظهر فقهاء في كلا المذهبين كتبوا العديد من المصنفات، ويُرجح أنهاُ دُرست في المدارس والجوامع. وأهمها "المدونة الكبرى في فروع المالكية للإمام سحنون" التي رواها عن تلميذ مالك بن انس "ابي عبد الله عبد الرحمان بن القاسم". وقد دُرست شروح على هذه المدونة في العهد الحسيني، أهمها "التهذيب في اختصار المدونة " للبرادعي القيرواني"، وقد تم اختصارها من طرف العلماء، منهم "عبد الله بن أبي زيد " صاحب الرسالة في الفقه المالكي. وقد وجدت هذه الرسالة صدى كبير بين الطبقات المثقفة، إذ تواصل تدريسها دون انقطاع إلى غاية القرن 14هـ/ 20م، مرورا بمرحلة حكم الأسرة الحسينية، وهي أول ما يبدأ به الطالب قراءته في مادة الفقه[5].

وإلى جانب المدونة، نجد مصنف آخر بلغ أهمية كبيرة، اعتمد عليه الفقهاء بكثرة، هذا المصنف هو "مختصر خليل في فروع الفقه المالكي"، ونظرا لصعوبته فقد كان الطالب يقضي سنينا طويلة لقراءته، وبعد ختمه يقام له حفلا [6].

---

[1]– عبد السلام، مرجع سابق، ص 85 .

[2]– هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين، بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة. وهي مستوحاة من الكتاب والسنة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها "فقه". أنظر: ابن خلدون، مصدر سابق، ص 353 .

[3]– عبد السلام، مرجع سابق، ص 85 .

[4]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص73 .

[5]– نفسه، ص ص 68، 69 .

[6]– نفسه ، ص 70 .

إذن يمكننا القول أن "مختصر خليل" في الفقه أصبح يضاهي"صحيح البخاري" في الحديث من حيث اهتمام المثقفين بهما. وبالتالي فقد دَرَسَه ودَرّسه العديد من العلماء في مختلف المدارس والجوامع، ففي الجامع الأعظم أقرأه كل من علاّمة المعقول والمنقول "محمد زيتونة"[1] و"سعيد الشريف"(1112هـ/ 1701م) الذي يقول عنه "صاحب الذيل" إن "له باع طويل في إقراء مختصر الشيخ خليل ... وكان يجلس بعد الظهر بجامع الزيتونة لقراءة مختصر الشيخ خليل إلى قرب العصر"[2]. ووالد المؤرخ "حمودة بن عبد العزيز" (لم نقف على تاريخ وفاته) الذي لم يكن في عصره على حد قول صاحب الشجرة " من يحسن المختصر الخليلي وشروحه مثله"[3]. بالإضافة إلى الشيخ"محمد البنّا"[4](ت 1283هـ/ 1866م) الذي يقول عنه "السنوسي" "إنه كان مولعا بالفقه وقد أقرأ منه كثيرا" [5].

أما بالمدارس فقد أقرأه علماء مدرسين متضلعين لا يقلّون شأنا عن مدرسي الزيتونة. نذكر على سبيل المثال لا الحصر، "محمد الصفار" (ت 1127هـ/ 1715م) الذي أقرأه بالمدرسة المنتصرية[6]. وفي عهد الباشا "علي باي" أقرأه "مَحمد المحجوب"(ت 1243هـ/ 1828م) بالمدرسة الحسينية الكبرى[7]. ومن بين مدرّسيه بباجة، نذكر "أبو عبد الله محمد بن عمران"[8] (1151هـ/ 1738-1739م) أصيل مدينة فاس.

ومن الطلبة الذين درسوا المختصر، نجد "محمد صغير داود"(ت بعد 1137هـ/ 1725م)، وكانت البداية على يد والده الشيخ "سيدي علي داود"، ثم على يد "محمد بن عبد الله السّوسي" بزغوان، وبعد انتقاله إلى مدينة تونس، أخذ المختصر بالمدرسة المرادية عن "سيدي سعيد الشريف" و"محمد الغمّاد" و"محمد فتاتة"[9]. كما يذكر لنا "العياضي" أنه قرأ المختصر على

---

[1]– خوجة ، مصدر سابق، ص 224 وما بعدها .

[2]– نفسه، ص ص 212، 213 ، و ص ص 197 ، 198 .

[3]– مصدر سابق، ص 345 .

[4]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج8، ص 143. ومخلوف، مصدر سابق، ص 391 . وكذلك: السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 229 .

[5]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 230 .

[6]– خوجة، مصدر سابق، ص ص 212، 213، 253 .

[7]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 257 .

[8]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: العياضي، مصدر سابق، ص 191 .

[9]– خوجة، مصدر سابق، ص ص 235 ، 236 .

"أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز"، وسمعه على "أحمد الماكودي"[1](ت 1170هـ/ 1757م). ويخبرنا أيضا أن والده قرأ المختصر على "أبو عبد الله محمد بن عمران" بباجة[2]. أما "مقديش"، فقرأ المختصر بالزاوية الجمنية بجربة على شيخه "إبراهيم الجمني" (ت 1134هـ/1721م) و"أحمد بن عبد الصادق" الذي استفاد منه كثيرا بفعل تمكنه وتضلعه في علم الفقه[3].

ذكرنا سابقا أن العثمانيين مذهبهم حنفي، لذلك فقد جاؤوا بالعديد من كتب الفقه التابعة لمذهب "أبي حنيفة النعمان"، وأهمها "دُرر الحكّام" للمولى"خسرو التركي"[4]، وهو شرح لكتاب "غُرر الأحكام"[5]. وكان هذا المؤلف من أهم وأول المؤلفات الحنفية التي دُرست بإيالة تونس[6]. ومن بين المؤلفات التي دُرّست في الفقه الحنفي أيضا، نذكر "نور الإيضاح ونجاة الأرواح"[7] للشرنبلالي[8] ثم شرحه وسماه "إمداد الفتاح بشرح نور الإيضاح ونجاة الأرواح". ويذكر المؤرخ "حسين خوجة" أنه ختم كتاب "نور الإيضاح" على يد العالم الشيخ "محمود المهتار"[9]. ومن بين الكتب التي اشتهرت في العهد العثماني عن الفقه الحنفي، كتاب "إصلاح الوقاية في فروع الحنفية "لابن كمال باشا"، ثم كتابه "الإيضاح" حيث قام بتنقيح وتعديل وشرح ما جاء في كتابه الأول من سهو وخلل[10]. ومن بين المدونات الفقهية الحنفية التي درّست في العهد الحسيني، نذكر رسالة "تكفير جاهل صفة الإيمان" لأحمد الشريف الأندلسي"(ت 1061هـ/ 1651م)[11].

والجدير بالإشارة أن المتون الحنفية لم يقتصر تعلّمها على الطلبة الحنفية فقط، وإنما يتعلمها ويدرسها حتى الطلبة المالكيين. و يفيدنا "أحمد برنار" في ترجمة" ابن المحجوز" أمين المؤدبين أنه قرأ

---

[1]– العياضي، مصدر سابق، ص ص 162، 188 .

[2]– نفسه، ص 191 .

[3]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 446 .

[4]– هو محمد بن فرموز المشهور بمنلا خسرو الحنفي التركي. المتوفى سنة 884 هـ/ 1480م. أنظر : ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 72، هامش 487 . أنظر أيضا: عبد السلام، مرجع سابق، ص 35 .

[5]– نفسه .

[6]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 72 .

[7]– يذكر "ابن مامي" أن المصنف موجود في المكتبة الوطنية التونسية تحت رقم 18639 . أنظر : نفسه ، ص 72 ، هامش 491.

[8]– هو أبو الإخلاص حسن بن عمار بن علي الشرنبلالي الوفائي الحنفي (994هـ /1585م – 1069هـ/1659م). أنظر: نفسه، ص 72، هامش 491 .

[9]– خوجة ، مصدر سابق ، ص 213 .

[10]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 73 .

[11]– زهير بن يوسف، مرجع سابق، ص 63.

كتاب "مختصر القدوري" في مذهب الحنفيّة على شيخه محمّد بن شعبان الحنفي، وكان يأتيه يوم كل خميس إلى المدرسة اليوسفيّة ليُقرئه الكتاب المذكور[1]. وهذا ما أدى إلى ظهور مدرسين متضلعين في المذهبين، أمثال "حميدة المفتي"(ت بعد 1144هـ/ 1731م) أصيل مدينة باجة، انتصب لتدريس الفقه الحنفي بجامع"مراد باي" ثم انتدب رسميا مدرسا بمدرسة "محمد باي" وبالتزامن مع ذلك كان له درس في الفقه المالكي بالجامع الأعظم بباجة[2]. ونذكر أيضا "محمد السنوسي الكافي"(ت 1255هـ/ 1839م) جَدّ صاحب المسامرات الذي يقول عنه حفيده إنه "قرأ عليه بجامع الزيتونة كثير من فحول المالكية والحنفية"[3].

*** علم الكلام :**

فإلى جانب المحدثين والفقهاء، وُجد أصحاب "علم الكلام"، ويسمى أيضا "بعلم التوحيد" لأنه يقوم على القول بالتوحيد المحض للخالق. ويطلق عليه أيضا اسم" أصول الدين" لأنه يبحث في أصل العقائد مثل: إثبات وجود الله ومسألة القضاء والقدر ...[4]، ويُعرفه "الطاهر بن عاشور " بمايلي: "يُراد من علم الكلام، العلم الذي يعرف به إثبات العقائد الإسلامية بإثبات الحُجج ودفع الشبه، وهو نظير قسم الإلهيات في الفلسفة الباحثة عن فكرة البحث في الوجود والموجود، وهي فكرة طبيعية تجيش بها النفس الشاعرة عندما تجلس أمام المرآة مع التفرغ من شواغل الفكر، فتسأل: من أنا؟ أنا موجود كيف وجدت؟" [5].

ومن أهم الكتب التي دُرّست في هذا العلم خلال الفترة الحسينية، نذكر "العقائد النسفية"[6] التي لقيت اهتماما كبيرا من طرف المدرسين والطلبة، حيث يذكر لنا "السنوسي" أن "صالح الكواش"[7](ت 1215هـ/ 1801م) أخذ علم الكلام وشرح "العقائد النسفية" بجميع

---

[1]– السلامي، بوادر تنظيم التعليم الزيتوني ...، مرجع سابق، ص 69 .

[2]– زهير بن يوسف، مرجع سابق، ص 61 .

[3]– السنوسي، مصدر سابق، ج3، ص 104 .

[4]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 75 .

[5]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق ، ص 178 .

[6]– مؤلفها هو أبو حفص نجم الدين محمد بن محمد بن احمد بن إسماعيل بن لقمان النسفي السمرقندي ، مفسر فقيه، محدث، حافظ للقران ، متكلم، ولد سنة 461هـ / 1069م وتوفي سنة 537هـ/ 1142م . أنظر: خوجة، مصدر سابق، ص 178، هامش 63 .

[7]– للإطلاع على ترجمته، أنظر: الباب الأول، الفصل الثالث، ص ص 165، 166 .

حواشيها على الشيخ "محمد الغرياني [1]" [2]، ويعتبر هذا المصنف بالإضافة إلى شرح "سعد الدين التفتزاني"[3] من بين المصنفات التي دخلت إلى إيالة تونس من طرف العثمانيين[4].

ولعل أهم المؤلفات التي استقطبت المدرسين والطلبة على حد سواء، هي مؤلفات "السنوسي"[5] التي عرفت على مستوى الأقطار الإسلامية عامة والمغاربية خاصة، حيث يقول "سعد الله": "...وكانت مؤلفات محمد بن يوسف السنوسي في العقائد هي المصدر المحلي لدراسة علم الكلام... سيطرت إذن مؤلفات محمد السنوسي في التوحيد سيطرة تامة على الدارسين لهذا العلم طيلة العهد العثماني. ولم يكن ذلك مقصورا على الجزائر وحدها بل تجاوزها إلى معظم الأقطار العربية الإسلامية "[6] .

أهم مؤلفات "السنوسي" التي دُرّست مؤلفه المعروف "بالعقائد السنوسية "، وهي العقيدة الصغرى والوسطى والكبرى، لكن العقيدة الصغرى والمعروفة "بأم البراهين في العقائد" هي التي نالت رواجا كبيرا لوضوحها واختصار معانيها، حيث أنه لا تكاد تجد مدرسا خلال العهد العثماني لم يدرّس طلابه "صغرى السنوسي" كما كانت تسمى[7]. لكن هذا لا يعني أن العقيدتين الأخريين لم تدرسا، فقد درست "كبرى السنوسي" والمعروفة "بعمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد" من طرف العديد من علماء العصر، وأخذها عنهم الدارسون الذين أصبحوا فيما بعد لا يقلون شأنا عن أسلافهم. فقد أقرأها "محمد بن عبد الله" بالزاوية البكرية،

---

[1]– هو أبو عبد الله محمد بن علي الغرياني الطرابلسي التونسي، درس أولا بجربة على يد إبراهيم الجمني، ثم قدم إلى تونس وأخذ عن أعلام منهم محمد زيتونة وحمودة الريكلي ومنصور المنزلي وغيرهم. سافر لحج بيت الله الحرام ، وأثناء إقامته اخذ عن علماء المشرق أمثال: الشيخ محمد بن علي بن فضل الطبري، الشيخ تاج الدين بن عبد المحسن بن سالم مفتي مكة والشيخ احمد الدمنهوري بمصر وغيرهم. من تآليفه: "رسالة في الخنثى المشكل" و"حاشية علي الخبيصي". توفي في شوال سنة 1195هـ/ أكتوبر 1781م . أنظر: مخلوف، مصدر سابق، ج1، ص 349. أنظر أيضا: العياضي، مصدر سابق، ص 189 .

[2]– السنوسي، مصدر سابق ، ج1 ، ص 254 .

[3]– هو سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتزاني ولد سنة 712هـ/1312م وتوفي سنة 791هـ / 1389م . أنظر: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 76، هامش 540 .

ويعتبر العالم "محمد زيتونة" من الذين اهتموا بشروح التفتزاني . أنظر: خوجة، مصدر سابق، ص 229 .

[4]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 76 .

[5]– هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي التلمساني ولد سنة 832هـ / 1428م وتوفي سنة 895هـ / 1490م . أنظر: نفسه، ص 76، هامش 542 .

[6]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ص ص 91 ، 93 .

[7]– نفسه، ص 93. وأيضا: ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 76 .

كما أقرأها أيضا "سعيد الشريف" بجامع الزيتونة في الفترة الصباحية[1]. ومن بين الطلبة الذين قرأوها نجد "محمد بيرم الأول"(ت 1214هـ/1800م) الذي أخذها عن العالم "قاسم المحجوب" بحاشيتي المنجور واليوسي[2]. و"العياضي" الذي يذكر أنه سمعها عن شيخه "أحمد الماكودي"[3](ت 1170هـ/ 1757م).

ودُرّست كذلك "الوسطى للسنوسي". ويعتبر "محمد الصغير داود" من الذين درسوا العقيدة الوسطى على شيحه "سعيد الشريف"[4](ت 1112هـ/ 1700م)، وأقرأها "الشاذلي بن المؤدب"[5] (ت 1263هـ/ 1847م) بجامع الزيتونة[6]. ومن المؤلفات الأخرى التي درّست في هذا العلم،"شرح التهذيب للخبيصي" حيث يذكر "العياضي" أنه قرأه عدة مرات على "أبو الإقبال مسعود الباجي"[7]. كما درسه أيضا "أحمد البارودي"(1229هـ/ 1814م) على شيخه كبير علماء المعقولات "محمد الشحمي"[8](ت 1190هـ/ 1776م) .

نلاحظ إذن من خلال عدد المصنفات التي دُرّست في علم الكلام، أن هذا الأخير كان محدودا[9] ولم يبلغ الأهمية التي بلغتها العلوم الأخرى كالفقه والحديث والقرآن. وهذا راجع حسب المؤرخ "عبد السلام"[10] إلى:

- خوف المدرسين من إدخال البلبلة إلى أفكار الطلبة.
- ضعف مستوى بعض المدرسين وقلة معارفهم في مثل هذه العلوم .

---

[1]– خوجة، مصدر سابق، ص ص 192، 197 .

[2]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 33 ، 34 .

[3]– العياضي، مصدر سابق، ص 162 .

[4]– خوجة، مصدر سابق، ص 235. أنظر أيضا: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 76 .

[5]– ترجم له كل من: ابن أبي الضياف، مصدر سابق ، ج8 ، ص 62 . أنظر أيضا: مخلوف، مصدر سابق، ص 386. وأيضا: السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص ص 205– 208.

[6]– نفسه، ص 208 .

[7]– العياضي، مصدر سابق، ص 190 .

[8]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 64 .

[9]– عبد السلام، مرجع سابق، ص 85 .

[10]– نفسه .

– علوم اللغة العربية وآدابها :

يُعرّفها "الطاهر بن عاشور" قائلا: "البحث فيها عن أسلوب التكلم ومادته والنحو والصرف والبلاغة والإنشاء، وهي العلوم المدروسة لتحصيل النطق العربي الفصيح "[1].

وتشمل:

*** النحو:**

يعود سبب ظهور علم النحو إلى تخوف العلماء والفقهاء من فساد مَلَكة اللغة عند العرب، بسبب الاختلاط الذي وقع بين العرب بالأجناس الأخرى الداخلة في الإسلام– كالفرس والبربر– فقد أدى ذلك إلى ظهور اللحن في اللغة. وأول من وضع علم النحو هو "أبو الأسود الدّؤلي"، وبعده "الخليل بن أحمد". لكن أصبح النحو علما هاما مستقلا بذاته بعد أن هذبه "سيبويه".[2]

ومن أهم المصنفات التي درست في النحو " ألفية ابن مالك" التي جمع فيها مقاصد العربية وسماها "الخلاصة" ودُرّست من الفترة الحفصية إلى غاية القرن 14هـ/ 20م مرورا بالفترة الحسينية. ولخص "ابن مالك" الألفية في كتاب سماه "الكافية الشافية في النحو"، وتعد الشروح التي وضعت على الألفية بالعشرات منها : "شرح الإشموني" الذي وجد رواجا كبيرا بين المدرسين والطلبة[3]. ومن بين الذين درسوا هذا الشرح، "العياضي" على "أبو الإقبال مسعود الباجي"[4]، و"محمد بيرم الأول" على "محمد بن عبد العزيز"، و"أبو الفضل قاسم المحجوب"[5](ت 1234-1819م) وغيرهم كثير. كما دُرّست أيضا "لامية الأفعال لابن مالك"، إلا أنها لم تلقى نفس الرواج الذي لقيته الألفية[6].

ومن بين المصنفات النحوية التي أقرأت في عهد الأسرة الحسينية والمتداولة كثيرا، تذكر "السلامي" نقلا عن المؤرخ "أحمد برنار" كتاب "مغني ابن هشام" أن "محمد الخضراوي"(ت

---

[1]– الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 183 .

[2]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص77.

[3]– نفسه.

[4]– العياضي، مصدر سابق، ص 190 .

[5]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق ،ج7، ص 33 .

[6]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 77 .

1144هـ/ 1731م) أن قرأ هذا الكتاب كثيرا[1]، كما أقرأه "أحمد الماكودي" بجامع الزيتونة[2]. والظاهر أنه من أكثر الكتب المتداولة في النحو.

كما يعد كتاب "تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد" المعروف بـ"الفوائد" وهو كتاب جامع لمسائل النحو، من أهم المصنفات التي دُرّست في فترة حكم "علي باشا"[3]. وقد لقي هذا المؤلَف عناية من طرف العلماء فوضعوا له شروحا عديدة، من بينها الشرح الذي وضعه "علي باشا" بعنوان "دفع الملم عن قراء التسهيل بجلب المهم مما يقع به التحصيل" المعروف "بشرح التسهيل"[4] الذي شرع في تأليفه سنة 1138هـ/1726م، وأكمله سنة 1139هـ/1727م[5]. ونظرا لأهمية هذا المصنف، فإن "السنوسي" يذكر أن "الناس اعتكفوا على قراءته بجامع الزيتونة مدة دولته – علي باشا–"[6] وهذا بطلب منه شخصيا. ومن أولئك الذين طلب منهم ذلك، العالم "أحمد الماكودي"[7] الذي أقرأه بجامع الزيتونة[8]، بهدف نشره وتعريف الناس به[9]، كما خصصت له العديد من الدروس لشرحه وفهمه[10]. وبلغت أهميته إلى درجة أنه كتبت قصائد تمدح هذا المؤَلف. ونذكر أبياتا "لأبي الحسن علي البارع" في قوله[11] :

لله شرح للأمير موضح *** لم يتصف بصعوبة التلويح

---

[1]– السلامي، بوادر تنظيم التعليم الزيتوني... ، مرجع سابق، ص 69 .

[2]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 177 .

[3]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 77 .

[4]– يذهب بعض المؤرخين إلى أن صاحب المؤلف الحقيقي هو الشيخ "محمد الخضراوي" وأنه نسب فقط إلى "علي باشا". أنظر: مخلوف، مصدر سابق،ج1، ص 346 . لكن من المحتمل جدا أن مثل هذه التصريحات هي محاولة بعض رجال "علي باي الثاني" الطعن والتشكيك في انتساب هذا الكتاب إلى "علي باشا" ومن بينهم "حمودة بن عبد العزيز". كما أن ولع الباي "علي باشا" بالقراءة ومجالسة العلماء في الليل والنهار، ينفي مثل هذه الادعاءات. أنظر: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 303، هامش7. أنظر أيضا: الطويلي، تاريخ مدينة تونس...، مرجع سابق، ص106 .

[5]– العياضي، مصدر سابق، ص 131، هامش 1.

يذكر الأستاذ "الهيلة" في مقدمة كتاب "مفاتح النصر" للعياضي أن المؤَلف تتوفر نسخ منه بالمكتبة الوطنية بتونس تحت أرقام: 5188 / 5189 / 12360 . أنظر: نفسه .

[6]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 95 .

[7]– ترجم له كل من: العياضي، مصدر سابق، ص 160 . ومخلوف، مصدر سابق، ص 346. وأيضا: السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص ص 176- 179 .

[8]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص ص 176، 177 .

[9]– العياضي، مصدر سابق، ص 116 .

[10]– عبد السلام، مرجع سابق، ص 263 .

[11]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 96 .

سهل التناول بالخفاء مصرّح *** قد فاق في التسهيل والتصريح

فإذا افتقرت إلى كتاب موضح *** فكتابه المغني عن التوضيح

من خلال اللمحة الخاطفة عن المصنفات المدرّسة في النحو، نستنتج أن هذا العلم لقي هو الآخر اهتماما كبيرا من قبل المدرسين والطلبة، حيث يعتبر أساس اللغة العربية. لكن الجدير بالذكر أنه بالرغم من أنه كان في صدارة العلوم التي كانت تدرس، إلا أنه بقي في نطاقه النظري فقط، ولم تكن له تطبيقات وممارسات من طرف الطلبة، والدليل على ذلك أن أكثر ما حرر في القرنين 12 - 13هـ/ 18-19م ضعيف الأسلوب[1] .

* **البلاغة** :

من بين المؤلفات التي عرفت عناية كبيرة في البلاغة ودُرّست خلال الفترة الحسينية، نذكر "مختصر السّعد التّفتزاني"، حيث درّسه العديد من العلماء، ومن بين الذين اشتهروا بتدريسه في عهد "حسين بن علي" نجد "محمد زيتونة"و"حمودة الرصاع" [2] و"أبو القاسم ابن غانم العباسي"[3]. إضافة إلى هؤلاء نذكر "بيرم الثالث" (ت 1259هـ/ 1843م) الذي درس المختصر بالمدرسة العنقية بطريقة الإلقاء[4] التي أحدثها "إبراهيم الرياحي"[5]. ومن خلال تصفحنا للتراجم تبيّن لنا أن "مختصر السعد" يعد من أصعب المؤلفات التي كانت تدرس في البلاغة، والدليل على ذلك هو تكرار الطالب في قراءته له على عدّة شيوخ. ومن ذلك "أحمد بن حسين"(ت 1258هـ/1868م) الذي درس المختصر على عدة شيوخ نذكرهم:

– درسه بالمدرسة السليمانية على الشيخ "الطاهر بن مسعود".

– درسه بمدرسة جامع صاحب الطابع على الشيخ "أحمد الأبي" والشيخ "محمد بن ملوكة"(ت 1276هـ/ 1860م).

– درسه بجامع الزيتونة على الشيخ "أحمد بن الخوجة"[6] .

---

[1]– عبد السلام، مرجع سابق، ص 85 .

[2]– ترجم له كل من: خوجة، مصدر سابق، ص ص 220 ، 221 . السراج، مصدر سابق، ج3، ص 289. والسنوسي، مصدر سابق، ج2، ص ص 169، 170 .

[3]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 81 .

[4]– أنظر: في نفس الفصل، ص 132 .

[5]– مصدر سابق، ج2، ص 717 .

[6]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 235 .

أما بالنسبة للطلبة الذين درسوا البلاغة فنجد "محمد صغير داود" الذي أخذها عن شيخه العالم "سعيد الشريف" بالمدرسة المرادية، وعلى حد قول "حسين خوجة" أنه:" تمهّر في علوم العربية والفقه وأصوله وأبوابه وفصوله ... وله إجازات في ذلك"[1]. ودرسه أيضا "محمد الحجيج بن أبي الحسن الأشمرلي" حيث "أخذ علم العربية والأصول والمنطق والبلاغة عن شيخه "أبي عبد الله محمد الغماد"[2](ت 1115هـ/ 1703م). كما قرأه "محمد بيرم الأول" عن "أحمد الماكودي" [3] وعن "محمد بن عبد العزيز"[4]. بالإضافة إلى "العياضي" الذي قرأه هو الآخر في فترة الباي "علي باشا"[5].

ولنفس المؤلف كتاب آخر اسمه "المطوّل" الذي دُرّس هو الآخر حتى القرن 14هـ/ 20 م[6] حيث درسه "محمد بيرم الأول" على "أحمد الماكودي"[7]، ودرّسه "محمد زيتونة"[8] والشيخ "صالح الكواش" بجامع الزيتونة[9].

كما دُرّس أيضا في البلاغة "شرح الرسالة السّمرقنديّة في الاستعارات "للاسفراييني"[10]، ويعتبر الشيخ "الطاهر بن مسعود"[11](ت 1234هـ/ 1818م) من بين الذين أقرأوا هذا الشرح بالمدرسة السليمانية، ويقول عنه المؤرخ "السنوسي" إنه: "شرح الرسالة السّمرقنديّة في علم البيان شرحا بديعا... ففاق على سائر شروحها السالفة"[12]. كما درسه أيضا المدرّس المتميّز "محمد

---

[1]– خوجة، مصدر سابق، ص 236 .

[2]– نفسه، ص 200 .

[3]– أنظر ترجمته في : مخلوف، مصدر سابق، ج1، ص 346 .

[4]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص33 .

[5]– العياضي، مصدر سابق ، ص 108 .

[6]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 81 .

[7]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق ، ج7 ، ص33 .

[8]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 81 .

[9]– إبراهيم النيفر، " ترجمة الشيخ صالح الكواش" ، م . ز ، صفر 1356هـ/ أفريل 1937م ، مج 1، ج 8، ص 401 .

[10]– هو إبراهيم بن محمد الإسفراييني، المتوفى سنة 951هـ/1544م ، فارسي الأصل . ترجم كتابه إلى العربية "أحمد بن عبد الفتاح الملوي" . أنظر: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 81 ، هامش 618 .

[11]– ترجم له كل من: السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص ص 237 ، 238 . وابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 108، 109.

[12]– السنوسي، مصدر سابق، ج1 ، ص 238 .

الصفار"[1](ت 1127هـ/ 1715م). كما دُرّس شرح آخر للرسالة "للملّوي"[2].

وعلى كل، فإن أسلوب اللغة العربية الفصحى قد شهد تحسنا كبيرا منذ بداية العهد العثماني، وهذا بشهادة المؤرخ"حمودة بن عبد العزيز"(ت 1202هـ/ 1788م) وينسب هذا التقدم والتحسن إلى مخدومه "علي باي الثاني" ووالده "حسين بن علي" الذان كانا لهما الفضل في تأسيس العديد من المدارس والدروس التي كانت تدرس بها[3]. أما المؤرخ "عبد السلام"، فيضيف ذاكرا أن تحسن مستوى اللغة العربية الفصحى، راجع إلى التعزيز المتزايد لدراسة اللغة والأدب في مختلف المنشآت التعليمية وعلى رأسها الجامع الأعظم – جامع الزيتونة–[4].

وللإشارة فإن هناك من درّس لغات أخرى إلى جانب اللغة العربية وعلومها، إذ يذكر لنا "حسين خوجة" في ترجمته للعالم "هبة الله الحنفي" (ت 1119هـ/ 1707–1708م) أنه كان يدرس بمنزله بالمدرسة اليوسفية اللغة التركية والفارسية[5]، لكن الظاهر أنها لم تكن من المواد المقررة في البرامج التعليمية.

أ.2. العلوم العقلية[6]:

رغم سيطرة العلوم الدينية واللغوية على المناهج التعليمية، إلا أن بعض المدرسين اهتموا بالعلوم العقلية ولكنهم قلّة، ومن الطبيعي جدا أن يكون عدد الطلبة المقبلين عليها قليل أيضا. وبالتالي فإنها لم تشهد تطورا لأنه كان يسود معتقد أنه لا فائدة من دراسة مثل هذه العلوم[7]. لأن الطالب الذي يفكر في مواصلة دراسته من المؤكد أنه سيدرس التخصص الذي بإمكانه أن يتوظف به. ومن الوظائف التي كانت شائعة في الفترة التي نحن في صدد دراستها وحتى قبلها هي وظائف ومناصب ذات طابع ثقافي ديني كالقضاء والإمامة والخطابة والتوثيق...كما لا ننسى

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق مصدر سابق، ص 81 . أنظر ترجمته بالعودة إلى: مخلوف، مصدر سابق ، ج 1، ص 183 .

[2]– هو أحمد بن عبد الفتاح الملوي ، المتوفى سنة 1181هـ/1767م . أنظر: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 81، هامش 620،

[3]– عبد السلام، مرجع سابق، ص 302 .

[4]– نفسه .

[5]– خوجة، مصدر سابق، ص 210 .

[6]– يعرفها "ابن خلدون" بأنها: "علوم يهتدي إليها الإنسان بفكره، تسمى "العلوم الحِكمية الفلسفية"، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها، وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها، حتى يقِفهُ نظره وبحثه على الصواب من الخطإ فيها، من حيث هو إنسان ذو فكر. وهي مشتملة على أربعة علوم: علم المنطق، والعلم الطبيعي، والعلم الإلهي، والعلم الناظر في المقادير". أنظر: مصدر سابق، ص ص 345، 392 .

[7]– سعد الله، مرجع سابق، ج1، ص 358 .

مهنة التدريس التي كان يطمح إليها الكثير من الطلبة. لذلك، فإن الإقبال على العلوم العقلية كان ضئيلا جدا.

* **التاريخ** :

لم يجد علم التاريخ حظا وافرا بين الطلبة، فهو بالنسبة إلى المدرسين وسيلة من وسائل المحاضرة، وفنا من الفنون الأدبية التي ليست لها فائدة مباشرة في الدنيا ولا في الآخرة. فلم يُفسح لهذا العلم مجال في تعليمٍ ابتعد عن روح البحث، وسيطر عليه طلب دراسة علوم يتم الارتزاق منها. فلا القاضي يحتاجه في محكمته ولا الإمام في محرابه، لذلك لم يندرج بصورة منتظمة في البرنامج التعليمي، واعتُبرت معرفته غير ضرورية[1].

فدراسة التاريخ وتأليف التواريخ وكتابة التراجم كان نشاطا ثانويا وكماليا، يضاف إلى النشاط الأصلي وهو دراسة الفقه، ولهذا فقد دُرّست كتب الطبقات والوفيات على سبيل المثال في علم الحديث[2].

إن عدم الاهتمام بالتاريخ صاحبه جهل التونسيين للعديد من مصادر تاريخ الأندلس والمغرب وإفريقية، فكتاب العبر لم توجد منه ولو نسخة واحدة بإيالة تونس، حتى أواسط القرن 12هـ/18م بعد أن اشتراها الباي "علي باشا" من المغرب الأقصى[3]. ولم يطّلع التونسيون على "تاريخ الطبري" ولا على كتاب "الكامل في التاريخ لابن الأثير". كما كانوا لا يعرفون كتب المسعودي وكتب كبار الجغرافيين من المشارقة والمغاربة[4].

* **المنطق** :

يعتبر المنطق أحد العلوم التي تؤخذ من المشرق خلال رحلات التونسيين إلى هناك لطلب العلم، وخصوصا منهم الذين درسوا بمصر. لكن يبدو أنه بدأ التغافل عن هذا العلم بداية من القرن 9هـ/15م، إذ يذكر "الرصّاع" أن علم المنطق قليل شيوخة، فقد أراد دراسة المنطق فلم يجد أي شيخ يأخذه عنه "فمازلت أطلب الله على شيخ انقطع إليه فيه، حتى قدم إلينا عام ثلاثة وأربعين وثمانمائة رجل من المصامدة" [5].

---

[1]– عبد السلام، مرجع سابق، ص ص 526، 527 .

[2]– نفسه،ص 527 .

[3]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 81 .

[4]– عبد السلام، مرجع سابق، ص ص 566 ، 567 .

[5]– نقلا عن ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 82 .

ومن أهم المصنفات التي بدأ تدريسها خلال الفترة الحسينية نذكر "الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية"[1] للقزويني"[2]، ويعتبر"سعيد الشريف"من المدرسين الأوائل الذين درسوا هذا المؤَلَف بجامع الزيتونة[3]. كما دُرّس شرحه "لقطب الدين الشيرازي"[4] من طرف نفس المدرّس، وأقرأه "علي السويسي" والعالم "محمد زيتونة"[5]. ومن الطلبة الذين درسوا هذا العلم نذكر "الطاهر بن مسعود" الذي أخده بالمدرسة التوفيقية على الشيخ "حسن الشريف"[6](ت 1234هـ/ 1819م) و"العياضي" على "أحمد الماكودي" [7].

وجد كذلك "شرح التهذيب" للخبيصي" شيئا من اهتمام المدرسين، حيث اهتم هذا المصنف بعلم الكلام والمنطق في آن واحد، إلا أن القسم المهتم بعلم الكلام وجد شهرة أكبر. كما اهتم العلماء بمختصر المنطق "للسنوسي" الذي درّس هو الآخر خلال الفترة الحفصية والعثمانية. ومن بين دارسي هذا المختصر، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: "العياضي" عن "الخضراوي" [8]، كما أخذه "صالح الكواش" عن "محمد الشحمي"[9] المشتهر بعلوم المعقول من كلام ومنطق وغيرهما[10]. ويعتبر "أبي إسحاق إبراهيم المزغّني" أول من درس المنطق بصفاقس[11].

*** علم الحساب :**

انتشر هذا العلم أكثر من بعض العلوم العقلية الأخرى، نظرا لحاجة الناس إليه لفهم العمليات الأربع وممارسة التجارة وتقسيم التركات بين ورثة المتوفين...[12]، ونظرا لأهمية الحساب،

---

[1]– وهو متن مختصر في المنطق من تأليف نجم الدين عمر بن علي القزويني، شرحها قطب الدين محمد بن محمد التختياني، المتوفى سنة 766هـ/ 1365م . أنظر: العياضي، مصدر سابق، ص 82 ، هامش 3 .

[2]– هو نجم الدين أبو الحسن علي بن عمر بن علي الكاتبي القزويني ولد سنة 600هـ/ 1204م وتوفي سنة 675 هـ / 1277م . أنظر: خوجة، مصدر سابق، ص 197 ، هامش 173 .

[3]– نفسه، ص 197 .

[4]– هو قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي الشيرازي الشافعي ، توفي سنة 710هـ / 1310م . أنظر: نفسه، ص 197، هامش 172 .

[5]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق ، ص 81

[6]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 237 .

[7]– العياضي، مصدر سابق، ص 161 .

[8]– نفسه، ص 108 .

[9]– السنوسي، مصدر سابق ، ج1 ، ص 237 .

[10]– محمد النيفر، مصدر سابق، ج1، ص 580.

[11]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 374 .

[12]– سعد الله، مرجع سابق، ج1، ص 358 .

فقد كان الصبيان يتلقونه في الكتاتيب في المرحلة الأولى من التعليم –كما مرّ بنا سابقا–، وأشاد بأهمية هذا العلم المؤرخ "مقديش" في شرحه على"كشف الأستار" للقلصادي" سماه "إعانة ذوي الاستبصار على كشف الأستار عن علم حروف الغبار"[1]. وذكر فيه قيمة علم الحساب "الذي هو أول التعاليم القديمة وأمتن العلوم المستقيمة"، وبالرغم من أهمية هذا العلم، إلا أن " آثاره صارت خفية وأسراره مطوية ولم تبق منه إلا بقايا لا تبل الصدى"[2]. ونستشف ذلك أيضا من خلال ما دونه الدكتور "شاو"Shaw" في رحلته، فقد لاحظ عدم اهتمام شعوب المناطق التي زارها بما فيها تونس بعلم الرياضيات والحساب. لكنه أعجب بالتجار الذين رآهم يتقنون العمليات الحسابية [3].

ومن هذا المنطلق فإننا لا نجد من العلماء إلا القليل الذين أولوا هذا العلم جلّ اهتمامهم، ومن أبرزهم في علم الرياضيات خلال الفترة المدروسة، العالم "قاسم المؤخر"[4](ت حدود القرن 12هـ/ 18م) الذي درّس هذا العلم بالمدرسة الكيلانية بسوسة[5]، وكانت له خبرة بالعلوم الحسابية والفرائض والتوقيت[6]. كما أخذ "محمد الخضراوي" هذا العلم عن "المهتار بن رجب"[7]، حيث يذكر "حسين خوجة" أن "له ملكة في المعقول والمنقول وعلم الرياضيات"[8].

ويتبين لنا من خلال تتبع التراجم، أن الرياضيات كانت من العلوم المدرّسة في الأزهر، فالعديد من طلبة وعلماء تونس يأخذون هذا العلم أثناء تواجدهم هناك. ومن ذلك نذكر "أبو عبد الله محمد الشرفي"(ت 1157هـ– 1744م) أصيل صفاقس الذي أخذ العلوم الرياضية من حسابٍ وفلكٍ بالأزهر على شيخه "أبي العباس أحمد الشرفي"[9] (ت 1188هـ/ 1774م). ونذكر أيضا المؤرخ "مقديش" الذي أخذ العلوم الرياضية عن الشيخ "أحمد الدمنهوري"و"حسن

---

[1]– هو مختصر من كتاب القلصادي "كشف الجلباب في علم الحساب"، وهذا مختصر من كتابه التبصرة، وهو أول مؤلفات المؤرخ "مقديش"، توجد نسخة منه في المكتبة الوطنية التونسية . أنظر: مقديش، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص 15 .

[2]– نفسه، ص 16 .

[3]– Shaw, Op.Cit. , p.345 .

[4]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: خوجة، مصدر سابق، ص 134 . وحسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، مراجعة وإكمال محمد لعروسي المطوي وبشير البكوش، مج4، الدار العربية للكتاب، تونس 2001م، ص 549 .

[5]– السراج، مصدر سابق، مج3، ص 229 .

[6]– عبد الوهاب، كتاب العمر، ص 549 .

[7]– السراج، مصدر سابق ، مج3، ص ص 138، 144 .

[8]– خوجة، مصدر سابق، ص ص 234، 235 .

[9]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 391 .

الجبرتي"[1]. ويعتبر "محمد الخضار"(ت 1267هـ/ 1851م) من الذين درسوا الحساب والفرائض على "محمد بن ملوكة"[2]. كما كان محمود قابادو(ت 1288هـ/ 1871م) عالما بالرياضيات، حيث كانوا يراجعونه في المسائل الحسابية العويصة[3].

كما تعتبر مؤلفات[4] العالم "القلصادي"[5] من أهم المؤلفات التي أولاها العلماء والمدرسون اهتماما كبيرا خلال الفترة الحسينية في علم الحساب والرياضيات، أهمها "كشف الأستار عن علم حروف الغبار"[6] و"كشف الجلباب في علم الحساب"[7]. ويعتبر "عبد القادر الجبالي" (ت 1132هـ/ 1720م) من بين الذين درّسوا هذه المؤَلفات في الفترة الحسينية[8]. ويخبرنا "مقديش" انه قرأ المؤَلَف على شيخه "علي بن الشّاهد المنيي"[9].

ومن خلال الكتب المحبّسة من طرف الباي "علي باشا" على المدرسة العاشورية نجد حضور عناوين لمؤلفات أخرى في الحساب، منها كتاب "تلخيص أعمال الحساب وتنبيه الألباب على مسائل الحساب" لابن البناء"(ت721هـ/1321م)، ومنها أيضا "منية الحساب" "لابن غازي"(ت919هـ/ 1513م)[10]. كما وجدت الهندسة والجبر شيئا من اهتمام المدرسين[11].

وغير بعيد عن تونس، كان المدرسون الجزائريون يحاولون تحبيب علم الحساب إلى طلبتهم وإقناعهم بضرورة دراسته عن طريق التمثيل بأهالي تونس الذين يقول عنهم "ابن حمادوش" أنهم

---

[1]– مقديش، مصدر سابق، مج1، ص 13 .

[2]–السراج، مصدر سابق، مج2، ص 209 .

[3]– محمد النيفر، مصدر سابق، ج2، ص 906 .

[4]– يذكر "مقديش" في شرحه على "كشف الأستار" للقلصادي" أن هناك الكثير من المؤلفات التي لا يمكن إحصائها في هذا الفن إلا أن علماء ومدرسي عصره أكبّوا على ملخصات القلصادي . أنظر: مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص 16 .

[5]– هو أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي الأندلسي المالكي الشهير بالقلصادي ولد سنة 815هـ/ 1412م وتوفي سنة 891هـ / 1486م. أنظر: ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 84، هامش 663 .

[6]– يذكر "مقديش" أن هذا الكتاب من أهم الكتب المدرسة في علم الحساب ، لكن يعاب عليه أنه شديد الاختصار لذلك ألف شرحا عليه. أنظر: مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص 16 .

[7]– السعداوي، مرجع سابق، ص 487، هامش 6 .

[8]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق ، ص 81 .

[9]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 447 .

[10]– "وقفية تتعلق بالكتب المحبسة على مدرسة حوانيت عاشور بتاريخ أوائل جمادى الأولى 1159هـ / ماي 1746م". أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 487 .

[11]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ،مرجع سابق، ص 84 .

"كانوا أول ما يعلمون أولادهم الحساب والنحو ليذوقوا لذة العلم"[1]. وهذا دليل على الاهتمام الذي حظي به هذا العلم في الأوساط التعليمية التونسية .

وعن علم الفرائض، دُرّس"متن في فرائض المالكية" "لمحمد الشبيني القيرواني" (ت 782هـ/1380م) الذي يعتبر من العلماء المتخصصين في المواريث[2]. ودرّس هذا العلم في الفترة الحسينية كبار العلماء والفقهاء المالكيين نذكر منهم "محمد الغرياني"(1195هـ/ 1781م) الذي درسّه بجامع الزيتونة وهو بدوره أخذه عن كبار العلماء بالأزهر[3].

أما العلوم العقلية الأخرى، فكان لها نصيب ضئيل جدا، كعلم الفلك الذي لم يجد حظوة بين الكتب المحبسة من طرف "علي باشا" لصالح مكتبة المدرسة العاشورية، فمن مجموع 357 مجلد لم نجد ذكرا إلا لمؤلَف واحد فقط في علم الفلك بعنوان "شرح منظومة أبي مقرع في فن الفلك"[4]، وهذا دليل على ان هذا العلم لم يعرف اقبالا من طرف الأوساط العلمية. ويعتبر ابن المؤرخ "محمود مقديش"(ت 1251هـ/ 1836م) من الذين درسوا الفلك بصفاقس، لكن لمدة قصيرة، لأنه بعد انتقاله إلى الحاضرة تونس عينه الباي "حسين بن محمود" (1240-1251هـ/ 1824-1835م) وكيلا على عشر الزيت وشرائه للدولة[5]، لذلك لم يستمر في مهنة التدريس. له تأليف في الفلك يسمى "سلم السعادة لمعرفة سمت القبلة وأوقات العبادة"، شرحه تلميذه محمود سيالة" بشرح سماه " لولب السيادة لصعود سلم السعادة"[6].

أما الطب، فالظاهر أنه هو الآخر لم يجد حظه الكافي بين العلماء والمدرسين[7]، وهذا ما دفع بالرحالة الأجانب من بينهم الدكتور "شاو"Shaw" الذي ذكر أن هناك نقص في الأطباء،

---

[1]– رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983م، ص 147 .

[2]– السعداوي، مرجع سابق، ص 487 .

[3]– العياضي، مصدر سابق، ص 189 .

[4]– "وقفية تتعلق بالكتب المحبسة على مدرسة حوانيت عاشور بتاريخ أوائل جمادى الأولى 1159هـ / ماي 1746م". أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 487 .

[5]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج8، ص 24 .

[6]– يذكر "محفوظ" أنه اطلع على الكتاب حيث يشتمل على مقدمة وستة وعشرين بابا. وهو موجود بالمكتبة الوطنية التونسية، وأصله من مكتبة الشيخ "علي النوري"، أوله: "سبحان من أبدع ما اختره، وأتقن بحكمته ما صنع، رفع السماوات بقدرته، وخضع كل شيء لجلال عظمته". أنظر: مرجع سابق، ج4، ص 364 .

[7]– يعود هذا حسب اعتقادنا إلى الاعتماد في التطبيب على الأطباء الأجانب الوافدين من مختلف الدول الأوربية، بالإضافة إلى الأسرى. نذكر على سبيل المثال الباي "حمودة باشا" الذي اتخذ لنفسه طبيبا خاصا من جنسيات أوربية مختلفة. للتفصيل في هذا الموضوع يمكن العودة إلى:
J.J.Marcel, Description de cette régence par le Dr Louis Frank, Ed Bouslama, Tunis, S.D, p p. 4-5.

وأن هذا العلم لم يجد مكانة في المجتمع، وحسب راية أن ذلك راجع إلى انعدام أو وجود القليل من الأمراض الخطيرة التي تؤدي إلى الوفاة. ويشير إلى أن المسلمين يرفضون فكرة اللجوء إلى الأطباء، ويفضلون التداوي بالطرق التقليدية والأعشاب الطبيعية[1]. وهذا ما أدى إلى وجود نقص في الأطباء، والقليل الموجود منهم توارثوا المهنة أبا عن جد[2]. وقد أشار "فرانك"Frank" طبيب الباي "حمودة باشا" الخاص، إلى المستوى العلمي المتدني الذي ميّز أطباء تونس، في قوله: "...لا وجود لمهنة الطب بإيالة تونس، فهم جهلاء ولا يعرفون في الطب سوى كتاب "ابن سينا" وبعض المخطوطات القديمة التي لا تفيد كثيرا...التداوي عندهم يتم عن طريق الأعشاب التي يصفها حكيم باشي...وهو لا يفقه شيئا في الصحة والطب...وهو خطر على الصحة العامة"[3].

لكن لا يمكننا أن ننفي بعض مبادرات العلماء في مجال الطب، نستشفها من بعض الأخبار التي وردت في التراجم والسيّر التي تشير إلى وجود بعض الأطباء أو حتى الذين درسوا الطب في إيالة تونس، نذكر منهم الفقيه والفرضي والطبيب"هبة الله الحنفي" (ت 1119هـ/ 1708م) وهو أول من أدخل الطب الحديث إلى الإيالة، وأول من ذكر في كتابه الطبي[4] وجود مرض الزهري بتونس، وهذا دليل على أنه احترف مهنة الطب[5]. والطبيب "الدهماني" (كان حيا سنة 1249هـ/ 1834م) وهو فقيه وحنفي من جند الترك المستقرين بتونس، تضلع في مهنة التطبيب وتولى خطة "أمين الأطباء بالحاضرة تونس"، له كتاب بعنوان "نفائس الدرر الحسان فيما يزيل المرض ويحفظ صحة الإنسان"[6]. كما يذكر "السنوسي" في مسامراته أن جده "محمد" (ت 1255هـ/ 1839م) كان عارفا بالعلوم البدنية– الطب– حيث "أقرأ ألفية ابن سينا بجامع

أنظر أيضا: رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس (1782–1814م)، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1980م، ص ص 30، 31، 311– 313 .

[1]– ذكر الدكتور "شاو"Shaw" الطرق التقليدية التي يتم التداوي بها، كاستعمال أدوات الكي والحجامة، كما تطرق إلى الأعشاب والمواد الطبيعية كالحناء، والتين، والزيت، والعسل. لعلاج الروماتيزم، الحمى، الجذري، ومرض التورم ...

أنظر: Shaw, Op.Cit. , p p. 340-342.

[2]–Marcel,Op.Cit. , p.137.

[3]– Ibid ., pp. 136-138.

[4]– عنوان الكتاب مجهول، يحتوي على مقدمة، وأربع مقالات، الأولى في أصول حفظ الصحة بالهواء والأكل والشرب والحركة والنوم واليقظة والاستفراغ، والفصد ودخول الحمام. والثانية في المفردات والأعشاب والبقول والغلال واللحوم. والثالثة في المركبات والأشربة والمعاجين والجوارش والأقراص وعلاج الأمراض من الرأس الى القدم وأسبابها. والرابعة في الأمراض الشاملة للبدن. توجد منه نسخة بدار الكتب الوطنية التونسية.

أنظر: محفوظ، مرجع سابق، ج2، ص ص 180، 181 .

[5]– نفسه، ص 180.

[6]– عبد الوهاب، كتاب العمر، مرجع سابق، ص 513 .

الزيتونة، وله الكثير من التقاييد الطبية"[1]. كما نجد أطباء تونسيين مارسوا مهنة التطبيب ونجحوا فيها، والدليل على ذلك مجموعة من الأبيات الشعرية كتبها "إبراهيم الرياحي" يُثني فيها طبيبا نجح في علاج أحد أولاده، فقال عنه[2]:

قليل فيك يا عبد الرحيم *** نظام جلّ عن درّ نظيم
جمعت الحسن مع أدب وطبّ *** وأخلاق ارقّ من النسيم
إذا نادمت ذا حزن تسلّى *** وفي مرآك عافية السقيم
لقد أحييت جالينوس حتى *** غنينا بالجديد عن القديم
أطال الله عمرك في عوافي *** كما مثواك جنات النعيم

وفي الأخير، نستنتج أن المدرسين والطلبة على حد سواء كان اهتمامهم مقتصرا على بعض العلوم دون أخرى، فعلوم القرآن والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام والنحو، وجدت انتشارا لم تجده علوم أخرى كالفلسفة والمنطق والجدل والتاريخ والفرائض و... أما العلوم العقلية فلم تلق – كما رأينا – من المدرسين والطلبة إلا اهتماما محدودا جدا. وكما أشرنا إليه فهنالك لكل علم من العلوم المدرسة مؤلفات خاصة به، منها التي تواصل تعليمها بداية من الفترة العثمانية إلى الحسينية ومنها من تمّ تغييرها، وهذا دليل على وجود حركية في صلب مواد التعليم وفي محتواها، حسب ما ذكره أحد المؤرخين[3].

ب. طرائق التدريس :

قبل الخوض في أهم الطرائق التي يتم إتباعها خلال العملية التعلمية، لا بد لنا من الإشارة إلى أن الدروس التي كانت تقدم في مختلف المؤسسات التعليمية كانت تتم في شكل حلقات، حيث كان المدرس يجلس في المحراب ويُكَوِّن الطلبة أمامه نصف حلقة – شكل هلال– ويجلسون القرفصاء على الحصير، ويحرص الطالب على الجلوس بمقربة من الشيخ، لكي يسمع كل ما ينطق به. وقد وصف لنا "ابن جماعة" الطريقة المثلى في كيفية جلوس طالب العلم في حلقات العلم، قائلا: " أن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب كما يجلس الصبي بين يدي المقرئ، أو متربعا بتواضعٍ وخضوعٍ، وسكونٍ وخشوعٍ، ويصغي إلى الشيخ ناظرا إليه... ولا يلتفت من غير ضرورة،

[1]– السنوسي، مصدر سابق، ج3، ص 112 .
[2]– محمد النيفر، مصدر سابق، ج2، ص 774 .
[3]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 85 .

ولا ينظر إلى يمينه، أو شماله، أو فوقه، أو قدامه لغير حاجة...ولا يضطرب لضجة يسمعها أو يلتفت إليها"[1].

وكان من الآداب أن تكون بين الحلقة القريبة من المدرس وبين مدرسهم مسافة قوس، ويُعدّون القرب من الشيخ المدرس أكثر من ذلك من سوء التربية[2]. ولا يجلس في الحلقة بدون ترتيب، بل كان لكل منهم مكان يجلس فيه. ولا يتعدى الموقع الذي هو أهل له. فسِنُ الطالب وأقدميته في الجلوس للشيخ ومستواه العلمي، يلعب دورا هاما في تعيين مكان جلوسه. ويكون جلوس الطلبة المبتدئين، في آخر الصفوف احتراما للطلبة المتقدّمين في السن[3]. وعندما يبرز أحدهم، يقربه الشيخ ويجلسه بجانبه[4].

أما عن طرق التدريس، فيذكر الأستاذ "ابن مامي" أن طريقة التعليم في المدارس وحتى بجامع الزيتونة وغيره من الجوامع لم تعرف تطورا يذكر، إذ لا نجد فوارق شاسعة بين ما كان عليه الحال في الفترة الحفصية[5] وما أصبح عليه في العهد الحسيني، إذ تواصل التعليم على نفس النسق[6]. وأهم الطرق التي تم التدريس بها هي:

ب.1. طريقة الإسماع :

ينقسم الإسماع إلى إملاء وتحديث، سواء من حفظ الشيخ أو القراءة من كتابه، وهو أرفع درجات أنواع الرواية عند الغالبية. ويجوز في هذا المقام أن يقول السامع منه : "حدثنا" أو"أخبرنا" أو" أنبأنا" أو "سمعت فلان يقول" أو "قال لنا فلان". ويمكننا أن نستحضر هنا مثالا لمدرس وهو "أبو عبد الله محمد الشنقيطي" (لم نقف على تاريخ وفاته) الذي كان ينقل عن والدته التي تميزت بمستوى علمي عالٍ، فكثيرا ما كان ينقل عنها فيقول: "قالت والدتي"[7] .

---

[1]- بدر الدين، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، تحقيق محمد بن مهدي العجمي، ط3، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 2012م ، ص 103 .

[2]- محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 48 .

[3]- ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 50 .

[4]- محمد الباجي ابن مامي، "تاريخ التعليم بجامع الزيتونة وبمدارس العلم الشرعي بتونس منذ التأسيس إلى العهد الحفصي، مع ذكر العلوم والكتب التي درّست فيها"،ج1. المقال منشور على صفحة جمعية دار الحديث الزيتونية، بتاريخ 5 ذي القعدة 1433هـ/ 20 سبتمبر 2012م. ص . ب . ت . تم الاطلاع على المقال عبر es-la.facebook.com، بتاريخ 18 جمادى الثانية 1439هـ/ 05 مارس 2018م .

[5]- يمكن الإطلاع على طرائق التدريس في العهد الحفصي، بالعودة إلى: ديب، مرجع سابق، ص ص 104- 117 .

[6]- ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 54 .

[7]- محمد النيفر، مصدر سابق، ج2، ص 891 .

يُلقي الشيخ المدرّس ما لديه من علم والطالب بدوره يستمع ويصغي إليه. وتكون هذه الطريقة "إلقائية" إذا راعينا جانب الملقي، و"إسماعية" إذا راعينا جانب المتلقي. وهي طريقة تلازم طالب العلم منذ بداية مشواره التعلّمي، لأنه لا يمكن أن يصل إلى مستوى راق من العلم دون السماع عن كثير من العلماء[1]. وكانت هذه الطريقة سائدة في العصر الذي نؤرخ له حتى أن كتب التراجم والسيّر لا تخلوا من عبارة "سمعت"، "فالعياضي"(لم نقف على تاريخ وفاته) تطرق إلى شيوخه الذين أخذ عنهم العلم بالإسماع، "كأحمد الماكودي"(ت 1170هـ/ 1757م) الذي أخذ عنه سماعا "أسرار التأويل وأنوار التنزيل" من سورة البقرة إلى سورة النساء، كما سمع عليه "مختصر الشيخ خليل" من أوله إلى آخره، و"كبرى الشيخ السنوسي وصغراه ومختصره في المنطق"[2]، ويذكر أنه سمع على شيخه أيضا العديد من المؤلفات والكتب[3]. ويذكر "حسين خوجة" في ترجمته للفقيه "يوسف برتقيز"[4] (لم نقف عند تاريخ وفاته) جملة الكتب التي قرأها على شيوخه في مختلف المدن التونسية والمشرقية التي حلّ بها طالبا للعلم[5].

ومن بين الذين سمعوا بتونس بعض العلوم عن علمائها، "محمد صغير داود"(ت بعد 1137هـ/ 1725م) الذي سمع الحديث عن "قاسم الغماد"[6] و"محمد الشاهد"(ت 1311هـ/ 1893م) الذي يقول عنه "صاحب المسامرات" في ترجمته أنه كان يقدم درسه في قالب سهل التناول لكل سامع[7]. أما "صاحب الأريب"، فيذكر هو الآخر أن "بيرم الثالث" كان يحضر لسماع درس "شرح المحلي" الذي كان يلقيه جده "محمد" بجامع الزيتونة[8]. والظاهر أن الفقه والحديث كانا من أكثر العلوم التي تدرس بالإسماع.

وينبغي على الطالب أن يتحلى بأدب الاستماع لشيخه "فإذا سمعه يذكر حكما في مسألة أو فائدة ...أصغى إليه إصغاء مستفيدٍ له"[9]. والعادة المتبعة في حلقات السماع عند انتهاء

---

[1]– ديب، مرجع سابق، ص 96 .

[2]– نفسه، ص 162 .

[3]– يمكن الإطلاع على عناوينها، بالعودة إلى: نفسه، ص 163 .

[4]– للإطلاع على ترجمته، أنظر: خوجة، مصدر سابق، ص ص 258، 259 . وأيضا: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج1، ص ص 293– 306 .

[5]– خوجة، مصدر سابق، ص ص 257، 258 .

[6]– محفوظ، مرجع سابق، ج2، ص 287 .

[7]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 282 .

[8]– النيفر، مصدر سابق، ج2، ص 839 .

[9]– ابن جماعة، مصدر سابق، ص 107 .

الطالب من سماع كتاب معين، يطلب من شيخه أن يوقع نسخة شهادة تفيد أنه قد سمع هذا الكتاب منه. وهذه الشهادة بالإضافة إلى أنها تثبت سماع الطالب هذا الكتاب من الشيخ، فهي أيضا تثبت مطابقة نسخة الطالب لأصل الشيخ والغالب أن يكتب السماع في مكان بارز من الكتاب كالصفحة الأولى من العنوان مثلا[1].

ب.2. طريقة الإملاء:

الإملاء هو أن يقعد المدرس وحوله طلبته بالمحابر والقراطيس، فيكتبون ما يتكلم به المدرس، ويسمونه الإملاء أو الأمالي[2]. وحتى يضمن المدرس السير الحسن لدرسه الذي يمليه وتجنب تأخر بعض الطلبة عن زملائهم خلال عملية الإملاء، كان لا بد عليه أن يتخذ معه "مستملي"[3]. وحسب "السمعاني" فإن هناك مجموعة من الشروط لابد أن تتوفر في المستملي وهي[4]:

– ينبغي أن يكون جهوري الصوت.

– أن يكون متيقظا حذقا ونشيطا .

– أن يتخير للاستملاء أفصح الحاضرين لسانا وأوضحهم بيانا وأحسنهم عبارة وأجودهم أداءً.

– أن يكون واسع الاطلاع ومتمكن من الفن والدروس التي يستملي فيها.

– ومن المستحب أن يجلس على موضع مرتفع، فإن لم يجد فقائما حتى يسمعه جميع الحاضرين.

والجدير بالإشارة هنا أن المدرس يستمد درسه الذي يمليه من معلوماته أو مذكراته التي كتبها لنفسه فيسمى حينها الدرس "إملاء"[5]. ومن المدرسين الذين اتبعوا طريقة الإملاء في دروسهم "حسن الشريف"(ت 1234هـ/ 1819م) حيث يذكر لنا "السنوسي" في ترجمته أنه

---

[1]– ديب، مرجع سابق، ص 97 .

[2]– نفسه، ص 99 .

[3]– هو الشخص الذي يطلب من شخص آخر أن يدون الإملاء. وما تجدر الإشارة إليه انه ينبغي عدم الخلط بين هذه الوظيفة ووظيفة المعيد، فقد كان المستملي مساعدا لشيخ الحديث ، أما المعيد فكان مساعدا لمدرس الفقه . فالأول كان يردد ما يمليه الشيخ في الوقت نفسه الذي يتحدث فيه الشيخ . أما الآخر فكان يعلم طلاب الفقه بعد انتهاء الشيخ معيدا وشارحا ماقاله الأستاذ. أنظر: ديب، مرجع سابق، ص 99، هامش 8.

[4]– أبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني، كتاب أدب الإملاء والاستملاء، دراسة وتحقيق أحمد محمد عبد الرحمان محمد محمود، ج1، ط1، مطبعة المحمودية، جدة، 1993م، ص ص 390 – 406 .

[5]– التوزري، مرجع سابق، ص 139 .

كان "يملي الدروس العلمية"[1]. كما كان "محمد زيتونة" (ت سنة 1138هـ/ 1726م) يملي على تلاميذه من حفظه حاشيته على تفسير "أبي السعود"[2].

ومن الضروري أن يكون الإملاء بطيئاً حتى يتمكن الطالب من كتابة كل ما يمليه المدرس[3]. وإذا كان المستوى العلمي لهذا الأخير لا بأس به فإنه يستعين بشرح الفقرات التي يمليها، ويقوم الطالب بتدوين الشروحات على هامش الأوراق التي كتب عليها الأصول. وبعد انتهاء الشيخ من الإملاء، يقوم بإعادة قراءته، أو يكلف أحد الطلبة للقيام بذلك حتى يتم تصحيح الأخطاء. ويقع بعد ذلك نقاش في الموضوع[4]. أما من ناحية الطالب فيؤكد العلامة "السمعاني" أنه لا بد عليه من البكور إلى المجالس العلمية حتى لا تفوته الأمالي، كما لا بد عليه من حسن الاستماع والإصغاء عند الإملاء[5].

ب.3. طريقة الإقراء:

تتمثل هذه الطريقة في تكليف المدرس للطالب بالقراءة ويقوم هو بالشرح. وإذا توفرت الإمكانيات للطالب، فإنه يشتري نسخة من الكتاب الذي يدرسه الشيخ، فيقرأه قبل أن يلقيه المدرس. ويستطيع آنذاك أن يقرأ الكتاب في حضرة الشيخ ويمكن أن يتناوب القراءة مع الشيخ أو طالب آخر[6].

والجدير بالملاحظة أن مصطلح الإقراء لا يقتصر على إقراء القرآن الكريم والحديث الشريف، بل يتعداه إلى إقراء الكتب الفقهية واللغوية والأدبية والطبية وغيرها. ومن الشواهد التي تثبت ذلك ما ذكره "العياضي"– أثناء تحريره لكتابه مفاتح النصر– أنه يقرأ شرح التسهيل على شيخه "أحمد الماكودي"(ت 1170هـ/ 1757م) وغيره من الشروح[7]، كما قرأ على "مسعود الباجي" كتبا عديدة في النحو والمنطق كالإشموني على ألفية بن مالك والماكودي والمرادي[8]. وفي كتب السيّر والتراجم المئات من الطلبة الذي تكونوا ودرسوا على هذه الطريقة.

---

[1]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 245 .

[2]– محمد النيفر، مصدر سابق، ج1، ص 486 .

[3]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 51

[4]– نفسه. أنظر أيضا: التوزري، مرجع سابق، ص 139 .

[5] – السمعاني، مصدر سابق، ص ص 375، 534 .

[6]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 51.

[7]– يمكن الاطلاع عليها بالعودة إلى: العياضي، مصدر سابق، ص 161 .

[8]– نفسه، ص 190 .

يتولى إعانة الشيخ المدرس في بعض الأحيان أحد طلبته المجتهدين الذي يكون أفضل من زملائه في المستوى العلمي، ويلقب "بالمعيد" أو "المعين" وهو من يعيد على الطلبة ما ألقاه المدرّس عليهم ليحسنوا فهمه. ويطلق عليه في المشرق لفظ "المكرر"، ويبدأ عمله عندما ينتهي عمل المدرس، ويتمثل في شرح النقاط الغامضة من الدرس. وارتبطت وظيفته غالباً بالمدارس، والسبب في ذلك أن المدرسة جمعت طلاباً متفاوتي المستويات، فكانت الحاجة إلى المعيد ليساعد المتخلفين عن الدرس ويتمكنوا من مسايرة الآخرين. ومن أولئك الذين اشتغلوا كمعيدين بالمدرسة، نذكر المؤرخ "أحمد برنار"(ت 1138هـ/ 1726م) الذي اتخذه شيخه ومدرسه "مَحمد محجوب"(ت 1243هـ/ 1828م) معيدا ومعاونا له في دروسه بمدرسة يوسف داي[1]. أما في جامع الزيتونة، فكان الطالب إذا ما لاحظ تخلفه عن الآخرين، تحول إلى حلقة أخرى تكون في مستوى فهمه[2].

وما تجدر الإشارة إليه أنه بالرغم من سيطرة طرق تعليم كلاسكية – إن صح التعبير– إلا أن هذا لم يمنع من ظهور شيوخ ومدرسين متمكنين بفعل مستواهم العلمي العالي حيث أبدعوا وابتكروا طرقا تعليمية حديثة تكون أكثر حيوية، فها هو العالم "إبراهيم الرياحي" (ت 1266هـ/ 1850م) يقدم دروسه بطريقة تبعث الحيوية والنشاط في نفسية الطالب، وتكسر فيه الملل والخمول، فقد كان يقوم بنقل الدرس من الكتاب المقرر، ثم يمليه من حفظه. وبعد ذلك يسرد كلام المصنف على طريقة تبعث النشاط في النفس[3]. ويذكر صاحب "عنوان الأريب" أن "بيرم الثالث"(ت 1259هـ/1843م) هو أول من درس بطريقة "إبراهيم الرياحي"من بعده[4].كما نجد المؤرخ "مقديش" (ت 1228هـ/1813م) الذي اشتغل لفترة طويلة في التعليم بمسقط رأسه صفاقس، وهو الذي قال عنه "ابن أبي الضياف" إنه كرس حياته للتدريس وان تلامذته بصفاقس "أعلام وأئمة في الإسلام"[5]، كان متميزا بفضل طريقته التعليمية المبتكرة من طرفه، فلا يقتصر في تدريسه على أسلوب التلقين والإلقاء، بل لجأ إلى استخدام الأسئلة عن

[1]– خوجة، مصدر سابق، ص 232 . أنظر أيضا: محفوظ، مرجع سابق، ج1، ص 93 .

[2]– ابن مامي، تاريخ التعليم بجامع الزيتونة ...، مرجع سابق، ص. ب . ت .

[3]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 74 .

[4]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 717 .

[5]– ابن ابي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 85، 86 .

المشاكل والقواعد في قالب قصصي مخترع لاختبار ذكاء الطلبة، ومعرفة ما هضموه من معلومات[1].

كما يذكر لنا "السنوسي" في ترجمته للشيخ "مَحمد المحجوب"[2](ت 1243هـ/ 1827م) أنه كان يدرس بجامع الزيتونة "بأسلوب غريب من أبدع الأساليب"[3]. فبالرغم من عدم وضوح هذا الأسلوب الذي يتحدث عنه "السنوسي"، إلا أننا نفهم من سياق الكلام أنه أسلوب وطريقة جديدة لم يسبقه إليها أحد، أي أنها غير معروفة. وهذا دليل على اجتهاد المدرسين، ومحاولة الخروج والتخلي عن طرائق التدريس التقليدية. أما "أحمد الأبي الحنفي" (ت 1274هـ/ 1858م) إمام جامع صاحب الطابع، فقد كانت له هو الآخر طريقة جديدة في تدريس صحيح البخاري، حيث كان يلجأ إلى طريقة الشرح والتفسير أكثر من السرد[4]. والظاهر أن الهدف من إتباع مثل هذا المنهج في التعليم، هو الحث على مواصلة البحث والتركيز والنقاش وفتق اللسان بالمناظرة[5].

كما لا يفوتنا ذكر العالم "محمد بن ملوكة" صاحب المنهج الجديد في التدريس، الذي قال عنه "ابن أبي الضياف" إنه "اختار تعليم القرآن على أسلوب لم يسبق إليه أحد". وليس هذا فقط، بل كان يمنح تلاميذه وقتا للراحة يمارسون فيه المصارعة والرماية واللعب بالكرة[6]. وفي هذا السياق يحث العلامة التربوي "ابن جماعة" الطلبة على ضرورة المشي والرياضة لأنهما ينعشان الحرارة وينشطان الجسم[7]. حتى يقضي على السآمة والملل اللذان يمكنهما أن يؤثرا سلبا على مردودهم التعليمي.

3.2. أيام الدراسة والعطل:

تختلف أوقات الدروس حسب المؤسسة التعليمية التي يزاول فيها الطالب تعليمه. ففي الجوامع كانت مواقيت الصلاة الخمسة اليومية هي التي تتحكم في سير الدروس، إذ جرت العادة

---

[1]– مقديش، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص 14. وأيضا: محفوظ، مرجع سابق، ج4، ص 357 .

[2]– للاطلاع على ترجمته، أنظر: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 151 . وأيضا: مخلوف، مصدر سابق، ص 370 . وكذلك: السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص ص 183– 187 .

[3]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 184 .

[4]– الغزي، مرجع سابق، ص 23 .

[5]– ديب، مرجع سابق، ص 80.

[6]– ابن ابي الضياف، مصدر سابق، ج8، ص 109 .

[7]– ابن جماعة، مصدر سابق، ص 93 .

أن تلقى الدروس قبل الصلاة أو بعدها[1]، ويعود اختيار التوقيت إلى المدرس حسب ما يناسبه ويناسب ظروفه. فهناك من المدرسين من كان يجلس للإقراء بالجامع مرتين في اليوم الواحد. حيث يذكر "حسين خوجة" في ترجمته "لمحمد القلشاني"(ت 1124هـ/ 1712م) أنه كان يجلس للتدريس من طلوع الفجر إلى ما بعد الشروق، ثم يجلس في عقب النهار إلى الغروب[2]. وتذكر لنا كتب التراجم اسما آخر هو"محمد بن سعيد" (ت 1199هـ/ 1785م) الذي كان يدرس كتاب الشفاء بجامع الزيتونة بعد صلاة الصبح[3]. أما حسن الشريف (ت 1234هـ/ 1819م) فقد لازم التدريس عند الفجر بمسجد دار الباشا[4]. وكان الفقيه "أحمد الأبي الحنفي"(ت 1274هـ/1858م) يدرس بجامع صاحب الطابع صحيح البخاري بعد العصر[5].

إذن مواقيت التدريس بالجامع غير مضبوطة، فمنها ما يكون خلال صلاة الصبح أو قبل شروق الشمس، ومنها ما يكون قبل أو بعد العصر، وأخرى بين المغرب والعشاء. فتوزيع الدروس في اليوم الواحد يتم بصفة غير عادلة، حيث تكثر في الساعة السابعة والثامنة صباحا، ثم تبدأ في التناقص شيئا فشيئا إلى غاية الساعة العاشرة لتنعدم تماما في حدود الساعة الحادية عشر وما بعدها. وبنفس الوتيرة تسير عليها دروس الفترة المسائية التي تبتدئ قبل صلاة الظهر ومدة استمرارها يتحكم فيه طول وقصر النهار[6].

أما بالمدارس، فالتوقيت اليومي يحدّده إما المدرس أو صاحب المدرسة، فبإمكان المدرس أن يختار توقيت دروسه حسب ظروفه والتزاماته، لأن الكثير منهم يدرسون بجوامع ومدارس المدن الكبرى، وبالموازاة تجده قاضيا أو خطيبا أو إماما أو شاهدا...، ولنا في هذا المقام أن نذكر العديد من المدرسين الذين ترجمت لهم كتب التراجم والسيّر، فها هو صاحب المسامرات يذكر لنا كيف كان جده "محمد السنوسي"(ت 1255هـ/ 1838م) يقسّم أوقات يومه بين التدريس والقضاء والإشهاد، وفي هذا السياق يقول: " فكان يقرئ الدرس بجامع الزيتونة من بعد صلاة الصبح إلى الضحى ومن هنالك يركب بغلته للحكم بباردو إلى الزوال، ثم في العشي يجلس

---

[1]– ديب، مرجع سابق، ص 77 .

[2]– خوجة، مصدر سابق، ص 211 .

[3]– ابن ابي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 18 .

[4]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 240.

[5]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج8، ص 104 .

[6]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 132 . أنظر أيضا: الحشايشي، العادات والتقاليد...، مرجع سابق، ص 89 .

للإشهاد والمطالعة... وربما أقرا عشية أو ليلا"[1]. ومنهم أيضا "حميدة المفتي"(ت بعد 1144هـ/ 1731م) أصيل مدينة باجة الذي انتدب رسميا مدرسا بمدرسة "محمد باي". وبالتزامن مع ذلك، كان له درس في الفقه المالكي بالجامع الأعظم بباجة[2]. و"محمد الطاهر بن مسعود" (ت 1234هـ/1818م) الذي درّس بجامع الزيتونة وبالمدرسة السليمانية[3]. و"محمد بيرم الثالث" (ت 1259هـ/ 1843م) الذي درّس نائبا عن والده بالمدرسة الباشية، وبالموازاة مدرسا بالجامع الأعظم –الزيتونة– والمدرسة العنقية[4]. كما نذكر العالم "إبراهيم الرياحي" (ت 1266هـ/ 1850م) الذي كان يقدم دروسا بجامع الزيتونة وبمدرسة جامع يوسف صاحب الطابع[5]، وغيرهم كثير.

نجد أيضا مؤسس أو صاحب المدرسة – كما سلفنا الذكر– يحدّد هو الآخر توقيت التدريس بمدرسته، ولنا في الوقفيات المتوفرة لدينا أمثلة عديدة، ومن ذلك المدرسة التي شيدها "حسين بن علي" بالقيروان حيث اشترط أن تكون الدروس وقت الضحى وبعد صلاة العصر من كل يوم[6]. وبدوره صاحب "الباشي" يذكر أن "علي باي الثاني" اشترط بمدرسته الحسينية الكبرى أن يتم تدريس درس "مختصر الشيخ خليل"في صباح كل يوم، أما درس الفقه الحنفي فيتم تدريسه بعد صلاة العصر[7].

أما الزوايا، فصاحبها هو الذي يحدّد أوقات التدريس، والظاهر أن طلبة الزوايا يقضون أغلب أوقاتهم في طلب العلم مقارنة بطلبة المدارس والجوامع، وهذا ما يؤكده لنا المؤرخ "محمود مقديش" الذي كان يتلقى دروسه بزاوية "إبراهيم الجمني" بجربة حيث يذكر أن طلبة الزاوية يدرسون ليلا نهارا[8]. فقد كان "إبراهيم الجمني" يجلس بالطلبة للإقراء من صلاة الصبح إلى العصر، ويختم تدريس مختصر خليل مرة في أربعة وعشرين يوما[9]. أما "علي النوري"، فكان

---

[1]– السنوسي، مصدر سابق، ج3، ص 104 .

[2]– زهير بن يوسف، مرجع سابق، ص 61 .

[3]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 108 .

[4]– نفسه، ج8، ص 54 .

[5]– قرين، مرجع سابق، ص 44 . أنظر أيضا: الرياحي، مصدر سابق، ص 86 .

[6]– "رسم تحبيس لصالح مدرسة القيروان بتاريخ أواسط ذي القعدة 1133هـ/ أوائل سبتمبر 1721م". أنظر: السعداوي، مرجع سابق ، ص 376 .

[7]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 300 .

[8]– يمكن الاطلاع على تفاصيل تنظيم وإلقاء الدروس بالزاوية، بالعودة إلى: مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 443 .

[9]– عبد الوهاب، كتاب العمر، مج2، مرجع سابق، ص 834 .

حسب "حسين خوجة" لا يتوقف عن التدريس بزاويته ليلا ونهارا[1]. ومما لا شك فيه أن كثافة الحجم الساعي الدراسي بالزاوية عاد بالفائدة الكبيرة على الطلبة، فقد عُرفوا باجتهادهم ويقول عنهم "مقديش" "وعظم الاجتهاد مبلغا لم نره غيرها شرقا ومغربا"[2].

أما المدرسون الذين كانوا يقدمون دروسا بمنازلهم، فكان التوقيت من اختيارهم، فمنهم من كان يختار الفترة الصباحية، وآخر يحبذ الفترة المسائية، وثالث يقرئ صباحا ومساءً مثلما كان يفعل "محمد صغير داود"[3].

ومن كل ما تقدم نستنتج أن أوقات الدراسة في مختلف المؤسسات التعليمية يتحكم فيها مايلي[4]:

أولها: مواقيت الصلاة الخمسة.

ثانيها : رغبة الشيخ المدرس في تحديد ميعاد إلقائه للدروس.

ثالثها : رغبة المؤسس في تحديد أوقات الدراسة.

أما عن أوقات الراحة والعطل، فيمكننا أن نعتمد على أنموذج، وهو المدرسة الطابعية، حيث تمدنا الوقفية الخاصة بها بصورة واضحة عن رزنامة العطل التي حددها مؤسسها الوزير "يوسف صاحب الطابع" وهي كالآتي:

– عطلة نهاية الأسبوع: يومي الخميس والجمعة. – كامل شهر رمضان .

– خمسة أيام الأولى من شهر شوال . – النصف الأول من شهر ذي الحجة.

ويؤكد المحبس في وقفيته ضرورة الالتزام بهذه الرزنامة، وأن لا يتخلف الطلبة عن مواعيد الدراسة في السنة إلا لعذر شرعي[5].

أما رزنامة العطل بجامع الزيتونة، فهي نفسها لا تختلف كثيرا عن المدارس، إلا في بعض الخصوصيات التي تميز جامع الزيتونة عن باقي المؤسسات التعليمية الاخرى، حيث لا يغلق الجامع أبوابه إلا في يوم الجمعة لأن هناك من يدرّس تطوعا يومي الأربعاء والخميس[6]. بالإضافة

---

[1]– خوجة، مصدر سابق، ص 128 .

[2]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 443 .

[3]– خوجة، مصدر سابق، ص 236 .

[4]– ديب، مرجع سابق، ص 77 .

[5]– المعموري، وثيقة عن تحابيس... ، مرجع سابق، ص 262 .

[6]– الحشايشي، العادات والتقاليد...، مرجع سابق، ص 89 .

إلى عطلة الصيف التي يقول عنها "الحشايشي" إنها تدوم من منتصف شهر جويلية إلى منتصف شهر سبتمبر، أي لمدة شهرين"[1]. وتخبرنا كتب السيّر والتراجم أن هناك من كان يغتنم راحة المصيف للاستزادة في العلم، فها هو "السنوسي" صاحب المسامرات يذكر أنه لم يجد وقتا للاستفادة من دروس شيخه "علي العفيف"[2] (ت 1292هـ/ 1875م)، لذلك كان يتردد على دروسه في استراحة المصيف والحضور لأختامه بالمدرسة[3].

4.2. الإجازات العلمية:

لم تكن تُجرى امتحانات لمنح الطالب شهادة يتخرج بها، فالطريقة التي تمنح بها شهادة للطالب أبسط بكثير من طرق عصرنا هذا[4]. فبعد أن يدرس الطالب على شيخه كتابا أو عدة كتب، يمنحه إجازة [5].

وجرت العادة أن لا تكون الإجازة إلا بعد القراءة على الشيخ المجُيز وملازمته أياما وشهورا، بل وأعواما في بعض الأحيان، ومناظرته في بعض المسائل. وقد يقرأ الطالب على الشيخ بعض مؤلفاته، أو بعض الكتب الأخرى كصحيح البخاري أو كتب السنة، أو بعض التفسير أو نحو ذلك[6]. فهذا "قاسم المؤخر الصفاقسي" قد لازم شيخه "إبراهيم الجمني" بالزاوية الجمنية خمس وعشرين سنة[7] .

ومما لاشك فيه أن للإجازة أهمية خاصة في تدريس علم الحديث، لأنها كانت من بين الوسائل المساعدة على حفظ السند أو سلسلة الرواة الذين يعد توثيقهم ركنا أساسيا في صحة

---

[1]– الحشايشي، العادات والتقاليد...، مرجع سابق، ص 89 .

[2]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: مخلوف، مصدر سابق،ج1، ص 395 .

[3]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص ص 278، 279 .

[4]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 89 .ص 54 .

[5]– هي إعطاء الإذن في أمر يتعلق بالعلم، كإذنٍ من شيخ لطالب أو لعالم آخر في رواية الحديث، ثم مع مرور الوقت توسعت لتشمل مختلف العلوم. وقد تكون الإجازة أيضا إذنٌ في تولي مصب ما كالفتوى والتدريس وغيرها. والإجازة التي تهمنا في موضوع دراستنا هي تلك الشهادة التي يسلمها المدرس للطالب بعد فراغه من دراسة كتاب أو عدة كتب أو علم معين، كي يستطيع بدوره أن يدرس ما أخذه عنه. وهي تمثل في وقتنا الحالي الشهادة التي تمنح للطالب من طرف المؤسسات التعليمية والمعاهد. أنظر: نفسه، ص 54، هامش 294 . أنظر أيضا: لزغم فوزية، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، وهران، ب.ت.ن، ص 7.

[6]– سعد الله، مرجع سابق، ج2، ص 40 .

[7]– خوجة، مصدر سابق، ص 134.

الحديث وتدريسه[1]. لكن مع مرور الوقت، لم تعد الإجازة قاصرة على علوم الحديث فحسب، ولكنها تجاوزتها إلى كافة العلوم النقلية منها والعقلية[2]. والمتصفح لكتب التراجم والسيّر والرحلات، يجدها لا تخلوا من ذكر إجازات علمية في شتى المعارف والتخصصات، وتعرف "بالإجازة العامة". فهذا "محمد الهدة السوسي" يُجيز "محمد المحجوب" في جميع ما سمعه ورواه من سائر العلوم: "...الشاب السعد والموفق الرشيد الشيخ سيدي محمد بن الشيخ الفاضل الكبير والعمدة العلامة الشهير سيدي قاسم الملقب بالمحجوب قدس الله روحه. قرأ علي نبذة من صحيح البخاري وطلب مني أن أُجيزه بما فيه سائر مروياتي...أجزت الفاضل المذكور بما تجوز لي أخذه ودرايته من كل معقول ومنقول وفروع وأصول مقروء ومسموع ومفرد ومجموع ومنطوق ومفهوم ومنثور ومنظوم إجازة موصوفة بالإطلاق على الوجه المعروف عند علماء الآفاق"[3]. كما أجاز "محمد الغرياني" تلميذه "عمر المحجوب" (ت 1222هـ/1807م) جميع ما سمعه ورواه من سائر العلوم، وهذا بعض ما جاء بإجازته: "قد أجزت ولدنا الفقيه النبيه الحسيب النسيب الحائز من الفضل والعلم أوفر نصيب المشارك في سائر العلوم الراضع من لبانها المنطوق والمفهوم...المتفنن في العلوم العقلية والنقلية إجازة عامة مطلقة إقراء وقراءة وإجازة لغيره بشرطه المعتبر..."[4].

وتوجد أيضا "الإجازة الخاصة"، حيث يُجيز الشيخ طالبه في كتاب أو في علم معين درسه عليه. ونذكر نحو ذلك الإجازة التي منحها "أحمد برنار" "لأبي العباس أحمد عزوز" في صحيح البخاري. ويذكر في هذا الشأن: "وأخذ عني صحيح الإمام البخاري وأجزته به إجازة حسنة، فكتبتها له بخطي"[5]. ويخبرنا أيضا صاحب المسامرات أن شيخه "محمد الشريف" أجازه لرواية صحيح البخاري[6]. كما أجاز "إبراهيم الرياحي" طالبه "بيرم الرابع" في كتابه دلائل الخيرات سنة 1243هـ/ 1828م [7].

---

[1]– يذكر لنا "السنوسي" في كتابه "المسامرات" أن محمد الشريف تحصل على العديد من الإجازات في الحديث، منها تلك التي على سنده في صحيح البخاري، وأيضا على سنده المحمدي. أنظر: مصدر سابق، ج1، ص 365 .

[2]– ديب، مرجع سابق،ص 109 .

[3]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 103 .

[4]– السنوسي، مصدر سابق، ج3، ص ص 84، 85 .

[5]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 54، هامش 298 .

[6]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 365 .

[7]– الرياحي، مصدر سابق، ص 108 .

وما تجدر الإشارة إليه أنه ليس من الضروري أن تكون الإجازة دائما نثرية، بل تكون أيضا شعرا. ومن ذلك الإجازة الشعرية التالية التي منحها "بيرم الأول" لتلميذه "محمد المحجوب"[1]:

أجزت أبا عبد الإله محمدا *** بمحجوب يدعى فخر مذهب مالك

كما قد أَجاز الشيخ لي وهو الذي *** أجاز له العلامة ابن مبارك

وما كنت أهلا أن أُجيز وإنما *** لمرغوب من أحببت لست بتارك

يطلق على الإجازات التي يتحصل عليها الطالب خلال مرحلته التعلمية، بالإجازات التعليمية. ولا يمكنه تحصيلها إلا بعد القراءة على شيخه أو السماع منه. وبالتالي فهي تنقسم إلى:

– إجازة بالقراءة:

وتسمى أيضا "الإجازة بالإقراء" وتكون بكتابة الشيخ المدرس في صدر أو ذيل الكتاب المقروء، ما يبين أن الطالب أتم عليه قراءة الكتاب أو الكتب المعينة[2].

– الإجازة بالسماع:

وهي وثيقة مكتوبة في مقدمة أو آخر الكتاب المقْرُوء، والمتواجد في مكتبة المسجد أو المدرسة أسماء الطلبة الذين سمعوه على الشيخ المدرس، ثم يُحفظ الكتاب بعد ذلك في المكتبة، وفي كل مرة يسمع فيها الكتاب طلبة يثبتون أسمائهم[3] .

– الإجازة بالقرآن الكريم:

تتميز الإجازة بالقرآن الكريم أو القراءات القرآنية عن غيرها من الإجازات، بما يسبقها من امتحان طويل الأمد صعب التحضير لينال الطالب بعد ذلك إجازة أستاذه المجيز[4]. نذكر نحو ذلك إجازة "إبراهيم الجمل" لطالبه "محمد الخضراوي" في القراءات السبع والعشر[5].

وتتكون الإجازة من عناصر أساسية[6] هي:

1. مطلع الإجازة: ويشمل البسملة والحمدلة، والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم .

---

[1]– محمد النيفر، مصدر سابق ، ج1، ص ص 619، 620 .

[2]– لزغم، مرجع سابق، ص 34 .

[3]– نفسه، ص 38 .

[4]– نفسه، ص 40 .

[5]– خوجة، مصدر سابق، ص 234 .

[6]– لزغم، مرجع سابق،ص 366 .

2. الإشادة بفضل العلم، وبالأخص العلم الذي تمنح فيه الإجازة .
3. ذكر طبيعة العلاقة بالمجاز له، ومكانته العلمية .
4. تواضع الشيخ المجيز قائلا بأنه ليس أهلا لمنح الإجازة.
5. الإقرار بالإجازة: ويتضمن التصريح بها وقد يُسبق أو يُتبع بسند مرويات المجيز وشيوخه أو مؤلفاته.
6. إسدال نصائح وتوصيات للمجاز له، كأن يوصيه بحسن معاملة طلبته، والإخلاص في تبليغ العلم .
7. ختم الإجازة: يُفتتح عادة بعبارة "قاله وكتبه فلان"،"هذا خط فلان" أو ماشابهه، ليكتب المجيز غالبا اسمه وتاريخ الإجازة، ويعقب ذلك بالصلاة والسلام[1] .

وعلى كل، فإنه نظرا لأهمية الإجازة في الحياة العلمية وحتى العملية للطالب، فقد واظبوا بالجملة على استجازة العلماء المشاهير والشيوخ الكبار، ليثبتوا للجميع أنهم أصبحوا على مستوى علمي هام وحتى يحصلوا مستقبلا على مناصب عالية في سلك المدرسين ومهن أخرى، إذ يُعتبر أن دراسة الطالب للكتاب من غير سماع على الشيخ هو خطأ كبير[2]. مع العلم أن الطلبة وحتى العلماء لم يقتصروا على نيل الإجازة من شيخ واحد أو أخذ الإجازات من شيوخهم فقط، بل يسعون إلى التحصيل على الإجازات كلما أتيحت لهم فرصة اللقاء بعلماء اشتهروا بعلمهم وصلاحهم. ومن المناسبات التي يقع فيها أخذ الإجازات وتسليمها، موسم الحج أو مرور مغاربة على تونس أو وفود علماء المشرق إليها[3]. ومن ذلك علماء الجزائر الذين كانوا يحلّون كثيرا بتونس، منهم "ابن العنابي"[4] (ت1267هـ/ 1775م) الذي أجاز الكثير من طلبة وعلماء

[1]– يمكن الاطلاع على نص الإجازة المرفق في الملحق رقم 10، ص348 . كأنموذج يحتوي على عناصر الإجازة المذكورة أعلاه .

[2]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 54 .

[3]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 103 .

[4]– "ابن العنابي": هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري، يُكنى "بالعنَّابي" أو "ابن العَنَّابي" حنفي المذهب، ولد سنة 1189هـ/ 1775م من أسرة عريقة في العلم والوجاهة، فقد كان والده "محمود" من علماء الحنفية وأعيان البلد، أما جدّه "محمد" فكان قاضي الحنفية. وهذا ما سمح لابن العنابي أن يكون عالما واسع المعرفة، فقد أخذ العلم على والده وجده. كما درس على العديد من شيوخ وعلماء الجزائر، أمثال: "ابن عبد القادر بن الأمين" مفتي المالكية، والشيخ "محمد المقايسي الجزائري" و"محمد الجكيكن" وغيرهم، فأصبح عالما متضلعا في العلوم الشرعية. تولى العديد من الوظائف منها وظيفة القضاء الحنفي، ووظيفة الكتابة إلى باي تونس "حمودة باشا". كما تولى وظيفة نقيب أشراف مكة والمدينة في عهد الداي "عمر باشا" (1230- 1232هـ/ 1814-1816م). كان رجلا دبلوماسيا ناجحا، من خلال سفاراته التي أداها إلى المغرب الأقصى والأستانة. حج بيت الله الحرام سنة 1236هـ/1821م وأثناء عودته استقر بالقاهرة ودرّس بالجامع الأزهر قرابة تسع سنوات، وفي سنة 1244هـ/1829م طلب منه "الداي حسين" (1233- 1246هـ/ 1818-1830م) العودة إلى الجزائر، وأثناء عودته حلّ بتونس أواخر

تونس منهم، "محمد بيرم الرابع"[1] الذي كانت بينهما العديد من الإجازات[2]. كما استجازه عم "محمد بيرم الرابع"، "مصطفى بيرم" بقصيدة تضمنت أربعة عشر بيتا، منها هذه الأبيات[3]:

فكم طابت الخضراء نشرا وبهجة *** وكل إناء بالذي فيه راشح
ولست الذي يراد بالمدح قدره *** فقدرك معلوم ومجدك واضح
وأطلب من علياك نيل إجازة *** بفضلك لا أني لذلك صالح

ومن الذين حلوا على إيالة تونس من المغرب الأقصى"محمد بن عبد السلام الناصري"(ت 1239هـ/ 1823م) الذي أجاز وأُجيز أثناء تواجده بتونس، حيث يذكر لنا في رحلته وهو مقيم بقابس أنه أجاز كل "مَحمد بن ناصر الدرعي" و"أبي العباس أحمد" بطلب منها. ومما ورد في إجازته: "إني قد أجزت الشيخين المذكورين، فيما صح لي روايته بشرطه المعتبر عند أهله، داعيا لهما بما دعا به لي مشايخي، نفع الله بهم العباد، في سائر البلاد"[4]. والظاهر من هذه الإجازة، أنه يمكن للمُجيز أن يجيز أكثر من مُجاز واحد في نفس الإجازة. ومن ذلك إجازة الشيخ "عبد الله السوسي" للأخوين الشقيقين "أبو بكر" و"عمرو" ابنا "أحمد بن تامر أقنونو"، ونصها: "قد أجزت الشيخين المذكورين في جميع مروياتي ومقروآتي ومسموعاتي، لما أنهما أهل لذلك، سلك الله بنا وبهم أحسن المسالك، وقد لزماني مدة مديدة في الفقه وغيره، مما أتعاطاه من تربية وغيرها..."[5].

إذن لعبت الإجازة دورا هاما في حياة العالم والطالبة على حد سواء، فمستقبل هذا الأخير مرهون بحجم الإجازات والعلوم التي أُجيز فيه، والأهم من ذلك مدى شهرة الشيوخ

سنة 1244هـ/ 1829م. عاد إلى مصر ثانية بعد نفيه من طرف الاحتلال الفرنسي. استقر بالإسكندرية، وقضى بقية حياته مفتيا حنفيا إلى وفاته سنة 1267هـ/ 1775م. لتفاصيل أكثر حول هذه الشخصية. أنظر: أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنّابي صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م .

[1]– الإجازة بتاريخ 1232هـ/ 1817م. أنظر نصها كاملا بالعودة إلى: نفسه، ص ص 117– 119 .

[2]– سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 245 . وأيضا: نفسه، ج2، ص 46 .

[3]– لزغم، مرجع سابق، ص 251 .

[4]– الرحلة الناصرية الكبرى، دراسة وتحقيق المهدي الغالي، جار ابي رقراق للطباعة والنشر، المملكة المغربية، ط1، 2013م،ج1، ص ص 295، 296 .

[5]– نفسه، ص ص 295، 296 .

المجيزين. كما أن الإجازات العلمية تزيد متانة الروابط والعلاقات بين علماء القطر الواحد، وبقية الأقطار الأخرى .

ومن كل ما تقدم ذكره في هذا الفصل نستطيع الوصول إلى جملة من الاستنتاجات أهمها:

وجدنا أن الكتاتيب بالرغم من بساطتها وضيقِ مساحتِها – في الغالب– إلاّ أنّ لها دورًا مهمًّا في محو الأميّة وربط المتعلمين بكتاب الله، وتنوير عقولهم وصقل ألسنتهم منذ الصغر. فهي مؤسسة تعليمية تنتمي إلى منظومة التعليم الديني والشرعي أو التعليم التقليدي والعتيق، هذه المؤسسة التي ظلت لفترات زمنية طويلة الحلقة الأساسية والأولى التي ينهل منها الطالب المعارف الدينية والعلوم.

اعتمدت مناهج المرحلة التعليمية الأولى بنسبة كبيرة على الحفظ أكثر من الشرح، لأن المتعلم في هذه المرحلة تكون له قدرة كبيرة على تخزين أكبر قدر ممكن من المعلومات، وليس بإمكانه إدراك أبعاد وشروح القرآن والمتون. لكن في المقابل وجدنا أن هناك من علماء التربية من انتقدوا هذه الطريقة ووجدوا أنها طريقة لا تعود بالفائدة الكبيرة على المتعلم، حيث لم تترك له مجالا للمحاورة والمناظرة، كما أنها تهمل ملكات الطفل الأخرى. بالإضافة إلى أن الجلوس والسكون الطويلين لهما اثر عميق في نمو أجسامهم.

لم نجد اختلافا في المناهج التعليمية عبر مختلف المؤسسات التعليمية، واعتمادها بنسبة كبيرة على التلاخيص والمختصرات والحواشي والشروح.

نالت العلوم الشرعية، وعلوم اللغة والأدب حصة الأسد من الدراسة، إذا ما قورنت بغيرها من الدراسات كالطب والمنطق والحساب. وهذا راجع على ما يبدو إلى اهتمام الدول الإسلامية مغربها ومشرقها بالعلوم الدينية كالقرآن والحديث والفقه والتفسير واللغة لفهم الدين وتطبيق شرائعه.

كان اهتمام المدرسين والطلبة على حد سواء مقتصرا على بعض العلوم دون أخرى، فعلوم القرآن والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام والنحو، وجدت انتشارا لم تجده فنون أخرى كالفلسفة والمنطق والجدل والتاريخ والفرائض و... أما العلوم العقلية فلم تلقَ من المدرسين والطلبة إلا اهتماما محدودا جدا. وكما اشرنا إليه، فهنالك لكل علم من العلوم المدرسة مؤلفات خاصة به.

كما نستنتج أيضا انه غلب على مواد التدريس التلاخيص والشروح، وهذا ما أدى إلى إهمال الأمهات والأصول.

كان من الطبيعي أن تفرض بعض المصنفات والتآليف وجودها في الساحة العليمة، فنذكر على سبيل المثال كتاب "شرح التسهيل" لصاحبه "علي باشا". فقد كان هذا المؤلف يردد شرحا وحفظا مرارا وتكرارا من طرف الطلبة – تحت إشراف أساتذتهم– إلى حد الإرهاق[1]. وسبب هذا راجع في اعتقادنا إلى شخصية مؤلفه الذي يعتبر أمير البلاد. فمن البديهي جدا أن ينال من الاهتمام ما لم ينله مؤلف آخر.

وجدنا تميّز بعض المدرسين عن غيرهم بطرق تعليمية ومنهج تعليمي لم يسلكه احد من قبلهم، فكان دور الأستاذ ينحصر في الإرشاد والتوضيح والتدقيق والتصحيح ونبذ التلقين والحث على مواصلة البحث والنقاش والمناظرة. ومن هؤلاء نذكر "إبراهيم الرياحي" و"محمود مقديش".

وجدنا أن طريقة التعليم في المدارس وفي الجامع الأعظم متماثلة تقريباً. لكن من المحتمل أن تكون قد وجدت بعض الفوارق الجزئية التي جعلت لكل منها هيكله الخاص. وهذه الفوارق لا تتمثل في محتوى الدروس، فقد كانت واحدة سواء في المدارس أو في الجوامع وحتى في الزوايا، وإنما تتمثل أساساً في الطريقة التي يلقي بها الأستاذ درسه، وخاصة في المستوى العلمي لهذا الشيخ.

لم يكن للتعليم في العهد الحسيني الأول هيئة أو نظارة تتابع البرامج التعليمية والمقررات، بل بقيت تحت تصرف المدرس أو صاحب المدرسة أو الزاوية، حيث يختار من الكتب تلك التي يرغبها، أو حتى التي تكون تحت رغبة الطالب.

كما لم يكن هناك ضبط لأوقات التدريس، فقد تمتع المدرس بحرية التصرف في الوقت، مما يؤدي لا محال الى غياب الانضباط .

نستنتج أن الإجازة رخصة، يمنحها الشيوخ لطلبتهم، ولا علاقة لها بأي مؤسسة تعليمية، كما هي في منظومتنا التربوية في وقتنا المعاصر، مما يؤدي إلى اقتران الإجازة باسم الشيخ المجيز دون ذكر المؤسسة التعليمية.

[1]– عبد السلام، مرجع سابق، ص 263 .

الفصل الثالث:

فئة المدرسين والطلبة

1. فئة المدرسين

1.1.المؤدبون

2.1.الشيوخ المدرسون

1.2.1.طريقة الانتصاب للتدريس

2.2.1.الحالة المادية للمدرسين

3.2.1.مسكن– إقامة – المدرسين

4.2.1.علاقة المدرسين العلماء بالسلطة

5.2.1. أشهر المدرسين

2. فئة الطلبة

1.2.الطلبة في المدارس

2.2.رحلة الطلبة للعلم

3.2.علاقة الطالب بشيخه

4.2. تشجيع الحكام لطلبة العلم

إن الاضطلاع بالمؤسسات التعليمية والاهتمام بها، يعتبر من الخطوات الأولى والرئيسية للنهوض بالحياة الثقافية بصفة عامة والعلمية بصفة خاصة. حيث توصلنا من خلال دراستنا، أن هناك محاولات ومجهودات لا يُستهان بها للتشجيع والنهوض بالحياة العلمية، وتقديم تعليم على الأقل يكون في المستوى المقبول. فوجدنا أن السلطة الحاكمة وإلى جانبها المساهمات الفردية كلها ساهمت وعملت جاهدة على تحقيق الهدف المنشود، من خلال بناء مؤسسات تعليمية، سواء على مستوى المدن أو الأرياف. لكن هذه المجهودات لا تفي بالغرض المنشود، لذلك لا بد من الاهتمام بوسائل التعليم التي تعد هي الأخرى من الضروريات للنهوض بالتعليم، والمتمثلة في الاهتمام بفئتي المدرسين والطلبة. لما لهاتين الفئتين من علاقة مباشرة مع العملية التعلمية.

ومن هنا نطرح الإشكالية التالية: هل حظي المدرسون والطلبة بالاهتمام اللازم، خاصة من طرف السلطة الحاكمة؟ كيف كانت أوضاعهما في ظل حكم الأسرة الحسينية؟ وما طبيعة العلاقة التي كانت تجمع الفئتين؟

1. فئة المدرسين:

يمكن تصنيف رجال التعليم إلى صنفين: صنف المؤدبين الذين اختصت به الكتاتيب، وصنف الشيوخ الذين اختصت بهم مؤسسات ما بعد الكتاتيب.

1.1. المؤدبون[1] :

لم تكن هناك مقاييس محددة يخضع لها من يريد احتراف مهنة تعليم الصبيان بالكتاتيب، فقد كان يكفي أن يتميز بالثقة ويكون خيّرا، حتى يطمئن له أهل الحيّ أو القرية. وبالتالي يرسلون إليه أبناءهم[2]، أي التركيز هنا على الجانب الأخلاقي والسمعة الطيبة[3]. ويُشترط أيضا في المؤدب حفظ القرآن ومعرفة الروايات والرسم[4]، لأنه سيخوض أهم مرحلة تعليمية في حياة المتعلم[5].

وبما أن مؤدب الصبيان يتم اختياره من طرف سكان المنطقة، فهم مكلفون بمراقبته وتحديدا مراقبة سلوكه، حيث كانت شهادة أهل الحي من بين الشروط التي يجب الاعتماد عليها

---

[1]– كلمة مؤدب هي اسم فاعل من أدَّبَ، يُقال أدبه أي هذبه وراض أخلاقه. أنظر: الميزوري، مرجع سابق، ص 163 .

[2]– الزيدي، مرجع سابق، ص 33 .

[3]– وهذا ما يؤكده تقرير عامل صفاقس "محمد الرشيد" وقاضيها الشيخ "محمد العذار" المؤرخ في أواخر صفر 1292هـ/ أوائل أفريل 1875م حول أوضاع تعليم الكتاتيب بصفاقس وعمالتها. حيث نجد ذكر ملاحظات أمام أسماء المؤدبين مثل: "رجل خيّر"، "رجل خيّر ثقة". أنظر: أ. و .ت، س.ت، صد 63، م 742، "أوامر علية ومراسلات متعلقة بتعليم القرآن بالحاضرة وبقية بلدان المملكة"، وث 30 .

[4]– نفسه، صد 63، م 736، وث 01 .

[5]– المعموري، جامع الزيتونة ...، مرجع سابق، ص 17 .

لاختيار المؤدب[1]. وهذا ما تؤكده لنا وثيقة أرشيفية، جاء فيها: "تثبت أهلية المؤدب ببلدان المملكة بشهادة شيخ القراءات بالبلد...وشهادة أهل الحومة التي بها المكتب بالعفة إن كان بلديا"[2]. ومن هنا نستشف أن للآباء الحق في إعفاء المؤدب من وظيفته واختيار غيره إذا اقتضى الحال. كما أن بعض الآباء كانوا ينقلون أطفالهم من كتاب لآخر إذا شعروا بأن مؤدب الكتّاب الأول لا يؤدي وظيفته كما ينبغي[3]. وهذا ما يحيلنا إلى التفكير في أن هناك من المؤدبين من لا يملك مستوى علمي يؤهله لتعليم الصبيان. ولقطع الشك باليقين عثرنا على مجموعة من التقارير صادرة من عمال مختلف المناطق من إيالة تونس إلى الوزارة الكبرى، تحوي معلومات قيّمة حول أوضاع التعليم بالكتاتيب. وكعينة اخترنا التقرير الذي أعده عامل منطقة ماطر "محمود عزيز" وقاضيها الشيخ "بلقاسم بن الحاج البشير الشايب"، المؤرخ في أواخر ربيع الأول 1292هـ/ أفريل 1875م. يؤكد التقرير على المستوى المتدني للمؤدبين بالمنطقة، وأن قبول الأهالي بهؤلاء يعود إلى عدم وجود من هم أحسن منهم. وهذا أهم ما جاء فيه:"ليس ببلدنا من المؤدبين المذكورين من هو متوفر فيه شرائط التعليم على الوجه الأتم، بل إنهم يكتفي بهم في الجملة عند فقد غيرهم"[4].

والظاهر من خلال المعلومات المتوفرة أن لا فرق بين مؤدب الريف ومؤدب المدينة فهما يتشابهان إلى حد كبير، فأهل الريف يختارون مؤدب أطفالهم بطريقة مشابهة مع أهل المدينة، غير أن حاجتهم إلى المؤدب في شؤون أخرى غير تحفيظ القرآن أكثر من حاجة أهل المدينة، فهو إمام القرية ومفتيها ومرشدها، وكاتب العقود والرسائل فيها، وراقي المرضى، كما يلجئون إليه في الفتن والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية. وهو يختلف عن مؤدب المدينة في كون صلته بسكان المنطقة أشد وأقوى لأن معيشته تتوقف على رضاهم ولأن سلوكه معروف لدى الجميع[5].

---

[1]– الماجري، مرجع سابق، ص 158 .

[2]– أ. و. ت، س.ت، صد 63، م 736،"مراسلات وقائمات بأسماء القادرين على التدريس بمختلف المناطق من البلاد التونسية"، وث 1 .

[3]– سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص 326 .

[4]– أ. و . ت، س.ت، صد 63، م 742، " أوامر علّية ومراسلات متعلقة بتعليم القرآن بالحاضرة وبقية بلدان المملكة".

[5]– سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 86 .ج1، ص 325 . أنظر أيضا: الكعاك، مرجع سابق، ص 94 .

والجدير بالذكر أن مهنة المؤدبين لم تكن ممارسة بصفة عشوائية، بل اعتبرت حرفة مثلها مثل باقي الحرف يشرف عليها "أمين" يدعى "أمين المؤدبين"[1].

وتذكر الأستاذة "الماجري" في دراستها أن وجود خطة أمين المؤدبين بتونس الحاضرة يعود إلى القرن 11هـ/ 17م وهو ما تؤكده نسخة من رسم أحباس المؤدبين بتاريخ 1087هـ/ 1676م، حيث تذكر المحبسة "الحرة خديجة" أن ما حبسته يعود بعد انقراض النسل الذي عينته إلى جماعة المؤدبين، وأوكلت مهمة قسم الحبس بينهم إلى أمين المؤدبين. وتواصلت هذه الخطة إلى غاية القرن 14هـ/ 20م[2]. لكن في المقابل نجد الأستاذ "الزيدي" الذي أعد دراسة حول التعليم بصفاقس، يؤكد أنه لم يكن يوجد أمينا للمؤدبين بالمنطقة حتى سنة 1292هـ/ 1875م[3]. وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل: هل أمين المؤدبين اقتصر وجوده على تونس الحاضرة، أم كان موجودا في بعض المناطق من الإيالة دون غيرها؟ وللإجابة على هذا التساؤل، عثرنا على وثيقة تضّم أمرا علّيا أصدره "محمد الصادق باي" بتاريخ 26 ذي الحجة 1292هـ/23 جانفي 1875م[4]، في شأن تنظيم الكتاتيب والمؤدبين، تضمن العديد من المعلومات التي تخص المؤدبين، وبطبيعة الحال ذكر فيها أمين المؤدبين، وورد في الأمر العلّي عبارة "... فإن لم يوجد في البلد شيخ القراءات أو أمين المؤدبين فلا بد من شهادة الشيخ القاضي"[5]. إذن هذه العبارة الواردة في الوثيقة تجيبنا عن السؤال المطروح، ونقول أن أمين المؤدبين لم يتواجد في جميع مناطق الإيالة، بل هناك مناطق تفتقده .

2.1. الشيوخ المدرسون[6]:

انطلاقا من الوثائق المتوفرة لدينا، وجدنا أنها تُجمع على تسمية مدرس المرحلة الثانية من التعليم"بالشيخ المدرس"، ومن ذلك عقود الحبوس والوقفيات التي نشرها الأستاذ "السعداوي" والمتعلقة بالباي "حسين بن علي" و"علي باشا". ويمكننا أن نستدل بالبعض منها: "...في راتب

---

[1]– هو من يراقب المؤدبين في تصرفاتهم وأعمالهم ، وتتمثل مهامهم في: النظر في أحباس وأوقاف المؤدبين ، والاعتناء بالكتاتيب والحرص على سلامتها، وأيضا تلقي الشكاوى المتعلقة بالكتاتيب.

أنظر: الماجري، مرجع سابق، ص ص 156، 157 . أنظر أيضا: Arnoulet,Op.Cit. , p. 32 .

[2]– الماجري، مرجع سابق، ص 156 .

[3]– الزيدي، مرجع سابق، ص 33 .

[4]– سيتم التطرق إلى هذا الأمر في دراستنا لاحقا .

[5]– أ. و. ت، س.ت ، صد 63، م 736، " مراسلات وقائمات بأسماء القادرين على التدريس بمختلف المناطق من البلاد التونسية"، وث1 .

[6]– تطلق كلمة شيخ على الرجل المسن وعلى رجل القضاء وعلى الرجل الورع أو المتصوف، وعلى من كان يشغل منصب المشيخة. وتطلق كذلك على رجل العلم. أنظر: جمال بن طاهر وآخرون، المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، تنسيق الهادي التيمومي، بيت الحكمة، تونس، 1999م، ص 143 .

الشيخ المدرس بالمدرسة"، "ولشيخ المدرسة بشرط كونه مالكيا"، "مدرس يقرئ فقه مذهب الإمام الأعظم"[1]. لذلك ارتأينا أن نوظف هذا المصطلح في دراستنا.

1.2.1.طريقة الانتصاب للتدريس:

من شروط الالتحاق بمهنة التدريس، ضرورة الحصول على التعليم الزيتوني العالي، أو التعليم الذي يكون قد تلقاه الطالب في مدرسة أو زاوية معروفة بمستواها التعليمي العالي. وعلى الطالب الراغب في الانخراط بسلك التعليم أن يطلب إجازات[2] من مدرسيه تخوله ذلك وتكون في شكل إذنٍ يُؤهله للتدريس، ومن ذلك الإذن – الإجازة– الذي منحه "محمد النيفر" "لمحمد السنوسي" للتدريس بجامع الزيتونة [3]:

أجزت له الإقراء عونا على البّر *** وأوصيه بالإخلاص والجد في الأمر

ولا يهملني من جميل دعائه *** واضرع للوهّاب في الفتح والسرّ

كما أجازه "محمد القبايلي"[4] قائلا[5]:

أجزتك أهلا للذي أنت سائله *** ولست بأهل للذي أنا باذله

كفتك إجازات الفحول فإنها *** تنيلك تقديما وما أنت آمله

وأوصيك بالتقوى وإخلاص نية *** فمن دان بالإخلاص تعل منازله

كما أَذِن "إسماعيل التميمي" "لمحمد بن الخوجة" إقراء العلوم التي أجازه فيها، 1234هـ/ 1819م "...أذنته في إقراء ما توجهت إليه همته في ذلك لما نعلم من تأهله لذلك ...والله يعين على إيصال الخير إلى أهله، وأوصي نفسي وإياه بتقوى الله..."[6] .

ومما تقدم ذكره، يتضح لنا أن انخراط المدرسين في التعليم يعود إلى صلة الطالب بمُدرسه، فكلما أثبت الطالب أنه كفؤا وأهلا لذلك، سيتمكن من الحصول على رِضا أستاذه ومنحه الإذن

---

[1]– السعداوي، مرجع سابق، ص ص 193، 215، 245 . وفي مواضع أخرى متفرقة .

[2]– تم التطرق إليها سابقا، أنظر: الباب الأول، الفصل الثاني، ص 138.

[3]– محمد النيفر، مصدر سابق، ج2، ص 842 .

[4]– "محمد القبايلي": هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يحيى البِجائي المزي الشريف، جاء جده من منطقة القبائل واستقر بتونس. تتلمذ "محمد" على يد أكبر وأشهر شيوخ الحاضرة، وبعد إتمام تعليمية اشتغل مدرسا في الطبقة الأولى بجامع الزيتونة وكان في نفس الوقت يمتهن حرفة التجارة.تولى قضاء باردو في 11 صفر 1263هـ/ 28 جانفي 1847م، ثم عينه المشير "أحمد باي" مفتيا مالكيا بالحاضرة في 25 رجب 1267هـ/ 25 ماي 1851م. وافته المنية بعد أن بُترت يده وكان ذلك في شهر ذي القعدة من عام 1271هـ/ أوت 1855م . أنظر: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج8، ص ص 97 ، 98 . أنظر أيضا: السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص ص 259– 264 .

[5]– محمد النيفر، مصدر سابق، ج2، ص 842 .

[6]– الإجازة بتاريخ 11 رجب 1234هـ/ 5 ماي 1819م. أنظر: نصها كاملا بالعودة إلى: محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 103.

الذي يسمح له ولوج غمار التدريس. وهذا كله بعيدا عن تدخل الدولة أي هناك نوع من الاستقلالية في تعيين المدرسين، ونخص بالذكر هنا المدرسين بجامع الزيتونة .

أما عن انتصاب المدرس للتعليم في المدارس، فيكون اختياره وتعيينه كشيخ على مدرسة ما مرتبط ارتباطا وثيقا بمؤسِس المدرسة، وبعد وفاة المؤسس يُعيَّن المدرس من طرف أهم عناصر نظام الحكم ويكون ذلك في بعض الأحيان بأمر من الباي نفسه الذي يختار أحد الشيوخ المشهورين بالعلم وأكفأ المدرسين اعترافا بمستواهم وقدراتهم العلمية. فكان اختيار العديد منهم من بين القضاة والمفتيين وأئمة الجوامع الكبرى، نظرا لأنهم كانوا من أجلّ علماء عصرهم. أما بالنسبة إلى المدارس التي أسسها بعض الخواص، فيبدو أن النظام الحاكم لم يتدخل لتعيين مدرسين بها، خصوصا إذا كانت المدرسة تحت تصرف ذرية المؤسس وفي بعض الأحيان يكون شيخ المدرسة من بين أحفاد المؤسس نفسه مثلما كان الحال بالنسبة إلى مدرسة الزاوية الباهية[1]، والزاوية النورية بجربة، والزاوية الجمنية بصفاقس[2].

ويمكننا الاستدلال ببعض الأمثلة عن مدرسين علماء متضلعين درّسوا بأشهر المدارس مثل: المفتي "محمد جعيط"[3] (لم نقف على تاريخ وفاته) الذي عيّنه الباي "حسين بن علي" كأول مدرس بالمدرسة الحسينية الصغرى وكان ذلك سنة 1120هـ/ 1708م[4]. كما نجد أيضا العالم الفقيه "محمد الخضراوي" الذي كان من علماء الحاضرة والذي اختاره نفس الباي ليكون مدرسا بمدرسة النخلة، وهنأه بهذا المنصب الأديب "عبد الرحمان الجامعي الفاسي" بقصيدة[5]، جاء فيها:

يَهنّيك أيها الفقيه المرتَضَى *** منزلة جلت عن المساوي

مدرسة قد حُزتها فجاء في *** تاريخها: فاز بها الخضراوي

---

[1]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 120 ، 121 . أنظر أيضا: ابن الخوجة ، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 313 .

[2]– خوجة، مصدر سابق، ص49.

[3]– "محمد جعيط": هو أبو عبد الله الشيخ محمد جعيط التونسي، قرأ النحو والفقه والأصول والبيان والمنطق على الشيخ سعيد بن سعيد الطرابلسي الشريف، وقرأ علوم القرآن على شيخ إبراهيم الجمل، كما أخذ عن "محمد وعلي الغماديين" و"محمد قويسم" وغيرهم. برع في علم التجويد والقراءات والفقه والنحو والمنطق والبيان والحديث. تولى التدريس في أماكن عديدة، منها تعيينه كأول مدرس من طرف الباي"حسين بن علي" بالمدرسة الحسينية الصغرى. أنظر: خوجة ، مصدر سابق، ص 246. وأيضا: السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص ص 168، 169 . وكذلك: مخلوف، مصدر سابق،ج1، ص ص326،327 . للإشارة نذكر أن المصادر لم تقف على تاريخ ميلاد ووفاة "محمد جعيط".

[4]– نفسه، ص 159 . وأيضا: السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 169 .

[5]– خوجة، مصدر سابق، ص 160 .

كما نجد أوّل مدرّس بالعاشورية الفقيه "أبو محمد عبد الله السوسي"[1](ت1169هـ/1755م) الذي جاء من مدينة القيروان، وعند التقائه "بعلي باشا" أُعجب به كثيرا فعينه مدرسا بها، إلى غاية سنة 1177هـ/ 1763م[2] أي حتى فترة حكم "علي باي الثاني". وأخذ عنه في المدرسة كل من "مقديش الصفاقسي"صاحب نزهة الأنظار" والرحالة الجزائري "الحسين الورثيلاني"[3]، وغيرهما كثير. وعلى يدي هذه الطبقة من العلماء ازدهرت الحركة العلمية، فأصبحت المدارس والجوامع وبالأخص جامع الزيتونة قبلة للمتعلمين في العالم الإسلامي بفضل جهود أولئك العلماء[4].

لكن هذا لم يمنع في بعض الحالات من تعيين بعض المدرسين تشريفا أكثر منه اعترافا بعلمهم وقدراتهم. فنذكر على سبيل المثال لا الحصر، شخصيات عيُّنت بالمدارس مكافأة على الخدمات التي قدموها للباي، أو بسبب انتمائهم إلى حاشية وزير معين. فهذا "الشيخ الدرناوي" الذي عُذب أيام حكم "علي باشا" عيّنه "الباي محمد الرشيد"(1169- 1172هـ/ 1170- 1173م) وأخوه "علي باي الثاني" (1172- 1196هـ/1759- 1782م) في منصب مفتي الحنفية، ومدرسا بالمدرسة اليوسفية ثم بالمدرسة الشمّاعية، اعترافا له بالجميل[5].

ولا يفوتنا التنبيه إلى نقطة مهمة، والمتمثلة في الصلاحية التي يملكها مؤسس المدرسة بمدرسته، فإذا كان هو الذي يعيّن المدرّس بمدرسته، فإنه بإمكانه أن يعزله متى شاء. ويمكننا أن نستدل بالباي "علي باشا" (1153-1169هـ/ 1740- 1756م) الذي عزل المدرس "محمد المحجوب الحنفي" (ت 1198هـ/ 1783م) من منصبه في المدرسة الباشية، وعوضه بوالد المؤرخ "أحمد ابن أبي الضياف"[6].

---

[1]- "أبو محمد عبد الله السوسي": هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن سعيد بن أحمد الكتّاني السوسي، أصله من بلاد سوس بالمغرب، قدم إلى تونس وأخذ عن الشيخ الصفار وغيره، رحل إلى المشرق ودرس بالأزهر، وفي طريق عودته إستقر بالزاوية الجمنية بجربة وأخذ عن الشيخ سيدي إبراهيم الجمني. ثم انتقل إلى القيروان حيث درّس بزاوية "صاحب المناقب الظاهرة والإشارات الباهرة" للولي سيدي سعيد الوحيشي.ثم مدرسا بالمدرسة العاشورية. أنظر: خوجة، مصدر سابق، ص 119. وأيضا: العياضي، مصدر سابق، ص ص 173- 177. وكذلك: مخلوف، مصدر سابق،ج1، ص345 .

[2]- الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3، ص 35 .

[3]- مخلوف، مصدر سابق،ج2، ص345 .

[4]- الغزي، مرجع سابق، ص 23 .

[5]- ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 88 .

[6]- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 16 .

وإذا كانت وظيفة شيخ المدرسة في بعض الأحيان تتم عن طريق الاختيار والتّعيين، فإنها أحيانا أخرى بالنّسبة للمدارس الشهيرة والكبيرة تتم عن طريق المناظرة بين عالمين من مشاهير رجال العصر[1]، كتلك المناظرة التي وقعت بين "محمد زيتونة"و"محمد الخضراوي" سنة 1116هـ/1705م[2] للظفر بمنصب مدرّس بالمدرسة المرادية بعد وفاة "محمد الغمّاد"، حضرها الباي "حسين بن علي" مع كبار العلماء، وكانت لصالح الشيخ "محمد زيتونة"[3]. وهذا خير دليل على أن تعيين شيخ مدرسة حَدَث هام يعتني به الباي بنفسه، ويخبرنا المؤرخ "حسين خوجة" بهذا قائلا: "واختلفت الآراء فيمن يتصدر بها للتدريس–المدرسة المرادية– فاجتمع العلماء وأمراء الوقت"[4].

ومما يجلب الاهتمام أيضا، وراثة منصب التدريس أبا عن جد، حتى بدت وراثة هذا المنصب كأنها حق مكتسب بالنسبة إلى أفراد عائلة ما، إذ يكفي أن يشتهر أحد المدرسين، حتى يُكسب لنفسه ولأبنائه وحتى لأحفاده من بعده مكانة مرموقة لدى عامة الشعب وحتى لدى الحكام. ونذكر على سبيل المثال أسرا تولت التدريس في جامع الزيتونة أو في مدرسة من المدارس لفترة زمنية طويلة خلال الفترة الحسينية، عائلة "آل بيرم"[5] الذين تولوا التدريس بالمدرسة الباشية وتوارثوها خلفا عن سلف[6]، لمدة قاربت القرن ونصف القرن[7]، كما تولوا التدريس بالمدرسة العنقية خلال نفس الفترة[8]، وفي هذا السياق يقول "ابن الخوجة": "وممن تولى مشيخة هذه المدرسة في العصر الحسيني مشايخ الإسلام من آل بيرم الأعلام، فقد تولوها بتواصل من الشيخ الأول حتى

---

[1]– السراج، مصدر سابق، مج1، مقدمة المحقق، ص 60 .

[2]– إن المناظرة التي جرت بين العالمين، دليل على وجود عدد كبير من العلماء ، وصعوبة الاختيار بينهم لتقارب مستواهم العلمي.
أنظر: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص ص 88 ، 260 ، هامش 11 .

[3]– خوجة، مصدر سابق، ص 226 .

[4]– نفسه .

[5]– "عائلة آل بيرم": تُنتسب إلى مؤسسها "بيرم" الذي جاء إلى تونس وهو ضابط في الجيش العثماني الذي كان يقودها "سنان باشا". تزوج "بيرم" ابنة عالم تونسي، وصارت الأسرة منذ ذلك التاريخ متخصصة في الشؤون الدينية، وكان الشيخ "محمد بيرم الأول" أول باش مفتي حنفي سنة 1170هـ/ 1757م، كما ترأس المجلس الشرعي الحنفي واستمر هذا المنصب حكرا على أبناء الأسرة إلى غاية وفاة الشيخ "محمد بيرم الرابع" سنة 1277هـ/ 1861م ، وكان هذا الأخير أول من لقب بشيخ الإسلام. أنظر: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 30. أنظر أيضا: قرين، مرجع سابق، ص 105 .

[6]– ابن الخوجة ، تاريخ معالم التوحيد... ، مرجع سابق، ص 317 .

[7]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 88 .

[8]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 317 .

حفيده الشيخ الرابع، ثم تولاها من بعده الشيخ "محمد بن مصطفى بيرم" دفين مصر، ثم الشيخ محمد السلاّمي بيرم ابن الشيخ الرابع"[1].

كما توارثت عائلة "الشريف"[2] أبا عن جد التدريس بمدرسة حوانيت عاشور المعروفة "بالعاشورية"[3]. وتوارثت عائلة "آل بكري"[4] هي الأخرى مهنة الإمامة والتدريس بجامع الزيتونة لمدة مائة وخمس وتسعين سنة[5]. أما عائلة "ابن الخوجة"[6] فاستحوذت التدريس بالمدرسة الشماعية[7]، بداية من أواسط القرن 12هـ/ 18م إلى غاية القرن 14هـ/20م [8].

ومن الواضح أن تدخل النظام الحاكم كان خاصة على مستوى المدرسين الذين يقع تعيينهم من قبله، وهم في واقع الأمر مأمورين من قبل الحكومة، تعيّنهم أو تعزلهم من مناصبهم متى شاءت.

2.2.1. الحالة المادية للمدرسين:

اختلفت الأوضاع المادية للمدرسين، فهناك من المدرسين من كان يعاني أوضاعا مادية صعبة ولم يكونوا راضين عن حالتهم المادية، ويمكننا الاستدلال بالشيخ "إبراهيم الرياحي" الذي كان مدرسا بمدرسة بئر الحجار ومع الوقت"سئم ضيق العيش والوحدة بالمدرسة، حتى عزم على الخروج من الوطن"[9]. وانطلاقا من هذا المثال نفهم أنه وجد مدرسون معوزون أو على الأقل غير

---

[1]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 294 .

[2]– "عائلة الشريف": أسرة علم مالكية كبيرة، احتكرت إمامة جامع الزيتونة منذ بداية القرن 19م. أنجبت العائلة خلال فترة (1290–1333هـ/ 1873– 1915م) تسعة علماء. أنظر: قرين، مرجع سابق، ص 106 .

[3]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص ص 250 ، 364. ونفسه، ج2 ، ص 315. وكذلك: ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 314.

[4]– تم التعريف بها، أنظر: مدخل دراستنا، ص 24 .

[5] – ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 60 .

[6]– جاءت هذه العائلة هي الأخرى من تركيا بعد عائلة بيرم بقليل، ثم شيئا فشيئا أصبحت أكبر منها خاصة في أواخر القرن 19م، وهي تضم فرعا لها اشتهر باسم "ابن مراد"، مؤسسها كان قاضيا في الجيش التركي، ومع مرور الوقت تمكن "محمد ابن الخوجة" من تنصيبه شيخا للإسلام واضعا بذلك حد لاحتكار البيارمة لهذا المنصب، واستطاعت هذه الأسرة أن تنجب علماء. والدليل على نفوذ هذه العائلة في المؤسسات الدينية هو إمامتها دون غيرها للعديد من الجوامع منها جامع محمد باي المرادي، وجامع صاحب الطابع ابتداء من سنة 1875م. أنظر: قرين، مرجع سابق، ص 105 .

[7]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 287 .

[8]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 89 .

[9]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 74 .

راضين عمّا يتقاضونه من مرتبات، ورافضين أصلا لفكرة الزواج، نظرا لسكنهم بإحدى غرف المدرسة التي لا يمكن تخيلها أو بالأحرى لا تليق أن تكون بيتا زوجية[1].

ولتحسين الأوضاع المادية، كان يحاول المدرسون البحث عن مداخيل إضافية من خلال القيام بأعمال تُدِّر عليهم المال الكافي للعيش مثل مهنة "شاهد عدل"[2] أو تاجر، أو فلاح أوغيرها. وكتب السيّر والتراجم، تذكر لنا العشرات من المدرسين الذين كانوا يمتهنون حرفا أخرى بالإضافة إلى التدريس، ومن هؤلاء"محمد قويسم"(لم نقف على تاريخ وفاته) الذي كان يحترف بيع الزهور[3] و"محمد بن مصطفى الأندلسي" (لم نقف على تاريخ وفاته) الذي كان يدرس الطلبة، ويمارس صنعة المدَاس[4]–الأحذية–، كما اشتغل "محمد الطوبي" (ت 1217هـ/ 1802م) الذي كان هو الآخر مدرسا بالزيتونة، بمتجرٍ لصناعة الشاشية[5]، كما كان "محمود مقديش" من المدرسين الذين قسموا وقتهم بين التدريس واحتراف التجارة[6]. وهناك منهم أهمل التدريس بالرغم من كفاءته ومستواه العلمي، مقابل اهتمامه بمهنة تجلب له قوت عيشه وتُحسّن من أوضاعه المادية. ويحضرنا مثال مدرس جزائري الأصل يدعى"محمد القبايلي البِجائي" (ت 1271هـ/ 1855م) مدرس في الطبقة الأولى بجامع الزيتونة، وإلى جانب ذلك كان يمارس التجارة. حيث يقول عنه صاحب "المسامرات" إنه: "اشتغل بالمتجر واتسع فيه نطاقه، وذلك هو الذي منعه من كثرة الإقراء مع كونه عالما جليلا"[7]، أي أن التجارة حالت دون الاستفادة من علمه .

والظاهر أن الحالة المادية للمدرسين الذين كانوا يمتهنون أكثر من مهنة، أحسن بكثير من الذين يمتهنون التدريس فقط، إذ كانوا يتمتعون بمُرتبين. ولهذا حاول المدرسون نيل مناصب إضافة لمهنتهم الأساسية " التدريس". فها هو الشيخ "أحمد البارودي"[8](ت 1229هـ/ 1814م) يتمتع

---

[1]– يمكننا أن نستشهد هنا بالشيخ "إبراهيم الرياحي" الذي أراد أن يترك الوطن وسئم حياة الوحدة . لولا تدخل الوزير "يوسف صاحب الطابع" الذي اشترى له دارا بكل لوازمها الضرورية ، وزوجّه. ويقول في هذا الصدد "ابن أبي الضياف":" فاطمأنت به الدار، وقرّ له القرار، وتدرج لأوج المعالي، وشاع ذكره". أنظر: مصدر سابق، ج7، ص 74 .

[2]– نذكر " علي الرصاع " "وإسماعيل التميمي" وغيرهم من الذين زاولوا هذه الوظيفة قبل توليهم منصب الفتية والقضاء. أنظر: خوجة، مصدر سابق، ص 214 . أنظر أيضا : ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 8، ص 11 .

[3]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 87 .

[4]– السراج، مصدر سابق، مج3، ص 354 .

[5]– السنوسي، مصدر سابق، ج3، ص 82 .

[6]– مقديش، مصدر سابق، مج1، ص 14 .

[7]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 259 .

[8]– لمزيد من المعلومات حول هذه الشخصية . أنظر: ابن أبي الضياف ، مصدر سابق، ج7، ص ص 87 – 89 .

بثروة ضخمة نتيجة انتمائه إلى سلك القضاء والإفتاء[1].كما ملكت عائلة "بيرم" أراضي شاسعة قدرت بحوالي 2400 هكتار، نتيجة امتهانها لمهنتي التدريس والإفتاء معا[2]. وكذلك الشيخ "إبراهيم الرياحي" الذي نعرف عنه أنه تولى عدة مناصب، في التدريس والإفتاء والإمامة. ونتيجة لتعدد مناصبه، كان يملك حوالي 1060 هكتار خلال الفترة الممتدة ما بين (1252-1271هـ/ 1837 -1855م)، وتأتت هذه الأملاك خصوصا من هدايا البايات والوزراء[3].

إلا أن الأمثلة للمدرّسين الأثرياء، لا تعدو أن تكون قليلة بالنسبة إلى عدد المدرسين الآخرين الذين لم تكن لهم نفس الأهمية، ولم يتمتعوا إلا بثروات متوسطة أو ضعيفة لم تسمح لهم بأن يُعَدّوا من بين أثرياء تونس.كما وُجد أيضا بعض العلماء الذين لم يكونوا ثروة فردية نتيجة لرفضهم القيام بأي عمل آخر ما عدا مهنة التدريس[4]، ولا يتقاضون إلا المتأتي من أحباس المدرسة. فلذلك لا يستطيع المدرس الاستغناء عن هذا المرتب ولهذا يتواصل مدّه بمرتبّه حتى عند مرضه[5].

ويبدو أن أجر المدرس كان هاما، والدليل على ذلك المعلومات التي تمدنا بها وقفية تخص المدرسة الباشية، حيث اشترط الواقف الباي "علي باشا" أنه في حالة ما إذا شهدت مداخيل أوقاف المدرسة تراجعا، فإنه سيتم التنقيص من مرتبات كل موظفي المدرسة ما عدا "الشيخ المدرس" و"الوكيل الناظر" على الأوقاف فلا ينقص لهما"[6] .

ونظرا للضائقة المالية التي أصبحت الدولة تعيشها في القرن 13هـ/19م، فقد تكاثرت في عهد المشير "محمد الصادق باي" (1276- 1299هـ/ 1859- 1882م) ووزيره خزندار، الرسائل والشكاوى من طرف المدرسين بعدة مناطق مطالبين الزيادة في المرتب. فهذا مدرس بجامع المهدية يدعى "الحاج محمد بن علي القرقوري الصفاقسي" الذي يشتكي من تراجع مرتبه من ريالين إلى ريال في اليوم، ويطلب نقله إلى بلد صفاقس للتدريس هناك، كما يطالب بمرتب يكفيه

[1]– نفسه ابن أبي الضياف ، مصدر سابق، ج7، ص 87 .

[2]– أنظر في نفس الفصل، ص 151 .

[3]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 92 .

[4]– من بين هؤلاء "صالح الكواش" الذي درس بالمدرسة المنتصرية، كان يرى أن مهمته التعليمية تتنافى وأي تعامل مع النظام الحاكم . وهذا ما أدى إلى اغتياظ الباي "علي باشا". فاضطّر "الكواش" الهروب إلى القسطنطينية . أنظر: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 44 .

[5]– أنظر في نفس الفصل، ص 158 .

[6] – "وقفية بتاريخ أواسط ذي الحجة 1177هـ/ أواسط جويلية 1764م". أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 455 .

من فاضل الأوقاف[1]. ومدرسان آخران في سوسة، يشكوان للوزير "خير الدين" تعطل المرتب لمدة زمنية ويطالبانه بتسديد المرتب نظرا لما يشكوانه من صعوبة العيش وغلاء الأسعار، وذلك في 23 جمادى الأولى 1294هـ/ 4 جوان 1877م[2]. كما اشتكى المدرس "محمد بيرم" للوزير "خير الدين" حالته الصعبة التي أصبحت تشف، فقد اضطرته الضائقة المالية التي يعيشها إلى بيع أثاث منزله بثمن بخس[3].

في المقابل نجد مدرسين كانوا يرفضون الأجر، واعتبروا عملهم تطوعا وحِسبة لله تعالى، ومن ذلك "حسونة القصرى" (ت 1199هـ/ 1784م) الذي كان يدرس بجامع الزيتونة، ويمارس التجارة، وكان من بين الذين خصهم "علي باي الثاني" بمرتب لكنه رفض، لأنه كان يجني أرباحا كبيرة من تجارته. أما الدروس التي كان يقدمها، فكانت احتسابا لوجه الله[4]. كما يذكر لنا "محمد سعادة" أنه درس بجامع الزيتونة احتسابا لوجه الله بعد عودته من رحلته بالمشرق[5]. وكان أبناء "علي النوري" وأحفاده، خاصة منهم الذين يتمتعون بأوضاع مادية ميسورة يرفضون الأجر مقابل ما يقدمونه من خدمات تعليمية بالزاوية النورية بصفاقس[6].

3.2.1.مسكن – إقامة – المدرسين :

إن المتتبع لتراجم المشايخ المدرسين بمدينة تونس يجد أن أغلبهم وفدوا من خارجها، حيث نجد "محمد زيتونة" الذي قدم من مدينة المنستير، و"محمد صغير داود" أصيل مدينة نابل، و"محمد الحركافي" من صفاقس، وغيرهم كثير[7]. وهذا ما نستشفه من خلال الإحصائيات الواردة في بعض الدراسات، إذ تشير أن نسبتهم تقارب 50% من مجموع مدرسي مدينة تونس[8]. وبالتالي لابد لهؤلاء المدرسين الوافدين التفتيش على إقامة لهم. ونظرا للحالة المادية الصعبة التي يعاني منها أغلبهم وعدم استطاعتهم الحصول على مسكن خاص، لأن العديد منهم ينحدرون من عائلات

---

[1]– أ. و .ت ، س. ت ، صد 63، م 734، "رسالة من محمد بن علي القرقوري إلى الوزير الأكبر"، ب. ت، وث 11 .

[2]– نفسه، "رسالة من نصر بن فضية المجود ومحمد (كذا) القروي إلى الوزير الأكبر خير الدين بتاريخ 23 جمادى الأولى 1294هـ/ 04 جوان 1877م"، وث 16 .

[3]– نفسه، م 733، "رسالة من محمد بيرم إلى الوزير الأكبر خير الدين بتاريخ 11 جمادى الثانية 1294هـ/ 22 جوان 1877م"، وث 8 .

[4]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 21 .

[5]– الهيلة، مرجع سابق، ص 403 .

[6]– الزواوي، مرجع سابق، ص 274 .

[7]– عَدُّ أسماء المدرسين القادمين من خارج مدينة تونس يطول لكثرتهم . يمكن العودة إلى: خوجة ، مصدر سابق . له تراجم العلماء من مختلف المدن التونسية .

[8]– الميزوري، مرجع سابق، ص ص 165– 179 .

فقيرة أو على الأقل عائلات متواضعة الإمكانيات. فقد لجأوا إلى اتخاذ غرفة المدرسة مسكنا لهم. ومثال على ذلك العالم "إبراهيم الرياحي" الذي سكن بمدرسة حوانيت عاشور ثم بمدرسة بئر الحجار[1].

والجدير بالإشارة أن هناك مدرسين سكنوا في منازل حُبّست لصالحهم من طرف مؤسس المدرسة، فقد عثرنا في رسم تحبيس للباي "علي باشا" لفائدة مدرسة حوانيت عاشور نصا يبيّن تحبيسه لمنزل لفائدة المدرّس الذي سيدرس بالمدرسة "...السيد الباشا أبو الحسن علي باي ...أنه حبس ووقف وأبد جميع الدار فقط بحقوقها ومنافعها على من يكون إماما ومدرسا بمدرسته التي أحدثها..."[2]. ويعتبر "عبد الله السّوسي" من المدرسين الذين استفادوا بالمنزل الذي حبسه الباي لصالح المدرسين والأئمة[3]. كما حبّس "علي باي الثاني" دارا لتكون مسكنا لمدرّس بالمدرسة الحسينية الكبرى[4]. وسكن "صالح الكواش" المنزل التابع لأوقاف المدرسة المنتصرية[5]، وغيره من المدرسين الذين كانوا يأتون من خارج مدينة تونس لممارسة مهنة التدريس. لكن المدرسين الذين يتمتعون بأوضاع مادية جيدة ويقيمون في مدينة تونس لم يحتاجوا إلى السكن في الغرف والمنازل التابعة للمدارس، بل كانت لهم منازل خاصة بهم ورثوها عن آبائهم، أو اقتنوها بعد مدّة من العمل في التدريس [6].

4.2.1.علاقة المدرسين العلماء بالسلطة :

حظي المدرسون في تونس بصفة عامة بمكانة محترمة في المجتمع سواء في عهد الدولة الحسينية أو قبلها، فالمعروف أن صاحب السلطة بصفة عامة يعظّم المدرسين ويحترمهم، لدرايته بالمكانة التي يتمتّع بها العلماء في المجتمع، إذ كانت مهنة التعليم تجلب لصاحبها الاحترام والتّبجيل، ويصل الأمر في بعض الأحيان إلى التصاهر بين العائلة الحاكمة وأحد المدرسين البارزين[7]، مثل الباي "حسين باشا "(1240-1251هـ/ 1824-1835م) الذي خطب ابنة

---

[1]- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 73، 74.

[2]- السعداوي، مرجع سابق، ص 434 .

[3] - مقديش، مصدر سابق، ج2، ص 163.

[4]- ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 299 .

[5]- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 45 . أنظر أيضا: إبراهيم النيفر، " ترجمة الشيخ صالح الكواش"، م . ز، مج 1، ج 8، صفر 1356هـ/ أفريل 1937م ، ص 403 .

[6]- ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 93 .

[7]- نفسه، ص 89 .

الشيخ "محمد بيرم الثالث" لابنه الأكبر "محمد باشا باي" وزُفت إليه في 15 شعبان 1239هـ /16 أفريل 1824م[1]. لهذا نال المدرسون في غالب الأحيان مكانة مرموقة لدى الجميع، خصوصا إذا علمنا أن الكثير منهم كانت لهم مناصب أخرى هامة، دينية وحتى سياسية[2]، لأن مهنة القضاء مثلا لا نعتبرها مهنة دينية فقط، بل أيضا مهنة سياسية.

وهكذا نرى بطريقة أو بأخرى وجود ارتباط بين المدرسين والسلطة الحاكمة. ومن الواضح أن هذا الارتباط كان يؤدي بصاحبه أحيانا إلى اعتلاء مناصب هامة في الوزارة، مثل "الوزير السراج" (ت سنة 1149هـ/ 1736م) الذي تولى التدريس بالعديد من المدارس قبل أن يتولى منصب الوزارة لدى الباي "حسين بن علي"[3]. ونفس الشيء بالنسبة إلى "حمودة بن عبد العزيز"[4] الذي ارتقى إلى منصب الوزارة في عهد الباشا "علي باي الثاني". كما نذكر أيضا ما وصل إليه الشيخ "إبراهيم الرياحي" من جاه وثروة بفعل المناصب التي حظي بها في عهد المشير" أحمد باي" (1271- 1253هـ/1837-1855م)، فقد عينه إماما أكبرا بجامع الزيتونة بعد وفاة الإمام "الشريف الثاني"، أواخر جمادى الثانية 1255هـ/سبتمبر 1839م، وبهذا يكون قد جمع الشيخ بين الإمامة الكبرى لجامع الزيتونة ورئاسة الفتوى، حيث يقول "السنوسي": "ولم تجتمعا لأحد قبله"[5]. ورغم مكانته الاجتماعية المتميّزة إلا أن الشيخ العالم واصل مهنة التدريس[6].

فمهنة التدريس إذن هامة، فهي تخوّل لصاحبها الارتقاء إلى مراتب عليا. ولهذا تهافت العلماء إلى مناصب التدريس، وطمع العديد منهم في نيل مناصب سياسية هامة. فتعيين عالم للتدريس بمدرسة ما، يعدّ فخرا له، وهو أيضا منصب يُدرّ على صاحبه من الأموال المحبسة على

---

[1]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 91 .

[2]– أنظر أنماذج من المدرسين الذين نالوا حظا في هذا المجال. أنظر في نفس الفصل، ص ص 153، 154 .

[3]– عبد السلام، مرجع سابق، ص ص 239، 240 .

[4]– "حمودة بن عبد العزيز": هو كاتب ووزير "علي باي الثاني"، مؤلف كتاب التاريخ الباشي الذي أرخ فيه سيرة الباي المذكور. درس بالمدرسة الباشية على يدي الشيخ "محمد بيرم الأول"، ثم بجامع الزيتونة على عدد من مشايخ عصره، من بينهم "قاسم المحجوب". كان والده "محمد بن عبد العزيز" مدرسا متميزا، حيث يقول "أحمد بن أبي الضياف": "أنه كان يسامر ابنه حمودة ليلا ليلقنه علوم السيّر والتاريخ". تقلد رئاسة الإنشاء التي ارتقى إليها في عهد "علي باي بن حسين". توفي سنة 1202هـ/ 1788م. أنظر: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 22، 23 .

[5]– مصدر سابق، ج1، ص 317 .

[6]– اختاره الباي "حمودة باشا" كسفير لسلطنة المغرب، وبدوره أرسله الباي "أحمد باشا" في سفارة إلى إستانبول. أنظر: في نفس الفصل، ص 168.

المدرسة ما يكفيه وعائلته. فعندما يتحصل عالم على هذه المهنة، ويسهر في آن واحد على أوقاف المدرسة، يستطيع أن يتصرف آنذاك في مداخيلها بشيء من الحرية[1].

لقد حظي المدرسون بمساعدات وامتيازات من طرف الحكام في أوقات الشدّة، ومن ذلك الشيخ "عبد الله السّوسي"، الذي حدث وأن تغيب عن التدريس بالمدرسة العاشورية بسبب المرض الذي أقعده أياما في الفراش. فسأل عنه الباي "علي باشا"، وعندما علم بحالته، أمر أن يستمر راتبه واعتبر ذلك إعانة له[2]. كما كان "علي باي الثاني" من البايات الحسينيين الذين تميزوا بمساعداته المالية التي كان يمد بها للمدرسين والعلماء بصفة عامة، خاصة علماء قصره، ومن بينهم "حمودة بن عبد العزيز" الذي يؤكد بنفسه أن الباي أغدق عليه بالنعم. ويذكر ذلك في باشيه، قائلا: "... فإن عطاياه – أيده الله تعالى– مستقلة متتابعة متواصلة على ممرّ الأيام خصوصا على فقهاء حضرته ومن اختصهم منهم لسمره، فلا تخلو ليلة من الليالي لا ينالهم منها إحسان. ولقد وصل إلي من إحسانه – أيده الله تعالى– في أقرب مدة ما لا أذكره لئلا أنسب إلى التزيّد"[3]. وهذا دليل على سخاء وكرم الحكام للعلماء. ومن الامتيازات التي حظي بها المدرسون دون سواهم، إعفاءهم من الضرائب، نذكر على سبيل المثال: الشيخ "إبراهيم الجمني" الذي أعفاه "حسين بن علي" من الأعشار[4]. كما استثنى "حمودة باشا" هذه الفئة سنة 1221هـ/ 1806م من دفع أعشار الحبوب[5].

كما أبدى البايات الحسينيون اتجاه المدرسين بصفة خاصة والعلماء بصفة عامة مظاهر التقدير والاحترام[6]، ونستشف ذلك جليا من خلال مقارنة أمرين عليّين، أولهما الصادر سنة 1195هـ/ 1781م أي قبل تولي الباي "حمودة باشا" (1196-1229هـ/ 1782-1814م) بسنة واحدة، وهو خال من ذكر اسم العلماء، حيث كانت الأوامر تصدر كالآتي: "الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. إلى من يقف على أمرنا هذا من المفتيين والقضاة والكواهي والأغوات والقياد والخاص والعام سدد الله أحوال الجميع أما بعد...".

---

[1]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 90 .

[2]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 163 .

[3]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 296 .

[4]– السراج، مصدر سابق، مج3، ص 302 .

[5]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص 39 .

[6]– الميزوري، مرجع سابق، ص 101 .

لكن ابتداء من سنة 1207هـ/ 1793م أي بعد سنوات قليلة من تولي "حمودة باشا" الحكم، أصبحت الأوامر تتضمن ذكر العلماء، مثلما يثبته النص التالي: "الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. إلى من يقف على أمرنا هذا من العلماء الأعلام والفقهاء والكرام والمفتيين والقضاة والكواهي ...أما بعد..."[1].

كما لا يفوتنا ذكر البايات الحسينيين الذين تميزوا باهتمامهم الكبير بطبقة العلماء، حيث كانوا يسامرونهم ويجالسونهم في قصورهم، ويحضرون شخصيا مناظراتهم ومحاوراتهم[2]. ويعتبر مؤسس الأسرة الحسينية "حسين بن علي" من البايات الحسينيين الذين كانوا يُكثرون مجالسة العلماء والاهتمام بشؤونهم، ويذكر صاحب "الإتحاف" عن تقديره للعلماء في قوله:"...هو الذي أحيا رسوم العلم بعد إعفائها، وأيقظ أجفان طلبته بعد إغفائها بالتفاته إلى أهل العلم بالصلات المتوالية والإكرام لهم والتعظيم والمجالسة والمسامرة، بحيث لايخلو مجلسه منهم"[3]. وكان لهذا الباي علاقات ودية مع بعضهم، مثل"محمد الزيتونة" الذي كان يبعث إليه الباي ويستشيره، فكان إذا أتاه يخرج إليه ليلتقي به خارج البيت، ولا يحضر معهما ثالث[4]. ويعتبر "علي باشا" هو الآخر من البايات الذين كانوا يكثرون السمر والسهر في الليل مع العلماء، منهم الشيخ "حمودة الريكلي" قاضي تونس، والشيخ "محمد الشحمي"[5]. وبالرغم من شدته، إلا أنه تميّز بتعظيمه للعلماء، ويتجاوز لهم ما لا يتجاوزه لغيرهم [6]. كما عمل "علي باي الثاني" على استمالة العلماء إليه والتقرب منهم، حيث كانت جلساته لا تخلو من العلماء والأدباء والشعراء، وفي هذا السياق يؤكد لنا صاحب "الباشي" ذلك في قوله: "...فأظهر من محبة العلم وتعظيمه...فقرب العلماء واصطنعهم، وعظم مراتبهم، ورفع منازلهم...ويحضر المجلس من العلماء من تكون نوبتهم المبيت بحضرته العلية"[7]. كما كانت للمشير "أحمد باي" (1253- 1271هـ/ 1837- 1855م) هو الآخر علاقات ودية

---

[1]- الإمام، مرجع سابق، ص 331، وهامش 1 و2 من نفس الصفحة.

[2]- حضر "علي باي الثاني" بنفسه المحاورة العلمية التي جرت بين العالم "محمد الشحمي" والعالم "لطف الله الأعجمي" الذي نزل على تونس قادما من حلب. انتهت المحاورة باعتراف هذا الأخير بفضل "الشيخ الشحمي"، وكان جسيما فوضع الشيخ "لطف الله" يده على بطن "الشيخ الشحمي"، وقال له: "إنما ملئت علما لا شحما". أنظر: السنوسي، مصدر سابق،ج1، ص 114.

[3]- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص 171 .

[4] - مخلوف، مصدر سابق، ج2، ص 163 .

[5]- محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 82 .

[6]- محمد النيفر، مصدر سابق، ج1، ص 517 .

[7]- ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص ص 190، 191 .

مع الشيوخ المدرسين، نذكر منها علاقته بالشيخ "محمد بن سلامة" (ت 1266هـ/ 1849م)، ويصف لنا "السنوسي" تلك العلاقة التي كانت تجمع الباي والشيخ المدرس في العبارة التالية: "...فتمكن حبه من نفس المشير أحمد باشا وأفاض عليه سجال نعمه العباسية حتى صار يدخل عليه إلى بيته بدون إذن، ولا يتخلف في زيارته ومسامرته"[1].

لكن ما تجدر الإشارة إليه أن العلاقة بين الطرفين لا تتسم دوما بالانسجام، فقد استعملت السلطة طريقة التشدّد ضد كل من وُجهت إليه تهمة التآمر ضد النظام، ومن ذلك "صالح الكواش"(ت سنة 1218هـ/1803م) الذي خرج من تونس فرارا من بطش الباي "علي باشا"[2]، حيث اتهمه بالتعامل والميل لأبناء عمه "حسين بن علي" الذين كانوا متواجدين بالجزائر[3]، فتوجه إلى طرابلس ومنها إلى أزمير ثم إلى استانبول[4]، ثم رجع إلى البلاد بطلب من "محمد الرشيد باي" (1169- 1172هـ/ 1756- 1759م). لكن الباشا "علي باي الثاني" نفى الشيخ إلى منزل تميم وبقي بها شهرا، لسماعه وشاية تقول أن الشيخ قال مقال سوء في الباي[5]. كما نذكر أيضا "إسماعيل التميمي" (ت 1235هـ/ 1820م) الذي نُفي هو الآخر إلى مدينة مَاطِر[6] يوم 11 ذي القعدة 1235هـ/20 أوت 1820م لمدة أربعة وثلاثين يوما، حيث اتهم هو الآخر بأنه يريد زوال الدولة في تلك الفترة[7]. ونظرا لهذه المعاملة التي يحظى بها كل عالم يريد أن يخالف أو يقف في وجه السلطة، كان لا بد عليهم توخي الحذر في الإعراب عن مناهضتهم للسلطة السياسية. وهذا ما أثار انتباه "الورثيلاني" عندما حلّ بمدينة الكاف، فقد ذكر أن علمائها يعيشون حالة من الخوف والحذر[8].

---

[1]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 217 .

[2]– يمكن الاطلاع على أسماء العلماء الذين أعدمهم، بحجة أنهم كانوا من مؤيدي حكم عمه. منهم: الإمام "يوسف برتقيز"، و"الصغير داود" الذي سلب جميع أمواله وسجنه إلى أن مات، والعالم "العروسي" وغيرهم. أنظر: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3، ص ص 11- 24 .

[3]–كان ذلك ضمن الفتنة الحسينية الباشية. لمعلومات أكثر حول هذه الفتنة. أنظر: نفسه، مج 2 و 3 .

[4]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 44 .

[5]– يقول ابن أبي الضياف أن الباي أمر أن يؤتى بالشيخ إليه ،"فجيئ به إليه معظما مكرما ...قال له :"أيها الشيخ نطلب منك أن تسامحني" فقال له الشيخ: " لا أفعل والموقف بين يدي الله"، فاعتذر الباي بأن أناسا بلّغوا إليه ما غيره وحرك غضبه، فقال له الشيخ" العذر أقبح من ذنب" لأن الله ولاك أمرنا فتسمع فينا الأقاويل، وتعاقبنا قبل أن تسمع جوابنا ... ولم يزل الباي يلاطفه ويعتذر إليه إلى أن سامحه في تلك الليلة ". أنظر: نفسه، ص 45.

[6]– هي مدينة تقع في شمال تونس على مسافة 66 كلم غرب مدينة تونس العاصمة .

[7]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 8، ص 12 .

[8]– الورثيلاني، مصدر سابق، ص 790 .

لكن هذا لم يمنع من وجود مدرسين علماء يتميزون بالشخصية القوية والمجاهرة بالرأي دون خوف ولا مجاملة. فقد تميّز "صالح الكواش" بحزمه وصرامته وشجاعته، وتذكر المصادر أن أهل المجلس الشرعي يَتَّقون شدّته وحزمه "فكان يتميز بثبات الجأش في تغيير المنكر، لا يخشى في الله لومة لائم"[1]. "...متخلق بالزهد وملازم للتقشف لا تأخذه في الحق لومة لائم حاضر الجواب لا يتهيب فيما يخطر بباله، سواء عند الأمير والمأمور في جميع الأمور"[2]. وقد ذُكر عنه أن الباشا "علي باي الثاني" قال له يوما: "يا شيخ صالح قد اجتمع فيك ما تفرق في غيرك من العلم وجعل يعدد محاسنه لكن ليس لك حظ في علم السياسة" ، فأجابه: " أنا من أعلم الناس بالسياسة غير أنكم معشر الأمراء تريدون أن تخالفوا الشرع ونساعدكم على مخالفته"[3]. كما أن الباي "حمودة باشا" استدعاه إلى منزله في إحدى الليالي لمسامرته، ولما دخل أصابت شمعة ثوبه[4] فتلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[5]. وبالتالي يمكننا القول أن الشيخ "صالح الكواش" كانت علاقته مع سلطة الباي تبدو أنها علاقة أفقية مبنية على التقدير والاحترام، وهذا ما جعل بعض الدارسين يعتبرونه أنه عالم ضمن فئة العلماء المستقلون[6].

كما نذكر العالم "إبراهيم الرياحي" (ت1266هـ/ 1850م) الذي هو الآخر تميّز بالمجاهرة برأيه، ونورد هنا مثالا عن مواقفه الجريئة التي وصلت إلى حد جعلت الباي يغير رأيه. ومن ذلك الحادثة التي وقعت له مع الباشا المشير "أحمد باشا باي"(1253-1271هـ/ 1837-1855م)، حيث طلب منه أن يطلق صراح الشخص المعروف "بالسعدي" الذي حُكم عليه بالمؤبد. لكن الباي رفض، فنهض الشيخ أمام الملأ وهو يقول: "التأبيد لله"، فتراجع الباي عن رأية

---

[1]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 44 ، 45 .

[2]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 255 .

[3]– الحناشي، مرجع سابق ، ص ص 109 ، 110 .

[4]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 255 .

[5] – الآية 113 من سورة هود .

[6]– ويسميهم "الحناشي "علماء التحدي" ومن ميزات هذه الفئة من العلماء هو تطبيق قواعد الشريعة السمحة بحذافرها وعدم التنصل عن مبادئها أو التعصب لأي طرف كان وهم نموذج للعالم المثالي " الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر"، ولم تكن هذه الفئة أسيرة قرارات الحكام ، كما تميزوا بالاستقلالية على مستوى الفكر والمواقف. أنظر: مرجع سابق ، ص 108.

وأطلق صراح الشخص[1]. وهذا دليل على ما كان لبعض المدرسين والعلماء من مكانة مميزة لدى الحكام.

5.2.1.أشهر المدرسين[2]:

– إبراهيم الجمني:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم الجمني نسبة إلى بلد جِمَّنَة بصحراء الجريد، التي ولد بها سنة 1037هـ/ 1627م. ينتهي نسبه إلى المقداد بن الأسود الكندي. وينحدر إبراهيم الجمني من أسرة اجتمعت لدى أفراد أسرتها الثروة والمعرفة معا، مما أهلهم ليكونوا أعيان مدينة نفزاوة[3]. وبعد أن أخذ العلم من علماء قريته، رحل إلى بلاد الزواوة بالجزائر مكث بها ست سنوات وأخذ على العديد من شيوخها منهم، "سيدي محمد السعدي" و"سيدي محمد الغربي" و العالم "الشيخ أبو القاسم القاضي". انتقل إلى مصر سنة 1061هـ/1651م وأقام بها تسع سنوات، وأخذ عن علماء الأزهر أمثال "الشيخ الشبرخيتي". ثم انتقل إلى زاوية الحمارنة قرب قابس. ثم إلى جزيرة جربة أين مارس هناك مهنة التدريس بجامع الغرباء[4]. بلغ صيت "إبراهيم الجمني" إلى الحاضرة تونس فسمع به "محمد باي المرادي"(1098-1108هـ/1686-1696م)، فأمر بناء مدرسة له ليقدم فيها الشيخ دروسه، وكان أول من درس بها. ومن تلامذته ابن أخيه "إبراهيم"، و"محمد الغرياني" وغيرهم. له شرح على مختصر خليل. توفي في ربيع الأول 1134هـ/ جانفي 1722م عن عمر يناهز 96 سنة، ودُفن بمدرسته[5].

– محمد زيتونة:

ولد بمدينة المنستير الساحلية عام 1081هـ/ 1670- 1671م، فقيه مالكي تونسي، فقد بصره صغيرا. حفظ القرآن الكريم ثم توجه إلى مدينة القيروان للدراسة، وبقي بها ثلاث سنوات، تلقى خلالها الدروس على عدد من مشائخها من بينهم "محمد عظوم" و"علي الغرياني" و"أحمد البرجيني". توجه بعد ذلك إلى تونس العاصمة لاستكمال دراسته، ومن بين من درس على

---

[1]– السنوسي ، مصدر سابق، ج1، ص 319 .

[2]– لا ندّعي أننا تطرقنا إلى ذكر جميع المدرسين المشهورين، لكن حاولنا ذكر البعض منهم، وهناك البعض الآخر من ترجمنا لهم عند ذكرهم لأول مرة .

[3]– السراج، مصدر سابق، مج3، ص 298 . أنظر أيضا: الهادي بن يونس بن محمد الانكشاري، الدولة الحسينية (1705- 1855م)، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، ب.ت.ن، ص 78.

[4]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 437 .

[5]– خوجة، مصدر سابق، ص ص 130-132 . أنظر أيضا: مقديش، مصدر سابق، مج2، ص ص 436- 442 .

أيديهم المفتي" محمد فتاتة" و"الشيخ سعيد الشريف" و"محمد الحجيج الأندلسي". درّس بجامع الزيتونة تطوعا أو كما يقول "حسين خوجة "حسبة لله من غير وظيفة"، كما زاول التدريس بالمدرسة المرادية، بعد المناظرة التي وقعت بينه وبين " الخضراوي. تولى" أيضا منصب الخطابة بجامع باب بحر بالعاصمة[1].

حجّ "محمد زيتونة" مرتين واجتمع خلال الرحلتين بعدد من أعلام عصره سواء بالحجاز أو بمصر، والتقاه في رحلته الثانية "حسين خوجة" الذي كتب عنه ترجمة مطولة. ومما يدل على مكانته بتونس الحاضرة ذلك الحشد الكبير الذي مشى في جنازته، ويقول "حسين خوجة" واصفا المشهد: "وضاقت الطرق بالازدحام من خلفه وأمامه ومن بين مشيعيه الباي حسين بن علي نفسه". وكان ذلك بالعاصمة تونس يوم 5 شوال 1138هـ/ 6 جوان 1726م، ودفن بمقبرة الجلاز[2].

ترك العديد من التآليف منها: حاشية على الوسطى في جزأين، وشرح على السلم، وشرح على البيقونة، وشرح على الألفية، والحاشية العظيمة على تفسير أبي السعود في عشرين جزءا[3].

– أحمد برنار:

هو أبو العباس الحاج أحمد بن مصطفى بن محمد بن مصطفى بن محمد الحنفي التونسي الشهير بقارة خوجة المعروف "ببرنار"[4]. ولد بتونس في جمادى الثانية سنة 1074هـ/ جانفي 1664م[5]. نشأ في أسرة مثقفة، بدأ حياته العلمية في سن مبكر وتذكر المصادر أن ذلك راجع إلى ملازمته لجده، إذ أخذ عنه الحديث وهو لا يتجاوز العاشرة من عمره، يجيد اللغتين التركية والفارسية[6].

ورغم المأساة التي أصيبت بها العائلة، والمتمثلة في قتل الأب والجد في وقت واحد من طرف "مراد باي الثاني" (1076- 1086هـ/ 1666- 1675م)، استطاع "أحمد برنار" أن يواصل تعليمه[7]، تتلمذ على أشهر علماء عصره في تونس ومصر ومكة والجزائر وقسنطينة وعنابة،

---

[1]–خوجة، مصدر سابق، ص ص 224– 226 . أنظر كذلك: مخلوف، مصدر سابق، ج1، ص ص 324– 326، 329 .

[2]– خوجة، مصدر سابق، ص ص 229، 230 . وأيضا: مخلوف، مصدر سابق،ج1، ص ص 324 ، 325 . وكذلك: محمد النيفر، مصدر سابق ، ج1، ص ص 485–493 .

[3]– محمد النيفر، مصدر سابق، ج1، ص 486 .

[4]– هي لفظة تركية، تعني طويل الأنف. أنظر: الطويلي، تاريخ مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 114 .

[5]– خوجة، مصدر سابق، ص 230 .

[6]– عبد السلام، مرجع سابق، ص 194 .

[7]– برنار، الشهب المخرقة ...، مرجع سابق، مقدمة المحقق، ص 9 .

ومنطقة القبائل. بعد عودته إلى تونس انتصب للتدريس بأشهر أماكن العلم، كالمدرسة الشماعية، وتولى كذلك التدريس بالنيابة بالمدرسة اليوسفية، ثم العنقية، وأخيرا عيّن للتدريس بجامع الزيتونة. بالإضافة إلى الخطابة وتدريس الحديث بالجامع الجديد في سوق البلاط، وتولى الإمامة بجامع يوسف داي[1].

تعرض للاضطهاد من طرف "مراد باي الثالث"(1110-1114هـ/1698-1702م)[2]. وهذه المصائب المتتالية التي أصيب بها هذا الأخير، هي التي دفعت بالمؤرخ "حسين خوجة" إلى وصفه "بقليل الحظ"[3].

كانت نهايته مؤلمة، حيث أمر "علي باشا" بسجنه بحجة أنه كان من الرجال المقربين لعمه، وبعد مدة طويلة أمر بخنقه[4]، فوافته المنية يوم 18 ذي القعدة 1138هـ/ 18 جويلية 1726م[5] . خلف المدرّس العالم العديد من المؤلفات في مواضيع مختلفة[6]، منها:

- إعلام الأعيان بتخفيفات الشرع على العبيد والصبيان.
- تزيين الغرة بمحاسن الدرة في القراءات الثلاث الزائدة على السبع.
- حاشية على شرح المنار لابن فرشتا – فقه حنفي–.
- حواشي على المرادي، شارح ألفية ابن مالك.
- الشهب المخرقة لمن أدعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة . ألفه سنة 1124هـ/ 1712م وأدخل عليه تحويرات سنة 1129هـ/ 1717م.

– محمد الخضراوي :

ولد بمدينة تونس سنة 1087هـ/ 1676م، حفظ في صغره القرآن على والده وجوده بالسبع على الشيخ "إبراهيم الجمل" وأجازه في السبع والعشر، كما أجازه الشيخ المحجوز والشيخ "محمد قويسم" بسندهم، أخذ العلوم على"سعيد الشريف" و"محمد الغماد". تولى التدريس بأماكن عديدة، وهو أول من تولى مشيخة مدرسة النخلة بتعيين من الباي "حسين بن علي". كان

[1]– خوجة، مصدر سابق، ص ص 232، 233 .

[2]– أنظر: مدخل دراستنا، ص33 .

[3]– خوجة، مصدر سابق، ص 233.

[4]– الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3، ص19. أنظر أيضا: محفوظ، مرجع سابق، ج1، ص 93.

[5]– خوجة، مصدر سابق،ص 234 .

[6]– نفسه، ص ص 232، 233. أنظر أيضا: محفوظ، مرجع سابق، ج1، ص ص 94، 95 .

متضلعا في الرياضيات، يقول عنه "حسين خوجة" إن له:"ملكة في المعقول والمنقول وعلم الرياضيات، وله قدرة على حل المشكلات". توفي سنة 1144هـ/ 1731م[1]. ترك العديد من التآليف والشروح منها: حاشية على الوسطى في مجلدين، وشرح منظومة البيقوني في مصطلح الحديث وحاشية على تفسير أبي السّعود، وغيرها[2].

– صالح الكواش:

هو صالح بن حسين بن محمد الكافي، لُقب "بالكواش" نسبة إلى حرفة والده الذي كان له فرن –كوشة في الاصطلاح التونسي وحتى الجزائري – بسيدي المشرف. أصيل مدينة الكاف، "نشأ في عائلة بسيطة. ولد في ليلة ربيع الأول من سنة 1127هـ / مارس 1715م. اعتنى به والده، وحفظ القرآن وهو في سن مبكرة، فظهرت نجابته حيث كان مؤدبه يملي عليه ما يمكنه فيحفظه بالإعادة مرتين أو ثلاثا[3]. درس بجامع الزيتونة، وتتلمذ على يد نخبة من علماء عصره أمثال "أبي عبد الله محمد الغرياني" و"أبي الحسن سيدي عبد الكبير،" و"أبي محمد حمودة الريكلي الأندلسي"، و"أبي العباس أحمد اللعلاع"، و"أبي عبد الله محمد بن حسين بيرم" وغيرهم.[4] .

درّس بالعديد من المراكز التعليمية منها: جامع الزيتونة والمدرسة المنتصرية على عهد "علي باي الثاني" بعد وفاة "إبراهيم المزاج الأندلسي"سنة 1175هـ/1762م وصار يلقب"بشيخ الشيوخ"[5].. تخرج على يده كبار العلماء، ويذكر "ابن أبي الضياف" عشرات الأسماء ولعل أشهرهم: "إسماعيل التميمي"، و"إبراهيم الرياحي"، و"حسن السّوسي" وغيرهم[6].

وفي علمه ونبوغه يقول عنه "صاحب الإتحاف": "كان هذا الشيخ نادرة الدهر في الحفظ وثقوب الفكر، والفصاحة والأجوبة المسكتة". ويضيف قائلا: "وشاع خبره في العلـوم العقلية والنقلية"[7] "حتى أصبح يلقب بشيخ المغرب والمشرق"[8].

---

[1]– خوجة، مصدر سابق، ص ص 234 ، 235 . أنظر أيضا: مخلوف، مصدر سابق،ج1، ص ص 325، 326 . وكذلك: العياضي، مصدر سابق، ص ص 135– 142.

[2]– خوجة، مصدر سابق، ص ص 228 ، 229 .

[3]– السنوسي ، مصدر سابق ، ج1 ، ص 254 . أنظر أيضا: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 7 ، ص 44 .

[4]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق ، ج7، ص 44 . أنظر أيضا: السنوسي ، مصدر سابق، ج1، ص ص 254 ، 255 .

[5]– السنوسي ، مصدر سابق، ج1 ، ص 255 . أنظر أيضا: عبد الوهاب، كتاب العمر، ج 2، ص 547 .

[6]– ابن أبي الضياف ، مصدر سابق ، الجزءان 7 و 8 .

[7]– نفسه، ج7، ص ص 44، 45 .

[8]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 254 .

وكان "صالح الكواش" من ضمن علماء تونس الذين التقى بهم الرحالة الجزائري "الورثيلاتي" وأعجب به كثيرا، حيث قال فيه: "ومنهم من له التصرف الكامل والبسط الجليل المحقق والعلامة المدقق ذو الأبحاث الشريفة...المعقولي على الإطلاق"[1].

وبالرغم من الشهرة التي اكتسبها، والزاد الفكري والمعرفي الذي حصل عليه، فقد كان على عكس معاصريه، فلم يسعى للحصول على وظيفة في جهاز القضاء الشرعي، ورفض الدخول في أي علاقة مشبوهة مع السلطة[2]. توفي يوم الاثنين 17 من شوال سنة 1218هـ/ 19 جانفي 1804م ودفن بالزلاج. رثاه تلميذه الشاعر "أحمد زروق" بقصيدة مرثية، جاء في مطلعها[3]:

لمثلك من خطب تنوح النوائح *** وترتاع في أغمادهن الصّفائحُ

أُريقت له دون الدموع دماؤُنا *** وُشُقّت له دون الجيوب الجوارحُ

– سالم بوحاجب :

هو سالم بن عمر بوحاجب، الفقيه والمحقق واللغوي الأديب والشاعر، من مواليد سنة 1243هـ/ 1827م بنبلة إحدى قرى المنستير. حفظ القرآن الكريم بكتّاب قريته. وبالرغم من الحالة المادية الصعبة التي تعيشها أسرته، إلا أن هذا لم يمنعه من مواصلة مشواره الدراسي، فانتقل كبقية الطلبة الآفاقيين إلى العاصمة للالتحاق بجامع الزيتونة والاستزادة في العلوم، وكان ذلك أواخر 1258هـ/ 1852م[4].

درس على شيوخ عصره من الأعلام الكبار أمثال "إبراهيم الرياحي" و"محمد بن ملوكة"، و"محمد بيرم الرابع" وغيرهم. وأذهل الجميع بشدة ذكائه وسرعة بديهته وسرعان ما برز على أقرانه وكل من حوله بفضل حدة ذكائه وسرعة بداهته ودقة حافظته، ويقال عنه أنه كان يناقش شيوخه ويحرجهم بأسئلته التي تدل على سعة ثقافته واطلاعه، وهذا ما مكنه من الحصول على تقدير واهتمام شيوخه[5]، خاصة منهم "محمد بيرم الرابع" الذي اعتنى به وكان يستدعيه إلى منزله لمجالسته والمذاكرة معه، كما فتح له أبواب مكتبته النفيسة[6] .

---

[1]– الورثيلاني، مصدر سابق، ص 762 .

[2]– الحناشي، مرجع سابق، ص 109 .

[3]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص ص 255، 256 .

[4]– مخلوف، مصدر سابق، ج1، ص 426. أنظر أيضا: محفوظ، مرجع سابق، ج2، ص 77 .

[5]– الزمرلي، مرجع سابق، ص 171 .

[6] – محفوظ، مرجع سابق، ج2، ص 78 .

بعد تخرجه اشتغل في البداية مدرسا متطوعا بجامع الزيتونة، ثم مدرسا في الطبقة الثانية بعد نجاحه في مناظرة التدريس سنة 1275هـ/ 1859م، وبعدها مدرسا في الطبقة الأولى سنة 1281هـ/ 1864م. فكانت مدة تدريسه أكثر من ستين سنة، وكانت حلقاته مزدحمة بالأفواج الكبيرة من الطلبة بفضل أسلوبه المتميز في التدريس المبني على التحليل والنقد والمناقشة.

تخرجت على يده أجيال من المثقفين والعلماء، أمثال "محمد بيرم الخامس"، "محمد جعيط"، "محمد السنوسي" صاحب المسامرات، و"محمد مخلوف" صاحب الشجرة ...تولى مشيخة المدرسة المرجانية، ثم مفتيا ، ثم كبير أهل الشورى المالكية. وافته منية في ذي الحجة 1342هـ/ جويلية 1924م ودفن بالجلاز [1]. ترك عدة مؤلفات منها:

- تقارير على شرح الإشموني على الخلاصة الألفية لابن مالك .
- شرح على ألفية ابن عاصم في الأصول .
- ديوان شعر .

– إبراهيم الرياحي:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد الرياحي ابن الفقيه إبراهيم الطرابلس المحمودي. قدم جده إبراهيم من طرابلس واستقر بتونس، ولد بتستور سنة 1180هـ/1766م، أخذ العلم والمعرفة على جماعة من العلماء والفقهاء منهم: "حمزة الجباص" و"صالح الكواش" و"إسماعيل التميمي" وغيرهم، سكن بالمدرسة العاشورية ومدرسة بئر الحجار. سئم حياة الوحدة وعيشة المدارس، فقرر الخروج من البلاد لولا "يوسف صاحب الطابع" ، الذي أهدى إليه دارا مجهزة تجهيزا كاملا وتكفل بنفقات زواجه[2].

بعدها تولى مهنة التدريس في العديد من الأماكن، منها جامع الزيتونة، وجامع الحلفاوين بطلب من "يوسف صاحب الطابع" سنة 1232هـ / 1817م، بعد وفاة الشيخ "محمد الفاسي"[3]. تولى منصب فقيه ومفتي مالكي، بعد وفاة الشيخ "إسماعيل التميمي" سنة 1248هـ/ 1832م. وإثر وفاة الشيخ "محمد بن عبد الكبير الشريف" سنة 1255هـ/ 1839م، عينه المشير "أحمد باي"(1253-1271هـ/ 1837- 1855م) إماما أكبر وخطيبا بجامع الزيتونة.

---

[1]– مخلوف، مصدر سابق، ج1، ص ص 426، 427 . أنظر أيضا: محفوظ، مرجع سابق، ج2، ص ص 78 – 81 . وكذلك: الزمرلي، مرجع سابق، ص 171 .

[2]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 73، 74.

[3]– الرياحي، مصدر سابق، ص 85 .

وهو أول من جمع بين رئاسة المذهب المالكي وإمامة جامع الزيتونة. وبمقتضى الأمر[1] الذي أصدره المشير"أحمد باي"سنة 1258هـ/1842م، والمتعلق بتنظيم التعليم بالجامع الأعظم. أصبح "إبراهيم الرياحي" عضوا في مجلس النظارة العلمية الذي يشرف على شؤون التعليم بالجامع[2] .

كان رجلا دبلوماسيا بامتياز، فقد نجح في البعثات الدبلوماسية التي أوكل بها، منها سفارته إلى المغرب لجلب القمح، بسبب القحط الذي وقع سنة (1218- 1219هـ/ 1803-1804م) في عهد الباي "حمودة باشا". وفي 8 ربيع الثاني 1254هـ/30 جوان 1838م أرسله المشير "أحمد باي" في سفارة إلى استانبول ليطلب إلغاء الضريبة السنوية التي كانت تقدم للباب العالي، بسبب الضائقة المالية التي كانت تعيشها تونس آنذاك. استعمل نفوذه مع "أحمد باي" في تخفيف وطأة المظالم، وطرق جمع الضرائب. توفي في 28 من رمضان سنة 1266هـ/ 7 أوت 1850م، متأثرا بوباء الكوليرا ودفن بتربته الكائنة بزاويته المعروفة باسمه[3] .

– محمود قابادو:

هو محمود بن محمد بن محمد بن عمر قابادو الشريف أبو الثناء، الأديب والشاعر والعالم بالرياضيات. أصل سلفه من الأندلسيين الذين وفدوا على تونس في عهد "عثمان باي" سنة 1016هـ/ 1607م وما بعدها. استقر أسلافه بصفاقس أولا، ثم انتقل والده إلى مدينة تونس العاصمة أين ولد هناك المترجم له سنة 1239هـ/ 1818م[4].

ولما بلغ سن التعلم التحق بكتّاب الحي، وتلقى مبادئ اللغة والفقه. ويقال عنه أنه تميز بذكاء مفرط وقريحة وقادة[5]. وفي سنة 1248هـ/ 1832م غادر "محمود قابادو" تونس متوجّها إلى مصراتة بإيالة طرابلس الخاضعة للحكم العثماني، حيث التحق بالطريقة المدنيّة المتفرّعة عن الطريقة الشاذليّة. وبعد أن أقام "محمود قابادو" ثلاث سنوات في مصراتة، رجع سنة 1251هـ/

---

[1]– أنظر: الباب الثاني، الفصل الثاني، ص 250 .

[2]– حمادي الساحلي، فصول في التاريخ والحضارة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص ص 273، 274 .

[3]– لمزيد من المعلومات يمكن العودة إلى العديد من المصادر والمراجع التي ترجمت لهذه الشخصية : ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص ص 73-82. ونفسه، ج4، ص19. أيضا: السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص ص 252، 253 . وكذلك: مخلوف، مصدر سابق، ص ص 386-389. ومحمد النيفر، مصدر سابق، ج2، ص ص 724 – 728. وأيضا: محفوظ، مرجع سابق، ج 2 ، ص ص 387 - 399.

[4]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 283 .

[5]– محمد النيفر، مصدر سابق، ج2، ص 906 .

1835م إلى تونس حيث تابع دروس أشهر شيوخ جامع الزيتونة. فتتلمذ على يد أشهر الشيوخ المدرسين من بينهم "محمد بيرم الثالث" و"أحمد بن الطاهر اللطّيف"، و"محمد بن ملوكة" وغيرهم.

عمل كمؤدب خاص لابن "سليمان كاهية". ثم سافر إلى استانبول بعد وفاة هذا الأخير سنة 1254هـ/ 1838م، وعند استقراره هناك قسّم وقته بين المطالعة والتدريس، وتعرف فيها على علمائها وأدبائها. ثم عاوده الشوق إلى مسقط رأسه، فرجع إليها في جمادى الأولى 1258هـ/ جوان 1842م بمساعدة من المؤرخ "أحمد بن أبي الضياف" الذي توسط له لدى المشير "أحمد باي". ولم يلبث طويلا بعد عودته حتى عينه الباي مدرسا للغة العربية والآداب العربية والعلوم الشرعية والدينية بالمدرسة الحربية بباردو سنة 1271هـ/ 1855م. ثم مدرسا من الطبقة الأولى بجامع الزيتونة في بداية عهد المشير "مَحمد باشا باي" (1271- 1276هـ/ 1855- 1859م). وتقدم لمشيخة المدرسة الجديدة بعد وفاة "محمد بن ملوكة" سنة 1276هـ/ 1859م[1].

كوّن "محمود قابادو" في هاتين المؤسستين أتباعا يحاولون مواصلة تفكيره ونشر أفكاره. ففي مدرسة باردو، حيث كان يدرّس "الأجروميّة" في النحو و"مقامات الحريري"، كان يحرص على الحفاظ على الصلة التي تربط طلبته بالآداب والحضارة العربية الإسلامية، في حين كان يسعى في جامع الزيتونة إلى تمكين تلاميذه من إدراك ما يمكن أن يجنوه من مزايا من دراسة علوم أخرى غير العلوم الدينية، وضرورة تفتّحهم على العالم الخارجي، وخصوصا العالم الأوروبي الذي تمكّن في آخر الأمر من معرفته من رحلات معاصريه، ومعاشرة رجال الدولة الذين عرفوا تلك الأقطار[2].

ومن تلامذته بجامع الزيتونة "سالم بوحاجب" و"محمد السنوسي". وبالمدرسة الحربية بباردو نذكر "الوزير خير الدين" و"الجنرال حسين"[3] و"الجنرال رستم"[4]. فقد استطاع أن يكوّن نخبة من الشبان المثقفين الذين سيكون لهم مستقبلا زاهرا وسيتصدرون المناصب العليا بالإيالة، وذلك

[1]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 308 . أنظر أيضا: محمد النيفر، مصدر سابق، ج2، ص 906

[2]– الشيباني بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار الدينية والتعليمية، شهادة الكفاءة في البحث، إشراف عبد الجليل التميمي، الجامعة التونسية، تونس، 1986م، ص 50 .

[3]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: الباب الثاني، الفصل الأول، ص 207، هامش 01.

[4]– يعتبر من رجال الإصلاح، ومن رفقاء خير الدين، خريج المدرسة الحربية بباردو. أنظر: أحمد عبد السلام، مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، الشركة التونسية للتوزيع، ط1، تونس، 1987م، ص ص 19، 20 .

بفضل طريقته المتميزة في التعليم، التي احتفظ وحده بسرها[1]. أي أنها طريقة بيداغوجية تعليمية خاصة به دون سواه .

عيّنه المشير "محمد الصادق باي" (1276- 1299هـ/ 1859- 1882م) قاضيا بباردو في يوم الأحد 15 شعبان 1277هـ/ 25 فيفري 1861م، تقديرا لخدماته العلمية الجليلة التي قدمها . ثم ارتقى إلى خطة مفتي بالمجلس الشرعي بالعاصمة يوم الأربعاء 9 شعبان 1285م/ 24 نوفمبر 1868م إلى أن وافته المنية يوم الأحد 3 رجب 1288هـ/ 17 سبتمبر 1871م[2].

خلّف "محمود قابادو" العديد من التآليف[3] منها:

- ديوان شعر في جزأين، نشره بعد سنوات من وفاته تلميذه محمد السنوسي .
- شرح ديوان المتنبي.

2. فئة الطلبة:

1.2.الطلبة في المدارس :

بعد أن يكمل الطالب تعليمه في الكتّاب، تأتي مرحلة ما بعد الكتاتيب حيث يلتحق بالمدرسة لما توفره إياه هذه الأخيرة من تعليم وسكن مجانيين، الذين لولاهما لما كان باستطاعته القدوم من دواخل البلاد إلى المدينة تونس لمواصلة دراسته، لأن معظم الطلبة عائلاتهم ميسورة الحال. لذلك نلتمس هنا أهمية المدرسة في الآفاق التي تفتحها للعديد منهم، وربما لولا ظهور هذه المدارس إلى الوجود لكان من المحتمل أن بعض العلماء أمثال "سعيد الشريف" و"محمد زيتونة" و"إسماعيل التميمي" و"إبراهيم الرياحي" وغيرهم كثير، ما كان بإمكانهم القدوم للدراسة، وربما ما كانوا ليتمكنوا من الحصول على المرتبة التي وصلوا إليها [4].

إذن ما يمكن التأكيد عليه أن فرص التعليم بالنسبة للطلبة المعوزين ازدادت بصورة ملحوظة مع انتشار المدارس. فالمدرسة سمحت للعديد من الطلبة بالحصول على مراكز علمية هامة، وعلى مناصب سياسية ، والعمل في سلك القضاء أو الإفتاء أو الإشهاد، أو غيرها. لكن المدارس لم تَأْوِ جميع طلابها، لذلك كان الطلبة ينقسمون إلى قسمين: قسم داخلي للطلبة القادمين

[1]– الزمرلي، مرجع سابق، ص ص 68، 69.

[2]– نفسه، ص 70. أنظر أيضا: محفوظ، مرجع سابق، ج4، ص 43 .

[3]– محفوظ، مرجع سابق، ج4، ص 44 .

[4]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 98 .

من خارج مدينة تونس –الآفاقيين–، وقسم خارجي للطلبة المقيمين داخل المدينة القريبين في غالب الأحيان من مقر سكناهم[1].

ومن واجب الطالب المقيم باحدى المدارس، حضور دروس الشيخ المدرس، وعدم التغيب، إلا لظروف قاهرة. فقد جاء في نص حبس للباي "حسين بن علي" لصالح المدرسة الحسينية الصغرى مايلي:"...وجميع المدرسة المذكورة بما احتوت عليه من البيوت والمنافع والمرافق على من سكنها من طلبة العلم المالكية الواردين عليها من الآفاق الذين ليس لهم بمدينة تونس أهل ولا مسكن يأوي إليه وقدرهم عشرة، يرتفق كل واحد منهم بسكنى بيت من بيوتها يعمره بقراءة العلم الشريف وتلاوة القرآن العظيم، على أن يكون مبيته به ويحضر لقراءة الحزبين من القرآن العظيم بعد صلاة المغرب ولقراءة الحزبين من القرآن العظيم بعد صلاة الصبح أيضا على ممر الليالي والأيام، ويحضر لقراءة درسها في الوقت المعين له وشرط المحبس المذكور أن من غاب عن بيته المذكور أكثر من مدة شهرين لا حق له فيها إذا عاد، بخلاف ما إذا كان أقل من ذلك فحقه باقٍ، إلا في سفر الحج الشريف وعاد من عامه فحقه باق أيضا..."[2].

ونفس الشروط وجدناها واردة أيضا في تحابيس المدرسة الحسينية الكبرى[3] والباشية[4] "... فلا يغيب في السنة في غير سفر الحج، ولا يغيب أكثر من السنة في سفر الحج الضرورة ذهابا وإيابا فيهما ..." كما ترد بعقود التحابيس شروط أخرى، يمكننا أن نعتبرها قانونا داخليا للمدرسة. نذكر على سبيل المثال"حسين بن علي" الذي اشترط في أحد رسوم تحابيسه لفائدة مدرسة القيروان، أن يكون الطلبة المستفيدون من التعليم فيها عُزابا [5]. ونفس الشرط وجدناه متداولا في التحابيس المتعلقة بالمدرسة الباشية ، ومما نصت عليه وقفية "علي باشا" أنه:"... وبشرط كون الطالب للعلم القاصد للسكنى بها عزبا غير متزوج، ولا يسكنها المتزوج البتة فإذا طرأ

---

[1]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 98 .

[2]– "رسم تحبيس للباي حسين بن علي بتاريخ أواخر صفر 1123هـ/ 17 أفريل 1711م" . أنظر : السعداوي، مرجع سابق ، ص 149 .

[3]– "رسم تحبيس للباي حسين بن علي لفائدة مدرسة النخلة بتاريخ أواخر شعبان عام 1126هـ/ سبتمبر 1714م" . نفسه، ص ص 186 ، 187 .

[4]– "رسم تحبيس للباي علي باشا لفائدة المدرسة الباشية بتاريخ أواسط حجة الحرام عام 1177هـ/ 15 جوان 1764م ". نفسه ، ص 441.

5- "رسم تحبيس للباي حسين بن علي بتاريخ أواسط ذي القعدة 1133هـ/06 سبتمبر 1721م" . أنظر:نفسه ، ص 376.

على الساكن بها التزوج وبنى بزوجه سقط حقه منها"[1]. وفي رسم تحبيس آخر لنفس المدرسة وجدنا مصطلح العزبة حيث يذكر المحبّس : "...بشرط العزبة في جميعهم ..."[2].

ومن بين الشروط التي ترد أيضا في رسوم التحابيس إما تكون المدرسة مُحبسة على طلبة المذهب المالكي، مثل المدرسة الحسينية الصغرى والكبرى ومدرسة حوانيت عاشور، أو الحنفي نحو مدرسة الجامع الجديد المدرسة الباشية[3]. كما اشترط "علي باي الثاني" أن يقرأ كل طالب ساكن في المدرسة الحسينية الكبرى حزبا من القرآن الكريم صباحا ، وحزب مسلم في الأسفار[4] .

والجدير بالملاحظة أن هناك اختلاف من حيث التزام الطالب بمواقيت دراسته، فالطالب الزيتوني يتمتع بحرية شبه مطلقة –إن صح التعبير– إذ بإمكانه الالتحاق بحلقات جامع الزيتونة في أي وقت، ولا يُجبر على الانتساب إلى حلقة دون أخرى، كما أنه غير مجبر أيضا التقيّد بأحد الشيوخ. لذلك يستطيع أن ينتقل من حلقة إلى أخرى، وليس من الضروري أن يلازم شيخاً واحداً. وهذا مخالف تماماً لما يقع في المدرسة، فالطالب الساكن بها مجبر على الحضور في وقت معين ولا يغادر الدرس إلا عند انتهاء الشيخ من إلقائه، وليس له أن يختار شيخه بعكس ما يقع في الجامع الأعظم، إذ كان للمدارس نظام خاص بها، ولكل منها ناظر أو شيخ يراقب كل ما يحصل فيها[5].

ونتج عن هذا النظام التعليمي تكاثر عدد الطلبة في الجامع الأعظم، بينما كان عدد الطلبة في المدارس محدوداً لا يمكن أن يتجاوز رقماً معينا. ففي غالب الأحيان يحدد منشئ المدرسة عدد الطلاب الذين يُسمح لهم بالإقامة فيها، وفي غالب الوقت يكون موافقا لعدد غرفها. وهذا ما يوضحه الجدول التالي:

جدول رقم (3): نماذج لبعض المدارس بعدد غرفها وطلبتها [6] .

---

[1]– "رسم تحبيس للباي علي باشا بتاريخ أواسط ذي الحجة 1177هـ/15 جوان 1764م لفائدة المدرسة الباشية". أنظر : السعداوي، مرجع سابق، ص 441 .

[2]– نفسه، ص 452 .

3– نفسه، ص ص 149 - 452 .

[4]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق،ص 100 .

[5]– ابن مامي، تاريخ التعليم بجامع الزيتونة ...، مرجع سابق، ص. ب . ت .

[6]– تم تقديم الإحصائيات من عقود التحابيس التي نشرها السعداوي، مرجع سابق . أنظر أيضا: المعموري، وثيقة عن تحابيس ...، مرجع سابق، ص 259 .

المدرسة	عدد غرفها	عدد طلبتها
الحسينية الصغرى	10	10
النخلة	14	14
الجامع الجديد	15	15
الحسينية بالقيروان لمؤسسها الباي "حسين بن علي"	12	10
الحسينية بصفاقس لمؤسسها الباي "حسين بن علي"	12	12
الكيلانية بنفطة لمؤسسها الباي "حسين بن علي"	12	12
حوانيت عاشور	25	24
الباشية	13	13
الحسينية الكبرى	40	39
الطابعية	39	38

لكن ما تجدر الإشارة إليه أن عدد الطلبة بالمدارس المذكورة، لا يمثل العدد الكلي والإجمالي للطلبة وإنما هناك عدد آخر للطلبة غير مقيم بتلك المدارس، وهم من سكان الحاضرة، يقيمون فيها صباحا ويغادرونها مساءً.

ومن الطبيعي جداً أن يزداد عدد الطلبة في مدرسة يدرّس بها شيخ يتمتع بشهرة كبيرة. ولذلك يتجاوز عدد الدّارسين في بعض المدارس بكثير عدد القاطنين بها. لأن دخول المدرسة وتلقي الدروس بها ممكن أيضاً لمن لا يقطن فيها. وفي بعض الأحيان يفضل الطالب تلقي الدروس عن شيخ مدرسة على الاتجاه إلى الزيتونة، نظراً للمستوى العلمي الهام الذي يتمتع به شيخ تلك المدرسة[1]. أمثال الشيخ "إبراهيم الرياحي" الذي ازدحمت الأفواج على دروسه التي كان يقدمها بمدرسة بئر الحجار[2].

[1]– ابن مامي، تاريخ التعليم بجامع الزيتونة....، مرجع سابق، ص. ب. ت.

[2]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 74 .

أما بالنسبة لمكان إقامة الطالب، ذكرنا سابقا أنه يقيم بالمدرسة التي يريد الالتحاق بها. لكن هل كان كل طالب يأتي إلى مدينة تونس يتحصل على مسكن في مدرسته؟ هل كان الطالب يختار هو المدرسة التي يقيم بها ؟ أو يتم اختيارها له ؟

إن المتصرف الوحيد في غرف المدارس هو وكيل الحبوس والأوقاف، وإذا لم يوجد هذا الأخير يتولى الأمر شيخ المدرسة بنفسه، حيث يوفر السكن للطلبة حسب عدد الغرف المتوفرة ، وحسب الشروط التي يضعها المحبس في رسم تحبيسه. أما في حال ما لم تتوفر أي غرفة شاغرة. فعلى الطالب أن يفتش عن مسكن خاص وأن يُعوّل على نفسه[1]. وما على الطالب إلا الانتظار حتى تشغر غرفة بإحدى المدارس، وإن لم تكن له إمكانية اكتراء غرفة أو السّكن في منزل أحد أقربائه القاطنين في مدينة تونس، فإنه يضطر أنذاك للرجوع إلى مدينته، والانقطاع عن التعليم تماما[2].

وللإشارة فإن هناك مدارس أخرى خصصت لإقامة الطلبة الذين يزاولون دراستهم بجامع الزيتونة القادمين من خارج مدينة تونس، بعد أن فقدت مهمة التدريس بها، فأصبحت خالية من الطلبة والشيخ المدرس، كالمدرسة الحكيمية، وبن متيشة، وتافرجت[3]. ويخبرنا "ابن الخوجة" أن توزيع بيوت المدارس على الطلبة موكول إلى مجلس تابع لمشيخة التعليم بالجامع [4].

إن الدارس لحياة الطالب القادم من خارج مدينة تونس، تبدو أنها صعبة لا يتحملها إلا من قرّر التضحية لبلوغ مُناه، فهؤلاء الطلبة يجلبون من منازلهم الطعام الكافي، ويطبخونه بأنفسهم. لكن الكثير منهم لا يمكن لهم ذلك، نظرا لفقرهم المدقع[5]. فقد كان "علي النوري" (ت 1117هـ/ 1706م) لا يجد ما يأكله، فيلجأ إلى غلي التمر في الماء لشربه[6]. لذلك فقد كان الكثير من الطلبة لا يمكنهم العيش إلا بمساعدة بعض العائلات الثرية بمدينة تونس، فقد كانت ترتب لطلبة العلم "الداقرة" وهو إناء يملئ بالطعام، ويؤتى به عند الظهر أو عند المغرب. كما تُرسل القِصاع إلى طلبة العلم في المدارس في الأفراح والأقراح[7]. ومن بين العائلات التي اشتهرت بإطعامها

[1]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 100 .

[2]– نفسه .

[3]– أ . و . ت، س . ت، صد 63، م 739، "قائمات إحصائية لمدارس الحاضرة وبيان بعض مصاريفها "، وث 02، 03 .

[4]– ابن الخوجة، صفحات من تاريخ...، مرجع سابق، ص 288 .

[5]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 102 .

[6]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 359 .

[7]– الكعاك، مرجع سابق، ص 108 .

لطلبة العلم عائلة "لخوة"[1] التي كانت تطعم الطلبة الفقراء المقيمين بالمدرستين الحسينية الكبرى والصغرى، المجاورتين لمسكن هذه العائلة بصفة دائمة صباحا ومساءً –الغذاء والعشاء–[2]. كما نذكر الوجيه "إسماعيل بن مامي" الموكل على مدرسة بئر الحجار الذي كان يطعم العديد من طلبة المدرسة التي كان يشرف عليها، في سقيفة داره الكائنة في نفس الشارع الذي توجد فيه المدرسة[3]. وعُرفت أيضا عائلة "عزوز" بزغوان بكرمها وإطعامها الطعام للطلبة[4]. كما كان بعض الحكام يقدمون إعانات من الطعام للطلبة، فقد كان الباي "حسين بن علي" يرسل في كل سنة الطعام والقوت للطلبة والمقيمين بمدرسة جربة[5].

وللإشارة فإن الطلبة كثيرا ما كانوا يعانون من تأخر منحهم أو أحيانا حتى انقطاعها تماما، فقد اشتكى تلامذة الشيخ "ابن ملوكة" بالمدرسة الجديدة – الحسينية الكبرى– من توقف منحتهم مدة خمسة أشهر، وفي المقابل تم زيادة مرتب كل من الوكيل والشاهدين بالرغم من أن ريع الأوقاف المخصص للمدرسة لا يكفي لتسديد الزيادات في المرتبات، وهذا ما أدى حسب رأيهم إلى حرمانهم من منحتهم[6].

ونظرا للظروف المادية الصعبة التي كان يعيشها أغلب الطلبة المغتربين، فقد كان لزاما عليهم اللجوء إلى امتهان الحرف والصنائع خارج أوقات الدراسة لإعانة أنفسهم. وتمدنا المصادر بالعشرات من أسماء الطلبة، نذكر على سبيل المثال "علي النوري" الذي انتقل من صفاقس إلى تونس لإتمام مساره العلمي، وليُعيل نفسه كان يقوم بخياطة الأثواب[7]. أما الطلبة في الأرياف، فكانوا كثيرا ما يخرجون في مواسم الحصد والدرس مع الفلاحين، للإنفاق على أنفسهم. وهناك من كانوا يخرجون ويطوفون على الفلاحين عارضين ألواحهم مكتوب عليها بعض الآيات القرآنية

---

[1]– هي من أثرى العائلات بمدينة تونس، من أصل أندلسي طُردت من الأندلس سنة 1018هـ/ 1609م ، خلال الطرد الجماعي الذي شهده المسلمون في بداية القرن 10هـ/ 17 م. تمكنت من جمع ثروة كبيرة من صناعة الشاشية التي جاءوا بها من إسبانيا. يقع منزل هذه العائلة بنهج سيدي الصّوردو بالقرب من تربة الباي "حسين بن علي" والجامع الجديد والمدرستين الحسينيتين الصغرى والكبرى . لمزيد من المعلومات أنظر :
Jacques Revault, Palais et demeures de Tunis XVIIIème et XIXème siècles, Ed C.N.R.S, Paris, 1971,T 2, p p. 150- 152 .

[2]- Ibid., p. 151 .

[3]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص0 102 .

[4]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج8، ص 20 .

[5]– خوجة ، مصدر سابق، ص 132 .

[6]– أ. و. ت ، س . ت، صد63، م 740، "رسالة من تلامذة الشيخ بن ملوكة بالمدرسة الجديدة إلى الوزير الأكبر "مصطفى خزندار"، ب. ت، وث 05 .

[7]– خوجة، مصدر سابق، ص 127 . أنظر أيضا: مقديش، مصدر سابق، مج 2، ص 367 .

لتحريك مشاعر الفلاحين، والحصول على بعض الإحسانات. والطريف في الأمر أنه حدث وأن تقدم طالب من فلاح بخيل وطلب منه الإعانة، لكنه أعرض عنه قائلا:

أنا في الزفزافي والنفنافي، وأنت في المدرسة دافي.

والله لا صحلك لا من الكرفة، ولا من الصافي[1].

ومجمل القول، أنه بالرغم من الصعوبات التي يعيشها الطالب التونسي، إلا أن "الورثيلاني" يقارنه بالطالب الجزائري ويذكر أن ظروف وتكلفة دراسته أيسر بكثير وأحسن مما هي عليه بالجزائر، حيث أن تكاليف دراسة الطلبة تستلزم الكثير، وهذا ما يؤدي إلى انقطاع البعض منهم عن التعليم عندما تنقطع التكلفة[2].

2.2.رحلة الطلبة للعلم:

تعتبر الرحلة طلبا للعلم مهمة جليلة، حثّ عليها القرآن والسنة، أهدافها في الأساس تربوية تعلُميّة[3]. وهناك من العلماء والمؤرخين من أشادوا بضرورة ارتحال الطالب، منهم "ابن خلدون" الذي يذكر في مقدمته أن "الرحلة لا بدّ منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ، ومباشرة الرجال"[4]. لذلك كان لا بد على الطالب الارتحال والانتقال لطلب العلم، فمن دواخل البلاد ينتقلون الطلبة ويقطعون مئات الكيلومترات إلى الحاضرة تونس للالتحاق بجامع الزيتونة، وهناك من يخرج كليا من البلاد متجها نحو المشرق الذي كان هو الآخر مصدرا من مصادر اكتناز المعرفة.

ويعتبر الحج أهم طريق اتخذه المرتحلون المغاربة نحو الشرق، فالحاج يؤدي فريضة الحج، وفي نفس الوقت يتصل بكبار الفقهاء والعلماء ليستفتيهم ويتعلم منهم أصول الدين الإسلامي[5]. كما كانت تُغتنم فرص الرحلات خارج الإيالة للحصول على الإجازات، ومن ذلك نذكر العالم "محمد زيتونة" (ت 1138هـ/ 1726م) الذي قال عنه صاحب الشجرة أنه أجاز وأُجيز أثناء تواجده

---

[1]– قاسم، مرجع سابق، ص ص 187، 188 .

[2]– الورثيلاني، مصدر سابق، ص 781 .

[3]– أسماء خوالدية، "الوظائف التعليمية لزوايا الجنوب الغربي للبلاد التونسية خلال العصر الحديث: بين حُلوة المعلم ورحلة المتعلم"، أعمال الندوة العلمية الدولية بعنوان: "حركة المعارف والمؤسسات التعليمية بالمجال العربي والمتوسطي"، إعداد وتنسيق مختار العياشي، ط1، تونس، 2017م، ص ص 373، 374.

[4]– ابن خلدون، مصدر سابق، ص 464 .

[5]– الحناشي، مرجع سابق، ص 81.

بمصر والإسكندرية والحرمين[1]. كما أُجيز "أحمد برنار" (ت 1138هـ/ 1726م) أثناء تواجده بالجزائر بمنطقة الزواوة من طرف الشيخ "أحمد البصير البرغوثي" في أوراد لقنه إياها[2]. كما أجاز وأُجيز "إبراهيم الرياحي" أثناء تواجده بمصر[3]. وعاد "محمد سعادة"(ت 1171هـ/ 1757م) بعد رحلته التي قام بها بغرض طلب العلم إلى المشرق واستانبول "وبيده إجازات من كافة مشايخه"[4].

ولعل أن هناك جملة من الدوافع العامة للرحلة في طلب العلم خاصة منها إلى المشرق، أهمها، أداء فريضة الحج لزيارة بيت الله الحرام وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وما تتيحه من فرصة اللقاء والتعارف بين العلماء والتلّقي عنهم[5]، فيحدث بذلك تبادل ثقافي وعلمي فيما بينهم. وكان العلماء المغاربة بصفة عامة، يتوقفون بالعواصم العربية لأخذ العلم أو إعطائه، مثل الزيتونة بتونس والإسكندرية والقاهرة والقدس ودمشق وبغداد والمدينة المنورة، ومكة المكرمة. وكان أصحاب تلك الرحلات غالبا ما يسجلون ملاحظاتهم في مؤلفات تعرف "بالرحلات الحجازية". هذه الأخيرة التي كانت تحتوي على المسالك والمحطات التي مر بها صاحبها، كما يتم ذكر العلماء والصالحين الذين التقى معهم أو زار أضرحتهم وزواياهم. فتصبح تلك الرحلات مرجعا للباحثين لدراسة الحياة الاجتماعية والثقافية وحتى الجغرافية والاقتصادية والسياسية، لمعظم الأقطار التي توقف عندها صاحب الرحلة[6] .

كما تتيح الرحلة لطالب العلم الرحالة، فرصة جمع الحديث النبوي الشريف وحفظه، لما له من أهمية تشريعية وعلمية بعد القرآن الكريم، وسماعه من الشيوخ هو شرط لتولي الرواية أو التدريس لحفظ السند. ومن بين الدوافع للرحلة أيضا، إستشعار فضل العلم وثواب طلبه وتعليمه من الآيات الأحاديث التي جعلت طلبه وتعليمه في مرتبة الجهاد في سبيل الله[7]، بل وأفضل من صلاة النافلة. بالاضافة إلى توفر الظروف والعوامل التي ساعدت على الرحلة، ومن ذلك وحدة البلاد الإسلامية السياسية والدينية وحتى الثقافية واللغوية. وروح المغامرة وحب الاستطلاع لاكتشاف البلاد

[1]– مخلوف، مصدر سابق، ص 325 .

[2]– خوجة، مصدر سابق، ص 232 .

[3]– محفوظ، مرجع سابق، ص ص 391، 392 .

[4]– السنوسي، مصدر سابق، ج2، ص 171.

[5]– خوالدية، مرجع سابق، ص 375 .

[6]– أرزقي شويتام، "العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية – الفترة العثمانية– "، م . د .ت، ع 13، 2011م، ص 82 .

[7]– عن أنس بن مالك قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع".

وأحوالها. وتكافل المجتمع الإسلامي بأقطاره وعلمائه وأغنيائه مع طلاب العلم وتقديم الدعم لهم، لا سيما الفقراء منهم. حيث سهلت الدولة حركتهم، وإقامتهم في دور الضيافة والمساجد بأجور رمزية. بالإضافة الى الأوقاف المخصصة لطلبة العلم[1].

وللإشارة فإن هناك دوافع أخرى تجبر طالب العلم بصفة عامة والعلماء بصفة خاصة، إلى الهجرة والخروج من بلده، ويمكننا أن نقول عنها أنها هجرة إجبارية. وتعود أسبابها إلى معارضتهم للنظم السائدة في بلدهم، مما كان يعرضهم للمضايقات والاضطهاد. فكلما ضاقت بهم السبل في بلدانهم، انتقلوا إلى إحدى الدول التي توفر لهم الأمن والاستقرار[2]. ومن أولئك الذين هاجروا وهم مجبرين، العالم "صالح الكواش"(ت سنة 1218هـ/1803م)، الذي غادر مسقط رأسه تونس إلى طرابلس الغرب ومنها إلى أزمير ثم إلى إستانبول، فرارا من بطش الباي "علي باشا" الذي اتهمه بالتعامل والميل لصالح أبناء عمه "حسين بن علي" الذين كانوا متواجدين بالجزائر[3].

إذن كان الرحالة في سبيل العلم يكرسون جهودهم للاستفادة العلمية، عن طريق ما يُلقى من دروس في مختلف المراكز العلمية الواقعة على طريق الحج أو عن طريق شراء الكتب والمخطوطات للاستفادة منها أو المتاجرة بها، فضلا عن ربط علاقات صداقة والاتصال المباشر بين مختلف طلبة العلم[4]. وبذلك يتفتح ذهنه على تيارات مختلفة، ويأخذ العلم بطرق متباينة ويستفيد من عدد لا يحصى من العلماء[5].

ومنه يمكننا أن نميز بين نوعين من الرحلة: رحلة داخلية، تكون كما سلفنا الذكر بالانتقال من مكان الإقامة إلى تونس الحاضرة. ورحلة خارجية، وتكون بالخروج كليا من البلاد والاتجاه إلى دول أخرى. والجداول التالية توضح أسماء الطلبة المرتحلين لطلب العلم:

جدول رقم (4): الطلبة الوافدين على الحاضرة لطلب العلم[6]:

---

[1]– خوالدية، مرجع سابق، ص ص 375، 376 .

[2]– شويتام، مرجع سابق، ص 83 .

[3] – ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 44 .

[4]– دلندة الأرقش، عبد الحميد الأرقش، جمال بن طاهر، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي،تونس، 2003م، ص ص 290، 291 .

[5]– المعموري، جامع الزيتونة ومدارس العلم...، مرجع سابق، ص 22 .

[6]– تم رصد قائمة الطلبة من المصادر والمراجع التالية : خوجة، مصدر سابق . وابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7و8 . وكذلك: مقديش، مصدر سابق، مج2. وأيضا: الميزوري، مرجع سابق، ص ص 142– 149 .

الطالب	منطقته	نسبة الوفود %
حسن الهدّة	سوسة	9.09
علي السقّا		
علي بن علي زيد المعروف بالزرلي		
محمد بن محمد بوراس	القيروان	27.27
عبد اللطيف الطّوير		
أبو الطيب صدام		
أبو بكر صدام		
محمد قلّالة		
عبد الرحمان الكامل		
عمر أبو حدية		
علي الحليوي		
أحمد بورقعة		
محمد الفراتي	صفاقس	24.24
محمد الشّرفي		
أحمد مزيو		
علي ذويب الصفاقسي		
علي الغراب		
أحمد بن أحمد الشّرفي		
أبو محمد حسن الشرفي		
الطيب الشّرفي		
يوسف ذو النون	باجة	3.03
نصر الكافي	الكاف	6.06
أحمد بن حسين		
محمد بن سعيد	المنستير	3.03
إبراهيم الرياحي	تستور	6.06
حمودة الطرابلسي		
محمد المسعودي	جبل وسلات	6.06

أحمد بوخريص	جبل وسلات	3.03
إسماعيل التميمي	منزل تميم	9.09
محمد التّميمي		
أحمد بن سليمان		
محمد الجندوبي	جندوبة	3.03
المجموع: 33		100

نستنتج مما تقدم أن وفود الطلبة إلى الحاضرة شمل مختلف جهات البلاد، والظاهر أن القيروان شملت الحصة الأقوى في الترحال لطلب العلم. وربما راجع ذلك إلى ماضيها العلمي حيث كانت مهد الحضارة الإسلامية بشمال إفريقيا[1]. وللإشارة فإن أغلب هؤلاء الطلبة بعد إتمامهم لدراستهم، يعودون إلى مسقط رأسهم للعمل هناك[2].

جدول رقم (5): الطلبة المهاجرون لطلب العلم[3]:

الطالب	موطنه	المنطقة المُهاجَر إليها
محمد بن حسن الهدّة	سوسة	مصـــــــــــر
صالح بن عبد الجبّار	قبيلة الفراشيش	
محمود مقديش أبو الحسن علي الأومي محمد بن مؤدب الشّرفي أبو عبد الله محمد بن حسن الشرفي أحمد بن علي بن الصادق الطرابلسي الحامدي	صفاقس	
عبد الرحمان بن جاد الله البنّاني	المنستير	
محمد بن علي بن خليفة الغرياني	جربة	

[1]– الميزوري، مرجع سابق، ص 150 .

[2]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 98 .

[3]– تم رصد قائمة الطلبة من المصادر والمراجع التالية : خوجة، مصدر سابق. وابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7و8 . وأيضا: مقديش، مصدر سابق، مج2. أنظر أيضا: محفوظ، مرجع سابق، ج1و2. والميزوري، مرجع سابق، ص ص 142– 149 .

عبد العزيز الفراتي	تونس	
عمر بن أحمد الكديسي	باجة	
صالح الكواش	الكاف	ليبيا ثم إستانبول
عبد الرحمان بكار	صفاقس	إستانبول ثم مصر

ويمكننا بيان نسبة هجرة الطلبة حسب مواطنهم، من خلال الشكل البياني التالي:

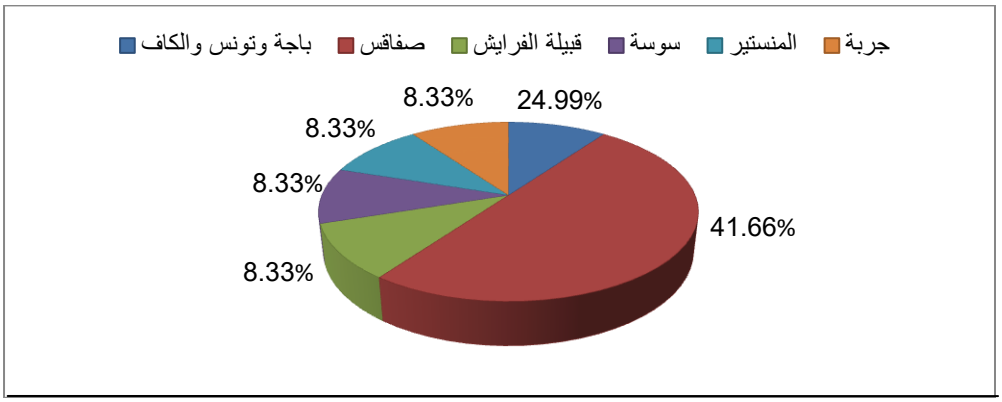

إن المتأمل في الجدول وفي الرسم البياني يلاحظ بوضوح أن الطلبة الصفاقسيون يمثلون النسبة العالية من مجموع الطلبة المهاجرين إلى الشرق خاصة إلى مصر، فقليلا ما نقف على ترجمة طالب صفاقسي، لم تكن له رحلة علمية إلى الديار المصرية[1]. ولعل ذلك راجع إلى العلاقات التجارية والعلمية التي كانت تربط الشعبين الصفاقسي والمصري[2]. فالكثير منهم كان يهاجر لسببين لطلب العلم من جهة، وممارسة التجارة من جهة أخرى، فقد كان "محمود مقديش" يقوم خلال تواجده بالأزهر بنسخ الكتب الثمينة، ثم يأتي بها إلى بلده صفاقس، ويبيعها لعلماء المدينة. ويترك محصول ذلك لزوجته وأولاده. ثم يعود إلى القاهرة لاستكمال دراسته[3]. ولعل من أشهر العائلات الصفاقسية التي جمعت بين طلب العلم والتجارة بمصر عائلة "النوري"[4]. ما ذكرناه يخص الطلبة

[1]– الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص 294 .

[2]– عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517– 1798م)، م. ت. مغ، تونس، وديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص 13.

[3]– مقديش، مصدر سابق، مج1، ص 13 .

[4]– الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص 296 .

التجار –إن صح التعبير–، لذلك نتساءل عن مصير الطالب الذي لا يملك دخلا ولا يمارس أي حرفة، كيف كان يكسب رزقه حتى يتسن له إتمام دراسته في الأزهر؟

لقد كان أغلبهم يقيمون برواق المغاربة[1]، الذي كان يأوي إليه معظم طلاب أقطار المغرب العربي، وهو من أكبر الأروقة الأزهرية عددا، قدر عدد نزلائه سنة 1290هـ/ 1873م بـ 114 طالب، من جملة 10.216 طالبا أزهريا، والتونسيون هم العنصر الغالب بينهم، وأكثر هؤلاء من صفاقس وجربة. وكان يسكن في كل غرفة طالبان أو ثلاثة، وجميع طلبة الرواق هم تحت نظر شيخ المغاربة الذي كانوا ينتخبونه من بينهم بإشراف شيخ الأزهر. وإلى جانب المقيمين بالرواق نجد طلبة آخرين يكونون مجموعات صغيرة تؤجر منازل خارج الرواق، وهذا راجع إلى تزايد عدد الطلبة المغاربة، وضيق رحاب الرواق[2]، وربما لاعتبارات أخرى كأن يكون الطالب متزوجا وله أسرة، فلا يمكنه الإقامة بالرواق.

أما عن مصادر عيشهم ووضعهم المادي فكان لا يختلف كثيرا عن وضع زملائهم في تونس. ذلك أن عددا هاما منهم كان يعيش على الصدقات والإعانات من التجار المغاربة الأثرياء، الراغبين في أعمال الخير والبر ومشجعي العلم. وكذا إعانات ومساعدات من الأثرياء المقيمين بتونس. كما كان للعقارات الموقوفة على رواق المغاربة في داخل المدن المصرية وخارجها دور كبير في دعم طلبة العلم [3].

ينظم الطالب التونسي الوافد على جامع الأزهر إلى الحلقات اليومية لقراءة القرآن، فهناك حلقة العشرة من التونسيين وحلقة العشرين من المغاربة. مقابل إعانة مالية شهرية وأرغفة من الخبز. وكان أغلب الطلبة ينتظرون شغورا في حلقة الستين، لأن مبلغ الإعانة وعدد الأرغفة في هذه الأخيرة أكثر من الأولى. وفي حالة ما إذا لم يجد الوافد شغورا في الحلقتين، فعليه الانتظار ويتقاضى خلال مدة انتظاره بعض الإعانات من الأزهر ذاته. في المقابل هناك من الطلبة من كان يلجأ إلى احتراف بعض المهن للحصول على المال، كنسخ المصاحف بالخط المغربي، أو نسخ

[1]– رواق المغاربة: يعتبر من أقدم الأروقة بجامع الأزهر، ويقع بالجانب الغربي من صحن الجامع، وعلى يمين باب المغاربة يوجد أبواب الأزهر التسعة الرئيسية القديمة. وقد جدده السلطان "قايتباي" – أحد سلاطين الدولة المملوكية –. كان للرواق بابان، به أعمدة من الرخام الأبيض. وفيه مساكن علوية ومكتبة كبيرة، كانت مفتوحة أمام طلاب العلم من المغاربة وغيرهم من الطلاب والعلماء. وأصبح الرواق مع مرور الوقت بمثابة مؤسسة ثقافية واجتماعية تقدم خدمات لأبناء المغرب على مختلف مواطنهم، ترعاهم مدة دراستهم في الأزهر. أو أداء مهمتهم العلمية فيه إذا كانوا من المدرسين. وأصبحت له إدارة خاصة به ترعى شؤونه وتُشرف على مرافقه. لتفاصيل أكثر. أنظر: عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ص 99 – 104 .

[2]– الزيدي، مرجع سابق، ص ص 81، 82 .

[3]– عبد الرحيم، مرجع سابق، ص 100 .

أمهات الكتب المصرية لبيعها أثناء عودتهم إلى وطنهم من حين لآخر[1]، كما كان يفعل المؤرخ الصفاقسي"مقديش" أثناء تواجده بالأزهر[2].

وأخيرا يمكننا القول أنه بالرغم من المصاعب التي كان يعيشها الطالب التونسي المهاجر إلى مصر، لكن الشيء الجميل والايجابي أنه لم يكن يشعر بالغربة مدة إقامته هناك. لأنه كان يلتقي بالعديد من سكان وأهل منطقته، سواء تجارا أو طلبة أو حتى مدرسين وعلماء.

لكن المثير للانتباه أن هجرة الطلبة تقلصت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فحسب الدراسات يبدو أن تحسن الأوضاع السياسية والاقتصادية كان لها دور كبير في تقلص هجرة الطلبة التونسيين إلى المشرق العربي عموما ومصر خصوصا. فقد أصبح الجيل الأول من العلماء الذين تتلمذوا بالمشرق قادرين على نشر العلم في تونس. كما تمكنت البيئة الزيتونية من استيعاب الطلبة المحليين، وأصبح الجامع الأعظم مركز استقطاب العلماء المغاربة، فضلا عن تدفق عدد من العلماء المشارقة ولاسيما من إستانبول على الإيالة التونسية[3]. ومن هنا يمكننا القول أن تونس أصبحت من أهم المراكز العلمية المغاربية التي تستقطب عددا هاما من العلماء من مختلف الجهات .

3.2. علاقة الطالب بشيخه :

إن العلاقة التي تربط الطالب بشيخه هي علاقة تقوم في أساسها على التقدير و الاحترام، فطلبة العلم يُكِنُّون كل التقدير لمدرسيهم ويحترمونهم حق الاحترام. لأن الأستاذ كالأب للطالب، بل أعظم لأن أباه أخرجه إلى دار الفناء ومعلمه دله على دار البقاء[4]. وقد حفظت لنا المصادر أسماء من المدرسين والطلبة الذين كانت تجمعهم روابط المحبة والاحترام كمعاملة الآباء للأبناء والأبناء للآباء. فقد كان "الشيخ الغرياني" رحيما بطلبته، خاصة الغرباء منهم فيأخذ بيدهم ويساعدهم[5]. كما كان "حسن الشريف" (ت 1234هـ/ 1819م) يفاكه تلاميذه في الدرس خشية سآمتهم[6]. ويذكر "حسين خوجة" العلاقة القوية والمتميزة –إن صح التعبير– بينه وبين

[1]– الزيدي، مرجع سابق، ص ص 84، 85 .

[2]– مقديش، مصدر سابق، مج1، ص 13 .

[3]– الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص ص 296 ، 297 .

[4]– ديب، مرجع سابق، ص 131 .

[5]– الورثيلاني، مصدر سابق، ص 767 .

[6] – ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 70 .

شيخه "علي الصوفى"، قائلا: "فأخصني وأكرمني وأعزني وأحظاني". وعن حسن علاقة الشيخ بتلميذه، يصورها لنا "السنوسي" في علاقة جده "محمد" بشيخه "صالح الكواش" فهي علاقة أقل ما يقل عنها علاقة وفاء وتقدير واحترام، فقد كان جدّه مثال الطالب البار والوفي لمعلمه، والشيخ "الكواش" مثال المعلم الرؤوف والرحيم والمساعد لطالبه. واستمر الوفاء حتى بعد وفاة شيخه، فقد سكن منزله، ورفض أن يغير شيئا من بنائه، فقد طُلب منه تغيير باب الدار فقال: "لا أغيّر حلقة مستها يد شيخي ولا بابا رضيه شيخي"، كما كان لا يتخلف عن زيارة قبره كل جمعة[1]. أي أن الوفاء يستمر حتى بعد الممات .

والظاهر أن العلاقة بين الطرفين تصل أحيانا إلى درجة محاباة الشيخ المدرس للطلبة القادمين من نفس المنطقة التي ينتمي إليها أو من مسقط رأسه، حيث نجدهم يتحلقون بقربه ويسكنون معه في نفس المدرسة. وبالتالي يكون مدرسهم حاميهم والمسؤول الأول عنهم[2] .

إن هذا لا يعني غياب الصرامة التي يجب أن تكون إلى جانب المعاملة الطيبة، فقد كان "أحمد شريف"[3] صارما ولا يقبل أي إزعاج أثناء الدرس، "فلا يستطيع أحدا أن يمشي في المدرسة بنعله خيفة التشويش عليه"[4]. كما كان الشيخ "محمد غماري"[5] في درسه "كالأسد، شديد الضبط على الطلبة، لا يسامحهم في الإعراب ولو بما قل"[6]. والظاهر أن هذا التصرف لا يقوم به إلا من كان متمكنا في علمه، ومتميز بالمستوى العلمي العالي.

ونخلص من خلال ما ذكرناه، أن حسن معاملة الشيخ لتلميذه من شأنه أن يولد الحب والتقدير والاحترام، ويجعل الطالب يتشبث بشيخه، طالبا الودّ والتبرك به. إن هذا السلوك والخُلق الجميل كفيل بتحبيب العلم إلى طالبيه وهو أسلوب تربوي يوطد العلاقة بين الأستاذ والطالب ويمتنها ويحبب إليه مجلس العلم والعلماء. فلاشك في أن مثل هذا الخُلق الكريم هو الذي دفع الملوك والخاصة والعامة من الناس إلى تثمين قدر المعلم وتعظيمه عرفانا بجميله[7]. وللشاعر "أحمد شوقي" بيت شعري رائع يبين فيه عظمة ومكانة المعلم، يقول فيه:

---

[1]– السنوسي، مصدر سابق، ج3، ص ص 102، 103 .

[2]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 101 .

[3]– تولى التدريس في المدرسة اليوسفية. للاطلاع على ترجمته أنظر: خوجة، مصدر سابق، ص 170 .

[4]– نفسه .

[5]– للاطلاع على ترجمته أنظر: نفسه، ص ص 204 ، 205 .

[6]– نفسه، ص 205 .

[7]– ديب، مرجع سابق، ص 135 .

قم للمعلم وفه التبجيلا *** كاد المعلم أن يكون رسولا

4.2. تشجيع الحكام لطلبة العلم:

تمثل تشجيع البايات الحسينيين للطلبة في توفير السكن لهم، وتوزيع مال الجزية عليهم ومنحهم إعانات كثيرة[1]. فقد بلغ اهتمام "علي باي الثاني" مثلا بالطلبة وتشجيعه لهم على طلب العلم، إلى درجة إعفائهم من الخدمة العسكرية[2]. كما تضمنت إصلاحات المشير "محمد الصادق باي" (1276- 1299هـ/ 1859- 1882م)، سنة 1279هـ/ 1862م بعض الإجراءات التي من شأنها تدعم التعليم وتزيد من عدد الطلبة[3]، ومن ذلك أنه أصدر أمرا بإعفاء الطلبة المواظبين على دراستهم من أداء الخدمة العسكرية[4]، وأداء المجبى[5] التي كانت تقدر بستة وثلاثين ريالا[6]. كما كان يستفيد الطلبة من منحة غالبا ما تكون متواضعة، عملا بوصايا بعض المحبسين[7]. بالإضافة إلى الجوائز التي كانت تُقدم للطلبة في احتفال فقد كانت تسلم على سبيل المثال ساعات ثمينة لطلبة المدرسة الصادقية[8] النجباء في نهاية السنة الدراسية. تشجيعا وتحفيزا لهم على العطاء والجد .

كما استفاد الطلبة النجباء والممتازين إلى بعثات تعليمية إلى الخارج، منها البعثة العلمية لصالح تلاميذ من المدرسة الحربية بباردو، إلى مدرسة "سان سير"Saint-Cyr " الحربية بفرنسا، وهناك مراسلات في هذا الشأن توضح الإجراءات اللازمة لالتحاق البعثة بالمدرسة[9].

---

[1]– سيتم التفصيل في هاته النقطة أثناء الحديث عن المنحة التي كانت تخصص للطالب. أنظر: الباب الثاني، الفصل الثالث ، ص 324، 325 .

[2]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 298 . أنظر أيضا: الإمام، مرجع سابق، ص 329 .

[3]– بنبلغيث، مرجع سابق، ص 91 .

[4]– أ. و . ت ، س . ت ، صد 63، م 727، "مراسلات صادرة عن المشايخ النظار بجامع الزيتونة متعلقة بالدروس والمدرسين"، وث 33 .

[5]– المجبى: هي ضريبة أحدثها "المشير محمد باشا"(1271- 1276هـ/ 1855- 1859م)، للخروج من الضائقة المالية التي كانت تعيشها الإيالة وقتئذ. وهي عبارة عن مبلغ مالي قدره 36 ريالا، يدفعها في كل سنة الرجال القادرون من سكان الإيالة. على أساس أنها ضريبة مؤقتة يتم إبطالها متى تحسنت الظروف، لكن الضريبة بقيت واستمر السكان يدفعونها مكرهين. وكانت سببا في قيام التمردات والثورات في البلاد، منها "ثورة ابن غذاهم" سنة 1281هـ/ 1864م. أنظر: عبد الوهاب، خلاصة تاريخ...، مرجع سابق، ص 171 .

[6]– أ. و . ت ، س . ت ، صد 63، م 738، أمر علّي بتاريخ 29 رمضان 1279هـ/19 مارس 1863م، وث 01 .

[7]– يمكن الإطلاع على رسوم التحابيس التي تشير إلى هاته المنحة. أنظر: السعداوي، مرجع سابق .

[8]– أحمد عبد السلام، المدرسة الصادقية والصادقيون، ط1، بيت الحكمة، تونس، 1994م . ص 121 .

[9]– أ. و . ت، س . ت، صد 138، م 1019، "مراسلات خاصة بتوجيه تلميذين من المدرسة الحربية بباردو للدراسة بسان سير بفرنسا وأخرى تتعلق بإرسال إطارات من وزارة الحرب الفرنسية لإدارة المدرسة الحربية بباردو"، وث 20– 33 .

كما تفيدنا المراسلة المؤرخة في 27 ذي الحجة 1298هـ/ 19 نوفمبر 1881م، من مدير المدرسة "حسن المتالي" إلى الوزير الأكبر "مصطفى بن إسماعيل"، طلب إرسال خمسة طلاب نجباء وهم: "محمد بن محمد المعتمري"، و"البشير بن مصطفى صفر"، و"الطاهر بن محمد القلال"، و"العربي بن الباجي بن عمر"، و"حسن بن محمود بن الوحشيه"، من المدرسة الصادقية، إلى مدرسة "سان لويس""Saint-Louis " بفرنسا لمواصلة تعليمهم العالي، بعد بلوغهم رتبة القسم السابع بالمدرسة[1].

ولم تكن وجهة البعثات الطلابية نحو باريس فقط، بل هناك من تم إرسالهم إلى الأستانة، حيث تم في 04 ربيع الثاني 1298هـ/05 مارس 1881م، إرسال ثلاثة طلاب لإتمام دراستهم بمكتب سلطاني، وهم: "رشيد أبو محمود" ومصطفى بن يحي"، "والطاهر ثابت"[2]. وفي هذا السياق تحصلت الوزارة الكبرى قبل إرسال البعثات الطلابية إلى الأستانة على تقرير من طرف"عمر أفندي" بتاريخ 10 محرم 1298هـ/12 ديسمبر 1800م، جاء للإجابة عن استفسارات الوزارة حول المعاهد المتوفرة هناك. وأهم ما جاء في التقرير: أن هناك أربع مكاتب، مكتب سلطاني، ومكتب دار المعلميه، ومكتب الملكي، ومكتب الإعدادية لمكتب الحربية. كما يحتوي التقرير على معلومات تخص شروط الالتحاق بكل مكتب، والسن الذي يقبل فيه الطالب، وغيرها من التفاصيل[3].

لكن ما تجدر الإشارة إليه أنه بالرغم من وجود الكثير من المراسلات التي تؤكد حقا على إرسال بعثات تعليمية إلى الخارج، والتي يعود تاريخها إلى سنة 1291هـ/1874م. إلا أن إرسال الطلاب كثيرا ما كان متأخرا، والدليل على ذلك تلك الرسالة المؤرخة في 05 ذي الحجة 1299هـ/17 أكتوبر 1882م. والتي تحمل إمضاءات خمس طلبة: "محمد البشير صفر"، و"حسن بن الوحشيه"، و"محمد المعتمري"، و"يونس حجوج"، و"رشيد بوعمود".

وقد بين الطلبة من خلال رسالتهم أنهم كانوا ضمن البعثة التي أرسلت العام الماضي أي

---

[1]– أ. و . ت، س . ت، صد 138، م 1019، صد 64، م 746، "مراسلات صادرة عن مدير المدرسة الصادقية إلى الوزير الأكبر متعلقة بالتدريس والمدرسين والطلبة"، وث 30 .

[2]– نفسه، م 752،"مراسلات واردة على الوزير الأكبر خير الدين متعلقة بإمكانية إرسال الأوائل من التلاميذ لمواصلة دراستهم بباريس 1877–1881م"، وث 11 .

[3]– نفسه، وث 01 .

سنة 1298هـ /1881م، ويذكرون أنهم وصلوا متأخرين بنحو شهرين. وعادوا إلى تونس لقضاء العطلة، وهم ينوون الرجوع إلى باريس لاستكمال دراستهم، فأجابهم مدير المدرسة الصادقية أن ذلك يستحيل الآن لعدم وجود المال[1].

وربما تأخر البعثات الطلابية، راجع إلى الصعوبات التي واجهتها الوزارة الكبرى وعلى رأسها "خير الدين"، والمتمثلة في مواجهة المعارضين لبرنامجه الإصلاحي، فهناك بعض المحافظين الذين يعتقدون أن الغرب و مؤسساته التعليمية "ديار كفر"، فلا يجوز إرسال أبناء المسلمين إليها. وربما أيضا يعود إلى الأزمات المالية التي كانت تعاني منها الإيالة آنذاك[2]، كما هو مصرح به من طرف مدير المدرسة.

ومهما يكن من صعوبات أو عراقيل عرفتها الدولة في سبيل المضي قُدُما في تحقيق مشروع البعثات التعليمية. إلا أن الظاهر جلّيا أن طلاب المدرسة الصادقية كانوا محضوضين أكثر من زملائهم بالمؤسسات التعليمية الأخرى، لمواصلة دراستهم خارج إيالة تونس. والحصول على شهادات تساعدهم على تنصيبهم في الوظائف العليا بعد عودتهم إلى البلاد[3].

ومن كل ما تقدم ذكره في هذا الفصل نستطيع الوصول إلى جملة من الاستنتاجات أهمها:

لم تكن هناك مقاييس محددة يخضع لها من يريد احتراف مهنة تعليم الصبيان بالكتاتيب، فقد كان يكفي أن يتميز هذا الأخير بالثقة ويكون خيّرا، حتى يطمئن له أهل الحيّ أو القرية، ويرسلوا له أبناءهم. وفي المقابل لا بدّ من توفر الكفاءة العلمية، التي تعدّ شرطا ضروريا في تعيين الشيوخ للتدريس بالمدارس أو بجامع الزيتونة، وفي مقدمتها الإجازات المتحصل عليها.

تعيين المدرسين بالمؤسسات التعليمية الخاصة، يكون بعيدا عن السلطة ولا دخل لها في ذلك، حيث كان هناك نوع من الاستقلالية في تعيين المدرسين، خصوصا إذا كانت المدرسة أو الزاوية تحت تصرف ذرية وأحفاد المؤسس.

نال المدرسون في غالب الأحيان مكانة مرموقة لدى الجميع، خصوصا إذا علمنا أن الكثير منهم كانت لهم مناصب أخرى هامة، دينية وحتى سياسية. فمهنة التدريس كان لها شأن كبير، فهي تخول لصاحبها الارتقاء إلى مراتب عليا. كما وُجد ارتباط بين المدرسين والسلطة الحاكمة،

---

[1]– أ. و . ت، س . ت، صد 64، م 752، مصدر سابق، وث 14 .

[2]– الميزوري، مرجع سابق، ص 318 .

[3]– محمد بوطيبي، "المعهد الصادقي ودوره في الإشعاع العلمي والفكري التونسي في مطلع القرن العشرين"، م . ب . ت، ع 5، سبتمبر 2018م، ص 171.

فقد حظي المدرسون بمساعدات وامتيازات من طرف الحكام. لكن هذا لم يمنع من وجود اصطدامات بين الطرفين أدت في نهاية المطاف إما إلى القتل أو النفي، وهذا ما حدث كما رأينا مع الشيخين "صالح الكواش" و"إسماعيل التميمي" وغيرهما .

لاحظنا أن للمدرسة نظام داخلي تسير عليه، وواجب على الطالب الالتزام به، على عكس جامع الزيتونة الذي لم تكن حلاقاته مضبوطة بمواقيت معينة، وللطالب الحرية في الانتقال بين حلقات الشيوخ .

كان على الطلبة الوافدين من داخل البلاد –الآفاقيين– التحلي بالكثير من الصبر بسبب الصعوبات التي يتلقوها، إما من ناحية السكن أو الإطعام أو غيرها، لذلك وجدنا في مصنفات التراجم العديد من الطلبة الذين كانوا يلجئون إلى العمل خارج أوقات الدراسة لإعالة أنفسهم. وهناك من كان يضطر للرجوع إلى مدينته، والانقطاع عن التعليم تماما.

كان للرحلة دور كبير في اكتناز المعرفة والتعمق في العلوم من خلال الأخذ على شيوخ ومدرسين مشهورين. ومن بين طرق الرحلة، التوجه إلى المشرق خاصة إلى مصر والحجاز، كما أن هناك من اختار وجهته إلى استانبول. وتوصلنا من خلال دراستنا أن الطلبة الصفاقسيين هم أكثر الطلبة شهرة بالرحلة خاصة إلى مصر، بفعل العلاقات العلمية والتجارية المتجذرة التي تربط الشعبين .

تميزت العلاقة بين الطالب وشيخه المدرس بالاحترام والتقدير والمودة، لأنه كان في منزلة الأب وربما أعظم، لأن أباه أخرجه إلى دار الفناء ومعلمه دله على دار البقاء .

عمل الحكام على تشجيع الطلبة لتحصيل العلم، ولاحظنا أن كل واحد منهم قام بإجراءات حسب الإمكانيات المتوفرة له آنئذ. فتنوعت بين تسهيلات إدارية واجتماعية وحتى مادية .

خاتمة الباب:

من كل ما تقدم ذكره في فصول الباب الأول، يمكننا القول أن البايات الحسينيين اعتنوا ببناء بعض المؤسسات التعليمية وترميم الأخرى، كما لاحظنا أنه لم يقع أي تحديث في محتوى التعليم. فقد بقي المؤدبون يحفظون الصبيان القرآن ويعلمونهم الكتابة وبعض مبادئ الدين في الكتاتيب ذات المحلات المختلفة (الزوايا، المساجد، المحلات ...). ويكفي أن يكون هذا الأخير حافظا للقرآن ويحظى بثقة الأولياء حتى تُوكل له مهمة مؤدب. أما تعيين الشيوخ للتدريس، فكان استنادا إلى الإجازات العلمية المتحصل عليها من طرف شيوخه المدرسين. والجدير بالإشارة أن المناهج التعليمية لم تتغير لفترة طويلة، والدليل على ذلك أن الطلبة كان يدرسون بنفس الكتب التي درس بها شيوخهم. وهذا ما أدى إلى انزلاق التعليم في دائرة التحجّر والجمود الفكري، فانكب المدرسين إلى العلوم النقلية وأهملوا العلوم العقلية .

الباب الثاني:

إصلاح التعليم التقليدي

الفصل الأول:

التعليم التقليدي طور الإصلاح

1. دوافع الإصلاح

1.1.دوافع داخلية

2.1. دوافع خارجية رجال الإصلاح

2. رجال الإصلاح وأفكارهم الإصلاحية

3. المؤسسات التعليمية وأنماط التعليم الأجنبي

1.3.التعليم لدى الجالية الأوربية

1.1.3.تعليم الجالية الايطالية

2.1.3.تعليم الجالية الفرنسية

2.3.التعليم لدى الجالية اليهودية

3.3.تعليم الفتيات المسلمات والأوربيات

1.3.3.تعليم الفتيات المسلمات

2.3.3.تعليم الفتيات الأوربيات

إن الحديث عن التعليم العصري وتحديث التعليم التقليدي، لا يمكن فهم حيثياته أو تناول موضوعه دون أن ندرجه ضمن الإطار التاريخي والحضاري، وهو إطار الحركات الإصلاحية والتحديثية التي شهدها العالم الإسلامي بين 1203 – 1281هـ/ 1789 – 1864م. في كل من مصر والشام والأستانة. لذلك حاولنا وضع الموضوع في قالبه التاريخي، لفهم حيثيات الأحداث .

وفي خِضم تلك الأحداث والتطورات، حاولت إيالة تونس الالتحاق بالركب، لتخوض هي الأخرى التجربة. ومن هذا المنطلق طرحنا الإشكال التالي: ما هي دوافع الإصلاح؟ ومن هي أهم الشخصيات التي تزعمته؟ وهل كان للتعليم الأجنبي دور في تحديث التعليم التقليدي؟

1. دوافع الإصلاح[1]:

يمكن حصرها في :

1.1. دوافع داخلية:

– فساد الوضع المالي للدولة:

فبالرغم من أن "المشير محمد باشا" (1271- 1276هـ/ 1855- 1859م) لم يترك في الخزينة إلا خمسة ملايين ريال، إلا أنه لم يترك دينا على الدولة، كما أنه ترك موارد ثابتة للخزينة، تتمثل في ضريبة "الإعانة" أو "المجبى" والتي أحدثها على كل فرد قادر على دفع 36 ريالا في السنة. لكن بعد أن تولى من بعده أخوه "المشير محمد الصادق باي" (1276- 1299هـ/ 1859- 1882م)، تدهور الوضع الاقتصادي للبلاد، لأن هذا الأخير كان محبا للترف وإنفاق المال بدون حساب. كما كان للوزير الأكبر "مصطفى خزندار" دور كبير في تبديد وإسراف المال العام[2].

---

[1]– الإصلاح لغة: من صلح صلاحا وصُلُوحا، زال عنه الفساد وصلح. وأصلح الشيء يعني أزال فساده. أما في الاصطلاح: فيطلق لفظ الإصلاح على اتجاهات فكرية وحركات سياسية واجتماعية ظهرت في العالم الإسلامي في القرون الأخيرة، ويختلف بعضها عن بعض بمدى التحولات التي تدعو إليها في أحوال الناس وإلى أساليبها في تلك الدعوة وإلى درجة اعتمادها على الدين من ناحية، وعلى اعتبارات سياسية بعضها أصيل وبعضها الآخر دخيل. أنظر: عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 120 .

[2]– يذكر الأستاذ "بنبلغيث" العديد من الشخصيات التي تولت مناصب عالية في الدولة، وكانت سببا في تبديد وإسراف المال العام، نذكر منهم: "أحمد زروق"وزير الحرب، و"إلياس مصلي" الذي كان مستشارا بالوزارة الخارجية ومترجما بالقصر كما نذكر اليهودي "نينوفولتيرا "NénouVoltira" الذي اشتغل بالسمسرة في تونس وكان نائبا "لمصطفى بن إسماعيل"، تضرر على يديه الكثير من الفلاحين والتجار، وكان مختصا في ترويج العملة المزيفة. للتوسع أكثر أنظر: الجيش التونسي ... ، مرجع سابق، ص ص 74، 75.

فقد كان هذا الأخير شريكا وحاميا لمختلسي أموال الدولة من بينهم، "محمود بن عياد"[1] الذي كان ملتزما لضرائب الدولة – وزير المالية –، ثم فرّ إلى باريس في شعبان 1268هـ/جوان 1852م بعد أن اختلس أموالا طائلة، وتحصل على الجنسية الفرنسية، وقاضى الدولة التونسية لدى المحاكم الفرنسية مطالبا بديون ادعاها عليها[2]. والحقيقة أن "محمود بن عياد" ليس الوحيد الذي اختلس أموال الدولة، فقد سار على نهجه خلفُه في وزارة المالية "نسيم شمامة"[3]، الذي اغتنم الاضطراب الحاصل أثناء ثورة "بن غذاهم"[4]، وقام بتهريب جزء من خزينة الدولة فانهار الوضع السياسي والاقتصادي، وأعلن إيقاف العمل بالدستور وبنظام المجالس[5].

ونتيجة للضائقة المالية التي كانت تعيشها الإيالة وللخروج منها، قام الباي بمضاعفة ضريبة الإعانة[6] من 36 إلى 72 ريال دفعة واحدة، وهذا ما أثار غضب السكان فترتب عن ذلك، قيام ثورات في الإيالة معبرين عن رفضهم للسياسة الجبائية المجحفة. وبلغت ذروتها سنة 1281هـ/ 1864م،وهي سنة ثورة"بن غذاهم"التي أشعلت الإيالة بأكملها وجعلتها تقف ضد الباي

---

[1]– "محمود بن عياد": من مواليد تونس العاصمة سنة 1225هـ/ 1810م، أصيل مدينة جربة وسليل عائلة شهيرة خدمت العرش الحسيني وعرفت بتجارتها الرابحة في زيت الزيتون. فورث بذلك "محمود" عن عائلته المال والجاه. تقلد عدة مناصب، منها قايد جربة وسوسة وكاهية بنزرت، ثم ملتزما للضرائب، وبعدها مسئولا على دار المال –وزير المالية–. استغل نفوذه في اختلاس المال العام بلغ قرابة 60 مليون فرنك، فأغرق الدولة في ديون لم تستطع تسديدها. فرّ إلى فرنسا في شعبان 1268/ جوان 1852م بعد أن صودرت جميع أملاكه. بقيت قضيته بمحاكم فرنسا بين رد وعطاء. انتقل إلى استانبول، وبقي فيها إلى وفاته سنة 1297هـ/ 1880م. أنظر: حليم سلامة، "قضية محمود بن عياد...أو حيث ينحاز التحكيم المالي الأوربي ضد تونس"، ج. آ. خ. أ ، بتاريخ 11 محرم 1441هـ/ 10 سبتمبر 2019م .
تم الاطلاع على المقال عبر الموقع الالكتروني: www.akherkhabaronline.com ، بتاريخ 11 صفر 1441هـ/ 10 أكتوبر 2019م .

[2]– عبد السلام، المؤرخون التونسيون...، مرجع سابق، ص 368. ولتفاصيل أكثر حول قضية "ابن عياد"، أنظر: محمد بيرم الخامس التونسي، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ط1، المطبعة الإعلامية، مصر، 1302هـ/ 1885م، ص ص 7، 8.

[3]– "نسيم شمامة":كان وزيرا للمالية التونسية، ثم هرب بأموال الدولة سنة 1281هـ/ 1864م، ومات في إيطاليا. وقد كلفت الدولة "الجنرال حسين" تتبع القضية. ونظرا لتشعبها بين إثبات جنسية المتوفى وتوزيع التركة، وحصة تونس فيها، فإن الأمر تطلب جهدا أكبر وفترة أطول للإقامة الشبه الدائمة للجنرال بمدينة قرنة الإيطالية. ولم تنته القضية إلا بعد فرض الحماية الفرنسية على تونس. حيث انتزع من "الجنرال حسين" التفويض المخول له، لأنه كان من أنصار الإصلاح ومعارضا للحماية الفرنسية. أنظر: الشيباني بنبلغيث، "دور الجنرال حسين في الحركة الإصلاحية بتونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، م. ت .ع . للد.ع، ع 11– 12، أكتوبر 1995م، ، ص 151 . للتوسع أكثر في قضية "نسيم شمامة"، أنظر أيضا: عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص ص 48– 51 .

[4]– علي بن محمد بن غذاهم، كان يلقب بباي الشعب، رجل ثوري، من قبيلة ماجر بولاية القصرين، والده طبيب. قاد ثورة ضد الحكومة التونسية سنة 1281هـ/ 1864م وشملت الثورة عدة مناطق في الشمال الغربي، والساحل، والجنوب. إلا أن قوات الباي تمكنت في نهاية المطاف من إخمادها واعتقال "بن غذاهم" في رمضان 1283هـ/ فبراير 1866م، ومات في السجن سنة 1284هـ/ 1867م. أنظر: خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم محمد الحدّاد، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 2012م، مقدمة المحقق، ص 37، هامش 1 .

[5]– نفسه، ص 37 .

[6]– بنبلغيث، الجيش التونسي ... ، مرجع سابق، ص 73 .

ومماليكه وسياسته الجبائية وإصلاحاته التي كادت أن تعصف بعرشه[1]، حيث قام الثائرون بالاستنجاد بالباب العالي، رافعين علم الدولة العثمانية. وقد أضرّ هذا الحدث بسمعة الدولة وأحدث خللا في هياكلها، كما مس من هيبتها. الأمر الذي دفع بالدولة العثمانية إلى إيفاد أحد كبار رجالها إلى تونس للنظر في الأوضاع القائمة[2] التي تعانيها تونس[3].

وفي ظل هذه الظروف الصعبة، وكثرة الاختلاسات وتبديد المال العام الذي جرّ الدولة إلى حافة الإفلاس، لم يجد الباي مخرجا سوى الاقتراض من أوربا. إلا أن الدولة عجزت عن تسديد تلك الديون. فعرضت الدول الأوربية سنة 1286هـ/ 1869م اللجنة المالية العالمية المعروفة باسم "الكومسيون المالي"، وتم تعيين "خير الدين" رئيسا لها لدرايته في الأمور المالية، ولحنكته الدبلوماسية التي ستساعده على إقناع القناصل الأجانب بتخفيف ضغوطهم[4] .

– تدهور الوضع الاقتصادي:

كانت الحركة الإصلاحية ردة فعل النخبة على تدهور الأوضاع الاقتصادية بالإيالة منذ بداية القرن 13هـ/ 19م، هذا القرن الذي أطلق عليه المؤرخون اسم "القرن العصيب"[5]، الذي تألبت فيه القوى الطبيعية ضد البلاد، واشتد فيه الضغط الأجنبي على نظام البايات الذي أضحى ينهار شيئا فشيئا. وانقلب فيه الوضع الاقتصادي لغير صالح تونس، فتقلصت موارد البلاد. خاصة عقب تراجع نشاط الجهاد البحري بعد وفاة الباي "حمودة باشا". فحُرمت البلاد من ترويج سلعها نحو الخارج، وبالتالي غزت المنتجات الأجنبية الأسواق المحلية[6]، فنتج عن ذلك تنافس غير متكافئ بين الصناعات التقليدية المحلية، والبضائع الأوربية المصنعة. مما أدى إلى اضمحلال الصناعات المحلية اليدوية، كما لا يجب إغفال دور الأسرة الحاكمة في احتكار السلع الأجنبية وبيعها بأسعار باهظة[7].

---

[1]– عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 121 . أنظر أيضا: محمد الهادي شريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993م، ص 98 .

[2]– عبد الجليل التميمي، "تاريخ المهمات والتبادل الثقافي بين إيالة تونس واستانبول"، م. ت .ع . للد.ع، ع 31، ديسمبر 2010م، ص 97 .

[3]– التونسي، مصدر سابق، ص 37 .

[4]– نفسه .

[5]– سمي كذلك لأنه قرن الاستعمار الغربي والهيمنة على العديد من دول العالم، خاصة على أراضي الدولة العثمانية، منها دول شمال إفريقيا. أنظر: محمود عبد المولى، المدرسة الحربية بباردو، ط1، تونس، 2003م، ص 14. وكذلك: شريف، مرجع سابق، ص 96 .

[6]– شريف، مرجع سابق، ص 98 .

[7]– الميزوري، مرجع سابق، ص 246 .

ومما زاد الأوضاع سوءًا، تلك الكوارث الطبيعية التي شهدتها البلاد، خاصة مجاعة سنة 1284هـ/ 1867م[1] التي أعقبتها أوبئة خطيرة، كالكوليرة التي فتكت بالبلاد والعباد، فتراجع بذلك اقتصاد البلاد بسبب مواسم فلاحية سيئة[2]. كما أدى قمع ثورة "ابن غذاهم" إلى تخريب قسم كبير من البلاد خاصة منطقة الساحل التي تعد مصدر وفير لإنتاج الزيت[3].

- تراجع مكانة التعليم:

لم يكن التونسيون خلال القرن 13هـ/ 19م واعين بأهمية التعليم، فالتشجيع على تلقي المعارف كان محدودا، فأغلب الأولياء لم يكن هدفهم من إلحاق أبنائهم بالمدارس للتعليم والتثقيف، وإنما من أجل تخليصهم من الخدمة العسكرية وأداء ضريبة المجبى، وحسب "الطاهر بن عاشور"، فإن هذا من بين الأسباب التي ساهمت في تأخر التعليم[4].

أما طريقة التعليم فقد طغى عليها –كما سبق وأن ذكرنا– طريقة الإملاء وحشو ذهن المتعلم بالمعلومات، ليقوم هو بدوره بحفظها واسترجاعها. أما البرامج التعليمية، فكانت تتمحور أساسا على العلوم النقلية ذات الطابع الديني (القرآن، والحديث، والتفسير...). فالتعليم إذن ذو طابع ديني بحت، ولا مكان فيه للعلوم الدقيقة أو العلوم الإنسانية، التي من شأنها أن تطلع المتعلم على التاريخ الإسلامي وتاريخ الأمم الماضية والمعاصرة. وكان من نتائج هذا الوضع المتجمّد والمتحجّر، أن عمّ الجهل، "وفقد الدين روحه وأصبح شعائر دينية، لا تمس القلوب ولا تحيي الروح"[5]. ويفضل تلك المناهج المتبعة، كان يقضي المتعلم عشر سنوات أو أكثر من غير أن يحسن القراءة والكتابة، وكل ما يبلغه المتفوق والنجيب هو حفظ القرآن كله أو بعضا منه. وجزء كبير من سكان البدو لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين، ولا يصل إليهم شيء من العلم إلا في بعض الزوايا[6]. فساد التمسّح بالقبور والتوسل بالأولياء، وتخلفت العلوم العقلية[7]، بالرغم من محاولات

---

[1]– تجدر الإشارة إلى أن الجزائر عرفت نفس الظروف في نفس تلك الفترة إذ انتشرت المجاعات نتيجة القحط، وغيرها من العوامل الطبيعية التي أدت الى تراجع الإنتاج الزراعي. وقد استغلت الحركة التبشيرية الفرنسية تلك الظروف الصعبة لنشر المسيحية وتنصير أطفال الجزائريين. للتوسع أكثر في الموضوع. أنظر: عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830– 1900م)، موفم للنشر، الجزائر، 2009م، ص ص 107– 124 .

[2]– عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 17 .

[3]– شريف، مرجع سابق، ص 98 .

[4]– الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص ص 105، 106 .

[5]– أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، ب . ت . ن ، ص 8 .

[6]– نفسه، ص ص 148، 149 .

[7]– الميزوري، مرجع سابق، ص 247 .

الإصلاح الأولى والبسيطة التي قام "الباي حمودة باشا" في المجال الفكري[1].

2.1. دوافع خارجية:

– الإطلاع على الحضارة الغربية والتأثر بالتمدن الأوربي:

عرفت أوربا خلال القرن 13هـ/ 19م تقدما علميا وتكنولوجيا، تمكنت النخبة التونسية المثقفة مثل غيرها من نخب العالم الإسلامي الإطلاع عليه والوقوف على وسائله، من خلال صدى حملة "نابليون الأول" على مصر (1213-1216هـ/1798-1801م)، واحتلال فرنسا للجزائر سنة 1246هـ/ 1830م، والتأثر من قريب أو بعيد بالجاليات الأجنبية المقيمة بالإيالة.

والجدير بالذكر أن أغلب رجال الإصلاح بتونس أتيحت لهم فرصة السفر إلى أوربا[2]، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، "المشير أحمد باي" (1253- 1271هـ/ 1837- 1855م) الذي يعتبر من المطلعين على حضارة الغرب، من خلال زيارته إلى فرنسا سنة 1262هـ/ 1846م، حيث مكنت هذه الزيارة الباي ومستشاريه من الإطلاع المباشر على الغرب، والاقتناع بضخامة الهوة التي أصبحت قائمة بين التقدم الغربي والتخلف الشرقي[3].

أما الذين لم تتح لهم فرصة السفر إلى أوربا، فكان بإمكانهم معرفة ما يجري هناك من خلال الكتب والجرائد الآتية من فرنسا، ومن المشرف العربي الإسلامي (مصر، وتركيا ، وبلاد الشام)، مثل جريدة "لامبيقي" "L'ambigu" التي كانت تصدر في لندن باللغة الفرنسية، وتُقرأ في تونس[4]، وجريدة "برجيس باري" Pirgi Paris " التي أنشأها الشيخ "رُشَيْد الدحداح اللبناني" بفرنسا، باللسان العربي[5]. كما كان لجريدة "الجوائب" التي كانت تصدر من استانبول سنة 1277هـ/ بداية 1861م، لصاحبها "أحمد فارس الشدياق"[6]، دور في تمكين المثقفين التونسيين من معرفة أوربا. وبإمكانهم كذلك قراءة الكتب التي تتناول الأفكار الإصلاحية، وما حققته أوربا من تقدم، "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"[7] "لرفاعة رافع الطهطاوي" الذي كان مكلفا برعاية

---

[1]– أنظر: الإمام، مرجع سابق، ص ص 232 – 236 .

[2]– الميزوري، مرجع سابق، ص 241 .

[3]– التونسي، مصدر سابق، ص 32 .

[4] – الإمام، مرجع سابق، ص 149، هامش 3 .

[5]– محفوظ، مرجع سابق، ج2، ص 120 .

[6]– نفسه، ج1، ص 144 .

[7]– يسمى أيضا "الديوان النفيس في إيواء باريس" ويعدّ الكتاب من أهمّ الكتب العربيّة في فترة النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد كتبه الطهطاوي بتوصية من الشيخ حسن العطّار، الذي رشّحه ليكون مُشرفاً على رحلة البعثات الدراسية في العاصمة الفرنسية باريس، وذلك ليهتمّ

شؤون البعثة الطلابية التي أرسلها "محمد علي" حاكم مصر إلى فرنسا .كما كان أيضا بإمكان من يريد الإطلاع على الحضارة الغربية، قراءة كتاب "التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوربية" لصاحبه المؤرخ والسياسي الفرنسي "قيزو"Guizot"، وغيرها من الكتب[1].

كما ساهم وجود الجاليات الأوربية الكثيرة في تونس في النصف الثاني من القرن 13هـ/ 19م، وبصفة خاصة الإيطالية والفرنسية إلى حد كبير في زيادة الاحتكاك بين الحضارتين الغربية والإسلامية، ونقل المؤثرات الثقافية المختلفة إلى تونس[2].

ويعتبر "حمودة باشا" (1196- 1229هـ/ 1782- 1814م) من البايات الحسينيين الأوائل الذين أبدوا إعجابهم بالحضارة الغربية، ومن الأوائل أيضا الذين اطلعوا عليها، بالرغم من أنه لم يقم بزيارة إلى البلدان الأوربية، إلا أنه تمكن من ذلك بواسطة فهمه لبعض اللغات الأوربية كالإيطالية والفرنسية، واستعانته بالخبراء والمثقفين في ميادين مختلفة، كالأطباء مثلا[3]. وكذلك إعجابه "بنابليون الأول" واطلاعه على انتصاراته العسكرية وقانونه المدني، فقد كان يجلس كل ليلة للاستماع ومناقشة بعض الفصول منه[4]، وكان يقول في مجالسه: "ليت للمسلمين سلطانا في شجاعة نابليون وأوصافه"[5].

إذن أصبح المصلحون المسلمون بما في ذلك التونسيين يقارنون ويقابلون بين واقع المنطقة الإسلامية وما يحدث من تطور في غيرها من مناطق العالم. لأن خريطة العالم الجيوسياسية الحديثة، فرضت منهج المقارنة الذي يرمي أساسا إلى البحث في مسائل التلاقح بين مقومات الحضارة الإسلامية ومقومات الحضارة الأوربية الغربية، التي أفرزت مدًا حضاريا متطورا لا يمكن إنكاره[6].

بالطلاب المصريين هناك، وليسجّل أفعالهم أيضاً. تعلّم الطهطاوي أثناء تواجده بباريس اللغة الفرنسية ، وأخذ يُترجم مدوّناته، وألّف هذا الكتاب، وقد استمر تأليفه وتدوينه وترجمته مدّة خمس سنوات، ويتمحور الكتاب حول التاريخ الثقافي المصري والعربي الحديث، ويوضّح العلوم السياسيّة والاجتماعية والجغرافية والتاريخية في مصر وفرنسا خلال تلك الفترة. أنظر: الموقع الالكتروني: mhttps://mawdoo3.co . تم الإطلاع عليه يوم: 29 شوال 1440هـ/ 02 جويلية 2019م .

[1]– هادية المقدم بن عبا، الكتب والمكتبات في الإيالة التونسية منذ تأسيس المطبعة إلى نهاية عهد خير الدين باشا (1857– 1877م)، أطروحة لنيل شهادة الكفاءة في البحث، إشراف عبد الجليل التميمي، جامعة تونس الأولى، 1987– 1988م، ص ص 61، 62 .

[2]– نورة بنت معجب بن سعيد الحامد، الصلات الحضارية بين تونس والحجاز – دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية 1256– 1326هـ/ 1840– 1908م، دارة الملك عبد العزيز، السعودية، 2005م، ص 90 .

[3]– يمكن الإطلاع على الدراسة التي أعدها "رشاد الإمام"، فقد تطرق بالتفصيل إلى الأطباء الأجانب الذين كان يعيشون في تونس، أو جاء في مهمة. واستعان بهم الباي "حمودة باشا" في المجال الصحي . أنظر: مرجع سابق، ص ص 311– 315 .

[4]– نفسه، ص 337 .

[5]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص 46 .

[6]– الميزوري، مرجع سابق، ص ص 243، 244 .

وبالتالي كان رجال الإصلاح بتونس يحاولون البحث عن أنجع الوسائل المؤدية إلى إكساب العالم الإسلامي قوته. فرأوا أن تُقتبس تلك الوسائل من النظم التي أكسبت أوربا الازدهار[1]. والظاهر أن الوزير "خير الدين" كان من المصلحين المقتنعين بأن النظم السائدة في أوربا الغربية هي التي ستكفل الإصلاح الشامل، وبالتالي هي التي ستؤدي إلى ازدهار الأقطار على اختلاف مواقعها وأديانها، ولذا ينبغي على الأمة الإسلامية الاقتباس منها، ما دامت لا تتعارض مع ما جاء به الدين الإسلامي[2]. فقد صرح الوزير"خير الدين"في كتابه أقوم المسالك أن اختلاف الدين لا يمنع من الاقتداء بالأوربيين في الأمور الدنيوية التي ظهر فيها نجاحهم قائلا: "كل متمسك بديانة وإن كان يرى غيره ضالا في ديانته فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الأمة الإفرنجية، فإنهم مازالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسنا من أعماله، حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم إلى ما هو مُشاهد ... والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها "[3].

– صدى أحداث بلاد المشرق الإسلامي في إيالة تونس :

قد يعتقد البعض أن العلاقات الثقافية بين إيالة تونس وبلاد المشرق كانت منعدمة خلال القرن 13هـ/ 19م، نتيجة بعد المسافة بين المنطقتين. إلا أن المتتبع لتاريخ العلاقات بين الدول لا يمكنه أن ينكر إطلاع المثقفين التونسيين على كل ما كان يحدث في المشرق الإسلامي آنذاك[4]، بمختلف الطرق والوسائل (الرحلات الحجازية، الجرائد والصحف، البعثات العلمية والدبلوماسية...). وما تجدر الإشارة إليه من خلال اطلاعنا على العلاقات التي كانت تربط القطرين، تلك البعثات والمكاتيب التي لم تنقطع بين إيالة تونس والباب العالي[5]، بالرغم من محاولات الانفصال والاستقلال، وبقاء التبعية شكلية فقط. والحديث عن العلاقات المشرقية المغاربية يدفعنا للتطرق إلى نقطة مهمة في تاريخ الحركة الإصلاحية بالعالم الإسلامي، ألا وهي إصلاحات "محمد علي" وما قام به من تحديث في مختلف الميادين[6]. فقد كان لهذه الأخيرة التأثير

---

[1]– عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 122 .

[2]– نفسه، ص 149 .

[3]– التونسي، مصدر سابق، ص 12.

[4]– الميزوري، مرجع سابق، ص 244 .

[5]– أنظر في هذا الموضوع على سبيل المثال، الدراسة التي أعدها التميمي،"تاريخ المهمات والتبادل الثقافي ..."، مرجع سابق،ص ص 85-108.

[6]– مست إصلاحات "محمد علي" عدة مجالات، منها ما هو في مجال التعليم، فقد أسس المدارس المهنية التي تُكوّن إطارات الدولة، ووجه البعثات العلمية إلى بلدان أوربية وخاصة إلى فرنسا للدراسة، وبعد عودة البعثات العلمية قاموا بترجمة المؤلفات، وانشئوا مؤسسات تربوية لتدريس اللغات

الواضح في تونس سواء في تشجيع البايات على الاستقلال عن مركز الخلافة العثمانية، أو في اهتمام بعضهم بالجيش ومؤسساته، أو في حث النخبة التونسية المثقفة بطريقة أو بأخرى على الاهتمام بالثقافة الأوربية والاقتباس منها.

ومن أكثر المفكرين المصلحين تأثيرا في هذه النخبة "رفاعة رافع الطهطاوي"، فكان لكتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" الصدى الكبير لدى بعض أفراد النخبة[1]، مثل المشير "أحمد باشا" والمؤرخ "ابن أبي الضياف" وغيرهما . كما لا يمكننا أن نغفل عن المصلح والمفكر الجزائري "ابن العنابي" صاحب كتاب "السعي المحمود في نظام الجنود" الذي ألفه بمصر سنة 1242هـ/ 1826م، إذ يعتبر أول المصلحين في النصف الأول من القرن 19م/13هـ، لأنه عاصر عهد التنظيمات في الدولة العثمانية، وإصلاحات "محمد علي" بمصر. فجاء كتابه "السعي المحمود" حافلا بالأفكار الإصلاحية، وداعيا إلى تجديد الجيوش الإسلامية. وقد وصلت نسخة من كتابه إلى العاصمة استانبول، لأن الدولة العثمانية وقتئذ كانت بحاجة إلى مثل أفكار "ابن العنابي"، فهذا الأخير كان سابق "للطهطاوي" و"البستاني" و"الغزالي"[2].

لذلك لا نستبعد استفادة المصلحين التونسيين من أفكاره، خاصة وأن هذا الأخير حلّ بتونس أواخر سنة 1244هـ/ 1829م[3]-كما سبق وأن ذكرنا- .

الأجنبية والعلوم الحديثة، ومن أشهرها "مدرسة الألسن". اهتم "محمد علي" بتحديث التعليم، فكانت مدرسة الهندسة في القلعة أولى المدارس العليا التي أنشأها سنة 1231هـ/ 1816م، وقد عُنيت بتدريس قواعد الحساب والهندسة وغيرها وكان التعليم فيها مجانيا، كما خصصت للطلاب منح شهرية. وعيّن في هذه المدرسة سنة 1235هـ/ 1820م، أحد القساوسة لتعليم اللغة الإيطالية والهندسة لبعض تلامذتها. كما أنشأ سنة 1250هـ/ 1834م مدرسة أخرى للهندسة في بولاق، واستجابة لطلب الدكتور "كلوت بك" (ولد في مدينة "قرونوبل"Grenoble" بفرنسا سنة 1207هـ/ 1793م، وجاء إلى مصر سنة 1261هـ/ 1845م بطلب من "محمد علي" الذي عهد إليه تنظيم الإدارة الصحية للجيش المصري، وجعله رئيسا للأطباء فيها). كما أسس في أبي زعبل مدرسة طبية لوجود المستشفى العسكري به من قبل. وقد نتج عن إنشاء هذه المدرسة نهضة طبية وصحية في جميع الأقاليم المصرية. واختار "محمد علي" لمدرسة الطب أساتذة أوربيين ومعظمهم فرنسيين لتدريس الجراحة، والتشريح، والأمراض الباطنية، وعلم الصيدلة، والطب و...،وكان فيها أساتذة آخرون يقومون بتدريس اللغة الفرنسية لتلاميذ الأزهر. وألحقت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة. كما أنشأ "محمد علي" مدرسة الطب البيطري، وإلى جانب مدارس الهندسة والطب والصيدلة، أسس عدة مدارس عالية متخصصة كمدرسة المعادين بمصر القديمة ومدرسة المحاسبة بالسيدة زينب، ومدرسة الفنون والصنائع بأبي زعبل بالإسكندرية. أنظر: عبد الرحمان الرافعي بك، عصر محمد علي، مطبعة الفكرة، ط3، القاهرة، 1370هـ/1951م ، ص ص 464- 479 . أنظر: عبد المولى، مرجع سابق، ص ص 19 – 22 .

[1]- نفسه، ص 22 .

[2] – سعد الله، رائد التجديد الإسلامي...، مرجع سابق، ص ص 12، 60- 62.

[3]- أنظر: الباب الأول، الفصل الثاني، ص140، هامش 04 .

كما تجدر بنا الإشارة إلى الإصلاحات[1] التي شهدتها عاصمة الخلافة العثمانية، فهي الأخرى كان لها صدى كبير على إيالاتها. وعلى الشخصيات المثقفة التي زارت استانبول، فقد استطاع الوزير "خير الدين" الاستفادة من المشاريع الإصلاحية التعليمية التي كانت قائمة آنذاك في مركز الخلافة[2] .

2. رجال الإصلاح وأفكارهم الإصلاحية:

إن الدعوة إلى الإصلاح في تونس خلال القرن 13هـ/ 19م، كانت في بدايتها دعوة إلى إصلاح نظام الحكم، ثم اتسعت دائرة الإصلاحات لتمّس التعليم، تزعمها حكام البلاد، وثلة من كبار أعوانهم، من الضباط الذين تكونوا في المدرسة الحربية بباردو التي أنشاها "المشير أحمد باي" أو اتصلوا بتلك المدرسة، ثم عاشوا مدة من الزمن في أوربا[3]. نذكر منهم:

– الباي حمودة باشا[4]:

---

[1]– تعود إصلاحات الدولة العثمانية إلى ثلاثينات القرن 18م، عندما فكر بعض السلاطين في التعليم والتدريب العسكري على النمط الأوربي، خاصة بعد الهزائم التي مني بها الجيش في حروبه مع روسيا والنمسا التي أثبتت ضعف التقنية العسكرية وتخلفها. فطُلب من فرنسي يدعى "دي بونفال" أن يفتح مدرسة المهندسين العسكرية. إلا أن تلك المدرسة لم تعمر طويلا لأنها وجدت معارضة من طرف الجيش الانكشاري حرصا على امتيازاتهم. وفي الربع الأخير من القرن 18م/ 12هـ، تأسست مدرسة الرياضيات لضباط البحرية، وكان الأستاذ الأول فيها جزائري الأصل يجيد اللغات الأوربية، وكانت الكتب المعتمدة فيها أوربية مترجمة إلى اللغة التركية.كما عرف عهد السلطان "عبد الحميد الثاني"(1293-1327هـ/ 1876-1909م) العديد من الإصلاحات في مجال التعليم، فقد أنشأ سنة 1295هـ/1878م المدرسة السلطانية للشؤون المالية، ومدرسة الحقوق التي كانت تخرج طلابا للوظائف الإدارية والقضاء. ومدارس أخرى في الفنون الجميلة والتجارة والهندسة المدنية، والطب البيطري والشرطة ...كما قام بتطوير مدرسة استانبول الكبرى التي أنشئت في عهد السلطان "محمد الفاتح"، وحولها الى جامعة تضم العديد من التخصصات، واعتبرت أول جامعة حديثة في العالم الإسلامي. كما تم إحداث مدارس لتخريج المعلمين الذين يتولون التدريس، بالإضافة إلى الاهتمام الكبير الذي أولاه للتعليم العسكري والمكتبات، وقد ساعدت الطباعة على طبع الآلاف الكتب. أنظر: محمد سهيل طقوش، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (698- 1343هـ/ 1299- 1924م)، دار النفائس، بيروت، 1999م، ص ص 544- 545 . أنظر أيضا: عبد المولى، مرجع سابق، ص 16 .

[2]– أنظر في نفس الفصل، ص 206 .

[3]– عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 122 .

[4]– "حمودة باشا": هو أبو محمد حمودة بن علي بن حسين بن علي التركي خامس بايات الأسرة الحسينية، ولد بتونس ليلة السبت في 18 من ربيع الثاني سنة 1173هـ/8 ديسمبر1759م، بعد عودة أبناء "حسين بن علي" إلى الحكم. حفظ القرآن العظيم في صغره، ثم تعلم على مجموعة من الشيوخ منهم "حمودة بن عبد العزيز" والشيخ "حمودة بن باكير" كمشرفين على تعليمه وتكوينه في مختلف العلوم. تزوج من ابنة الشيخ الامام المفتي" ابي عبد الله محمد" ابن الشيخ المفتي ابي عبد الله الحاج حسين البارودي. بويع للحكم بعد وفاة والده "علي باي الثاني" وكان ذلك في 18 جمادى الثانية 1196هـ/31 ماي 1782م، استطاع أبي يقد الكثير لدولته من خلال سياسته المحكمة المنتهجة على الصعيدين الداخلي والخارجي. توفي يوم الجمعة ليلة عيد الفطر سنة 1230هـ/ 16 سبتمبر 1814م . واختلفت الروايات حول سبب وفاته فهناك من يذكر انه مات مسموما، وآخرين يذكرون انه استنشق مسحوق التبغ وضع فيه محلول من السم، لكن "ابن أبي الضياف" ينفي كل هذه الاتهامات ويقول أن الباي "كان مبتلى بمرض مصاب به في القلب". أنظر: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص ص 11-88. أنظر أيضا: مقديش، مصدر سابق، مج2، ص ص 169، 170 . وكذلك: السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص ص 124، 125. وأيضا: الإمام ، مرجع سابق، ص ص 71 – 80 .

بدأت أولى محاولات الإصلاح والتحديث بإيالة تونس مع الباي "حمودة باشا الحسيني" (1196 – 1229هـ/ 1782- 1814م)، ويعتبر المؤرخ "رشاد الامام" أول من أثبت في دراسته[1] أن "حمودة باشا" يُعتبر أول البايات الحسينيين الذين فكروا في الإصلاح، وهو من الأوائل المجددين في تونس في العصر الحديث. فبالرغم من عدم وفرة المعلومات التي تشير إلى إصلاحات الباي "حمودة" في مجال التعليم –موضوع بحثنا–، غير أن ما يمكن تأكيده هو وجود بعض النزعات الإصلاحية على أيدي بعض العلماء، فقد ظهرت طرق تعليمية جديدة في عهده على يد مدرسين، منهم "حسن الشريف" (ت 1234هـ/ 1819م) الذي أحدث طريقة جديدة في التعليم، ويصفها لنا "ابن أبي الضياف" بقوله: "...إنه كان يفاكه تلامذته في الدرس، خشية سآمتهم، وإذا بحث أحدهم بحثا يحسن الإصغاء إليه، ويعيده للطلبة بأوضح عبارة، ويقول لهم: هل ظهر لأحدكم جوابه؟ وإذا أجاب أحد يصغي إليه، ويعيده أيضا، تدريبا لتلاميذه على المباحثة، وتلذذا بنجابتهم، فإذا خرج أحدهم عن أدب البحث يقطع المباحثة، ويجيب التلميذ ويقبل على درسه".

والظاهر أن تلك الطريقة لقيت استحسانا وإقبالا كبيرا، فقد ذكر "صاحب الإتحاف"، وهو طفل صغير بصحبة والده أنه رأى المدرس "حسن الشريف" يلقي درسا في علم الحديث "...وسائر مدرسي الجامع أمامه"[2]. وهذا دليل على نجاح طريقة تدريسه. كما نذكر أيضا الشيخ "إبراهيم الرياحي" (ت 1266هـ/ 1850م)، حيث سبق وأن تطرقنا في دراستنا إلى الطريقة الجديدة التي استحدثها في التدريس[3].

أما فيما يتعلق بالمواد التعليمية التي استُحدثت في عهد الباي "حمودة باشا" فهي: علوم الفلك، والطبيعة، والموسيقى، وكان بعضها يدرسها "إبراهيم الرياحي" بجامع الزيتونة. أما مواد علوم المساحة والهندسة، فقد كان يدرسها العالم "محمد الفاسي"(ت 1232هـ/ 1817م) بجامع الزيتونة أيضا، وذلك بعد أن ارتحل المدرس عن مسقط رأسه بفاس للاستقرار بتونس العاصمة[4] .

ومهما يكن من أمر فإن إصلاحات الباي "حمودة باشا" كانت تمهيدا لإصلاحات "المشير أحمد باي" ثم من بعده "محمد الصادق باي" ووزيره "خير الدين" .

---

[1]– الإمام، مرجع سابق .

[2]– ابن ابي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 70 .

[3]– أنظر: الباب الأول، الفصل الثاني، ص ص 118، 132 .

[4] – الإمام، مرجع سابق، ص ص 334، 335 .

- المشير أحمد باشا باي[1]:

يصف لنا "دوماس"Daumas" المشير "أحمد باي" بأنه "رجل ذكي ومتحضر...وقد فهم القرن الذي يعيش فيه وحاول إخراج شعبه من الجهل والجمود الذي كان يعيشون فيه"[2]. إذن نفهم من خلال ما ذكره "دوماس"Daumas" أن الباي هو رجل طموح لذلك شعر منذ توليه الحكم بضرورة الإصلاح خاصة الجانب الفكري، والذي كانت البلاد بحاجة ماسة إليه[3]. فقد شجع على إقامة الجسور الثقافية بين تونس وجنوب أوربا بزيادة الاحتكاك بين الحضارتين العربية والغربية، وحاول الاستفادة من التقدم الأوربي[4]، خاصة بعد الزيارة التي قام بها إلى فرنسا سنة 1262هـ/ 1846م[5]. وقد سعى أيضا إلى الإصلاح والتغيير في المجال التعليمي، فقامت سياسته الإصلاحية في هذا المجال، على أسس أهمها:

- الاعتماد على الإطار الأوربي في التدريس.
- ترجمة الكتب والعلوم الحديثة من اللغات الأجنبية، ليستفيد منها طلبة العلم ويفيدوا بها غيرهم[6].
- ضرورة العناية بالمطالعة، فقد كان "المشير أحمد باي" يُواظب على دراسة مقدمة "ابن خلدون"، وملازمة مطالعة كتب "نابليون الأول". وكان كاتب سره "أحمد بن أبي الضياف" يقرأها عليه[7].

---

[1]- "المشير أحمد باشا باي": ولد في 21 رمضان 1221هـ/ 02 ديسمبر 1806م، أمه جارية من أسرى جزيرة "سنيير" "Saint- Pierre". اعتنى والده بتربيته، فحفظ القرآن على الفقيه "أبي العباس أحمد السنان". وتعلم اللغة التركية نطقا وشيئا من الكتابة، وتعلم اللغة الايطالية نطقا فقط. ولازم الفقيه"أبا عبد الله محمد الحكيم سيالة". ويعتبر "مصطفى صاحب الطابع" من رجال الدولة الذين أشرفوا على تربيته. بويع بعد وفاة والده، ضحى يوم الثلاثاء 10 رجب 1253هـ/ 10 أكتوبر 1837م. تحصل في نفس السنة على فرمان الولاية من مبعوثه إلى استانبول. ومما ميّز هذا الباي إصلاحاته التي عرف بها في جميع المجالات، أبرزها تأسيس المدرسة الحربية بباردو، وإنشاء المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة. وهو أول من استبدل عادات الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، حيث كان الأمراء الذين سبقوه يحتفلون بهذه المناسبة عن طريق الغناء. لكن بعد تولي "المشير أحمد باي" الحكم، غيّر هذه العادة واستبدلها بقراءة القرآن وسيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – فكان "... يقوم بجمع الديوان، ويأتي الإمام بجامع الصرايا والخطيب بجامع باردو....ويجلسون، ويقرأ باش خوجة ربع حزب من القرآن ... ثم تختم الجلسة بدعاء، وعند تمام الدعاء تقرأ فاتحة الكتاب وينفضّ الموكب". وافته المنية في رمضان سنة 1271هـ/ مي 1855م، ليتولى ابن عمه "المشير مَحمد بن حسين باشا" الحكم من بعده. أنظر: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج4، ص ص 10- 13، 27، 28. وأيضا: مخلوف، مصدر سابق، ص 174 .

[2]- Daumas, Op. Cit. , p. 135 .

[3]- بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر ...، مرجع سابق، ص 70 .

[4]- ابنت معجب بن سعيد الحامد، مرجع سابق، ص 90 .

[5]- ذكر "ابن أبي الضياف" في إتحافه تفاصيل سفر الباي إلى فرنسا. أنظر: مصدر سابق، ج4، ص ص 102- 110 .

[6]- الميزوري، مرجع سابق، ص 262 .

[7]- الغزي، مرجع سابق، ص 26 .

– محمود قابادو[1]:

كان لالتحاقه بالمدرسة الحربية بباردو، واتصاله بأساتذتها وطلبتها الأثر الكبير في تكوين مذهبه الفكري الجديد، الذي كان يدعو من خلاله إلى الاهتمام بالعلوم الكونية، حيث أكد عن طريق أفكاره أن ازدهار الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى مرده إلى ما بلغته العلوم الطبية والرياضية من تطور. تلك العلوم التي أدى إهمالها إلى تقهقر الحضارة الإسلامية فيما بعد. ومن ثمّ فإن "قابادو" يرى أن تعريب المؤلفات الأوربية ما هي إلا عملية استرجاع لمعارف المسلمين السابقة[2]. وبالتالي لا بد من ضرورة التفتح على اللغات الأجنبية[3]، واعتبر أن التعليم هو مفتاح التقدم والرقي[4].

إذن تلك هي الأفكار التي غرسها "قابادو" في نفوس تلاميذه وبسطها في ديباجة كتاب "أصول الحرب" الذي ترجمه تلاميذ المدرسة تحت إشرافه. وقد لقيت هذه الأفكار صدى كبيرا بحكم تفتحهم على العلوم التجريبية والأساليب العصرية، ورغبتهم في التطور والتقدم. وبالتالي فقد كان "لقابادو" تأثيرا واضحا على طلبته سواء من تخرجوا على يديه بالمدرسة الحربية بباردو أو بجامع الزيتونة، فقد آمنوا بمذهبه واعتنقوا نظرياته الإصلاحية وتجندوا لنشرها في المجتمع، ونخص بالذكر:"محمد بيرم الخامس"(ت1307هـ /1889م) و"محمد السنوسي"(ت1318هـ/1900م) و"سالم بوحاجب"(ت 1343هـ/1924م). فلا غرابة أن يلتقي بعد ذلك المتخرجون من المعهدين على نفس المستوى الثقافي والإصلاحي[5].

استطاع "قابادو" رغم عدم جرأته على مجاهرة أرائه وأفكاره، أن يغتنم عدة مناسبات، لإبراز أفكاره الإصلاحية وشرحها، ومن ذلك اغتنامه لفرصة عودة ابني الوزير "مصطفى خزندار" من الدراسة بفرنسا، ليبرز فضل العلم ودوره في تطوير المجتمعات[6]. ويقول في هذا المجال[7]:

---

[1]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: الباب الأول، الفصل الثالث، ص ص 168– 170 .

[2]– قرين، مرجع سابق، ص 141 .

[3]– هناك مقال منشور بجريدة الرائد بعنوان "التقدم بالمعارف"، يتحدث عن أهمية تعلّم اللغات، وقد جاء في افتتاحية المقال: "إن اكتساب المعارف وتعلم اللغات هو الذي يقدم الأمة إلى مراقي الفلاح، وينجح سعيها المشكور بالتأثير في أنفس المعاصرين...". أنظر: ع 40، 8 شوال 1293هـ/ 25 أكتوبر 1876م .

[4]– الميزوري، مرجع سابق، ص 262 .

[5]– الساحلي، مرجع سابق، ص 71 .

[6]– الميزوري، مرجع سابق، ص ص 262، 263 .

[7]– نفسه، ص 263 . أنظر أيضا: محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، جمع وتحقيق علي رضا التونسي، المطبعة التعاونية، دمشق، 1971م، ص ص 85، 86 .

وليست فنون العلم إلا طرائق *** يؤمّ بها كل امرئ ما يهمّه
وكل فنون العلم للملك نافع *** ولا سيّما ساير الملك حكمه

وقوله أيضا:

فمن لم يجس خُبْرا أوربا ومُلكَها *** ولم يتغلغل في المصانع فهمه
فذلك في كنه البلاهة داجن *** وفي مضطجع العادات يلهيه حلمه
ومن لزم الأوطان أصبح كالكلا *** بمنبته منماه، ثمة حطمُه
همُ غرسوا دون التمدّن فرعه الر *** ياضي والعلم الطبيعي جذمُه
أيجمل، يا أهل الحفيظة، أنهم *** يبزّوننا علماً لنا كان فخمُه

وبالإضافة إلى شعر المناسبة، استعمل "قابادو" ترجمة الكتب الأجنبية كوسيلة لطرح أفكاره، وتوعية الغير ودعوته إلى تغيير نظرته التقليدية الجامدة اتجاه التعليم، بنظرة متفتحة تساير التقدم[1]. لذلك اشتغل بالإضافة إلى التدريس، مراجعة الكتب التركية والفرنسية التي عربها تلامذته في عدة علوم لا سيما في الفنون الحربية[2]. وعمل على ترغيبهم في اللغة العربية، حتى لا تقتصر معارفهم عند تخرجهم من المدرسة على اللغات الأجنبية فقط[3] .

– خير الدين التونسي[4]:

[1] – الميزوري، مرجع سابق، ص 263 .

[2] – يذكر "عبد الوهاب" أن عدد الكتب المترجمة فاقت الأربعين كتابا، لكنها ما زالت مبعثرة في مسوداتها. أنظر: خلاصة تاريخ...، مرجع سابق، ص 167 .

[3] – الميزوري، مرجع سابق، ص 263 .

[4] – "خير الدين التونسي": هو شركسي الأصل من قبيلة" أباظة" كان مولده ببلاد الشركس (جنوب الاتحاد السفياتي حاليا)، أما عن تاريخ ميلاده فقد ذكر المؤرخون تواريخ مختلفة لميلاده بين 1235 هـ/1820م و1246هـ/ 1830م، أما "خير الدين" فقد سكت عن ذلك. نشأ يتيما بعد وفاة والده في أحد المواقع العسكرية العثمانية ضد روسيا. ويقول في مذكراته :"وإن كنت أعرف أني شركسي الأصل فأنا لا أتذكر شيئا عن بلادي وأهلي، فقد التقطت في إحدى الغزوات أو الرحلات وأنا صغير جدا، لا أدرك شيئا عن بلادي وأهلي . فقدت كل أثر يدل عنهم، ولم أتمكن بعد أن كبرت من أي برهان جدّي على معرفة أقاربي وبلدتي، وإنما اذكر أن نشأتي كانت في الأستانة ومنها انتقلت سنة 1255هـ/ 1839م إلى تونس بين ممالك الباي". نفهم من قوله أن "خير الدين" لم يتذكر شيئا عن سنوات نشأته الأولى، ولا عن أسرته. كما أنه لم تنجح محاولاته المتعددة بعد ذلك في العثور على عائلته. تولى "حسين بك" تنشئته باستانبول، بعدما اشتراه من سوق الرقيق. وفي السابعة عشر من عمره، بيع "خير الدين" مرة ثانية بسوق الرقيق، فاشتراه مبعوث الباشا" المشير أحمد باي"، وتم نقله إلى تونس سنة 1253 هـ/ 1837م، حيث تلقى في قصره مبادئ الدين وتعلم اللغة العربية، وتمكن من الاتصال بالضباط الفرنسيين الذين دعاهم "أحمد باي" لتعليم فنون الحربية لعسكره.فتمكن خير الدين من الاستفادة منهم لإتقان تلك الفنون، كما كانت فرصة لتعلم اللغة الفرنسية تربية دينية وعصرية معا. بدأ "خير الدين" بتولي المناصب ويرتقي فيها شيئا فشيئا، وفي هذا الشأن يذكر "خير الدين" في مذكراته قائلا : " وقد ارتقيت سلم رتب الجيش رتبة رتبة، حتى إذا أصبحت في رتبة كولونيل

يعتبر "خير الدين" من المصلحين الكبار ومن رجال الدولة الذين قدّموا لتونس خدمات جليلة، وكان متزعما لجيل كامل من المصلحين تخرجوا من جامع الزيتونة، أو من المدرسة الحربية ببارودو، أمثال: "أحمد بن أبي الضياف"، و"الجنرال حسين"، و"بيرم الخامس" وغيرهم. وقد كان "لخير الدين" برنامج إصلاحي واضح ومتماسك حتى قبل تعيينه وزيرا أكبر للبلاد سنة 1290هـ/ 1873م، وقد دونه في كتابه المعروف "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"[1].

التحقت بوظيفة مُعين للأمير "احمد باشا باي"، وأُعطي لي لقب "فريق أمير لواء" الذي هو أعظم الألقاب التي تمنح في تونس، وبتلك الصفة أسندت إليّ رئاسة "فريق الفرسان "– فريق خيالة – سنة 1266هـ / 1850م ".

كان "خير الدين" طيلة فترة حكم "المشير أحمد باي" من أقرب أعوانه، لذلك انتخب لمهمة دقيقة وصعبة جدا وهي محاكمة ملتزم ضرائب الدولة "محمود بن عياد" الذي اختلس أموال الدولة وفر بها إلى فرنسا، ودامت المحاكمة ثلاث سنوات.

وفي سنة 1269هـ/1853م أرسله "احمد باشا باي" إلى باريس لمحاكمة ملتزم الضرائب السابق "محمود بن عياد" فطالت إقامة "خير الدين" في باريس حيث دامت أربع سنوات، لكنه نجح في استعادة حوالي 34 مليون ريال وردها الى خزينة الدولة. وبعد عودته أسندت إليه وزارة البحر ورئاسة المجلس الأكبر المنتخب، الذي كان قد تأسس حديثا للإشراف على المصالح العامة. لم يتمكن "خير الدين" المواصلة في المناصب التي أسندت إليه بسبب الفساد والدسائس التي كانت تحاك ضده ، فقدم استقالته سنة 1279هـ/ 1862م ورحل إلى فرنسا، وتفرغ لكتابه المعروف "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك". وعلى إثر وفاة "علي بن غذاهم" سنة 1281هـ/ 1864م كلفه "محمد الصادق باي" سنة 1286هـ/ 1869م برئاسة لجنة الكومسيون المالي، ولنجاحه في هذه المهمة كلفه الباي سنة 1288هـ/1871م بمهمة توثيق الصلة بين تونس والدولة العثمانية، ثم عينه وزيرا أكبر في شعبان 1290هـ/ أكتوبر 1873م . وأمام اشتداد الوشايات استقال "خير الدين باشا" من جميع وظائفه، ثم هاجر إلى تركيا في أوت سنة 1295هـ/ 1878م بأمر من حاكم البلاد "محمد الصادق باي". توفي باستانبول سنة 1307هـ/ 1890م ودفن في جامع أيوب . أنظر: مذكرات خير الدين باشا، تعريب محمد العربي السنوسي، بيت الحكمة، تونس، 2008م، ص ص 19– 21 . أنظر أيضا: عبد السلام، المؤرخون التونسيون...، مرجع سابق، ص 366، هامش 3، 367، 375 . وأيضا: التونسي، مصدر سابق، مقدمة المحقق، ص 31 .

[1]– كتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك": قام بتأليف هذا الكتاب مدة إقامته في فرنسا والتي دامت حوالي سبع سنوات، حيث يقول:" لقد مكنتني إقامتي الطويلة بفرنسا، وهذه الأسفار الطويلة من دراسة أُسُس الحضارة الأوربية ومقوماتها وكذلك مؤسسات الدول العظمى الأوربية، واغتنمت أوقات الفراغ التي توفرت لي من حياة العزلة لتأليف كتابي السياسي تحت عنوان أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك". احتوى الكتاب على آرائه الإصلاحية وخلاصة انطباعاته ومعلوماته التي جمعها حول مختلف الدول الأوربية أثناء أسفاره المتعددة . صدر هذا المؤلف في حياته سنة 1285هـ/ 1868م ، وقد استعان في تحريره للكتاب بالشيخ "سالم بوحاجب" الذي كان صديقا له. هذا الأخير الذي ساعده على جمع الحُجج الشرعية والنصوص الفقهية من مالكية وحنفية التي اعتمد عليها في كتابه.

عرض "خير الدين" الكتاب على الباي الذي أذن بطبعه في المطبعة الرسمية بتونس. ولاقى من يوم نشره اهتمام المثقفين في تونس وفي أقطار إسلامية أخرى منها تركيا. وأشرف بنفسه على الترجمة الفرنسية التي تولاها أحد مساعديه. وصدرت المقدمة في باريس سنة 1285هـ/ 1868م تحت عنوان "الإصلاحات الضرورية للأقطار الإسلامية "Reformes nécessaires aux pays musulmans" ، أما الترجمة التركية فقد تأخرت إلى سنة 1295هـ/ 1878م، وهي سنة تعيينه صدرا أعظم بالأستانة. لكن لم يتسنّ له رؤية الكتاب باللغة الانجليزية إذ لم تحصل الترجمة إلا بعد قرن من الزمن أي سنة 1387هـ/ 1967م. أنظر: مذكرات خير الدين، مصدر سابق، ص ص 24 – 26 . وكذلك: التونسي، مصدر سابق، ص ص 47 ، 48. وعبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 21 . ونفسه، المؤرخون التونسيون...، مرجع سابق، ص ص 375 – 382 .

كان "خير الدين" من الذين دعوا إلى إصلاح أوضاع الإيالة التونسية، حيث شاهد أثناء رحلاته إلى البلدان الأوربية مدى تقدم هذه الأخيرة، وفي المقابل تعيش الأمة الإسلامية تخلفا فضيعا، فكان من الذين طالبوا بضرورة إصلاح الأوضاع والالتحاق بالركب، ويكون ذلك بالاقتباس والأخذ من الدول المتقدمة. وهذا ما سماه "بالتمدن الأوربي" والذي دعا من خلاله إلى ضرورة التفتح والاستفادة من الأمم الأخرى[1].

كما لا بد من التنويه إلى زياراته العديدة ومهماته المنتظمة لعاصمة الدولة العثمانية، وكذا لمعظم العواصم الأوربية، والتي كان لها دور في نضج آرائه وأفكاره الإصلاحية خلال مسيرته الدبلوماسية والثقافية[2]. والاستفادة من طول مدة إقامته باستانبول، إذ تعرف على أهم تجربة تعليمية، متمثلة في المعهد النموذجي الإمبراطوري، الذي أطلق عليه اسم معهد "قالاتا سراي"Galata Saray"، ذلك أن الحكومة العثمانية قررت بعث نظام تربوي تعليمي حديث تحت إشراف وزارة التربية العمومية، مستندة في ذلك إلى تجربة تربوية سابقة بمعهد أطلق عليه "مكتبي عثماني"Mektebi Osmani" ، حيث أنشأته الحكومة العثمانية بباريس في منتصف القرن 13هـ/ 19م[3]. وعلى ضوء الاتصالات التي قام بها "خير الدين" باستانبول، وزيارته لمعهد "قالاتا سراي"Galata Saray"، دفعت "بخير الدين" التفكير مليا في هذه التجربة التربوية الناجحة، وتطبيقها بإيالة تونس. وسيعمل على تجسيد أفكاره ومشاريعه الإصلاحية على أرض الواقع بتأسيسه للمدرسة –المعهد الصادقي– .

وما تجدر الإشارة إليه أن "خير الدين" لم يكن لوحده، بل شاركه في تفكيره الإصلاحي مجموعة من العلماء ورجال الدين والدولة، الذين شاطروه آراءه وعملوا على نشرها وتنفيذها. وممن عرف بموافقته لآراء "خير الدين" نذكر من بينهم:

– الجنرال حسين[4]:

---

[1]– التونسي، مصدر سابق، ص 79 وما بعدها .

[2]– التميمي، "تاريخ المهمات والتبادل الثقافي ..."، مرجع سابق، ص 98 .

[3]– نفسه، ص 100 .

[4]– "الجنرال حسين": هو من أسرة شركسية، مستقرة في جبال القوقاز، قدم إلى تونس صبيا مملوكا دون سن العاشرة، في فترة حكم "مصطفى باي بن محمود" (1251– 1253هـ/ 1835– 1837م). وتربى كغيره من المماليك المحظوظين في قصر باردو مع أبناء الأسرة الحاكمة. وهناك تلقى مبادئ التربية الأولى، تتلمذ بالمدرسة الحربية بباردو، ويعتبر من أنجب تلامذتها. تميز بالخلق الرفيع وبالاستقامة في الدين . بدأت مهام "حسين" السياسية مع بداية مصاحبته "لخير الدين" إلى باريس لتتبع قضية "محمود بن عياد". وفي باريس ازدادت الألفة بينهما. وما إن عاد إلى تونس في بداية عهد "محمد باي" (1271– 1276هـ/ 1855– 1859م)، حتى بدأ يتحصل على الأوسمة والترقيات في السلم العسكري، فتحصل على

خريج المدرسة الحربية بباردو، التي كانت مهمتها تخريج الضباط للجيش النظامي. وفي داخل المدرسة تقوت علاقته خاصة مع "خير الدين" أمير لواء الخيالة وقتها، والذي كان يتردد على المدرسة الحربية. ثم كوّن علاقات متينة مع "محمود قابادو" وبعض علماء الزيتونة. وبفعل نجابته بالمدرسة، وصلاته المتينة مع أشهر علماء ومدرسي عصره. تكونت له ثقافة واسعة، فاق فيها حتى صديقه الوزير"خير الدين"، حيث أتقن العلوم العقلية والنقلية، واللغات منها الفرنسية والتركية والإيطالية[1].

تولى "حسين" مناصب عديدة، وكلفته الوزارة الكبرى بمهام مختلفة داخل وخارج الإيالة[2]. لذلك كانت حياته العملية مليئة بالحركة والنشاط والمسؤوليات الصعبة. فكانت مهماته خارج الإيالة فرصة لزيارة العديد من دول العالم، وبالتالي التعرف على مختلف الأجناس والعقليات[3].

كانت تجمع الجنرال بالوزير" خير الدين" علاقة قوية، نستشفها من خلال المراسلات التي نشرها الأستاذ "عبد السلام"، هذه الأخيرة التي تؤكد مدى قوة العلاقة التي كانت تربطهما، فقد كانا يتبادلان نتائج أعمالهما وأخبارهما[4]. وكان "خير الدين" يستشير صديقه في كل أموره ومشاريعه، لما يتمتع به من ثقافة وإخلاص. وقام باستدعائه سنة 1288هـ/ 1871م للعمل معه والاستفادة من خبرته السياسية والقانونية،[5]. فقام بتعيينه وزيرا للمعارف والنافعة –وزير الأشغال العمومية–[6] .

رتبة أمير آلاي ثم أمير لواء، وعين رئيسا لأول بلدية بالحاضرة تونس. وفي سنة 1277هـ/ 1860م، كُلف بإدارة أول مطبعة بالبلاد التونسية لطباعة أول جريدة "الرائد الرسمي". وصاحَبَ "الصادق باي" في رحلته إلى الجزائر لمقابلة الإمبراطور "نابليون الثالث" سنة 1279هـ/ 1861م. ثم عند تطبيق قانون عهد الأمان وتأسيس المجالس عيّن عضوا في المجلس الأكبر، والمجلس الخاص وترأس مجلس الجنايات والأحكام العرفية بالحاضرة. ومما عُرف عنه أنه كان في المجالس نشيطا ومعارضا شديدا لسياسة الوزير الأكبر "مصطفى خزندار". وما أن تأكد من عدم رغبة الدولة في تطبيق القوانين، حتى قدم استقالته سنة 1280هـ/ 1863م من وظائفه بالمجالس. ثم خرج من تونس وبقي متنقلا في أوربا حيث ازداد معرفة بأحوال الناس. أدركته المنية في مدينة "فلورنسه "Florence" بإيطاليا في شوال 1304هـ/ جويلية 1887م، متأثر بمرض القلب الذي لازمه قرابة عشرين سنة. ودفن في المقبرة الإسلامية، وبعد أشهر نقل جثمانه إلى الأستانة بطلب من صديقه "خير الدين". أنظر: بنبلغيث، "دور الجنرال حسين ..."، مرجع سابق، ص ص 148 – 150. أنظر أيضا: عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص ص 57، 58 .

[1]– بنبلغيث، " دور الجنرال حسين..."، مرجع سابق، ص ص 148، 149 .

[2]– قضية تركة "نسيم شمامة" مع الدولة التونسية. ونظرا لتشعب القضية فقد اضطر "الجنرال حسين" للإقامة طويلا بإيطاليا. أنظر: في نفس الفصل، ص 193، هامش 03 .

[3]– بنبلغيث، " دور الجنرال حسين..."، مرجع سابق، ص ص 148 – 150 .

[4]– عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 8 .

[5]– بنبلغيث، " دور الجنرال حسين..."، مرجع سابق، ص 150 .

[6]– الزمرلي، مرجع سابق، ص 84 .

والأهم في كل هذا أنه كان من بين الرجال الذين ناصروا المشروع الإصلاحي "لخير الدين" وساهموا فيه، والدليل على ذلك المجهودات التي بذلها للتعريف بأفكار "خير الدين" الإصلاحية في مختلف أقطار العالم مشرقا ومغربا، من خلال كتابه "أقوم المسالك" الذي كان يشجع على ترجمته إلى مختلف اللغات[1].

– سالم بوحاجب[2]:

كان من بين أهم الشخصيات التي دعمت حركة الإصلاح التي تزعمها "خير الدين"، فكان من بين المساعدين له في تحرير كتابه "أقوم المسالك" ومدِّه بالحجج والأدلة الشرعية[3]. كما عينه "خير الدين" ضمن اللجنة التي حررت قانون المدرسة الصادقية [4].

تفرد "سالم بوحاجب" عن غيره من رجال الإصلاح بالدعوة إلى ضرورة الاهتمام بالمناهج التعليمية، من خلال إدخال العلوم الرياضية والطبيعية بالبرامج التعليمية. وحسب تصوره فإن ذلك لا يتحقق إلا بوضع خطة دقيقة لبرامج التعليم، تجمع بين شيوخ التدريس وتكون بمثابة أرضية لإصلاح التعليم[5].

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن أسفاره التي قام إلى كل من إستانبول وإيطاليا وفرنسا، كان لها الدور الكبير في بلورة فكره ونظرته الإصلاحية انطلاقا من التعرف على مقومات الحضارة الغربية، وأسباب التخلف والركود الذي يعيشه العالم الإسلامي. فمن هذا المنطلق دعى إلى ضرورة الإصلاح وإدخال الأفكار والنظم الغربية التي لا تتعارض مع الإسلام. ومن مظاهر تفتحه على الحضارة الغربية تعلمة للغة الايطالية، وتوظيفه لبعض مصطلحاتها أثناء إلقاءه لدروسه، مثل كلمة "قراتسي"Grazie" بالايطالية التي كان يقولها كثيرا لطلبته والتي تعني "أحسنت"[6].

ومهما يكن من أمر فإن المصلح والعالم "سالم بوجاجب" قد اتخذ من حلقاته التعليمية ومن خطبه الدينية التي كان يلقيها بالمساجد[7]، السبيل الأنجع لنشر أفكاره وآراءه .

---

[1]– عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 30 .

[2]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: الباب الأول، الفصل الثالث، ص ص 166، 167 .

[3]– مخلوف، مصدر سابق، ج1، ص 427 .

[4]– الزمرلي، مرجع سابق، ص 172 .

[5]– الميزوري، مرجع سابق، ص 270 .

[6]– محفوظ، مرجع سابق، ج1، ص 79 . أنظر أيضا: الزمرلي، مرجع سابق، ص 174 .

[7]–نفسه، ج1، ص ص 79، 80 .

- محمد بيرم الخامس:

ولد بتونس في محرم 1255هـ/ أفريل 1839م، تربى في بيت علم وجاه، من أسرة عريقة في الخطط الدينية تولى ثلاثة من أجداده وعمه مشيخة الإسلام بعد الإفتاء بالمذهب الحنفي، ولذلك كان يلقب "بمحمد بيرم الخامس"[1]. تتلمذ على شيوخ أسرته كابن عمه "أحمد بيرم"، وابن عم أبيه "مصطفى بيرم"، وشيخ الإسلام "محمد معاوية"[2]. كما عملت أسرته جاهدة على تلقيه التعليم على يد أشهر شيوخ الزيتونة منهم: "محمد معاوية"، والشيخ "محمد الطاهر بن عاشور"، و"محمود قابادو". وفي نفس الوقت كان "بيرم الخامس" يحضر المجالس التي كانت تعقد بمنزلهم أو عند عمه، ليستمع لآراء وأفكار الشيخ" قابادو". فتأثر بأفكار ونظريات شيخه الإصلاحية تأثرا كبيرا[3].

إذن تمكن "بيرم الخامس" من الجمع بين تكوين علمي تم داخل أسرته، وتكوين آخر تلقاه في جامع الزيتونة وفي المدارس. وتحصل بفضل التكوين المزدوج على ثقافة كانت أوسع وأفضل من ثقافة الكثير من معاصريه. والظاهر أن مكتبة أجداده قد أتاحت له فرصة مطالعة المؤلفات التي لم تكن في متناول زملائه من الطلبة، وبالتالي تكونت لديه ثقافة تجمع بين الأصالة والمعاصرة[4].

سافر إلى أوربا حيث التقى بالجنرال "حسين" في إيطاليا، و"بخير الدين" في فرنسا. وقد ساهمت كل هذه العوامل على إثراء ملاحظاته ومكنته من المقارنة، فنقد الوضع المتدهور الذي كان يعيشه المجتمع العربي الإسلامي عامة والتونسي خاصة، وأبدى استعداده للإصلاح، متبعا في ذلك مسلكين[5]، الأول: نظري تحسيسي وقد تضمنه مؤلفه "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"[6]، حيث وصف فيه ما شاهده في أسفاره في بعض البلدان الإسلامية وفي أقطار من

---

[1]- عبد السلام، المدرسة الصادقية ...، مرجع سابق، ص 11 .

[2]- نفسه، المؤرخون التونسيون...، مرجع سابق،ص 447 .

[3]- محفوظ، مرجع سابق، ج1، ص 143 .

[4]- عبد السلام، المؤرخون التونسيون...، مرجع سابق، ص 447 .

[5]- الميزوري، مرجع سابق، ص 258 .

[6]- يعتبر مدخلا لمن يريد أن يتعرف على النهضة الفكرية التي وضع أسسها "خير الدين"، ومن معه من علماء الزيتونة. وقد قام "عبد السلام" بتقديم دراسة وصفية وتحليلية للكتاب. أنظر: المؤرخون التونسيون...، مرجع سابق، ص ص 456- 461 .

لأوربا، ودعا إلى الاقتباس المعتدل وما ينفع الأمة الإسلامية[1].كما أشار إلى النقائص التي يعاني منها التعليم بإيالة تونس، وتتمثل في نظره فيما يلي[2]:

– عدم التوازن بين الجهات، فالحاضرة تونس محظوظة عن غيرها من المدن مثل: صفاقس، وسوسة، وجربة، والكاف، وغيرها. وقد نتج عن ذلك انحصار التعليم في دائرة ضيقة، وبالتالي

– انتشار الجهل والأمية في المدن الصغيرة والأرياف .

– انعدام التعليم العصري .

– افتقار التعليم إلى التنظيم ومحدودية نفعها .

أما المسلك الثاني: فهو تطبيقي إذ تمثل بالأساس في مساهمته في تحقيق مشاريع عظمى تتصل خصوصا بالميدان التعليمي[3]، بإيعاز من الوزير "خير الدين"[4]، حيث اعتمد عليه مدة وزارته لانجاز كثير من مشاريعه الإصلاحية، فكان رئيسا لجمعية الأوقاف، ومشرفا على جريدة "الرائد التونسي" وعلى مطبعته، وعضوا في اللجان التي انبثق عنها إصلاح التعليم الزيتوني[5]. وعضوا في اللجنة المكلفة لوضع برامج المدرسة الصادقية، وبذل كل ما في وسعه لإقناع أعيان المدينة بإرسال أبنائهم إلى المدرسة. وليكون قدوة للآخرين، قام بتسجيل ابنه الأكبر بالمدرسة الصادقية، هذا الأخير الذي تخرج منها وأصبح فيما بعد رئيس مجلس الاستئناف بالقاهرة[6].

لكن اضطر "محمد يرم الخامس" سنة 1296هـ/ 1879م إلى مغادرة تونس ولم يعد إليها. وشارك من استانبول في حركات معارضة للاحتلال الفرنسي لتونس. ثم استقر بمصر وأنشأ بها مطبعة وجريدة سماها "الإعلام" ونشر بها مؤلفاته، أهمها كتاب "صفوة الاعتبار"[7].

– محمد السنوسي:

هو محمد بن عثمان بن محمد السنوسي ولد حوالي سنة 1266هـ/ 1850م بمدينة تونس، هو حفيد قاضي الجماعة الشيخ "محمد السنوسي" (ت 1255هـ/ 1839م). صاحب

---

[1]– عبد السلام، المدرسة الصادقية ...، مرجع سابق، ص 11 .

[2]– بيرم الخامس، مصدر سابق، ص ص 126، 127. أنظر أيضا: الميزوري، مرجع سابق، ص 269 .

[3]– أنظر: الباب الثاني، الفصل الثاني.

[4]– الميزوري، مرجع سابق، ص 258 .

[5]– عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص ص 7، 8 . أنظر أيضا: الزمرلي، مرجع سابق، ص ص 90– 92 .

[6]– محفوظ، مرجع سابق، ج1، ص 144 . أنظر أيضا: الزمرلي، مرجع سابق، ص ص 90، 91 .

[7]– عبد السلام، المؤرخون التونسيون...، مرجع سابق، ص ص 454، 455 .

كتاب "مسامرات الظريف بحسن التعريف" يشتمل على تراجم القضاة والمفتيين وأئمة جامع الزيتونة[1] ويعتبر تلقيه العلوم على الشيخين "سالم بوحاجب" و"محمود قابادو" الأثر الكبير على تفكيره وحياته، وهما اللذان عرفاه "بآل بيرم" من جهة، ومن جهة أخرى برجال الإصلاح، خاصة منهم "خير الدين" و"الجنرال حسين". غير أنه لم يقدم برنامجا إصلاحيا واضحا، في الميدان التعليمي مثلما فعل "خير الدين". لكن المتتبع لجريدة الرائد التونسي في الفترة الممتدة ما بين (1283- 1298هـ/ 1866- 1880م)، أين كان يشتغل فيها بصفته محررا[2]، عدة مقالات تتناول موضوع التعليم بصفة مباشرة أو غير مباشرة. لكن الظاهر أن "محمد السنوسي" كان من بين الرجال الذين ساندوا الوزير خير الدين، وعملوا على تجسيد مشروعه الإصلاحي على أرض الواقع[3] .

وفي الأخير نستطيع القول أن أغلب رجال الإصلاح آمنوا بفكرة ضرورة إصلاح التعليم، وإخراجه من التقوقع الذي وقع فيه، لأنه بواسطته يتم اللحاق بركب الأمم المتقدمة. لذلك دعوا إلى ضرورة تحديث وإصلاح المؤسسات التعليمية التقليدية، مع المحافظة على طابعها الإسلامي. ونادوا بضرورة اقتباس علوم الغرب التي لا تتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي[4]. لكن ما لاحظناه أن لكل واحد منهم رؤيته ونظرته الخاصة به .

3. المؤسسات التعليمية وأنماط التعليم الأجنبي:

إن تنوع المؤسسات التعليمية، إنما هو تعبير عن تنوع المجتمع في حد ذاته، وتعدد القوميات التي تعيش على الأرض التونسية في الحقبة التاريخية التي نحن في صدد دراستها. لكن لم يكن من السهل لتلك القوميات إيجاد مؤسسات تعليمية خاصة بها لتعليم أبناءها. فقد ظل عدد الأصناف المدرسية دائما أقل من عدد القوميات، لأن بعضها كان وزنها الاجتماعي العددي أو السلطوي يحول دون التعويل على نفسها في تعليم أطفالها.

---

[1]– محمد الفاضل بن عاشور، " الشيخ محمد السنوسي"، م . ز ، مج 9، ج3 ، 1374هـ/ 1955م، ص ص 143، 144 . أنظر أيضا: عبد السلام، المؤرخون التونسيون...، مرجع سابق، ص ص 475– 478 .

[2]– محمد الفاضل بن عاشور، مرجع سابق، ص 145 .

[3]– الميزوري، مرجع سابق، ص 271 .

[4] – نفسه، ص 272 .

ولعل ما ذكرناه ينطبق تماما على الجالية المالطية التي كانت تمثل عدديا أهم جالية أوربية بإيالة تونس أواسط القرن 13هـ/19م، ومع ذلك لم تفرز مؤسسات أو نمطا تعليميا خاصا بها وسبب ذلك، أن مالطة في حد ذاتها لم تكن سيدة نفسها، بل كانت ملحقة بالتاج البريطاني. فالوجود المالطي في تونس كان لمجرد البحث عن وسائل الرزق لا غير، لأن حجم مالطة وإمكانياتها بإيالة تونس لم يسمح لها بالطموح إلى أكثر من ذلك[1].

وفي هذا السياق، تبادر إلى ذهننا التساؤل التالي: هل كل القوميات والجاليات الأجنبية واجهت نفس الصعوبات التي واجهتها الجالية المالطية في شأن تعليم أبنائها؟ أم هناك اختلاف بين مختلف القوميات؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه من خلال العرض البسيط للنمط التعليمي والمؤسسات التعليمية التي ظهرت قبل الحماية بإيالة تونس .

1.3. التعليم لدى الجالية الأوربية:

فبالرغم من أن تواجد الجالية الأوربية بإيالة تونس قديم العهد، إلا أن المؤسسات التعليمية الخاصة بأبنائها لم تظهر إلا بداية من سنة 1246هـ/ 1830م، وهو التاريخ الذي دخلت فيه الإيالة منعرجا حاسما، حيث بدأ عدد الأوربيين يرتفع، وأصبح هؤلاء يشعرون بالإطمئنان على مستقبلهم، نتيجة الاحتلال الفرنسي للجزائر، وينادون بضرورة تعليم أبنائهم[2]. وانطلاقا من هذه الأرضية بدأت المؤسسات التعليمية الأوربية تظهر بالإيالة .

1.1.3. تعليم الجالية الايطالية:

يمكن تصنيف المؤسسات التعليمية الايطالية بالإيالة التونسية إلى نوعان، مدارس خاصة وأخرى عمومية.

– المدارس الخاصة:

اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ ظهور أول مدرسة ايطالية بتونس، وحتى أول مؤسس لها. فقد أرجعها أرنولي" Arnoulet" إلى سنة 1247هـ/ 1831م، وهي السنة التي قدم فيها اللاجئ السياسي الليفوربي "بيمبو سولما"Pompeo Sulema" إلى تونس، أين قام بتدشين أول

[1] – بلقاسم بن سالم، التعليم العصري ونظام التوجيه المدرسي في تونس، سلسلة علوم التربية، تونس، 1988م، ص ص 34، 35 .

[2] – الميزوري، مرجع سابق، ص 192 .

مؤسسة تعليمية لأبناء الجالية الايطالية مع أخته "إيستر"Esther". ويذكر لنا أن المدرسة بدأت تعليمها بدون برنامج واضح ومحدد. أما عدد التلاميذ الذين التحقوا بالمدرسة قليل جدا، فتعدادهم لا يفوق العشرة[1]، وهذا طبيعي جدا لأن التعليم في هذه المدرسة يتم بدفع مبلغ مالي من طرف الأولياء، وبالتالي لا يمكن للعائلات الفقيرة إرسال أبنائها إلى مثل هذه المدارس.

أما في التقرير أعده كل من مدير التعليم العمومي "لويس ماشويل"Louis Machuel" والمراقب المدني "كاترو" Catroux" فيذكران أن "لاراتوندا" Laratonda" هو من أسس أول مدرسة ايطالية سنة 1251هـ/ 1835م، وكان يتردد عليها آنذاك أبناء الجاليتين الايطالية والفرنسية[2].

ومع مرور الوقت، تم إحداث مدارس أخرى من طرف خواص جاءوا من جنوة وليفورن واستقروا في تونس. منها على سبيل المثال: مدرسة "موربورقو"Morpurgo" التي أحدثت سنة 1256هـ/ 1840م. و"معهد انريكاز "Institut Enriquez" بنهج الصباغين، الذي قدم خدمات تعليمية لفائدة الأطفال الإيطاليين في الفترة الممتدة ما بين (1268- 1279هـ/ 1851- 1862م). كما قام يهودي من ليفورن يدعى "ماناه" Manah" بفتح مدرسة صغيرة خاصة بأبناء اليهود الايطاليين[3].

– المدارس العمومية:

بدأ تمويل التعليم من طرف الحكومة الايطالية منذ سنة 1281هـ/ 1864م، ولتحقيق ذلك تم تخصيص مبلغ قدره 3500 فرنك[4]، ليرتفع قيمته إلى6.000 فرنك سنة1287هـ/1880[5].

وعلى هذا الأساس بدأت المدارس العمومية المجانية في الظهور، ففي سنة 1271هـ/ 1855م تم إحداث مدرستان بطلب من القنصل الإيطالي، إحداهما للبنات والأخرى للذكور،

---

[1]- François Arnoulet , « la pénétration intellectuelle en Tunisie avant le protectorat» , R.A, N° 438-439, 1954, p. 142 .

[2]- نقلا عن الميزوري، مرجع سابق، ص 195 .

[3]- نفسه، ص ص 195، 196 . أنظر أيضا:

Arnoulet, "la pénétration intellectuelle…", Op.Cit., p p. 173, 174 .

[4]- الميروزي، مرجع سابق، ص ص 195، 196.

[5]-Abderezak Bannour, « Aperçu sur l'enseignement du français en Tunisie de 1830 à 1883 », DHF.LESBM, V1 ,N°27 , Décembre 2001, p. 3 .

تم تحميل المقال من الموقع: http://journals.openedition.org/dhfles/2604

بالقرب من مبنى القنصلية بمدينة تونس. وأخرى بسوسة، وحلق الوادي سنة 1297هـ/ 1880م. والتعليم فيهما يكون بالمجان بإعانة من الدولة[1].

كما تفيد بعض الدراسات أنه تم تأسيس مدرسة إيطالية للفنون والحرف بمدينة تونس سنة 1298هـ/ 1880م، وقد تضمن برنامجها الدراسي المواد التالية: اللغة الإيطالية، والحساب، والمحاسبة، ومبادئ أساسية في الهندسة والميكانيك التي يقع تطبيقها في فن البناء الحضري والريفي، بالإضافة إلى النقش والنحت بالآلات. وهذا النوع من التعليم موجه أساسا إلى تكوين شبان في الميدانين الصناعي والتجاري[2].

2.1.3.تعليم الجالية الفرنسية:

كان ضعف الجالية الفرنسية بتونس عدديا، من الأسباب التي جعلت فرنسا تسعى إلى تدعيم حضورها وتركيز نفوذها بنشر ثقافتها، لذلك فقد حظي تعليم الجالية الفرنسية بالرعاية خاصة من طرف المبشرين المسيحيين الفرنسيين[3].

ومن بين المدارس الفرنسية التي ظهرت بإيالة تونس خلال القرن 13هـ/ 19م، نذكر :

- **مدرسة سان لويس "Saint Louis"**:

تعود البداية الفعلية للتعليم الفرنسي بإيالة تونس إلى سنة 1246هـ/ 1830م، عندما سعى الفرنسيون بعد احتلالهم للجزائر إلى مد أيديهم إلى تونس، متبعين فيها على عكس جارتها طريق التسرب الفكري، بواسطة رجال الدين المسيحي، وهي السياسة التي اتبعت رسميا، كطريق للتبشير بالمسيحية الهادئة أو ما يسمى "بالصليبية المسالمة"[4]. فقد طالب الفرنسيون البايات الحسينيين، بحق إقامة كنيسة "سان لويس" Saint Louis" في قرطاج، ومُنحوا ذلك فعلا في 08رجب1257هـ/25 أوت1841م، أي بعد وصول قسّ فرنسي يدعى"فرانسوا بورقاد" "François Bourgade" من الجزائر. وسرعان ما أصبح مرشدا للكنيسة سنة 1259هـ/

[1]– Arnoulet, "la pénétration intellectuelle…", Op.Cit, p. 173 .

[2]– الميزوري، مرجع سابق، ص 199 .

[3]– ابن سالم، مرجع سابق، ص 36 .

[4] – بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر...، مرجع سابق، ص 81 .

1843م[1]. ثم توجه اهتمامه نحو التعليم، فقام بإحداث معهد صغير للتعليم الابتدائي والثانوي، بنهج "سيدي المرجاني" بالحاضرة تونس، أسسه سنة 1261هـ/1845م[2]. والظاهر أن أبوابه فتحت أمام جميع الأطفال باختلاف جنسياتهم ودياناتهم، ويذكر "أرنولي"Arnoulet" أن عدد المتمدرسين يقدر حوالي مائتين إلى ثلاثمائة متعلم، أغلبهم إيطاليين، وحوالي ثمانين منهم من أبناء السكان المحليين، ومثلهم من اليهود[3].

أخذ المعهد تسمية "سان لويس"Saint Louis"، وهو أول مدرسة للذكور، وأصبح يعلم بالإضافة إلى اللغة الفرنسية والايطالية والرياضيات والكيمياء والفيزياء والرسم، اللغة اللاتينية واليونانية والعربية والتاريخ والجغرافيا[4]. ثم ألحق بالمعهد سنة 1262هـ/1846م، مدرسة ابتدائية للأطفال، تُدرس بها أخت من أخوات"القديس يوسف" Les sœurs de saint Joseph" "de l'apparition. تساعدها السيدة اليهودية "ملاه "Mallah"، وعدد تلاميذها يتراوح ما بين الثلاثين والأربعين متمدرس من كلا الجنسين[5].

أما عن هيئة التدريس، فيتضح جليا من خلال القائمة التي قدمتها لنا "مديحة مشرفية" في دراستها أنهم أجانب مع وجود مدرس واحد تونسي ألا وهو "سليمان الحرايري"[6](ت 1292هـ/ 1875م)، الذي كان مدرسا للغة العربية. أما بقية المدرسين فهم إيطاليون وفرنسيون .

---

[1]– مديحة مشرفية، أولى المدارس الفرنسية بالإيالة التونسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر(1830 – 1855م)، ط1، المغاربية للطباعة والإشهار، أريانة، 2009م، ص 121 .

[5]– نفسه، ص 122.

للإشارة هنا، وجدنا أن هناك اختلاف في تاريخ تأسيس المعهد. حيث وجدنا "ماشويل"Machuel" يذكر نفس التاريخ الذي ذكرته "مشرفية" في دراستها. بينما "أرنولي"Arnoulet" فيذكر أن التأسيس يعود إلى سنة 1257هـ/ 1841م . لكن نعتقد أن الأصح، هو التاريخ الذي ذكره "ماشويل" و"مشرفية" لأنه من الصعب بل ومن المستحيل أن يؤسس "بورقاد"Bourgade" المعهد في نفس السنة التي وصل فيها إلى تونس لأنه ليس بالأمر اليسير والهيّن. أنظر:

Louis Machuel, L'enseignement public dans la régence de Tunis, Imp nationale, Paris, 1889, p. 2 .

أنظر أيضا: Arnoulet, "La pénétration intellectuelle…", Op.Cit , p. 142 .

[3]– Arnoulet, "La pénétration intellectuelle…", Op.Cit , p. 143 .

[4]– Ibid., p p. 142,143 .

أنظر أيضا: Machuel ,Op.Cit, p.2 .

[5]– مشرفية، مرجع سابق، ص ص 122، 123 .

[6]– "سليمان الحرايري": ولد سنة 1244هـ/ 1828م، أصوله من أسرة فارسية جاءت من بلاد فارس واستقرت بمدينة تونس. درس بتونس العلوم الدينية واللغوية، ثم أتقن اللغة الفرنسية. واهتم بالطب، والرياضيات، والطبيعيات. درّس الرياضيات وعمره خمسة عشر سنة، عينه "مصطفى باي"

جدول رقم (6): هيئة التدريس بمعهد "سان لويس"Saint Louis"[1] .

المدرسون الفرنسيون	"لاجيه"Lagier "
	"إسبينا" Espinat"
	"د. سار"De Sère "
	"كلو"Clot"
	"بايان"Payen"
	"لومبار"Lombard "
المدرسون الايطاليون	"سولما "Sulma "
	"فالكا" Falca"
	أرتونا "Ortona"

لكن سرعان ما بدأ المعهد يضعف، فتفرق بعض أساتذته، ليتحول سنة 1264هـ/1848م إلى مدرسة ابتدائية. ونظرا للصعوبات التي واجهها المعهد، ترك "بورقاد" Bourgad" المعهد لليهودي "سولما"Sulma" سنة 1269هـ/ 1853م، ليسافر فيما بعد إلى فرنسا. لكن "سولما"Sulma " هو الآخر لم يستطع الإبقاء على المدرسة لمدة طويلة، فأغلقت أبوابها نهائيا سنة 1280هـ/ 1863م[2]. وفي سنة 1294هـ/1882م تم تحويل المدرسة إلى مدينة تونس وأطلق عليها اسم "سان شارل"Saint Charles"، لتأخذ اسم ثانوية "كارنو"Carnot" سنة 1312هـ/ 1894م[3].

لرئاسة الديوان، كما عمل كمترجم بالقنصلية الفرنسية. كان ملازما للقس "بورقاد"Bourgade". انتقل معه إلى باريس وعينه هناك أستاذا للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية. وأسس جريدة "عقاب باريس". كما تولى التحرير بجريدة "برجيس باريس"، وتعريب بعض الكتب العصرية، مثل: كتاب الأصول النحوية للغوي الفرنسي "لومون" Lhomond". أنظر: محفوظ، مرجع سابق، ج2، ص 120 .

[1]– مشرفية، مرجع سابق، ص 125 .

[2]– نفسه، ص ص 126، 127 .

أنظر أيضا: Arnoulet," la pénétration intellectuelle…", Op.Cit , p.143 .

[3]– G. Landais, Impressions de deux voyages en Tunisie 1889-1893, George Carré et C. Naud Ed, Paris,1897, p.161.

– مدارس إخوان المذهب المسيحي[1]:

"Les frères de la doctrine chrétienne"

يعود التحاق "إخوان المذهب المسيحي" إلى تونس بإيعاز من "فيدال سوتر" "Fedele Sutter"، هذا الأخير الذي شجع التحاق الإخوة الخمسة في 11 صفر 1272هـ/ 22 أكتوبر 1855م، لتأسيس مدارس لتعليم أبناء الجالية المسيحية[2].

وأسست أول مدرسة لهم، بنهج القصبة سنة 1272هـ/ 1855م وتسمى بالمدرسة المركزية، تحتوي على أربع قاعات، تم تقسيمها إلى قاعتين للمدرسة الفرنسية، وقاعتين للمدرسة الإيطالية. الأولى يدفع فيها التلميذ مبلغا رمزيا، أما الثانية فتوفر تعليما مجانيا. ومع مرور الوقت تم تحويل المدرسة الإيطالية إلى نهج سيدي المرجاني[3].

عرفت المدرستان إقبالا للتلاميذ منذ تأسيسهما، حيث ضمتا ستين تلميذا، ثم أصبح العدد مرشحا للارتفاع ليصل إلى 287 تلميذا سنة 1284هـ/ 1867م، موزعين حسب الجدول الآتي:

جدول رقم (7): عدد المتمدرسين وتوزيعهم حسب جنسياتهم أو ديانتهم[4] .

المدارس	المدرسة الفرنسية	المدرسة الايطالية	المجموع
عدد التلاميذ	139	148	287
توزيع التلاميذ حسب جنسياتهم أو ديانتهم		27 فرنسي 81 ايطالي 118 مالطي 02 نمساوي 11 يوناني 46 يهودي 02 مسلم	

[1]– كما نجدها أيضا باسم: "إخوان المدارس المسيحية" Les frères des écoles chrétiennes". أنظر:
Victor Guérin, La France catholique en Tunisie, à Malte et en Tripolitaine , Ed T. A. M.F,1886, p.61 .

[2]– Guérin, Op.Cit. , p p. 61, 62 .

[3]– Ibid .

[4]– Ibid, p. 62 .

استمر "إخوان المذهب المسيحي"، في نشاطهم وبعث المدارس المسيحية بالإيالة بفضل المساعدات التي تلقوها من طرف الحكومة الفرنسية، حيث كانوا يتلقون مبلغ 6 آلاف فرنك كإعانة سنوية، بغرض فتح أقسام جديدة وجلب مدرسين من فرنسا. كما لعب"فيدال سوتر" "Fidèle Sutter" دورا كبيرا في إنجاح المشروع التعليمي للإخوة، فقد عمل على توسعة المدرسة المركزية، بشراء منزل قديم وأعاد بناءه من الأساس. وبهذا أصبح تعداد مدارس "إخوان المذهب المسيحي" سنة 1297هـ/ 1880م، ثلاث مدارس:

- المدرسة المركزية أو "École de l'Immaculé conception"، وهي أكبر المدارس يشرف عليها الأخ " أنجل بيار " Angel Pierre" .
- مدرسة نهج سيدي المرجاني أو مدرسة سانت سيبريان"École de Sainte Cyprien"
- مدرسة باب الجزيرة أو مدرسة سان لوسي "École de Saint Lucie"

وكان الإقبال على هاته المدارس كبيرا من طرف التلاميذ، حيث بلغ عددهم 465، موزعين كالآتي[1]: 44 فرنسي/ 11 يوناني / 232 ايطالي / 155 مالطي / 19 يهودي / 04 مسلمين .

والظاهر أن الإقبال الكبير لأبناء مختلف الجاليات على مدارس "إخوان المذهب المسيحي"، هو الذي جعل "بورقاد"Bourgad" يغلق مدرسته، ويغادر الإيالة[2] .

وعلى ذكر الجاليات الأجنبية، فقد حظيت الجالية البريطانية والمالطية هي الأخرى بمؤسسات تعليمية خاصة بها، حيث أسست مدرسة ابتدائية سنة 1272هـ/ 1856م بنهج الفخارين، عرفت باسم المدرسة "الأنجلو مالطية"[3]، واستعملت فيها المالطية كلغة للتدريس[4].

إن ما لفت انتباهنا من خلال عرضنا البسيط لبعض المؤسسات التعليمية الأجنبية التي ظهرت في مختلف مناطق الإيالة، أن التعليم الأوربي شهد تغلغلا وتوسعا في البلاد، وكان سببه الرغبة التي كان يملكها الأوربيون، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تلك التسهيلات التي منحها

---

[1]- Guérin, Op.Cit. , p p. 62 -64 .

[2]- Machuel, Op.Cit. , p. 3 .

[3]- Arnoulet, "la pénétration intellectuelle…", Op.Cit. , p. 172 .

[4]- بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر...، مرجع سابق، ص 82 .

البايات الحسينيون، إذ يمكننا أن نذكر على سبيل المثال "المشير أحمد باي" الذي كان متساهلا مع رجال الكنيسة، فوسع لهم كنائسهم ومنحهم أراضي كثيرة في مختلف أرجاء الإيالة لبناء الكنائس ومعاهد جديدة، وألغى الكراء على بعضها، كما وهبهم عدة إعانات[1].

كما كان للقناصل دور كبير في مساندة جالياتهم بالإيالة، وذلك عن طريق الحصول على تسهيلات من طرف البايات، فقد عثرنا على مراسلة من القنصل"كمبون"Cambon"إلى الوزير الأكبر، يطالبه منح أرض بباجة للكاردينال "لافيجري"Lavigrie"، الذي يرغب في بناء مكتب خاص للبنات بالمنطقة[2]. كما أصدر" محمد الصادق باي" أمرا عليا في شعبان 1293هـ/ سبتمبر 1876م، ينص على منح قطعة أرضية بالسبخة خارج باب البحر للقنصلية الفرنسية، لبناء مكتب لتعليم الصبيان الأجانب[3].

وتواصل النمو التبشيري التعليمي، في عهد "المشير محمد الصادق باي" الذي سار على نهج سلفه في مساعدة الأساقفة بكثير من الامتيازات. وقد تجاوز انتشار الكنائس والمدارس بالعاصمة، ليصل إلى مدن أخرى أين وُجدت فيها أقليات أوربية. ليبلغ تعداد المدارس الأوربية سنة 1300هـ/1883م، إلى أربع وعشرون مدرسة ومعهد، عشرون منها يشرف عليها رجال الدين المسيحيون، بالإضافة إلى ثلاث مدارس إسرائيلية[4].

ومن المؤكد أن تلك الحركة التبشيرية المتنامية لم تكن دينية فحسب بل كانت تحمل طابعا سياسيا خفيا يتمثل في التغلغل الأوربي بالإيالة التونسية بجميع أشكاله، وتشجيع الجاليات الأوربية على الإقامة الدائمة، وذلك بتعليم أبنائها حيثما كانت.

ومهما يكن من أمر فإن الجاليات الأوربية كانت تتنافس وتتسابق في إنشاء المدارس والحصول على الامتيازات، من خلال نيل الحظوة لدى البايات المتساهلين. فهذا القنصل الفرنسي بتونس "ليون روش" Lyon Roche" يتدخل لفائدة الرهبان، فبعث برسالة سنة 1278هـ/

[1]– عبد الجليل التميمي، "دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس"، مج. ت . مغ، ع3، جانفي 1975م، ص 11 .

[2]– أ. و. ت ، س . ت ، صد 64، م 762، "مراسلات متعلقة بطلب قنصل فرنسا قطعة أرض لإحداث مقبرة للمسيحيين ومدرسة لتعليم البنات بباجة"، وث 02، بتاريخ 1299هـ/ 1882م .

[3]– نفسه، م 770، "مراسلات تتعلق بمدرسة سان شارل "، وث 07.

[4]– Machuel, Op.Cit. , p. 7 .

1861م، إلى الوزير الأكبر "مصطفى خزندار" يلح فيها على ضرورة التعجيل بتنفيذ أوامر "أحمدباي" للراهبات ببناء الكنائس وإقامة المقابر للمسيحيين[1].

وحسب المؤرخ أرنولي"Arnoulet"، فإن المدارس الأوربية الموجودة بتونس، هي التي كانت سببا في توعية البايات للتفكير في الإصلاحات التعليمية. وحسب اعتقاده أيضا أن المدرسة الأوربية لعبت دورا هاما في هذا التحول، رغم عدم تأقلم المسلمين مع المدارس الأوربية. كما يرى أن هذه الأخيرة هي التي خلقت الاتصالات الأولى بين المجتمعين الأوربي والإسلامي[2].

والظاهر أن هذا التنامي الواضح للتغلغل الفكري الأوربي بإيالة تونس، خاصة الفرنسي كان نتيجة سياسة طويلة المدى، اتبعها الأوربيون مدة خمسين سنة، قامت بفضل جهود المبشرين والرهبان أمثال "فرنسوا بورغاد"François Burgad" وأخوات القديس يوسف" Les sœurs" "de Saint- Joseph الذين سخروا طاقتهم لفائدة تعليم جاليتهم[3]. على عكس الإيطاليين الذين لم يستطيعوا تحقيق النجاح الذي حققه الفرنسيون، بسبب انشغالهم بالمشاكل السياسية ومشاكل الوحدة والهوية[4].

2.3. التعليم لدى الجالية اليهودية :

كان وضع اليهود مشابه تماما لوضع المالطيين، لكن بعض الاختلاف جعل الآفاق أمامهم أوسع وأفضل، فقد وجدت فئة اليهود دعما واهتماما بهم، خاصة من طرف "الرابطة الإسرائيلية العالمية"[5]، بالإضافة إلى التفافهم بالقوميات الأوربية القوية. فاليهود في تونس صنفان: يهود تونسيون، ويهود وافدون في وقت متأخر من ليفورن بإيطاليا، وهم المعروفون "بالقرانة". كانت الفئة الأولى مندمجة في المجتمع التونسي، ولهم مؤسسات تعليمية (المدارس التلمودية – المدرشيم –) مشابهة لكتاتيب المسلمين. أما القرانة فكانت صلتهم بالأوربيين أشد من صلتهم بيهود البلاد.

---

[1]– بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر...، مرجع سابق، ص ص 82، 83 .

[2]– "la pénétration intellectuelle…", Op.Cit. , p. 179 .

[3]– بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر...، مرجع سابق، ص 83 .

[4]– Bannour, Op.Cit. , p.5.

[5]– تسمى أيضا بالاتحاد الإسرائيلي العالمي (A.I.U) "Alliance Israélite Universelle" مقرها بباريس. أسسها جماعة من اليهود الفرنسيين سنة 1277هـ/ 1860م. وأصدروا نداء يحتوي على سبع فقرات وجهوها لكل يهود العالم في شهر جويلية من نفس السنة. وما لبثت أن أنشأت الرابطة فروعا لها في مختلف أنحاء العالم . وأصدرت مجلة تحت اسم "Bulletin de l' Universelle Alliance Israélite" أنظر: أحمد شحلان، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفُرقة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، الرباط، 2009م، ص 75، هامش 04 .

وكان الكثير منهم يعتبرون أنفسهم جزءا من الجالية الإيطالية، لذلك وضعوا أطفالهم للتعلم بالمدارس الأوربية وخاصة الإيطالية منذ ظهورها[1]. إذن سيكون تركيزنا عن الفئة الأولى من اليهود التي كانت مندمجة في المجتمع التونسي.

كان لهذه الفئة نوعان من التعليم، التقليدي الذي يسيطر عليه الاتجاه الديني، ويتولى نشره الأحبار باللغة العبرية. والتعليم العصري المنظم بالمدارس الحديثة التابعة للرابطة الإسرائيلية[2].

– المدرشيم "Méderachims":

كانت المدارس اليهودية الدينية تسمى "مدرشيم" وهي تشبه كثيرا الكتاتيب عند المسلمين[3] وهي تعرف توافدا مستمرا للتلاميذ. فكانت كل جهة من جهات البلاد التي توجد بها التجمعات اليهودية، تحتوي على واحدة أو أكثر من هذه المدارس[4].

لقد كانت ظروف المدارس اليهودية أسوء بكثير من الظروف التي كانت عليها كتاتيب سكان الإيالة. ذلك أنها كانت عبارة عن حجرات ضيقة رطبة وغير صحية ينقصها الهواء والنور، وهي غير مجهزة بمراحيض. وكان ماء الشراب يوضع في جرة بإحدى زوايا الحجرة، وهو الذي كان يزيد من نسبة رطوبتها[5]. وهي مؤثثة ببعض المقاعد المتصلة بطاولات، وفي غالب الأحيان بحصر بالية يجلس عليها المدرس والتلاميذ [6].

يتراوح عمر التلاميذ المتمدرسين بالمدرشيم بين السادسة والثالثة عشر، وأول ما يتم تلقينه للطفل الحروف ثم الحركات، وعندما يحفظها، يبدأ بالتهجي، ثم يُطالب بقراءة نصوص كاملة. وكل ذلك يتم بصفة فردية، إذ على كل تلميذ أن يأتي بدوره إلى جانب المعلم ليقرأ، ويعود إلى مكانه بعد ذلك فيبقى دون نشاط طول الوقت المتبقي من الحصة. وعندما يتعلم الطفل القراءة، والذي لا يتحقق إلا بعد مرور حوالي سنتين على الأقل. يبدأ المعلم في تدريبه على قراءة التوراة وذلك بتعويده على نغم ونبرات خاصة. ومنذ هذا الحين يصبح التعليم جماعيا، حيث يقرأ الأطفال معا بأصوات مرتفعة وهم يتمايلون – تشبه قراءة الأطفال المسلمين للقرآن– . وبعد هذه المرحلة يبدأ

---

[1]– ابن سالم، مرجع سابق، ص 35 .

[2]– أحمد القصّاب، تاريخ تونس المعاصر (1881– 1956م)، تعريب حمادي السّاحلي، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986م، ص 291 . أنظر أيضا: الزيدي، مرجع سابق، ص 43 .

[3]– الزيدي، مرجع سابق، ص 43 .

[4] – Machuel, Op.Cit ., p. 33 .

[5]– الزيدي، مرجع سابق، ص 43 .

[6] – Machuel, Op.Cit ., p. 35 .

في مرحلة جديدة، وهي تعلّم ترجمة الكتاب المقدّس، ويعتمدون في ذلك ترجمة وضعت بمصر أثناء القرن 4هـ/ 10م[1].

والظاهر أن العديد من التلاميذ يغادرون المدرشيم ولا يواصلون فيها دراستهم، لأن التعليم فيها محدود ولا يمد بالكثير للمتعلم، فمنهم من يلتحق بمدارس دينية ثانية أعلى من المدرشيم الكائنة بالعاصمة التابعة للرابطة الإسرائيلية، ومنهم من ينقطع عن الدراسة ويتعلم حرفة من الحرف للخوض في عالم الشغل[2] .

وما تجدر الإشارة إليه أن المدرشيم تعتبر ضمن المدارس الحرة بالبلاد، ونظرا لهذا الاعتبار فلم تكن الدولة تمارس عليها أي نوع من أنواع الرقابة أو التفقد. ولم يكن فتحها يتطلب الحصول على رخصة. كما أن الأحبار المدرسين بها لم يكونوا مطالبين بدخول أي امتحان أو الإحراز على أية شهادة. وبالتالي فإن ثقافتهم لم تكن أحسن من ثقافة المؤدبين المسلمين.

أما من الناحية المادية، فإن التعليم لم يكن مجانا، وقد كان الأحبار القائمون عليها يتقاضون على أولياء التلاميذ أجورا أسبوعية[3]. وهذا ما أدى إلى حرمان الكثير من أطفال العائلات اليهودية الفقيرة من التعليم. وفي هذا السياق راسل قنصل فرنسا "ليون روش" Lyon "Roche" المشير "محمد الصادق باي" بتاريخ 3 جمادى الأخرى 1282هـ/ 23 أكتوبر 1865م بين أن الرابطة العالمية الإسرائلية ترغب في أن تجعل بتونس كتّابا للأطفال اليهود الذي لا قدرة لوالديهم لكي يتعلموا فيه العلوم التي يحتاجون بدون مقابل مادي – مجانا–[4]. كما تؤكد ذلك أيضا مراسلة أخرى توجه بها "قرسين" رئيس الرابطة الإسرائلية بتونس إلى المشير "محمد الصادق باي" بيّن فيها مقاصد بعث هذه الجمعية التي لخصها في مسألة تعليم أطفال اليهود. وتواصلت مطالب الجمعية بهذا الخصوص في عهد الوزير الأكبر "خير الدين التونسي" حيث وجه له رئيس الجمعية "براهم بوكاك" وكاهيته "لياه المليح " مراسلة بتاريخ 22 ذو الحجة 1291هـ/ 29 جانفي 1875م تطالب بمحل مناسب لبعث مكتب خاص باليهود والتكفل بمصاريف تعليم أولاد الفقراء[5].

---

[1]– الزيدي، مرجع سابق، ص 44 .

[2]– نفسه.

[3]– نفسه، ص 45.

[4]– نقلا عن الماجري، مرجع سابق، ص 85 .

[5]– نفسه، ص ص 85، 86 .

- مدارس الرابطة الإسرائيلية – المدارس الحديثة– :

بدأ التفكير في إصلاح التعليم التقليدي اليهودي وإحداث مؤسسات حديثة لأبناء الجالية اليهودية منذ سنة 1280هـ/ 1863م. فأثارت هذه الفكرة جدلا بين "الرابطة الإسرائيلية العالمية" التي مقرها باريس، واليهود الأحبار الذين يمثلون التعليم التقليدي[1]. ودام الجدل حتى سنة 1296هـ/ 1878م، حيث اتفق "روسطان" "Roustan" المكلف بالشؤون الفرنسية بتونس، وبعض وجهاء الجالية اليهودية في فيفري من نفس السنة استعدادهم لتأسيس مدرسة لأبناء الجالية اليهودية بتونس. فتم اقتناء منزل واسع متاخم للأحياء الجديدة[2]، ووقع تدشينه في رجب 1295هـ/ جويلية 1878م، وأطلق عليه اسم "مدرسة الرابطة الإسرائيلية للذكور"[3].

بلغ عدد تلاميذ المدرسة حوالي ألف تلميذ، مقسمين إلى مجموعتين: مجموعة تضم تلاميذ ما دون السابعة من العمر، تم تجميعهم في قاعة واحدة كبيرة. ويذكر "أرنولي"Arnoulet" أن هؤلاء التلاميذ يخضعون لعناية من طرف القائمين على المدرسة، حيث يقدم لهم الحساء في منتصف النهار، وهناك من يقوم بحلق شعرهم، وامرأة تحرص على نظافتهم[4] –تشبه دور الحضانة في وقتنا الحالي. أما المجموعة الأخرى فتضم التلاميذ الذين تزيد أعمارهم عن السابعة، تم توزيعهم على واحد وعشرون قسما. وأغلب التلاميذ المتمدرسين بهذه المدرسة يهود، ماعدا القليل من التونسيين، والفرنسيين، والإيطاليين[5].

أما البرنامج الذي كانت تقدمه المدرسة، فهو برنامج يتوافق مع التعليم العصري، يحتوي على المواد التعليمية التالية: اللغة العبرية وأصول الدين الإسرائيلي، واللغة العربية، والفرنسية، والايطالية والحساب، والجغرافيا، وعلم التاريخ. ولا نظن أن ترتيب برنامج التعليم هذا كان اعتباطيا، حيث نص على تحديد تعليم اللغة العبرية والتي ذكرت قبل الدين الإسرائيلي[6]. وقد قام بتدريس البرنامج التعليمي المسطر بالمدرسة، من طرف طاقم من الأساتذة متكون من: أربعة

---

[1]- شحلان، مرجع سابق، ص 75 .

[2]- Arnoulet, "la pénétration intellectuelle…", Op.Cit ., p. 172 .

[3]- Machuel, Op.Cit ., p. 33 .

[4]- Arnoulet, "la pénétration intellectuelle…", Op.Cit ., p. 171 .

[5]- Machuel, Op.Cit , p. 33 .

[6]- الماجري، مرجع سابق، ص ص 85، 86 .

أساتذة في اللغة الفرنسية، وخمسة للعبرية، وأستاذان للعربية، وسبعة معلمين مساعدين[1]. وقد أورد لنا "أرنولي""Arnoulet" قائمة للطاقم التربوي الذي أشرف على المدرسة سنة 1295هـ/ 1878م، أي في السنة الأولى من تأسيسها. وهذا ما سنوضحه في الجدول التالي:

جدول رقم (8): يمثل الطاقم التربوي بمدرسة الرابطة الإسرائيلية للذكور[2] .

الموظف	وظيفته	تاريخ توليه الوظيفة
كازاس دافيد Gazes David	مدير	منذ صفر 1295 هـ/ فيفري 1878
كوهان موسى Cohen Moise	معلم	منذ رجب 1297هـ/ جويلية 1880م
ميمون موسى Meimoun Moise	أستاذ اللغة العبرية	" "
قاتني نسيم Gattigne Nessim	أستاذ اللغة العبرية	منذ رجب 1295هـ/ جويلية 1878م
بليش صالومون Bellaishe Salmon	أستاذ اللغة العبرية	" "
سنوف موسى Senouf Moise	أستاذ اللغة العبرية	" "
كوهان هيجو Kohen Hugo	أستاذ اللغة العبرية	" "
سيتروك ماردوشي Sitruk Mardoché	أستاذ اللغة العبرية	" "
كتورزا جوزيف Ktorza Joseph	أستاذ الموسيقى	" "

[1]– الميزوري، مرجع سابق، ص 236 .

[2]– Arnoulet, "la pénétration intellectuelle…", Op.Cit ., p. 172 .

وفي نفس السنة تم فتح مدرسة الرابطة الإسرائيلية للإناث، في الطابق العلوي من مدرسة الذكور. وكانت تقدم نفس البرنامج التعليمي، بالإضافة إلى تخصيص مدة ساعة ونصف في اليوم لتعلّم الخياطة. وحصتين في الأسبوع لتعلم الحلاقة . أما عن جنسية التلميذات فكلهن يهوديات ماعدا سبعة عشر تلميذة، لم يذكر لنا "ماشويل"Machuel" جنسيتهن. تتراوح أعمارهن ما بين الخامسة والخمسة عشر سنة. أما إدارة المدرسة فكانت من طرف معلمة فرنسية، متحصلة على شهادة في الخياطة والحلاقة. يساعدنها ثلاث معلمات، وهن بدورهن يتخذن من التلميذات القديمات بالمدرسة مساعدات لهن[1]. لكن المدرسة لم تحقق النجاح الذي حققته مدرسة الذكور[2].

3.3. تعليم الفتيات المسلمات والأوربيات:

أ. تعليم الفتيات المسلمات:

إن المثير للانتباه للوهلة الأولى أثناء معالجتنا لهذا الموضوع، هو غياب الكتاتيب والمدارس التي تتعلم فيها البنات، فلم يكن لهن الحظ الذي كان للذكور، فقد كن محرومات من الالتحاق بكتاتيب وجوامع المناطق التي يقطنّ فيها[3]. فإذا كان الأمر كذلك، هل كانت البنت تزاول دراستها؟ أم أنها استسلمت للجهل والأمية؟

أول ما يتبادر إلى أذهاننا للإجابة على تساؤلنا، هو الأخذ بعين الاعتبار البيئة والمحيط الذي تعيش فيه البنت أو الفتاة. فهناك اختلاف بين الظروف والبيئة الاجتماعية للبنت التي تعيش في المدينة، والأخرى التي تعيش في الريف. فمن المؤكد أن الأولى سيكون لها حظ أوفر في حصولها على التعليم حتى ولو كان بسيطا مقارنة بالثانية.

يعتبر المنزل أول مكان بدون منازع تتلقى فيه البنت المبادئ الأولى للقراءة والكتابة، فكانت الأسر الحاكمة والميسورة الحال تجلب لبناتها مؤدبا خاصا يقوم بتعليمهن، ويمكننا أن نستدل بـ "علي باي الثاني"(1172-1196هـ/1759-1782م) الذي خصص لابنته آمنة مع أخيها "حمودة باشا" مؤدبا خاصا بهما، وهو العالم "حمودة بن باكير" (ت 1220هـ/ 1805م) يعلمهما

[1]- Machuel, Op.Cit ., p p. 35,36.

[2]-" Arnoulet, la pénétration intellectuelle…", Op.Cit ., p. 171 .

[3]- الزيدي، مرجع سابق، ص 39 .

الفقه على المذهب الحنفي[1]. كما تمدنا الوثائق الأرشيفية بمعلومات حول مؤدبة كانت تعلم أخوات "حمودة باشا"[2]. وهناك من كان يعلم بناته بنفسه. وقد ذكر لنا "ابن أبي الضياف" في ترجمته "لأحمد السوسي" (ت 1208/ 1794م) أنه علم بناته القرآن والفقه وطريق التصوّف[3]. وأساس التعليم يقوم على القرآن –كما أشرنا إلى ذلك في دراستنا– حيث يبدأ الصبيان بحفظ القرآن، وكذلك بالنسبة للبنات .

ويعود ظهور أول مدرسة لتعليم الفتيات المسلمات بمدينة تونس إلى سنة 1320هـ/ 1901م[4]. وقبل هذا التاريخ، وبالضبط في القرن 13هـ/ 19م كان للبنت مكان تزاول فيها تعليمها يسمى "دار المعلمة" التي هي بمثابة الكتاتيب للذكور، وهي عبارة عن مشغل أو ورشة خاصة أين تتعلم الفتيات حتى سن تسع أو عشر سنوات الأشغال اليدوية وخاصة الخياطة والتطريز، حيث تُرسل الفتيات إلى المعلمة مثلما يرسل الذكور إلى المؤدب، لذلك فإن دار المعلمة هي نظير للكتّاب[5]. وهذا ما جعل الأولياء يختارون لبناتهن أقرب دار للمعلمة، تكون مشهورة بمقدرتها المهنية وحسن أخلاقها. فكان يتجمع عند كل معلمة عدد من التلميذات حيث لا يتجاوز عددهن الأربعين بنتا[6].

تبدأ الدروس صباحا وتتواصل بعد الظهر عادة، طيلة أيام السنة ماعدا أيام فصل الصيف. ويكون ذلك في قاعة لا تختلف عن غرف المنزل عادة، فتجلس كل واحدة في المكان المعد لها سلفا. بحيث تجلسن النجيبات منهن بالقرب من المعلمة، التي تجلس هي بدورها على حصير مع تلميذاتها أو على مقعد ليتسنى لها الإشراف عليهن جميعا، ولا تتنقل من مكانها إلا نادرا. فمن مكانها تتولى شرح درسها وإسداء النصائح، والأخذ بيد المبتدئات، ولفت أنظار التلميذات إلى الأخطاء الشائعة والمتكررة[7].

---

[1]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 223 .

[2]– أ. و. ت، دفتر رقم 2144، ص 114 .

[3]– ابن ابي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 27 .

[4]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 100 .

[5]– عبد الكريم المناعي، التونسيون وقضية التعليم الابتدائي للبنت المسلمة (1881– 1956م)، أطروحة لنيل شهادة الدراسات المعمقة، إشراف حسين رؤوف حمزة، جامعة تونس الأولى، 1996– 1997م، ص 6 .

[6]– الزيدي، مرجع سابق، ص 39 .

[7]– نفسه، ص 40 .

أما المواد المدروسة في دار المعلمة فتختلف حسب خصوصية وتقاليد كل جهة، وأهمها الخياطة والنسيج والتطريز والتشبيك وأعمال الإبرة (كزخرفة القماش...)، إضافة إلى الأشغال المنزلية... [1]. فدار المعلمة يمكن اعتبارها من هذه الناحية "مدرسة منزلية"، تستفيد منها المعلمة كثيرا، إذ تتلقى بعض الهدايا من التلميذات، كما تبيع إنتاج تلميذاتها لحسابها الخاص، وتتخلص من الأعباء المنزلية التي تقوم بها التلميذات تحت إشرافها[2].

وقد تكون المعلمة متقنة للقراءة والكتابة فتعلمها للفتيات، كما تلقنهن حفظ بعض السور من القرآن الكريم[3]. والجدير بالإشارة هنا، أنه لم يكن يتم تحفيظ البنات كل سور القرآن الكريم، بل كان يتم ذلك باختيار وانتقاء البعض دون أخرى فمثلا يستحب أن تتعلم سورة النور، ويحذر كل الحذر تعليمها سورة يوسف، والشعر. والهدف من ذلك حسب الفقهاء هو حماية البنات من الوقوع في الزلل وارتكاب المحرمات، فبتعلم الشعر والكتابة يمكنها أن تراسل الرجال، أما سورة يوسف فتنقل صورة المرأة الغاوية، وهو ما يعكس حذرا وخوفا يرجى من ورائه حماية البنات من كل أسباب الانحراف عن السلوك القويم[4] .

والجدير بالذكر أن تعليم البنات لم يقتصر على المعلمات والمؤدبات، وإنما ثبت أن تعليمهن كان من نصيب المؤدبين أيضا، ونذكر على سبيل المثال: العالم "حمودة بن باكير"(**ت** 1220هـ/ 1805م) الذي كان مؤدبا لابنة "علي باي الثاني" (1172- 1196هـ/ 1759- 1782م) "آمنة"[5]. كما علم الشيخ "محمد الورتتاني"[6] (ت 1302هـ/ 1885م) بنات "الوزير خير الدين"[7].

يخضعن التلميذات إلى نظام تأديبي، يقوم على أساس العقاب الجسدي، فتلجأ المعلمة إلى الضرب بالعصا على الأيدي وأحيانا على الأقدام. ولا تُظهر التساهل مع التلميذات اللواتي لا

---

[1]– المناعي، مرجع سابق، ص 7 .

[2]– نفسه، ص ص 6 ، 7 .

[3]– حسن حسني عبد الوهاب، شهيرات التونسيات، المطبعة التونسية، تونس، 1934م، ص ص 77، 78 .

[4]– الماجري، مرجع سابق، ص ص 174، 175 .

[5]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 223 .

[6]– أنظر ترجمته بالعودة إلى: مخلوف، مصدر سابق، ج1، ص 413 .

[7]– السنوسي، مصدر سابق، ج4، ص 127 .

يبدو عليهن الاستعداد الكافي لحذق الصنعة، وذلك لتكوين صانعات في المستوى. فالمعلمة تحرص إذن على نوعية التكوين الذي تقدمه لتلميذاتها قدر حرصها على نوعية أعمالها التي تنجزها بيديها، باعتبار أن تخريج صانعات ممتازات من شأنه أن يرفع سمعتها التي تغار عليها. إلا أن نسبة التلميذات المثابرات على دروس المعلمة كانت قليلة لأن الأولياء كثيرا ما كانوا يسحبون بناتهم عندما يبلغن سن الخامسة عشر، إما لأنهم يرون أنهن اكتسبن مهارة كافية، أو ليزوجوهن. وبالتالي قليل من التلميذات اللواتي يكملن تعليمهن ويصلن إلى مرتبة "صانعات"[1]. ومقابل التعليم الذي تقدمه المعلمات، يتلقين مقابل ذلك من الأولياء أجرا شهريا في مطلع أو نهاية كل شهر[2].

لا بد من التفريق بين مدارس الوسط الحضري ومدارس الوسط الريفي من جهة، وبين مدارس الوسط التقليدي المحافظ والوسط العصري المتفتح من جهة أخرى. فالعائلات المخزنية الكبرى المتأثرة بالتحديث الغربي تفضل معلمة ايطالية لتعليم فتياتها التطريز والتشبيك على النمط الأوربي. كما تفضل مدرسة فرنسية أو انجليزية من أجل تربيتها تربية منزلية أكثر تطورا. بعض العائلات الأخرى ولأسباب اجتماعية أو دينية أو خوفا على تربية بناتها من الأجنبيات تفضل إعطائهن دروسا في القرآن من طرف مؤدب مسّن. إضافة إلى مبادئ الموسيقى، ومبادئ أولية في الكتابة والقراءة بالعربية. وبصفة عامة لا يتجاوز تعليم البنات دروسا في القرآن في المنزل بواسطة مؤدب وبعض الأشغال المنزلية سواء في المنزل أو في دار المعلمة بالحي، لكن لم تتمكن إلا قليل من العائلات الارستقراطية من توفير ثمن هذا التعليم[3].

ب. تعليم الفتيات الأوربيات:

وُجدت مدارس البنات عند الجاليات المسيحية بتونس قبل انتصاب الحماية الفرنسية، ذلك أن التسرب الحضاري الغربي إلى الإيالة قد بدأ مبكرا ومعه بدأ بعث المدارس. فوجود جاليات أجنبية مسيحية مختلفة المذاهب والأعراق، استفادت من نظام الامتيازات ومن التنظيمات العثمانية، التي شجعت على بعث المدارس الحرة، كما ساعد عهد الأمان على تكاثر عددها. هذه الجالية الأجنبية التي كانت غالبيتها تتكون من التجار، كانت ترغب في تعليم أبناءها تعليما

[1]– الزيدي، مرجع سابق، ص 41 .
[2]– نفسه، ص 42 .
[3]– المناعي، مرجع سابق، ص ص 7، 8 .

عصريا، إذ رأوا في هذه المدارس الأوربية وسيلة للنهضة التونسية، وفي هذا الإطار فتحت مدارس للذكور ومدارس للإناث[1]. ومن بين المدارس المخصصة لتعليم البنات نذكر:

- **مدرسة أخوات القديس يوسف للبنات:" Les sœurs de saint Joseph de l'apparition"**

هي أقدم المدارس الفرنسية الخاصة بالبنات في نهج سيدي صابر[2] بتونس العاصمة، وهي مدرسة تقدم تعليما مجانيا أسستها "إميلي فيالار "Emily Viallard" ومعها بعض الأخوات[3]. تحتوي على ثماني غرف للتدريس ولإقامة الأخوات. بدأن العمل في 16 رمضان 1256هـ/ 10 نوفمبر 1840م، بخمسة وعشرين تلميذة، خمسة عشر إيطالية، وعشر مالطيات. لتضم بنات من جنسيات أخرى فيما بعد. وظل عدد التلميذات يتزايد باستمرار خاصة ما بين (1259-1298هـ/ 1843- 1881م). وهذا ما يوضحه الجدول التالي :

جدول رقم (9): يمثل تطور عدد التلميذات الملتحقات بمدرسة أخوات القديس يوسف للبنات[4]"Les sœurs de saint Joseph de l'apparition"

السنوات	الفرنسيات	الايطاليات	المالطيات	الإسرائيليات	المجموع
1259هـ/ 1843م	-	15	10	-	25
1266هـ/ 1850م	-	57	17	6	70
1271هـ/ 1855م	2	75	18	5	100
1276هـ 1860م	3	55	60	9	127
1281هـ/ 1865م	4	70	56	7	137
1286هـ/ 1870م	1	69	78	2	150
1291هـ/ 1875م	2	64	79	2	153

[1] – نفسه، ص 8 .

[2]– من أحياء مدينة تونس القديمة، وكانت تقطنه مجموعة من العائلات الايطالية الميسورة من مهاجري ليفورن، والمعروفة باللغة العامية "بالقرنة" ومنها سوق القرانة، السوق التجاري القائم حتى اليوم والمحتفظ بنفس الاسم. وكان معظم تجاره وافدين من ليفورنة الايطالية. ويبدو أنه حي اتسم بالطابع الأوربي لوجود عدد كبير من الأوربيين ذوي الطبقة الميسورة سواء كانوا مسلمين أم أجانب. أنظر: مشرفية، مرجع سابق، ص ص 64، 65.

[3]– نفسه، ص 63 .

[4]– "Arnoulet, la pénétration intellectuelle…", Op.Cit ., p. 148 .

أنظر أيضا: المناعي، مرجع سابق، ص ص 9، 10

1296هـ/ 1880م	1	86	73	7	167
1297هـ/ 1881م	1	74	89	-	164

إذن الملاحظ أنه حتى انتصاب الحماية لا توجد أي بنت مسلمة في هذه المدارس الدينية. لكن تأثير هذه التجربة يمكن أن يكون كبيرا داخل مجتمع تقليدي لا يؤمن بتعليم الأنثى، خاصة وأن مثل هذه المدارس قد انتشرت خارج العاصمة بطريقة منتظمة وسريعة[1]. أما عن عدد التلميذات في مختلف هذه المؤسسات الدينية سنة 1297هـ/ 1881م،فيقدر بـ 1543 موزعات كالآتي:287 فرنسية، و212 إيطالية، و137 مالطية، و904 يهودية، و3 مسلمات[2].

أما عن البرنامج التعليمي الذي كان متبعا بالمدرسة، فقد قدمت لنا الباحثة "مديحة مشرفية" برنامجا تقريبيا،حيث تذكر في دراستها أنها استطاعت الحصول عليه من خلال استجوابات ومحادثات شفهية ومعلومات نقلتها الأمهات من الجدات .

جدول رقم (10): يمثل البرنامج التعليمي الذي كان متبعا بمدرسة أخوات القديس يوسف للبنات"Les sœurs de saint Joseph de l'apparition"[3] .

الساعة	المـــــــــــواد
8:00 – 8:30	صلوات وترتيل وتربية دينية
8:30 – 9:30	مبادئ القراءة باللغة الايطالية مبادئ القراءة باللغة الفرنسية
9:30 – 10:00	درس في الخط وغالبا ما يكون مساعدا لدرس القراءة
10:00 – 10:30	استراحة تقدم فيها لمجة بسيطة
10:30 – 11:30	حساب: معرفة الأرقام والعد ثم القواعد الأولية من جمع وطرح
11:30 – 12:00	موسيقى: يتدربن على معرفة العلامات الموسيقية وأصواتها وتتبعها بأغنية قصيرة غالبا ما تكون بالفرنسية
14:30 – 15:00	محادثة ومفردات أو محادثة ومحفوظات بالفرنسية (تلبية لرغبة الأولياء)
15:00 – 16:00	أشغال يدوية يتدربن فيها على المبادئ البسيطة ابتداء من مسك الإبرة...

[1]– المناعي، مرجع سابق ، ص 10 .

[2]– Arnoulet, "la pénétration intellectuelle…", Op.Cit ., p. 175 .

[3]– مشرفية، مرجع سابق، ص ص 66، 67 .

16:30 – 16:00	استراحة قصيرة ثم حصة تطبيقية للأعمال المنزلية من كنس وتنظيف وترتيب قاعة الدرس...

وفي سنة 1303هـ/ 1886م أصبحت المدرسة رسمية تحت إدارة التعليم العمومي الفرنسي وبرامجها مطابقة تماما لبرامج المدارس الرسمية، وارتفع عدد الاقسام إلى ثلاثة، وأصبح العدد موزعا على مختلف الجنسيات[1] .

وبعد نجاح تجربة المدرسة المجانية للبنات بنهج سيدي صابر، قامت "ايميلي فيالار" "Emily Viallard" بإنشاء مدرسة أخرى بنفس النهج وهي "المدرسة الحرة " Ecole" "Payante الداخلية والخارجية لاستقبال البنات اللواتي يسكنّ بعيدا عن تونس العاصمة ويستطعن دفع مرتب محترم، وكانت الأغلبية من عائلات تجار أغنياء. استطاعت المدرسة فتح أبوابها سنة 1258هـ/ 1842م أمام مجموعة من البنات الداخليات وكذلك الخارجيات، وبدأت بقسمين يستوعبان تلميذات فرنسيات قليلات العدد، وإيطاليات ويهوديات ومالطيات. جميعهن من عائلات ميسورة الحال تدفعن الأجر الكامل. وكان كبار التجار الأجانب ينتظرون بفارغ الصبر المدرسة التي تعلم وتربي بناتهن[2].

وللإشارة، فإنه توجد مدارس فرنسية أخرى للبنات في مختلف أرجاء الإيالة (حلق الوادي، وبنزرت، وسوسة، والمنستير، والمهدية، وصفاقس، وجربة) أسند تسييرها إلى "أخوات القديس يوسف"[3].

والجدير بالإشارة أن كل مدرسة أسست خارج مدينة تونس، كان يقوم معها مستوصف صغير لمعالجة وإسعاف المرضى[4].

ومن كل ما تقدم ذكره في هذا الفصل نستطيع الوصول إلى جملة من الاستنتاجات أهمها:

إن تضافر مجموعة من الظروف الداخلية والخارجية، كان سببا في التفكير في إصلاح أحوال الإيالة لاسيما التعليمية منها.

---

[1]– مشرفية، مرجع سابق ، ص 69 .

[2]– نفسه، ص ص 75، 76 .

[3] – Machuel,Op.Cit ., p. 4 .

لمعلومات أكثر حول هذه المدارس. أنظر: مشرفية، مرجع سابق، ص ص 87– 119 ، 131 – 144 . أنظر أيضا:

Guérin, Op.Cit., p p. 67, 68 .

[4]- مشرفية، مرجع سابق، ص 56.

توصلنا إلى أن الإصلاحات لم تنطلق من العدم، بل كان للأسفار والرحلات إلى مختلف بقاع العالم، ومطالعة الجرائد وكتب الزعماء المصلحين، الدور الكبير في التعرف على الحضارة الغربية، وكذا التعرف والاطلاع على أخبار المجتمعات المغربية والمشرقية.

استنتجنا أن أغلب رجال الإصلاح آمنوا بفكرة ضرورة إصلاح التعليم، وإخراجه من التقوقع والتحجّر الذي وقع فيه، لأنه بواسطته يتم اللحاق بركب الأمم المتقدمة. ونادوا بضرورة اقتباس علوم الغرب التي لا تتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي. لكن ما لاحظناه أن لكل واحد منهم رؤيته ونظرته الخاصة به .

استطاعت الجاليات الأجنبية تثبيت وجودها بالإيالة من خلال إحداث مؤسسات تعليمية خاصة بتعليم أبنائها، ولاحظنا أن الجالية الفرنسية التي حظيت بعدد أكبر من المؤسسات التعليمية، التي استقبلت مختلف الجنسيات، خاصة منها الايطالية والمالطية. ونعتقد أن هدف الحكومة الفرنسية من وراء ذلك هو التعريف بثقافتها ولغتها للأجناس الأخرى. والأهم من ذلك هو نشر الديانة المسيحية، فبعد تتبعنا لأهم المدارس الأجنبية لاحظنا أنها تأسست بإيعاز وتشجيع، وكذا بجهود رجال الدين والحركات التبشيرية المسيحية.

حظيت الفتاة الأجنبية، سواء الأوربية أو اليهودية بقسط من الاهتمام، حيث كانت تلتحق بالمدرسة للتعلّم، مثلها مثل الذكور، فوجدنا مدارس أنشئت خصيصا لهن. على عكس الفتاة العربية المسلمة، التي حرمت من التعليم بحجة الخوف على فساد أخلاقها وملتها، خاصة إذا تعلمت الكتابة والشعر.

الفصل الثاني:
الإصلاحات الأحمدية والصادقية

1. إصلاح تعليم الكتاتيب
2. إصلاح تعليم ما بعد الكتاتيب
   1.2. إصلاحات أحمد باشا باي – الأحمدية –
   2.2. إصلاحات محمد الصادق باي – الصادقية –
3. مصير الإصلاحات التعليمية

توصلنا من خلال دراستنا إلى أن التعليم الذي كان قائما بإيالة تونس هو تعليم تقليدي موروث، وهو تعليم كان قائما بالأساس على جامع الزيتونة، وبعض جوامع المدن الكبرى كالقيروان وسوسة وصفاقس. التي كانت تستقبل طلابا تخرجوا من كتاتيب كانت تعد مدارس ابتدائية، تفتقر إلى أدنى شروط التعليم، التي نعرفها في وقتنا الحالي. أما المؤدبون، فحدث ولا حرج، لا تكوين علمي ولا شهادة تؤهلهم لتعليم الصبيان. فيكفي فقط أن يكون حافظا لبعض أو كل القرآن، بالإضافة إلى ضرورة كسب ثقة الأولياء حتى يتمكنوا من إرسال أبنائهم إليه. فانزلق – إن صح التعبير– التعليم في دائرة التحجّر والتقوقع ولم يشهد تغييرا لسنوات. وهذا ما دفع ببعض المصلحين إلى التفكير في إيجاد مؤسسات ومناهج تعليمية حديثة، التي من شأنها أن تطور التعليم.

فما هي الآليات والتنظيمات المتبعة لإصلاح التعليم التقليدي؟

1. إصلاح تعليم الكتاتيب :

بدأت المحاولة الجدّية[1]– إن صح التعبير– لإصلاح تعليم الكتاتيب في عهد "محمد الصادق باي" بإشراف من وزيره الأكبر "خير الدين"، حيث لاحظ هذا الأخير ما كان عليه وضع التعليم بالكتاتيب من وهن واضطراب، فحاول أن يصلح من أمره. خاصة وأن الكتاتيب تعد أساس التعليم. فاشترط الكفاءة والشهرة بحسن السيرة في مؤدبيها، وتشجيع الأكفاء منهم على توسيع كتاتيبهم وتحسين مستواها وأحوالها[2] بإصدار أمرٍ عِلّيٍ بتاريخ 26 ذي الحجة 1292هـ/23 جانفي1875م ينصّ على"أحوال المؤدبين في الحاضرة وبلدان المملكة". يتألف الأمر العلّي من ثمانية فصول جلّها يرمي إلى ضبط تراتيب انتخاب المؤدبين وضمان أهليتهم واختبار مدى حسن تعليمهم للصبيان. فالفصل الثالث مثلا، ينص على ضرورة التثبّت من أهلية المؤدبين الممارسين للمهنة حال صدور الأمر المذكور أعلاه. والفصلان الخامس والسادس، يفرضان المراقبة على الدروس التي يقدمها المؤدبون في مكاتبهم واختبار مدى استفادة الصبيان منها. أما الفصلان السابع والثامن، فيقرّران الجهات التي تتولى تزكية المؤدبين لممارسة هاته المهنة[3].

---

[1]– لأن المحاولات المحتشمة الأولى بدأت مع الباي "حمودة باشا"، عندما أبدا رفضه لضرب الصبيان بالكتاتيب. كنا قد تطرقنا إلى هاته النقطة في دراستنا. أنظر: الباب الأول، الفصل الثاني، ص 100 .

[2]– عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 69 .

[3]– نقلا عن: الزيدي، مرجع سابق، ص ص 28 ، 29 .

وبالتالي لم يعد مؤدبوا الكتاتيب شيوخا طاعنين في السن كما وصفهم "أرنولي" "Arnoulet"[1] وغيره من المؤرخين[2]، بل أصبحوا خاضعين لتزكية الدولة، فلم يعد الانتصاب للتعليم بالكتاتيب بصفة عشوائية، بل لا يتم قبول إلا المؤدبين الذين تثبت أهليتهم. هذه الأخيرة متوقفة على شهادة شيخ القراءات بالمنطقة في الحفظ ومعرفة الرواية والرسم، وشهادة أهل المنطقة– الحومة– التي بها المكتب إذا كان بلديا (حضريا). أما إذا كان المؤدب طارئا (نازحا أو براني) فأهليته متوقفة على شهادة الثقاة لدى الشيخ القاضي بالبلد، وشهادة أمين المؤدبين إن وجد. إن لم يوجد بالمنطقة أمين المؤدبين أو شيخ القراءات فإن شهادة الشيخ القاضي كافية وتغني عنهما [3].

والظاهر جليا في الأمر العلّي، وفي نص صريح يؤكد أن شيخ القراءات وأمين المؤدبين تخول إليهما مسؤولية اختبار المؤدب في الحفظ والتعليم والرسم، وفي حالة عدم وجودهما يتكفل بذلك الشيخ القاضي بنفسه أو بواسطة من يثق به. وقد ضبط مواعيد هذا الاختبار، في جعله مرة في كل ثلاثة أشهر[4].

كما نص الأمر العلّي على ضرورة تفقد الكتاتيب، وإعداد تقارير من خلال القيام بزيارات تفقد منتظمة للكتاتيب[5]. وتشكلت لجنة في كل مدينة، تتألف من عضو في المجلس الشرعي ومن أمين المؤدبين في المنطقة. وبدأت التقارير تصل إلى الوزير "خير الدين" تتضمن تفاصيل دقيقة حول حالة الكتاتيب ومؤدبيها وتلامذتها. ومن ذلك التقرير الذي أعده "محمود عزيز" عامل مدينة ماطر بتاريخ أواخر ربيع الأول 1292هـ/ أوائل ماي 1875م. يصف فيه كتاتيب المنطقة، ويذكر أنه لا يوجد بالمنطقة أماكن خاصة بالكتاتيب، وإنما توجد في أماكن مختلفة، كوجودها في مكان معين من الجامع، أو حتى مقصورة جامع، وهناك من اتخذ من الزاوية مكتبا، مثل زاوية سيدي "محمد بن عيسى". وبعض المؤدبين اتخذوا من بعض المخزن مكتبا لهم. كما احتوى التقرير على قيمة المبلغ الذي يلزم لبناء أربعة كتاتيب، ثلاثة داخل المدينة، وآخر خارج سور المدينة بدشرة "سيدي عبد الله أبي الفنشا"، لأن أطفال هذه المنطقة يجدون صعوبة

[1]- Arnoulet,"les problèmes de l'enseignement…" , Op.Cit., p.31 .

[2] – إطلع مثلا على ما ذكره، قرين، مرجع سابق، ص 44 .

[3]– أ. و. ت، س.ت ، صد 63، م 736، " مراسلات وقائمات بأسماء القادرين على التدريس بمختلف المناطق من البلاد التونسية"، وث 1 .

[4]– نفسه .

[5]– قرين، مرجع سابق، ص 151 .

التنقل، خاصة زمن الشتاء. وقدر المبلغ بـ 12.000 ريال[1].

كما عثرنا على تقرير آخر أعده عامل مدينة صفاقس وعمالتها، "محمد الرشيد" وقاضيها الشيخ "محمد العذار"، المؤرخ في أواخر صفر 1292هـ/ أوائل أفريل 1875م، حول أوضاع تعليم الكتاتيب بالمنطقة. ويمكننا أن نلخصه في الجدول التالي:

جدول رقم (11): يوضح حالة ووضعية الكتاتيب بمدينة صفاقس وعمالتها وما تحتاجه من مصاريف[2] .

الكتاتيب	طبيعتها	جهاتها	حالتها	ما تحتاجه من مال/ بالريال
كتّاب المؤدب محمد اللّومي	حانوت معتلي لوقف الجامع الأعظم	صفاقس	يحتاج لإصلاح	150
كتّاب المؤدب إبراهيم بن محمد القرقوري	مكتب لوقف الشيخ ابن دهمون	"	"	350
كتّاب المؤدب محمد بن إبراهيم الساسي	مكتب وقف على المؤدبين	"	سقفه مهدد بالسقوط	350
كتّاب المؤدب أحمد بن محمد الحبيب	برطال مسجد سيدي أبي بكر الكراي	"	يحتاج لإصلاح	175
كتّاب المؤدب محمد بن عبد السلام المصفار	برطال مسجد سيدي عبد العزيز بن منصور	"	"	50
كتّاب المؤدب أحمد بن محمد ملاك	برطال مسجد سيدي عبد العزيز بن منصور	"	"	50
كتّاب المؤدب محمد بن علي عمار	زاوية الشيخ المزار سيدي علي الكراي	"	–	
كتّاب المؤدب محمد السماوي	"	"	سقط بعض سقفه والبعض الآخر متداعي للسقوط	500

[1]– أ. و .ت، س.ت، صد 63، م 742،"أوامر علية ومراسلات متعلقة بتعليم القرآن بالحاضرة وبقية بلدان المملكة"، وث 29 .

[2]– نفسه، وث 30 . أنظر أيضا: الزيدي، مرجع سابق، ص ص 26، 27 .

كتّاب المؤدب أحمد الطريقي	مكتب لورثة المرحوم علي المصمودي	"	يحتاج لإصلاح	50
كتّاب المؤدب محمد بن علي شيخ روحه	برطال مسجد سيدي أبي مجاد	"	"	200
كتّاب المؤدب محمد بن أحمد هويدي	مكتب وقف على المؤدبين	"	"	400
كتّاب المؤدب محمد المازري	مسجد الشيخ الصفار	"	"	–
كتّاب المؤدب محمد بن محمد طريفة	مسجد سيدي فرج الصريد	"	"	–
كتّاب المؤدب محمد ابن التهامي القربي	برطال مسجد سيدي عريبة	"	"	–
كتّاب المؤدب محمد بن علي بوزيد	برطال مسجد سيدي الزعيم	"	"	–
كتّاب المؤدب محمد البقلوطي	برطال مسجد سيدي عبد الرحمان البهلول	"	"	200
كتّاب المؤدب علي السلامي	برطال مسجد سيدي عبد الرحمان الخراط	"	"	250
كتّاب المؤدب عبد الله الغدامسي	برطال زاوية سيدي علي النوري	"	"	–
كتّاب المؤدب عبد العزيز المراكشي	مكتب برحبة الطعام وقف على المؤدبين لا ريع له	"	"	100
مكتب سيدي حمدان	مكتب قديم موقوف على المؤدبين لا ريع له	"	تُرك التعليم فيه منذ أكثر من عشرة أعوام لسقوط سقفه وخرابه	500
مكتب سيدي المصري	مكتب قديم	"	تُرك التعليم فيه منذ أكثر من خمسة عشر	400

			عاما لتداعيه للسقوط وخرابه	
مكتب سيدي الظهار	مكتب قديم	"	تُرك التعليم فيه منذ أكثر من عشرين عاما لتداعيه لخرابه	100
كتّاب المؤدب محمد الزغيدي الجبنياني	بيت مستعارة	ربض صفاقس الجوفي	بناء مكتب جديد	350
كتّاب المؤدبان محمود الزناتي ومحمد ابن الغالي	زاوية سيدي أبي إسحاق الجبنياني	جبنيانة	قطع عنهم المرتب المعتاد	–
كتّاب المؤدب محمد زيان	بيت مستعار من الزاوية العيساوية	حزق	بناء مكتب جديد	230
كتّاب المؤدب محمد شلبي الجبنياني	بيت من أوقاف سيدي مخلوف الشرياني	الخريبة	"	–
كتّاب المؤدب صالح الشوشان	جامع الخطبة	اللوزة	–	–
كتّاب المؤدب محمد الأخضر الماجري	بيت بجامع ملاصق لضريح السيدة أم يحيى	بالقرب من اللوزة	يحتاج لإصلاح	100
كتّاب المؤدب	ضريح سيدي مبارك البهلول	ملونش	بناء مكتب جديد	200
كتّاب المؤدب محمد بن يوسف الرقيق	بيت بجامع سيدي يعقوب	نفطة	مخرب يحتاج لإصلاح	–
كتّاب المؤدب أبو بكر الأجنف	بصحن جامع الخطبة	المحرس	يلزمه إصلاح	200
كتّاب	–	واد عقارب	–	–
كتّاب المؤدب حسين	–	أولاد	–	–

البولاطي السافي		يانق بقرقنة		
كتّاب المؤدب محمد بن عامر السافي	بالزاوية العيساوية	"	–	–
كتّاب المؤدب عمر بن محمد شقشوق	بالزاوية العيساوية	أولاد بوعلي بقرقنة	–	–
كتّاب المؤدب أحمد الغربي	جامع الوسط خارج بلد الرملة	الرملة بقرقنة	بناء مكتب جديد داخل البلد	200
كتّاب المؤدب علي بوزيده	بيت	العطايا بقرقنة	–	–
كتّاب المؤدب صالح وارده	بيت ملاصق لجامع الخطبة	"	يلزمه إصلاح	100
كتّاب المؤدب محمد سويسي	جامع سيدي مسعود	الشرقي بقرقنة	–	–
كتّاب المؤدب علي العميني	جامع سيدي القجار خارج الشرقي	الشرقي بقرقنة	بناء مكتب جديد داخل البلد	200
كتّاب المؤدب محمد الغربي	جامع سيدي الوحيشي	الجزيرة الصغرى بقرقنة	يلزمه إصلاح	100

إن المتأمل في الجدول أعلاه يكتشف أن التقارير كانت تحتوي على معلومات دقيقة، فهي تكشف عن كل صغيرة وكبيرة تخص الكتاتيب، والهدف منها هو استغلالها للنظر في النقائص والعقبات التي تحول دون تطور التعليم وتقدمه.

جاءت الإصلاحات الجديدة بنقطة نظامية مهمة جدا، تمثلت في تقاسم الأدوار بين الدولة والمجتمع في شأن العناية بالكتاتيب، فقد تم تقسيم المهام على النحو التالي: يقوم المؤدب

باستصلاح الكتّاب إذا كان بحاجة إلى ذلك، أما الكتاتيب التي تحتاج إلى إعادة بناء وهي في حالة يرثى لها فهي من مهام الدولة[1].

وفي خضّم هذه الإصلاحات سعى المؤدبون لدى السلطة الحاكمة لإعفائهم من أداء ضريبة المجبى، ومن ذلك الطلب الذي أرسله أمين المؤدبين "أحمد الكسراوي" بواسطة الشيخ "محمد معاوية" إلى الوزير الأكبر "خير الدين"، حيث أرسل فيه أسماء المؤدبين بكتاتيب الحاضرة يطلب منه تحريرهم من دفع ضريبة المجبى[2]. وحسب الوثائق المتوفرة لدينا، فإن السلطة الحاكمة وافقت إعفاء المؤدبين من الضريبة. فقد تلقى الوزير "خير الدين" باعتباره رئيس اللجنة المالية أمرا من الباي "محمد الصادق باي" بتاريخ 16 ذو القعدة 1292هـ/ 13 ديسمبر 1875م، يأمره فيه بتطبيق الأمر القاضي بإعفاء المؤدبين[3].

ومهما يكن من أمر، فإن ما جاء به الأمر العلّي الصادر بتاريخ 26 ذي الحجة 1292هـ/23 جانفي1875م قد يظهر للوهلة الأولى جيدا، ومن شأنه أن يدفع التعليم بالكتاتيب خطوة إلى الأمام في سبيل التحسّن، إلا أن المتمعن في فصوله جيدا يلاحظ أنه عبارة عن محاولة إصلاح لم تمّس من جوهر هذا التعليم العتيق سواء على مستوى المحتوى – المناهج– أو الشكل فهي محاولة تركزت على المؤدبين وحدهم كانتخابهم ومراقبة أعمالهم. وقد كان واضحا منذ ذلك العهد أن إجراءات مثل هذا النوع غير كافية لإصلاح التعليم، خاصة وأن البلاد التونسية بدأت تتفتح على حضارة الغرب وتطوراتها. وبالتالي اتضح مدى عجز هذا النمط من التعليم وتخلفه، وتم التأكد على ضرورة مراجعته من أساسه والاستفادة من تجارب الغربيين وعلومهم، وحتمية بعث تعليم عصري[4] .

---

[1]– الماجري، مرجع سابق، ص 99 .

[2]– أ. و. ت، س. ت، صد 63، م 742، "بيان المؤدبين الحاليين بالمكاتب وغيرها بالحاضرة تونس المحمية بالدولة الصادقية والوزارة العادلة بتاريخ أوائل ربيع الأول 1292هـ/ أواسط أفريل 1875م"، وث 09 .

[3]– نفسه ، صد 63، م 736، " مراسلات وقائمات بأسماء القادرين على التدريس بمختلف المناطق من البلاد التونسية"، وث 02 . أنظر نص الأمر في الملحق رقم 11، ص 349 .

[4]– الزيدي، مرجع سابق، ص 29 .

2. إصلاح تعليم ما بعد الكتاتيب :

1.2. إصلاحات أحمد باشا باي – الأحمدية– :

لقد كانت "للمشير أحمد باي" رغبة كبيرة في إصلاح شأن الإيالة، ولاحظ أن ذلك لا يتأتى إلا بالاهتمام بالتعليم المدني والعسكري على حد سواء. ومن هذا المنطلق قام الباي بتأسيس المدرسة الحربية بباردو، وإصلاح التعليم الزيتوني، والاهتمام بمكتبة جامع الزيتونة.

1.1.2. الاهتمام بالتعليم العسكري من خلال تأسيس المدرسة الحربية بباردو[1]:

قام "المشير أحمد باي" بانجاز في مجال التعليم العسكري، هذا الأخير الذي يخص فئة الجنود أو العسكر. حيث أسس لهذه الفئة مدرسة خاصة يتلقون فيها التعليم والتكوين اللازم، وهي المدرسة الحربية بباردو، التي أرادها أن تكون على نفس منوال المدرسة الحربية التي زارها بباريس[2]. وعن طريق هذه المدرسة تم أول اتصال علمي حقيقي بين إيالة تونس وأوربا في العصر الحديث. وكان الهدف من تأسيسها تكوين ضباط على أسس علمية للجيش الجديد[3].

– تأسيس المدرسة:

بادر المشير "أحمد باي" منذ توليه الحكم إلى إنشاء مدرسة عسكرية في باردو، وفي هذا السياق أورد "ابن أبي الضياف" في كتابه الإتحاف: "وفي غرة محرم من سنة 1256هـ/ الخميس 5 مارس 1840م، رتب الباي مكتبا حربيا بباردو، وجعله في سرايته التي انتقل منها إلى قصره الجديد"[4]، لتخريج الضباط والمهندسين والفنيين. ولعل بسبب هذه الأصناف من المتخرجين أخذت المدرسة عدة تسميات وهي: مكتب الحرب، ومكتب العلوم الحربية، ومدرسة المهندسين "البوليتيكنيك"Polytechnique"[5].

---

[1]– للإشارة هنا، فإن الوثائق الأرشيفية تشير إلى هذه المدرسة في كثير من الأحيان بتسمية "مكتب العسكر بباردو المعمور". أنظر: أ . و . ت. س. ت، صد 183، م 1018، "مراسلات وأوامر علية متعلقة بنظام التدريس والامتحانات والغيابات بالمدرسة الحربية بباردو، واتفاقات مع ضباط أجانب حول تعليم تلامذة المكتب الحربي اللغة الفرنسية وفنون الحرب والجغرافيا" .

[2]– محمد بن الخوجة، الرزنامة التونسية، مطبعة الرائد التونسي، تونس، 1323هـ/ 1905م، ص 42 .

[3]– بنبلغيث، الجيش التونسي ...، مرجع سابق، ص 56 .

[4]– ابن ابي الضياف، مصدر سابق، ج4، ص 36 .

[5]– عبد المولى، مرجع سابق، ص 39 .

– الإدارة والمدرسون:

لقد عهدت إدارة المدرسة عند تأسيسها إلى المستشرق الإيطالي" كاليقاريس " Calligaris"[1] (1223– 1294هـ/ 1808– 1877م)، الذي كان يدير مدرسة "إيسكي سراي"Esky" Saray" العسكرية باستانبول[2].

فقد كان الرجل ذو خبرة ودراية بالتعليم العسكري وإدارته، إضافة إلى امتلاكه لقواعد اللغة العربية وبعض المواد الأخرى العلمية والأدبية، وهذا ما أدى إلى تأثر مناهج التعليم بهذه المدرسة، بالمناهج التعليمية الأوربية والعثمانية[3]. وقد بقي مديرا للمدرسة مدة ثلاث عشرة سنة. ولما غادر "كليقاريس "Calligaris" تونس سنة 1266هـ/ 1850م ترك إدارة المدرسة شاغرة. وفي أوت 1268هـ/ 1852م، طلب الباي شخصيا من فرنسا ضابطا ساميا لإدارة المدرسة، وكان القبطان "كامبنون"Campenon"[4]هو المدير الجديد[5]. هذا الأخير هو أيضا لم يدم في منصبه طويلا حيث ذهب لحرب القرم، وبذلك توقفت المدرسة في أواخر عهد "المشير أحمد باي"[6].

---

[1]– كاليقاريس"Calligaris": مستشرق ايطالي ولد سنة 1223هـ/ 1808م وتوفي سنة 1288هـ/ 1871م. درس اللغة العربية في بلاد الشام، وبجامعة "تورانTurin" الايطالية سنة 1280هـ/ 1863م. وعمل في الجيش التركي ثم في تونس في عهد "حسين باي الثاني". ألف كتابا عن سيرة "نابليون"، وترجمه إلى العربية تلميذه "الجنرال حسين" بمراجعة الشيخ "محمود قبادو". درس اللغة العربية أنظر : ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 4، ص 36 هامش1.

أنظر أيضا:

Arnoulet ,"les problèmes de l'enseignement…", Op.Cit., p.33, B.P 04 .

[2]- Ibid, p. 33.

[3]– عبد المولى، مرجع سابق، ص 40 . أنظر أيضا: بلقاسم المصعبية، التعليم والتدريب العسكري بالإيالة التونسية في القرن التاسع عشر (1837– 1881م)، بحث لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العالم المتوسطي وحضارته، جامعة منوبة، 2009– 2010م، ص 54 .

[4]– "كامبنون"Campenon": ولد في "يون" Yonne" بفرنسا سنة 1234/ 1819م ضابط فرنسي ألحق بالبعثة الفرنسية العسكرية بتونس سنة 1268هـ/ 1852م، وكلف بإدارة المدرسة. يذكر "عبد المولى" أن هذا الشخص خطير، يبدو وكأنه رجل المخابرات العسكرية. وأثناء توليه إدارة المدرسة كان يراسل خلالها وزير الحرب "راندون" Randan" لإحاطته علما بكل ما يحدث في تونس (البلاط، الباي والمماليك، السكان، الأحداث السياسية الهامة...). ثم غادر تونس للمشاركة في حرب القرم مكتسبا خبرة عميقة بكل ما يجري في البلاد. وبالتالي سيكون من الذي مهدوا لاحتلال تونس سنة 1298هـ/ 1881م. وعاد إلى تونس مجددا سنة 1279هـ/ 1862م برتبة عقيد حيث عين من جديد لإدارة المدرسة حتى سنة 1281هـ/ 1864م. تولى وزارة الحرب ثلاث مرات وتقلب مناصب عديدة. توفي سنة 1308هـ/1891م. أنظر:

Arnoulet ,"les problèmes de l'enseignement…", Op.Cit., p. 33, B.P. 05 .

أنظر أيضا: عبد المولى، مرجع سابق، ص ص 40، 41 .

[5]– نفسه، ص 40 . أنظر أيضا: بنبلغيث، الجيش التونسي...، مرجع سابق، ص 56 .

[6]– بنبلغيث، الجيش التونسي...، مرجع سابق، ص 56 .

أما بالنسبة لهيئة التدريس، فكانت تتشكل من مدرسين أوربيين (فرنسيين، انجليز، وايطاليين)[1] وتونسيين، وهذا ما يوضحه لنا الجدول التالي:

جدول رقم (12): يوضح هيئة التدريس بالمدرسة الحربية [2] .

اسم المدرس	المادة المدرسة	جنسيته
محمود قابادو	اللغة العربية وآدابها	تونسي
كاليقاريس" Calligaris"	أستاذ الحساب، وعلم التحصين والتاريخ العسكري	ايطالي
"ديل كاسيل" Dalcassel"	فن المدفعية وقيس الأراضي	انجليزي
فيربي"Verrier"	العلوم الحربية النظرية والتطبيقية	فرنسي
"تراوني" Traoni"	اللغة الفرنسية والايطالية	–
جوزيف روسي"J.Rossi"	" "	–

– النظام التعليمي بالمدرسة:

تفتح المدرسة أبوابها مرة واحدة في كل سنة لدخول التلاميذ الجدد، وخروج من انتهت دراستهم. ويبلغ العدد الإجمالي للتلاميذ حوالي مائة وعشرين تلميذا، ويبدأ الدخول عادة بقبول عشرين تلميذا جديدا على الأقل، تتراوح أعمارهم بين ثلاثة عشر وخمسة عشر عاما، وذلك بعد اجتياز امتحان القراءة والكتابة من طرف لجنة تتكون من أربعة ضباط من كبار الجيش، وناظر المكتب. والهدف من ذلك هو تخريج ثلثي الضباط الذين يحتاج إليهم الجيش التونسي، أما الباقين فيقبلون في وحدات الجيش عن طريق الترقية[3].

وينقسم المائة والعشرون تلميذا إلى قسمين:

– القسم الثاني: يتكون من ثمانين تلميذا يدرسون مدة أربع سنوات، يتعلم فيها التلميذ المواد التالية:

– العام الأول: القرآن العظيم واللغة الفرنسية قراءة وكتابة .

– العام الثاني: القرآن العظيم وعلم النحو واللغة الفرنسية .

– العام الثالث: علم النحو واللغة الفرنسية .

– العام الرابع: اللغة الفرنسية وعلم الجغرافيا وأصول علم الجبر وعلم المساحة .

[1]– عثرنا على اتفاقيات بين الحكومة التونسية وبعض المدرسين الأوربيين. قمنا بنشر نماذج منها في جزء الملاحق .

[2]– عبد المولى، مرجع سابق، ص 41. أنظر أيضا: المصعبية، مرجع سابق، ص 54 .

[3]– المصعبية، مرجع سابق، ص ص 79، 80.

– القسم الأول: يتكون من أربعين تلميذا يدرسون مدة عامين. يتعلم فيها على النحو التالي:

– العام الأول: علم رسم الأماكن وعلم التحصين الوقتي، كما يتدرب على حمل الأسلحة، والتصرفات العسكرية نظريا وتطبيقيا، وغيرها من أصول الفنون الحربية.

– العام الثاني: يستمر في دراسة المواد العام الأول نظريا وتطبيقيا إلى غاية تمامها، ثم يتعلمون صناعة الطبجية[1] والتحصين الوقتي، وعلم رسم الأماكن ، والصناعة الحربية [2].

ولذلك، فإن جملة المواد التي يدرسها التلميذ في هذه المدرسة خلال ست سنوات في المدرسة سبع عشرة مادة، تشمل علوم الهندسة والمساحة والحساب وغيرها من العلوم، بالإضافة إلى اللغة الفرنسية لأن أغلب كتبها مدونة بالفرنسية، كما قال "ابن أبي الضياف" في إتحافه[3] . ونذكرها تفصيلا:

جدول رقم (13): يوضح قائمة الكتب التي كانت تدرس بالمدرسة [4] .

القرآن العظيم	علم المثلثات	أصول عمومية في علم التحصين القار
النحو العربي	علم الهندسة	الصناعة الحربية
اللغة الفرنسية	علم المساحة	علم القوانين العسكرية
علم الحساب	علم الجبر	صناعة الطبجية
علم الهندسة الوصفية	علم الأرسام[5]	المطابقة على رسم الأماكن بالمباشرة على الأرض
علم الجغرافيا	علم التحصين الوقتي	مطابقة علم التحصين الوقتي بالمباشرة على الأرض
علم الحساب	علم الأماكن	فعل القوانين العسكرية بالمباشرة على الأرض
كيفية تعمير المدافع وإطلاقها		

ولا ينتقل أحد من تلاميذ القسم الثاني إلى القسم الأول، ولا يخرج أحد من القسم الأول إلا بعد امتحانه من طرف لجنة متكونة من أميرين، وضابطين من كبار الجيش، وناظر المكتب[6].

[1]– أصل الكلمة تركية، طوب: تعني دفع، وهو قسم المدفعية في الجيش "L'artillerie" والطبجية: تعني المدفعيون . أنظر: عبد المولى، مرجع سابق، ص 92، هامش 101 .

[2]– أ. و . ت، س. ت ، صد 138، م 1019،مصدر سابق، وث 89 . أنظر أيضا: عبد المولى، مرجع سابق، ص ص 79، 91، 92 .

[3]– ابن ابي الضياف، مصدر سابق، ج 4، ص 36 .

[4]– عبد المولى، مرجع سابق ، ص ص 111، 112 .

[5]– أ. و . ت، س. ت ، صد 138، م 1019، وث 126.

[6]– عبد المولى، مرجع سابق، ص ص 79، 81 .

يقدم ناظر المكتب إلى الباي جدولا يعرف باسم "مرتبة إجمالية"[1]، فيه سيرة جميع التلاميذ واجتهادهم وتقدمهم في العلوم، ويكون ذلك مرة في كل ثلاثة أشهر، ليتمكن من إجازة التلاميذ المجتهدين، ويتم تقييم التلميذ بعلامة تتراوح ما بين الصفر والعشرين، فالصفر يعني العجز التام، أما الخمسة فتدل على نهاية قلة الفهم، والعشرة تدل على حسن الفهم، والخمسة عشر تدل على كثرة الفهم، والعشرون تدل على الغاية في الفهم[2].

- النظام الداخلي للمدرسة:

يُراعى في النظام العام للمدرسة الهيئة والسلوك، ويكون ذلك على أساس الانضباط والطاعة وتطبيق القوانين الداخلية. حيث يكون لباس التلاميذ موحد، ويتم تقسيمهم مثل عساكر الجيش إلى بلوكات[3] وطواقم[4]. كما ينص النظام الداخلي للمدرسة على ضرورة الاهتمام بنظافة الهندام والسلاح، وأنه من الضروري الاعتماد على أنفسهم في ترتيب أسِرَّتهم ورفوفهم. ويتقاضون المرتب مثل عساكر الجيش أي بحسب الوظائف التي ينالونها[5].

يبدو أن الانضباط داخل المدرسة شديد ومتسم بالطابع العسكري، فمن خلال التقرير[6] الذي أعده "أرنست دي تافارن"Ernest de Taverne"ناظر المدرسة للمشير "محمد الصادق باي" والذي نشره الأستاذ "عبد المولى"، يتضح جليا أن العقوبات المسلطة على تلاميذ المدرسة صارمة جدا، حيث أنها لا تختص معاقبة ذوي السلوك السيئ فقط، وإنما شملت أيضا الذين لا يتحصلون على النتائج المقبولة والمرضية، فكل من يتحصل على نتيجة ضعيفة في إحدى المواد يكون عقابه السجن، فعلى سبيل المثال، تعرض التلميذ "عبد الله بن السعيد" لعقوبة الحبس بسبب نقاطه الضعيفة، فقد تحصل على نقطة الصفر في علم التحصين الوقتي، فكانت عقوبته أربعة أيام حبس، ويومين آخرين كعقوبة أخرى لحصوله على أقل من خمسة في علم الحساب[7]. وقد

---

[1]- أنظر: أ . و . ت، س. ت، ح 183 ، م 1018، وث 140 .

[2]- عبد المولى، مرجع سابق، ص 85 .

[3]- بلوك، وهو الفرقة أو الجماعة . أنظر: نفسه، ص 82، هامش 35 .

[4]- مفردها طاقم، وهي المجموعة "groupement" . أنظر: نفسه، هامش 36 .

[5]- المصعبية، مرجع سابق، ص 56 .

[6]- تم إعداد التقرير في 16 ربيع الأول سنة 1276هـ/ 09 أكتوبر 1859م بمناسبة زيارة "المشير محمد الصادق باي" للمدرسة. تحدث فيه عن هدف المدارس الحربية التي تعمل على تخريج ضباط الجيش وعلى ما يجب لهم من التكوين القائم على العقل والمعرفة والمهارة ، وعن نظام المدرسة وقواعد العمل فيها، وعن شروط انتداب التلامذة الضباط فيها، ومواد الدراسة، وعن المكآفات والجزاء والعقوبات. هذه الوثيقة لها أهمية كبيرة في تاريخ تونس العسكري الحديث. وهي محفوظة بدار الكتب الوطنية بتونس، تحت رقم 1780. نقلا عن: عبد المولى، مرجع سابق، ص 73 .

[7]- أ . و . ت، س. ت، ح 183 ، م 1018 ، وث 137.

يصل الأمر إلى حرمان التلميذ من عطلة شهر رمضان. كما ينص التقرير على أن العقوبات تصل إلى حرمان التلميذ من تخرجه في الرتبة التي يستحقها، بحيث إذا ما تحصل على نقطة الصفر في إحدى المواد في سنة التخرج، فإنه يمكن أن يتخرج برتبة شاوش –عريف– بدلا من رتبة ملازم، التي كان من المنتظر أن ينالها عند تخرجه من المدرسة[1].

وكما هو معمول به في جميع المؤسسات التعليمية، فإلى جانب العقوبات التي ينالها التلميذ بسبب عدم اجتهاده في الدراسة أو لسلوكه السيئ. ويكافئ التلميذ المجتهد والنجيب، فإذا تحصل التلميذ على ثمانية أو أكثر، فإنه يكافئ بأفضل الأوسمة والشعارات"السبيليطات"[2]، تشجيعا له[3].

أما عن أوقات الراحة والعطل، فإنه يتم تسريح التلاميذ لقضاء شهر رمضان في منازلهم مع أهلهم، وأما الذين ليس لهم أحد بمدينة تونس أو بباردو أو بمنوبة أو بأي مكان آخر، فإنهم لا يخرجون من المدرسة خوفا عليهم[4].

جدول رقم(14): يمثل أوقات الراحة للمتمدرسين حسب رتبهم العسكرية[5].

رتبة التلميذ	أيام وأوقات التسريح
الباش شاوش[6]	يوم الجمعة من كل أسبوع، إذا لم يترتب عليه حكم من أحكام العقوبات العسكرية التي تمنعه من ذلك، ولا يعود إلى المدرسة إلا وقت العشاء .
الشواش[7]والبلوك أمناء[8]	أربع مرات في الشهر، يعني يوم الجمعة من كل أسبوع، إذا لم يترتب عليهم هم أيضا حكم من أحكام العقوبات العسكرية التي تمنعهم من ذلك، ولا يعودون إلى

[1]– عبد المولى، مرجع سابق، ص ص 87 – 91 .

[2]– وهي الأوسمة والشعارات الصغيرة، وقد اشتهر بهذا الاسم نوع من الحلي عند النساء. أنظر: نفسه، ص 83 .

[3]– يذكر "عبد المولى" بالتفصيل الأوسمة والنياشين التي توزع على التلاميذ المتفوقين حسب مراتبهم ومهامهم، وذلك حسب ما هو مذكور في كتاب القوانين العسكرية. أنظر: نفسه، ص ص 85، 86 .

[4]– نفسه، ص 85 .

[5]– نفسه، ص ص 85 – 87 .

[6]– رئيس الشواش "Sergent major " وباش بالتركية تعني "رأس" أما باش شاوش فتعني "رئيس الشواش"، وهي رتبة عسكرية . أنظر: نفسه، ص 83، هامش 54 .

[7]– أصل الكلمة شاويش أو جاويش، وهي رتبة عسكرية في الجيش يقابله العريف في عصرنا "Sergent" والكلمة تركية ذات أصل فارسي بمعنى الرقيب والنائب . أنظر: نفسه، ص 83، هامش 52.

[8]– كلمة تركية تعني وحدة تنظيمية لأصحاب مهن معينة، وأهمها بلوكات الآغاوات في الفرقة الانكشارية. وكان يطلق على قائدها "بلوك باشي". وهي وحدة عسكرية مازالت تستخدم في تركيا وتعني الفوج. أما البلوك أمناء فتعني، "محاسب". أنظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة عبد الرزاق محمد حسن بركات، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م، ص65 .

	المدرسة إلا وقت المغرب .
اليوزباشية[1]	ثلاثة أيام في الشهر في أيام الجمعة، ما لم يمنعهم في ذلك حكم من أحكام العقوبات العسكرية، ويكون رجوعهم عند المغرب .
الحمطان[2] والعوجية[3]	يومين في الشهر، من أيام الجمعة إذا لم يترتب عليهم حكم عسكري في أيام الجمعة الطالبين فيها الخروج، ويكون رجوعهم وقت المغرب.
التفاكجية[4]	الذين لهم علامات من خمسة فما فوق يسرحون يوما واحدا في الشهر ويكون ذلك يوم الجمعة، إذا لم يتسبب لهم أحد العسكريين في حرمانهم من التسريح، ويكون رجوعهم إلى المدرسة عند المغرب .

- **خريجي المدرسة:**

يشير التقرير الذي أشرنا إليه سابقا إلى أن التخرج من مدرسة باردو الحربية يكون للتلاميذ الذين أنهوا سنوات دراستهم[5]، والمقدرة بست سنوات. ويتخرج هؤلاء برتبة "إيكنجي"–ملازم– وذلك بعد تمكنهم من الفنون والعلوم العسكرية ومعرفتهم بالنظام الداخلي والتزامهم بالطاعة واحترام القوانين والأحكام العسكرية[6]. "فلا يمكن لأحد من التلاميذ أن ينال الوظيفة المذكورة قبل تخرجه من المدرسة، وقبل إتمام المدة المعينة له فيكون هذا الوظيف جزاء ومكافأة لاجتهادهم وحسن سيرتهم. وينال به العز والافتخار والهمة في أنفسهم وعند جميع العساكر باعتبار هذه الوظائف والاعتناء بها هو الأمر المهم في زيادة شدة الحزم والقوة العسكرية فلا يحقّر هذا الوظيف"[7].

والظاهر أن المدرسة ساهمت في تخريج عدد كبير من الضباط، والشخصيات التي تقلدت مناصب هامة[8]، وساهمت في الحركة الإصلاحية في تونس خلال القرن 13هـ/ 19م أمثال "الجنرال

[1]– الأوزباشي، يذكر الأستاذ "عبد المولى" أنه يمكن أن تكون تحريفا لكلمة يورباشي بالتركية وهو النقيب أي "Capitaine". أنظر: عبد المولى، مرجع سابق، ص 83، هامش 51 .

[2]– تعني المدافع عن الأبراج . أنظر: نفسه، ص 84، هامش 56 .

[3]– تعني المشاة ولعلها حامل أداة تلقيم المدافع. أنظر: نفسه، هامش 57 .

[4]–كلمة تركية، وهي جمع تفكجي . وهو الجندي من حملة الأسلحة النارية . أنظر: نفسه، ص 87، هامش 79 .

[5]– تمكنا من الإطلاع على نتائج بعض التلاميذ المتخرجين من المدرسة منها وثيقة بتاريخ غرة محرم 1278هـ/ 8 جويلية 1861م، تحتوي على نتائج ثمانية تلاميذ. أنظر: أ . و . ت، س. ت، ح 183 ، م 1018، وث 138 .

[6]– المصعبية، مرجع سابق، ص 57 .

[7]– عبد المولى، مرجع سابق، ص 83 .

[8]– Daumas, Op.Cit., p. 135 .

حسين" و"الوزير رستم" وغيرهما[1]. ومن المآثر الجميلة والمتميزة التي خلفها طلبة المدرسة المتخرجين، هي تلك التراجم التي قاموا بها مدة دراستهم بمساعدة أستاذهم "محمود قابادو"، حيث ترجموا ما يزيد عن الأربعين مصنفا في فنون الحرب والهندسة والرياضة، عربوها من لغات مختلفة، تركية وفرنسية وايطالية تحت إشرافه[2].

جدول رقم (15): يمثل قائمة لبعض الكتب التي تمت ترجمتها إلى اللغة العربية[3].

عنوان الكتاب	اللغة الأصلية للكتاب	مضمون الكتاب
نفار بلوك تعليم	الفرنسية	كتاب عسكري تعليمي، يحتوي على مراجعة للمدارس العسكرية في فرنسا منذ سنة1206هـ/1791م، واستبعاد الطرائق التي أثبتت التجارب فشلها أو عدم جدواها.
قانون الدخول في الجيش بباردو	التركية	نص مترجم في النظم العسكرية الخاصة بترتيب الشروط للدخول في سلك الجيش، وكيف تكون ولاية الرتب لعساكر البر، مرتب من أربعة فصول و77 فرعا وخاتمة.
قانون خدمة طبجية الوطن	الفرنسية	عبارة عن رسالة كتبها الملك الفرنسي "لوي فليب"Louis Philip"سنة 1256هـ/ 1840م توضح نظام الاتصالات العسكرية في وقتي السلم والحرب. يشتمل على 83 فصلا .
قانون الخدمة العسكرية	"	هو عبارة عن قانون تنظيمي يشتمل على 224 فصل أصدره الإمبراطور الفرنسي لوي فليب بتوقيعه وتوقيع وزير الحرب "دوك دودلماتي"Duck Dodlamati" وكان ذلك في 03 ذي الحجة 1247هـ/ 03 ماي 1832م. ويشتمل على كل ضوابط الخدمة العسكرية وما يتعلق بها.
مهمات صناعة الطبجية	فرنسية أو ايطالية	مؤلفه مجهول من ضباط المدفعية، يتصدره فهرس تفصيلي لأنواع المدافع، وتثبيتها وتجريبها وإصلاح خللها وإعداد المواد الأولية لصناعتها وصناعة القذائف. وفي النسخة

[1]– عبد المولى، مرجع سابق، ص ص 48، 49 .
[2]– الساحلي، مرجع سابق، ص 71 .
[3]– عبد المولى، مرجع سابق، ص ص 53 – 57 .

		المترجمة تغلب عليها اللهجة العامية والمصطلحات الأعجمية. وتتخلله جداول بالمواصفات والمقاييس والتراكيب الكيميائية لصناعة البارود، ومرامي القذائف وغيرها .

إن المتأمل في الجدول يتضح له جليا أن التعليم في هذه المدرسة أخذ منحى جديدا لم تعرفه المدارس من قبل والمتمثل في ظهور حركة الترجمة، هذه الأخيرة مكنت تلاميذ المدرسة والمدرسين على حد سواء من الاطلاع على المنتوج الفكري الغربي وحتى العثماني. وبالتالي يمكننا القول أن تأسيس المدرسة الحربية بباردو كان منطلقا للدخول في تجربة التعليم الحديث خارج المؤسسات التعليمية التقليدية .

– عودة المدرسة بعد غياب:

توقفت المدرسة عن العطاء في عهد "المشير أحمد باي"، ثم كُتب لها أن تعود بعد وفاته. ولم تضعف عن القيام بواجباتها التي رسمت لها إلا في عهد المشير "محمد الصادق باي"، فبعد موت مديرها "دي تافارن"" De Taverne "[1] بدأت تشهد المدرسة تقهقرا وتراجعا، فقد استقال المدير الذي جاء بعده، وهو الرائد" كمبنون"Campenon"، كما انسحب العديد من الأساتذة الأوربيين بسبب تأخر أجورهم. ولقد ظفرنا بوثائق تحوي على الشكاوى التي كان يرسلها أساتذة المدرسة إلى الوزير الأكبر "مصطفى خزندار"، ومن ذلك الشكوى التي رفعها المدرس الفرنسي السيد "سوليه"Soully " (ت 1299هـ/ 1882م) الذي درّس مدة ثلاثة عشر سنة بالمدرسة. يبين فيها الحالة المادية الصعبة التي أصبح يعيشها هو وعائلته، خاصة أنه باع ورهن كل ما يملكه هو وزوجته. ومرد هذه الأوضاع حسب المدرس، راجع إلى تأخر دفع مرتبه لمدة ثلاثة أشهر[2]. كما اشتكى المدرس الايطالي "لوي فيسكوتي"Louis Viscouti" الذي شغل مدة عشرين سنة كمعلم للخيالة بالمكتب في عهد المشير "أحمد باي"، الوضع المؤلم الذي آل إليه بعد تولي المشير "محمد الصادق باي" الحكم، حيث أصبح بدون عمل ومسكن لأنه تم انتزاع بيته منه بمنوبة[3] .

[1]– هو ضابط فرنسي كان ضمن أفراد البعثة العسكرية الفرنسية لتونس سنة 1263هـ/ 1847م وأصبح ناظرا للمدرسة الحربية سنة 1271هـ/ 1855م. وتوفي سنة 1277هـ/ 1861م. أنظر: بنبلغيث، الجيش التونسي...، مرجع سابق، ص 95، هامش 10 .

[2]– أ . و . ت، س. ت، صد 183 ، م 1018، "رسالة بتاريخ 5 رمضان 1285هـ/19 ديسمبر 1868م"، وث 61.

[3]– نفسه،" رسالة بتاريخ 04 ذي القعدة 1276هـ/ 23 ماي 1860م"، وث 70 .

وتعتبر المدرسة الحربية بباردو محاولة إصلاحية مبكرة، كان يمكن أن تفيد أكثر لو وقع الاهتمام بها أو استمر الاهتمام بالجيش نفسه. وقد أكدت على وجوب الاهتمام بالتعليم الحديث، لكنها ما لبثت أن أصبحت عبئا ثقيلا على ميزانية الدولة في عهد "محمد الصادق باي"، وأهملت تماما ثم أقفلت أبوابها سنة 1286هـ/ 1869م[1]، وانتهت دون فائدة، ودون تحقيق أهدافها[2].

2.1.2.إصلاح التعليم الزيتوني:

ظلّ التعليم الزيتوني حتى القرن 13هـ/19م محافظا على طابعه التقليدي، ويتمتع باستقلالية لم تكن تخلو من فوضى وعدم اكتراث، لا سيما إذا علمنا أن أغلب الشيوخ المدرسين بالجامع كانوا مشتغلين بشؤون المجلس الشرعي، وأحيانا بالاجتماعات المتكررة التي كانت تعقد في البلاط. وبالتالي يمكننا القول أن التعليم الزيتوني لم يكن خاضعا لنظام واضح[3]. إلى أن تولى الحكم المشير "أحمد باي" حيث أبدى رغبته في التجديد، وبذلك دخل التعليم الزيتوني طور الإصلاح[4] .

إن أولى الإجراءات التي بدأ بها الباي لإصلاح التعليم الزيتوني، هي التخلص من بعض الخصوصيات الموروثة عن العثمانيين، ومن أهمها عدم المساواة بين العلماء الحنفية الوافدين على الإيالة من تركيا والبلقان وغيرهما، وبين علماء المالكية وهم الأغلبية، إذ كان الأولون يتمتعون بجرايات تُعطى لهم من خزينة دار الباشا[5]، في حين حرم منها المالكيون. لذلك قام الباي بإصدار أمر علّي مؤرخ يوم 27 رمضان سنة 1258هـ/ 26 نوفمبر 1842م[6]، أمر بكتابته بالذهب في إطار كبير سمي "**بالمعلقة**"[7]، لا يزال إلى يومنا هذا معلقا بجامع الزيتونة بالقرب من باب الشفاء.

---

[1]– بنبلغيث، الجيش التونسي...، مرجع سابق، ص 57 .

[2]– نفسه، سياسة الوزير الأكبر...، مرجع سابق، ص 80 .

[3]– محمد فوزي المهاجر، إصلاح التعليم الزيتوني بين 1258 – 1351هـ/ 1842- 1933م، بحث جامعي لنيل شهادة الدراسات المعمقة في الحضارة الإسلامية، إشراف أحميدة النيفر، جامعة الزيتونة، 1996- 1997م، ص15 .

[4]– الميزوري، مرجع سابق، ص 136 .

[5]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق ، ص 90 .

[6]– توجد ترجمة بالفرنسية لهذا الأمر العلّي وغيره من الأوامر التي تخص الجامع الأعظم والمدرسة الصادقية. أنظر:

Paul Zeys, Code annoté de la Tunisie : Recueil de tous les documents composant la législation écrite de ce pays au 1er janvier 1901, Prf Maurice Bompard, Nancy Imprimerie Berger- Levrault et Cie, Tunis,1901, T1, p p. 337- 349 .

[7]– يذكر ابن أبي الضياف أن المعلقة هو من كتبها بأمر من الباي، وأمر منه الإطناب فيها. وهي مكتوبة بالذهب ، ومطبوعة بطابع الباي. ويمكن الاطلاع على نصها كاملا، بالعودة إلى: مصدر سابق، ج4 ، ص ص 65 – 67. وقد أرفقنا نص المعلقة في قسم الملاحق. أنظر: الملحق رقم 15، ص ص 357، 358 .

ويخبرنا "ابن أبي الضياف" أن الباي طلب منه كتابة المنشور والإطناب فيه[1].

تضمن الأمر العلّي تعيين ثلاثين مدرسا ينقسمون بالتساوي بين المذهب المالكي والحنفي[2]، الذين يتم انتخابهم من طرف المجلس الشرعي بعاصمة الإيالة.

جدول رقم (16): يمثل قائمة بأسماء المدرسين المالكيين والحنفيين[3] .

المدرسين المالكيين	المدرسين الحنفيين
فرج التميمي (ت 1261هـ/1845م)	محمود بن باكير المفتي (ت 1267هـ/1851م)
محمد الشاذلي بن المؤدب (ت1263 هـ/1847م)	محمد البارودي (ت 1265هـ/1849م)
محمد بن عاشور (ت 1265هـ/1849م)	حسين البارودي (ت 1266هـ/1850م)
محمد الطيب الرياحي(ت1266هـ/1850م)	محمد عباس المفتي (ت 1269هـ/1853م)
محمد الخضار (1267هـ/1851م)	علي الدرويش المفتي (ت 1269هـ/1853م)
محمد القبايلي المفتي (ت 1267هـ/1851م)	محمد قاسومة (ت 1271هـ/1855م)
أحمد القروي (ت 1272هـ/1856م)	محمد الستاري (ت 1270 أو 1271هـ/ 1854 أو 1855م)
محمد النيفر (ت 1277هـ/1861م)	حسن قلايجي الجزائري (لم نقف على تاريخ وفاته)
العربي الشريف (ت 1280هـ/1864م)	الشيخ حسن فرشيش (لم نقف على تاريخ وفاته)
محمد البنا (ت 1283هـ/1867م)	أحمد الأُبي (الشهير باللُّبي) (ت 1274هـ/1858م)
أحمد عاشور (ت 1285هـ/1869م)	محمد بيرم الرابع (ت 1278هـ/1862م)
علي العفيف (ت 1292هـ/1875م)	محمد بن الرائس (ت 1274هـ/1858م)
الشاذلي بن صالح (ت 1308هـ/1891م)	مصطفى بيرم (ت 1286هـ/1870م)
الشيخ محمد الشاهد (ت 1311هـ/1894م)	حسن بن الخوجة (ت 1289هـ/1873م)
محمد الشنقيطي (ت 1265هـ أو 127هـ/1849 أو 1855م)	محمد معاوية (ت 1294هـ/1877م)

وينص الأمر على تخصيص دخل لكل المدرسين من بيت المال، قدره ريالين لكل واحد منهم في اليوم[4]. أي أنه أصبح للعلماء المالكية نفس المرتبات التي يتقاضاه علماء الحنفية المرسمون بدفاتر

[1]– للإطلاع على نص المنشور كاملا. أنظر: ابن ابي الضياف، مصدر سابق ،ج4 ، ص ص 65 ، 66 .

[2]– نفسه ، ص 65 .

[3]– محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص ص 83، 84 .

[4]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق ،ج4، ص 65 .

الجيش العثماني[1]. على أن يدرس كل واحد منهم العلم الذي تخصص فيه، ويختار الوقت الذي يناسبه، لكن بشرط أن لا يتخلف المدرس عن دروسه بغير عذر شرعي، وبالتالي فإن أيّ تخلف يؤدي إلى الخصم من مرتبه بحسب عدد أيام تخلفه، باستثناء يومي الخميس والجمعة وشهر رمضان وأيام العيدين. ويكون ذلك تحت رقابة المفتيين الحنفي والمالكي، بمساعدة القاضيين الحنفي والمالكي[2].

والظاهر أن ما قام به الباي، هو محاولة لإزالة الفروقات التي كانت بين علماء المذهبين، هذه الخطوة التي سبقها إليه الجد "حسين بن علي"، والمتمثلة في تقاسم المناصب بين علماء المذهبين لتحقيق التعايش بينهما[3]. وبالتالي يمكننا القول أن تنظيمات المشير "أحمد الباي" لم تنطلق من العدم، وإنما استندت إلى قاعدة أسسها "حسين بن علي". فاستبشر علماء المالكية بذلك، حتى جادت قرائحهم شعرا معبرين عن الفرحة، بما حباهم به الباي من مساواة مع أمثالهم الحنفيين، وتلاشى بذلك ما كانوا يشعرون به من تفضيل زملائهم من المذهب الحنفي عنهم[4]. ومن ذلك ما كتبه الشيخ "إبراهيم الرياحي" قائلا [5]:

جبرت بإحسان لمذهب مالك *** قلوبا دهاها الكسر يا خير مالك
وما جبرها نيل الحطام وإنما *** بتنوير حال من دجى الحيف حالك
تداركت تفريطا من الدهر غفلة *** وكم لك من رأي عزيز المدارك
فساويت ما بين الأفاضل رتبة *** فهم من سباك العدل فوق أرائك
أتيت بمقياس عزيز تباشرت *** بفرحته الأرواح من كل ناسك
يمينا لو النعمان قرر عنده *** لقربه عينا ولست بئافك
جرى لبن من ثدي احمد فارتوى *** به حنفي في الإحاء ومالك

[1]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 90 .

[2]– أ. و. ت ، س . ت ، صد 63، م 701 ، "أوامر علّي بتاريخ 27 رمضان سنة 1258هـ/ 26 نوفمبر 1842م "، وث 34 . أنظر أيضا: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 4 ، ص 66 .

وقد تم تحديد مرتب المفتيان الحنفي والمالكي بـ 100 ريال في الشهر لكل واحد منهما، أما مرتب القاضيان فقدر بـ 3 ريال في اليوم لكل واحد منهما. أنظر: نفسه .

[3]– السلامي، بوادر تنظيم التعليم الزيتوني...، مرجع سابق، ص 62 .

[4]– بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر...، مرجع سابق، ص 76 .

[5]– الرياحي، مصدر سابق، ص 155 .

وكان المدرسون سواء من المالكية أو الحنفية ينقسمون إلى ثلاث طبقات[1]:

الطبقة الأولى – الرسميين – : تضم ثلاثين مدرسا، خمسة عشر من الحنفية، وخمسة عشر من المالكية. عينهم المجلس الشرعي ونص عليهم المنشور وعين لهم مرتبا قارا، حيث يتقاضى المدرس ريالين في اليوم ولا يتقاضى الأجر في حالة غيابه[2]. وبمقتضى المعلقة المشار إليها يقوم المشايخ المدرسون من الطبقة الأولى، بإلقاء درسين في أي علم وفي أي وقت تيسر لهم في النهار وفي مقابل ذلك جعل لهم مرتبا قار. كما تشغل هذه الطبقة من المدرسين عدة وظائف أخرى منها، مشيخة المدرسة، وإلقاء الدروس بالجوامع المحبس عليها جرايات للتدريس، والإمامة، والوكالة على أوقاف جامع من جوامع العاصمة، وحتى إدارة مصالح دولية. فقد كان "محمد بيرم الخامس" مدرسا في الطبقة الأولى وشيخ المدرسة العنقية، ورئيس جمعية الأوقاف، وقد عوضه فيها "أحمد الورتتاني" وهو أيضا من مدرسي الطبقة الأولى. كما يمكنهم أن يتقلدوا منصب مفتي، وقاضي[3] .

الطبقة الثانية[4]:ظهرت مع مرور الوقت، سنة 1265هـ/ 1848م[5] تضم اثني عشر مدرسا، ستة من المالكية وستة من الحنفية. وهي أقل أهمية من الطبقة الأولى، حيث يتقاضون نصف ريال في اليوم، من ريع بعض أوقاف الجامع[6]. وقد اشترط المشير "أحمد باي" أن لا يتم تولية المدرس بالطبقة الأولى إلا بعد التدريس بالطبقة الثانية. لكن هذه القاعدة لم يُعمل بها، نذكر على سبيل المثال، "محمود قابادو" (ت 1288هـ/1871م) الذي تمت توليته مباشرة مدرسا من الطبقة الأولى من طرف المشير "محمد باي"[7]. كما تولى "طاهر النيفر" (ت 1311هـ/1894م) رتبة مدرس من الطبقة الأولى خلفا لوالده الذي تنازل عن منصبه[8].

الطبقة الثالثة – المتطوعون–[9]: وهم الطلبة المتحصلون على شهادة التطويع، حيث بإمكانهم

---

[1]–لم يكن هذا التقسيم موجودا عند إصدار منشور المعلقة، لكنه أحدث بعد ذلك، ربما قد يكون تلبية لزيادة عدد الطلبة. أنظر: بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر...، مرجع سابق، ص 88، هامش 40 .

[2] – Abdel Maoula ,op.cit., p.80.

[3]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص ص 105، 106 .

[4]– يذكر "ابن الخوجة" أن استحداث هذه الطبقة من طرف "المشير أحمد باي" هو ترضية للفقيه "محمد برنار"، لأن "محمد بيرم الرابع" قدم عليه غيره في التدريس. أنظر: تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 88 .

[5]– نفسه، ص 87 .

[6]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 106 .

[7]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 88 .

[8]– السنوسي، مصدر سابق، ج3، ص ص 118، 119 .

[9]– يذكر "قرين" أن كتاب السيّر ميزت بين المدرس والمتطوع إلى درجة أنهم استعملوا أفعالا مختلفة لوصف نشاطهم التربوي، فالأول "يُدرس" والثاني "يُقرئ". ويضيف أيضا أن هؤلاء المدرسين لم يكونوا يتقاضون أجرا إلى غاية سنة 1310هـ/ 1892م .أنظر: مرجع سابق، ص 47 .

ممارسة التدريس، وفي نفس الوقت مواصلة دروسهم العليا. عددها غير ثابت وقار، ذكر "قرين" أنه بلغ عددهم سنة 1290هـ/1873م، حوالي خمسة وستين متطوعا[1]. أي أن عددهم يتجاوز في كثير من الأحيان مجموع الطبقتين الأولى والثانية.

يأخذون إعانات سنوية من فواضل بيت المال، وإعانات شهرية من غياب المدرسين من الطبقة الأولى والثانية بدون عذر. ويمكن لهؤلاء المدرسين الارتقاء إلى مدرس من الطبقة الثانية، ويكون ذلك بالاختيار من طرف الشيوخ أو بواسطة الامتحان وذلك عند شغور مكان من الطبقة الثانية[2]. ولا يتم تعويض مدرس بآخر إلا عن طريق المسابقة، حيث تعلق أسماء الراغبين في الالتحاق بالمنصب على باب الجنائز بالجامع الأعظم، وبعد صلاة العصر يجتمع المجلس الشرعي – النظّار–[3] ويقومون باختيار درس في علم من العلوم، كالفقه أو النحو أو البلاغة أو غيرها. فيقوم المترشحون بتحضير الدرس المطلوب. وفي اليوم الموالي يلقي كل واحد منهم درسه أمام النظّار، وبعد المداولات يتم اختيار الأفضل والأجدر بين المتنافسين .ثم بعد ذلك يتحصل الناجح على أمر التدريس ممضى من طرف الباي[4]. أي أن الانتصاب للتدريس أصبح عن الطريق الاختبار والمناظرة، لا عن طريق الإجازات التي تمنح من طرف الشيوخ المدرسين –كما تطرقنا إلى ذلك سابقا– .

أما مراقبة وتتبع شؤون التدريس بالجامع، وحتى شؤون المدرسين والطلبة، فقد عهدها الباي إلى لجنة علمية متكونة من: "الشيخ محمد بيرم الثالث باش مفتي الحنفية، وإبراهيم الرياحي كبير أهل الشورى المالكية، ومصطفى بيرم القاضي الحنفي، ومحمد البنا القاضي المالكي"، وسميت هذه اللجنة "بلجنة النظارة العلمية الأولى"[5]. بالإضافة إلى تفقده لدروس الجامع بنفسه، "فقد كان يأتي الجامع مرارا في غير أوقات الصلاة، ويجلس وراء حَلَق التدريس"[6].

إذن استطاع المشير "أحمد باي" تنظيم التعليم الزيتوني، بمقتضى الأمر العلّي الذي تضمن ترتيبات وتشريعات متعلقة بسير التعليم وتنظيمه. وقد أشاد المؤرخ "ابن أبي الضياف" بانجاز الباي،

---

[1]– قرين، مرجع سابق، ص 47 .

[2]– بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر...، مرجع سابق، ص 89 . أنظر أيضا: محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 106 .

[3]– وهم شيخا الإسلام المالكي والحنفي، والقاضيان المالكي والحنفي. مهمتهم مراقبة أحوال المدرسين والطلبة. أنظر: الحشايشي، العادات والتقاليد...، مرجع سابق، ص ص 91، 94 .

[4]– نفسه، ص ص 91، 92 .

[5]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 91 .

[6]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 4، ص 67 .

في قوله: "وفي هذه الأيام نفق سوق العلم وتجدد شبابه، وسال سيله وعبّ عبابه، وانفتح للاجتهاد بابه، وتظاهرت أسبابه وأشرقت بأفق هذه الحاضرة نجوم وأهلّة شموس، وبدور تتجمّل بهم الصدور"[1].

لكن بعد وفاة "المشير أحمد باي" ورغم ما بذله من جهود في سبيل النهوض بالتعليم الزيتوني، فإن شيوخ التدريس قد ضعفت هممهم، وأصبحوا لا يمتثلون لما جاء في المعلقة فكثر تخلفهم وغيابهم عن التدريس، كما تقاعس المشايخ النظار عن أداء مهامهم المتمثلة في مراقبة المدرسين ومدى القيام بواجبهم[2].

3.1.2.تأسيس المكتبة الأحمدية :

لا يمكننا أن نتصور مؤسسة تعليمية بدون مكتبة ينهل منها طلبتها العلم، ويستأنسون بكتبها. وعلى هذا الأساس ولتكملة المشروع الإصلاحي المتعلق بالتعليم الزيتوني، وجه المشير "أحمد باي" نظره إلى مكتبة جامع الزيتونة. هذه الأخيرة التي لم تكن تحتوي قبل سنة 1256هـ/ 1840م، إلا على 150 مجلدا، وأغلبها كتب دينية، ولم تكن خاضعة لرقابة وتنظيم لذلك كان يضيع الكثير من كتبها[3].

وبالتالي كان لا بد من النظر في شأن مكتبة الجامع، لاستكمال تنظيم التعليم الزيتوني. فبدأ الباي بزيادة خزائن الكتب[4]، حتى بلغ عددها عشرون خزانة موضوعة على يمين وشمال المحراب[5]. وملأها بكتب تنوعت مصادرها، حيث قام بشراء كتب الوزير"حسين خوجة"(ت 1274هـ/ 1857م)[6]، بالإضافة إلى كتب أسلافه الحسينيين الموجودة بجامع بيت الباشا، وقام بنقلها إلى

---

[1]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 4، ص 67 .

[2]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 92 .

[3]– A. Rousseau, « Les bibliothèques publiques de Tunisie », R.A , N°33, 1862, p p. 223, 224 .

[4]– يمكن الاطلاع على قائمة الكتب التي حبسها، مرفقه بثمن كل كتاب، وبنصوص تحابيسها. بالعودة إلى: أ. و . ت، دفتر رقم 2/2353 ، "يشتمل على قائمة الكتب التي حبسها أحمد باي لفائدة جامع الزيتونة مع ذكر أسعارها وكيفية التصرف فيها وترتيب المدرسين بالجامع"، وث 1– 42 .

[5]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 4، ص 50 .

[6]– Rousseau,Op.Cit., p.226 .

الوزير"حسين خوجة": هو مملوك من مدينة نابولي، تبناه الوزير يوسف صاحب الطابع، فأحسن إليه وعلمه القراءة والكتابة، ويقال أنه كان محبا ومنهمكا في المطالعة خاصة كتب التاريخ. وبعد وفاة سيده يوسف صاحب الطابع، انتقل لخدمة "حسين باي الثاني" وصاهره على ابنته، وبنى له داره المعروفة بباردو، لذلك سمي "باش مملوك". كان محبا للترف ومسرفا للمال، وهذا ما دفع به إلى استدانة مبلغ لم يستطع إعادته إلى أصحابه، فسجن وباع جميع أملاكه لتسديد الدين، من بينها كتبه التي اشتراها عليه "المشير أحمد باي" لتصبح وقفا على المكتبة الأحمدية. أنظر: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج8، ص ص 105، 106 .

الجامع الأعظم. كما اشترى كتب الشيخ العالم "إبراهيم الرياحي" بعد وفاته[1]، ودفع ثمنها للورثة وحبسها على الجامع الأعظم للاستفادة منها. ونصّ في رسم التحبيس أنه أهدى ثواب ذلك لمالكها[2]. وفي ذلك يقول الشيخ "محمد الطيب الرياحي"[3]:

فأهدى إلى البيت العتيق خزائنا *** من العلم يفنى الدّهر وهي له ذكر

وفي نفس السياق أيضا، نظم شيخ الإسلام "بيرم الرابع" قصيدة[4] يقول فيها:

وأنال مسجده المعظّم رفده *** وسقى مضوّح نبته بزلاله

وحباه من كتب العلم نفائسا *** تُزري بنفخ الروض في آماله

أطلعتها في أفق فضلك أنجُما *** يمحو بها السّاري دجى أشكال

وتعتبر الكتب الرياحية من أنفس الكتب التي اشتملتها المكتبة، لأنها جمعت بين النفائس والنوادر المغربية والمشرقية التي اقتناها الشيخ "إبراهيم الرياحي" بنفسه في رحلاته إلى كل من فاس سنة 1218هـ /1803م، وإلى إستانبول سنة 1254هـ/1838م. فوصل عدد الكتب الموجودة في مكتبة الجامع إلى 1696 مجلد[5].

ومن أجل الحفاظ على الكتب وتنظيم المكتبة، قام المشير "أحمد باي" بوضع ترتيب خاص بالمكتبة بتاريخ 27 رمضان 1256هـ/21 نوفمبر 1840م. فكتب على كل مجلد نص تحبيسه وطابعه. وجعل وكيلين لمباشرتها وحفظها وترتيبها، والنظر في ذلك لشيخي الإسلام الحنفي والمالكي وأئمة الجامع[6].

واشترط على الوكيلين أن يأتي أحدهما كل يوم إلى الجامع من طلوع الشمس إلى غروبها لتزويد الطلبة والمنتفعين ما يحتاجونه من الكتب. أما من يرغب في استعارة الكتاب خارج المكتبة، فعليه أن يستأذن أحد شيخي الإسلام الذي يقدم له ترخيصا، والطالب بدوره يُظهره للوكيل– ليكون حجة بيده–. ويأخذ الكتاب على يد أحد أئمة الجامع. ويقوم الوكيل بتدوين اسم الطالب –المستعير–، وعنوان الكتاب، وتاريخ ووقت الإعارة في سجل خاص. وبعد سنة يسترجع الوكيل الكتاب من طالبه ليرجعه إلى خزانة المكتبة. وقد نص الترتيب الخاص بالمكتبة ضرورة اجتماع

[1]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 4 ، ص ص 49 ، 50 .

[2]– بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر...، مرجع سابق، ص 75 .

[3]– محمد النيفر، مصدر سابق، ج2، ص 810 .

[4]– الحشايشي، تاريخ جامع الزيتونة، مرجع سابق، ص ص 59، 60 .

[5]– محمد بن الخوجة، "كيف نشأت خزائن الكتب لدراسة العلوم بجامع الزيتونة المعمور"، م . ز ، مج 1، ج3، نوفمبر 1936م، ص 136.

[6]– أ. و . ت، دفتر رقم 2353، "يشتمل على إحصاء الكتب الموجودة بمسجد قصر الباي أحمد باشا مبوبة حسب المواضيع".

شيخا الإسلام وأئمة الجامع في كل رمضان لمحاسبة الوكيل، انطلاقا من السجل أو الدفتر الذي يدون فيه الكتب التي تمت إعارتها خارج المكتبة، ويتحققون من عودتها إلى الخزانة. حتى يتم تبرئة ذمة الوكيل، من خلال وثيقة يختمها الباي بنفسه[1].

وخلاصة القول أن المشير "أحمد باي" قام بعمل له أهمية كبيرة، والظاهر أنه أدرك أهمية الكتب وتوفيرها للقارئ دون مشقة، وبهذا الانجاز يكون قد وضع أساسا من أسس النهضة العلمية في البلاد[2].

2.2. الإصلاحات الصادقية[3]:

1.2.2.مواصلة مشروع إصلاح التعليم الزيتوني:

فبالرغم من أن "المعلقة" تضمنت الترتيبات والتنظيمات الخاصة بالمدرسين، وضبطت مرتباتهم من موارد بيت المال، إلا أنها لم تتعرض إلى تنظيمات أخرى، والمتمثلة في العلوم والتخصصات التي تدرس في الجامع، كما أنها لم تضبط أحوال المتمدرسين، والكثير من التراتيب التي لا بد منها لتنظيم التعليم[4]. وهذا ما تداركه الوزير "خير الدين"، فعرض على "محمد الصادق باي" إصدار أمر علّي ينص على تنظيم التعليم بجامع الزيتونة انطلاقا مما جاء في "المعلقة". فأصدر الباي أمرا في غرة رجب سنة 1287هـ/ 28 سبتمبر 1870م، يتضمن رفع أجور مدرسي جامع الزيتونة من ريالين إلى ثلاثة ريالات في اليوم لمدرسي الطبقة الأولى، ولمدرسي الطبقة الثانية ريالا في اليوم[5].

وفي شهر ذي القعدة 1287هـ/ جانفي 1871م، تم تعزيز المفتيين والقضاة المالكيين، بلجنة رباعية تتكون من: "الشيخ محمد العزيز بوعتور" باش كاتب، و"الجنرال حسين" مستشار القسم الثاني من الوزارة الكبرى، والشيخ "أحمد بن أبي الضياف"، والشيخ "محمد البكوش"[6]. كانت تعمل اللجنة على تفقد الدروس أسبوعيا وتسجيل عدد غيابات الشيوخ المدرسين، وعدد

---

[1]– أ. و . ت، دفتر رقم 2353، مصدر سابق .

وللإشارة فإن الترتيب الخاص بالمكتبة فصّل في نقطة مهمة والمتمثلة في الإجراءات المتبعة في حالة ضياع كتاب من المكتبة. أنظر: نفسه .

[2]– بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر...، مرجع سابق، ص 76 .

[3]– يطلق عليها بهذه التسمية نسبة إلى المشير "محمد الصادق باي"، لكن صاحب أفكار الإصلاحات ومجسدها على أرض الواقع، هو الوزير "خير الدين"، وهذا ما سنلاحظه ونؤكده في دراستنا .

[4]– ابن محمود، مرجع سابق، ص 52.

[5]– بيرم الخامس، مصدر سابق، ص 63 .

[6]– السنوسي، مصدر سابق، ج1 ، ص 174 . أنظر أيضا: عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 68 .

الدروس المتخلف عنها، باستثناء المدرسين الزيتونيين بالمدرسة الصادقية الذين لا يتم تتبّعهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى تقوم اللجنة برفع تقارير دورية عن أوضاع التعليم بالجامع الأعظم إلى الوزير الأكبر[1]. ومن ذلك التقرير الذي رفعه "الجنرال حسين" إلى الوزير "خير الدين" مؤرخ في 21 جمادى الأخرى 1288هـ/6 سبتمبر 1871م، بعد زيارة تفقدية للجامع الأعظم، يتضمن الملاحظات والانتقادات، بالإضافة إلى بعض الاقتراحات:

– لا يوجد من بين الدروس درسا في تفسير القرآن[2].

– كثرة دروس الفقه والنحو، التي كانت تشغل تقريبا نصف الوقت الإجمالي المخصص للتدريس.

وفي هذا السياق يعبر "الجنرال حسين" عن المبالغة في تعليم مادة النحو، بأسلوب فيه نوع من التهكم، يقول: "إن النحو الذي اشتهر تشبيهه بالملح في الطعام، أصبح عندنا كمن يأكل الملح بالطعام، لا الطعام بالملح"[3]. وهذا دليل على إعطاء هذا العلم أكثر من قيمته، وإهمال باقي العلوم.

– اقترح التقليص من عدد المدرسين إلى أقل من النصف، وفي المقابل يكون الاهتمام أكثر بشؤون الطلبة، وتحسين أوضاعهم. وبالتالي نستطيع القول أن "حسين" تفطن للوضع المتردي الذي كان يعيشه الطالب الزيتوني.

– كما لم يغفل عن المدرسين المتطوعين، فقد طالب في تقريره ضرورة النظر في حالتهم المزرية، حيث أنهم يدرسون عشرات الساعات دون مقابل أو منحة، تعينهم على الظروف الصعبة التي يعيشونها.

– كما نبه إلى ضرورة الإنقاص من الكتب المحشية والشارحة والمختصرة، وتوحيد مناهج التعليم[4]، التي يجب أن تُضبط بجانب المواد في كُتيب واضح العبارة يوزع على الطلبة والمدرسين [5].

إن ما يجدر الإشارة إليه أن التقرير الذي أعده "الجنرال حسين" يعد من مظاهر الجرأة في المطالبة بالإصلاح في النصف الثاني من القرن 19م، حيث اطلع عامة الناس عليه في جريدة الرائد في جمادى الأخرى 1288هـ/ سبتمبر 1871م، والظاهر أن تقريره المفصل حول وضعية المدرسين

[1]– قرين، مرجع سابق، ص 150.

[2]– عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 59 .

[3]– فتحي القاسمي، الجدل الديني في تونس (1875– 1931م)، ج1، أطروحة دكتوراه دولة، إشراف كمال عمران، جامعة منوبة، 2006–2007م، ص 181 .

[4]– نفسه .

[5]– عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 59 .

والطلبة بالجامع الأعظم والمتضمن لانتقادات هامة وثغرات تحاشى التعرض إليها من قبله "محمد العزيز بوعتور"، الذي أعد قبل ستة أشهر تقريرا بعد الزيارة الفجائية التي قام بها لتفقد أحوال الجامع. وجاء في أسلوب يغلب عليه الطابع الوصفي لا النقدي، كما خلص إلى أن كل شيء على ما يرام[1].

إذن من خلال المقارنة بين التقريرين يتضح جليا أن نظرة الرجلين مختلفة، فقد وجدنا في "الجنرال حسين" الشخصية الجريئة، فقد كانت انتقاداته وملاحظاته تحمل في طياتها مشروعا للإصلاح الفعلي والفوري للتعليم الزيتوني[2]،والمطالبة بالتغيير. وبالتالي يمكننا القول أن آراء"حسين" حسين" كانت متأثرة بالطرق العصرية في التربية التي شاهد نجاعتها في أوربا. وهو من هذه الناحية موافق "لخير الدين" الذي خصص صفحات متعددة في كتابه "أقوم المسالك" لوصف معاهد التعليم في فرنسا وغيرها وذكر مراحله وطرقه. مما أوحى بتنظيم جديد وإصلاح عميق للتعليم[3].

وفي إطار إصلاح التعليم الزيتوني، تدعم الأمر العلّي الأول بأمر ثاني صدر في 28 ذي القعدة 1292هـ / 26 ديسمبر 1875م [4]. اشتمل على 67 فصلا مبوّبة كمايلي[5] :

- الباب الأول: جاء تحت عنوان "في الفنون التي تقرأ بالجامع الأعظم والكتب التي تدرس في تلك الفنون وفي مراتبها وما يتعلق بذلك"، احتوى على ستة فصول .
- الباب الثاني: يتعرض هذا الباب إلى "أحوال المشايخ المدرسين"، احتوى على ستة عشر فصلا .
- الباب الثالث: جاء تحت عنوان "في أحوال التلامذة"، احتوى على عشرة فصول .
- الباب الرابع: جاء تحت عنوان "في أعمال المشايخ النظار"، احتوى على واحد وعشرون فصلا .
- الباب الخامس: جاء تحت عنوان "في أحوال الكتب ووكلائها وما يتعلق بذلك"، احتوى على أربعة عشر فصلا .

---

[1]– – عبد السلام، مواقف إصلاحية...، ص 58. أنظر أيضا: القاسمي، مرجع سابق، ص ص 180، 181 .

[2]– نفسه، ص 181 .

[3]– القاسمي، مرجع سابق، ص 181 .

[4]– تم تنقيح وتعديل هذا الأمر في 25 ذي الحجة 1292هـ/ 22جانفي 1876م، اشتمل على مقدمة و12 فصلا. أنظر: أ. و. ت، س . ت ، صد 63، م 723 ، "أمر بتنظيم الجامع الأعظم 1292هـ/ 1875م"، وث 06 . للإشارة هنا، نذكر أنه يوجد ترجمة للأمر بالفرنسية. أنظر: Zeys, Op.Cit., p p. 348,349 .

[5]– أ. و. ت ، س . ت ، صد 63، م 723 ، وث 05 .

ويمكننا أن نلخص أهم ما تضمنه الأمر العلّي فيما يلي:

– النهوض بمستوى التعليم، وذلك عن طريق:

– إصلاح المناهج من خلال ضبط قائمة المواد المدرسة، حيث أضيفت إلى المواد النقلية، مواد أخرى تشمل التاريخ، والحساب، والهندسة، والمساحة، والهيئة، والعروض، وآداب البحث. لكن سرعان ما وقع إهمالها، وفي هذا السياق يقول "الطاهر بن عاشور": "ومضت مدة لا توجد فيها سبعة فنون وهي التصوف –آداب الشريعة–، والتاريخ والرسم غير التوقيفي[1]، والعروض، والهندسة، والهيئة، والمساحة، ويقل تدريس اللغة، والأدب، وآداب البحث، والميقات، والحساب إلا ما كان من هذا الأخير في ضمن كتب الفرائض التي هي قليلة المزاولة"[2].

– تُدرّس العلوم من خلال كتب رتبت على ثلاث درجات، باعتبار أهميتها وصعوبتها إلى عالية، ومتوسطة، وأخيرة، وهذا ما يوضحه الجدول الآتي:

جدول رقم(17) [3]:

المرتبة	العلوم	الكتب التي تدرس – ذكر البعض منها –
العالية	علم التفسير	– أسرار التنزيل للبيضاوي – ذو الجلالين
	علم الحديث	– الموطأ متنا وبشرح الزرقاني – صحيح البخاري متنا وبشرح القسطلاني – الشفا متنا وبشرح الأبي
	علم السير والتاريخ	– السيرة الكلاعية – تاريخ ابن خلدون
	علم المنطق	– القطب على الشمسية
	علم الحساب	– شرح ابن غاني على المنية – التلخيص بشرح المسراتي
	علم الهندسة	– تحرير الطوسي لمقالات إقليديس

[1]– هو الرسم الذي يتعلق بالقرآن الكريم والرسم بصفة عامة، كان يسمى القياسي أو غير التوقيفي. أنظر: محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 99، هامش 33 .

[2]– الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 136 .

[3]– للتوسع أكثر في الكتب التي كانت تدرس في كل علم. أنظر: أ. و . ت، س. ت ، صد 63، م 723، "أمر بتنظيم الجامع الأعظم 1292هـ/ 1875م"، الباب الأول، الفصول 5/4/3/2.

المتوسطة	علم الحديث	– شرح اللقاني على الأربعين النووية – الشمائل بشرح المناوي
	علم التوحيد	– الوسطى للشيخ السنوسي
	علم الفقه	– الرد المختار برد المحتار – متن المختصر وبشرح الدردير
	علم التصوف	– الحكم بشرح ابن عباد – الطريقة المحمدية
	علم النحو	– الإشموني على الألفية – الماكودي عليها
	علم آداب البحث	– مسعود الرومي على السمرقندية – القوانين لسحقلي زاده
الأخيرة	علم القراءات والتجويد	– القاضي على الجزرية
	علم النحو	– متن الأجرومية بشرح سيدي خالد – متن الألفية
	علم المنطق	– متن إيساغوجي – الشرح البيرمي عليه
	علم الحساب	– النخبة الحسابية

– تقسيم التعليم إلى ثلاث مراحل:

– المرحلة الابتدائية أو الثانوية الأولى: مدتها ثلاث سنوات .

– المرحلة المتوسطة أو الثانوية المتوسطة: مدتها أربع سنوات، والسنة الأخيرة من هذه المرحلة تخصص لتحضير امتحان التطويع.

– المرحلة العالية: وهي مرحلة لا يصل إليها إلا نخبة قليلة من طلبة الزيتونة، وبإمكان الطالب أن يكمل دراسته العليا، وفي نفس الوقت يدرّس بالجامع بصفته متطوع[1] .

– مراقبة الغيابات، من خلال إعداد تقارير نهاية كل شهر من طرف النظّار، تحتوي على حضور وغيابات الشيوخ المدرسين[2].

[1]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 96 .

[2]– أ. و . ت، س. ت، صد 63، م 723، أمر بتنظيم الجامع الأعظم 1292هـ/ 1875م،الباب 04، الفصل 45.

وانطلاقا من هذا الأمر بدأت ترد التقارير[1] على الوزير الأكبر "خير الدين" شهريا، ومن ذلك التقرير الذي أعده الشيوخ النظّار في شهر جمادى الثانية 1293هـ/ جويلية 1876م، وهو كالآتي:

جدول رقم (18): يمثل مواظبة الشيوخ المدرسين بجامع الزيتونة [2].

المشايخ الحنفية من الطبقة الأولى	عدد الدروس المتخلف عنها	عدد الأيام المتخلف عنها
أحمد ابن الخوجة ثبت عذره بمكتوب	6	14
أحمد كريم ثبت عذره بمكتوب	1	10
محمد البارودي ثبت عذره	1	-
حسونة عباس ثبت عذره بمكتوب	-	4
محمد بيرم ثبت عذره بمكتوب	-	2
الأمين بالخوجة ثبت عذره بمكتوب	1	7
محمود بالخوجة ثبت عذره بمكتوب	3	3
محمد القرطبي ثبت عذره بمكتوب	-	5
محمد الستاري ثبت عذره بمكتوب	-	5
محمد بيرم	1	19
محمد بن مصطفى خوجة ثبت عذره بمكتوب	-	3
مصطفى رضوان	-	-
محمود بيرم ثبت عذره بمكتوب	-	5
أحمد بن الخوجة ثبت عذره بمكتوب	-	4
المجموع	13	80
المشايخ المالكية من الطبقة الأولى		
محمد الشاهد ثبت عذره	-	1
محمد النيفر ثبت عذره بمكتوب	1	5

[1]- يمكن الإطلاع على العديد من التقارير التي تم إعدادها في هذا الشأن من طرف النظارة. بالعودة إلى: أ.و.ت، س . ت، صد 63، م 728، "مراسلات صادرة عن المشايخ النظار بجامع الزيتونة متعلقة بالدروس والمدرسين". وقد قمنا بنشر أنموذج منها في قسم الملاحق، أنظر: الملحق رقم 16، ص ص 359، 360.

[2]- نفسه، وث 11،10 .

الصالح بن فرحات ثبت عذره بمكتوب	3	13
عمر بن الشيخ قاضي باردو	–	–
سالم بوحاجب ثبت عذره	–	غائب
الطيب السبعي ثبت عذره بمكتوب	–	2
العربي المازوني ثبت عذره بمكتوب	–	1
الحاج عثمان الشامخ ثبت عذره بمكتوب	–	5
أحمد الورتاني	–	–
الطيب النيفر ثبت عذره بمكتوب	3	2
محمد النجار ثبت عذره بمكتوب	3	1
الشيخ سي البشير التواتي ثبت عذره	–	1
حسين بن الشيخ سي أحمد بلحسين ثبت عذره بمكتوب	–	3
محمد الصادق الشاهد ثبت عذره	–	5
محمد النيفر ثبت عذره بمكتوب	–	10
المجموع	10	48
المشايخ الحنفية من الطبقة الثانية		
محمد بن محمود ثبت عذره بمكتوب	12	3
الشاذلي بن مراد ثبت عذره بمكتوب	–	-
محمود بن محمود ثبت عذره	7	3
أحمد بن مراد	–	-
صالح (كذا)	–	1
محمد بن الخوجة ثبت عذره بمكتوب	3	3
المجموع	22	10
المشايخ المالكية من الطبقة الثانية		
الطاهر السقاط عذره	–	غائب
أحمد بن الشيخ سي أحمد بلحسين ثبت عذره بمكتوب	–	5

محمد البناني	-	-
الحاج محمد النيفر ثبت عذره بمكتوب	-	5
الحاج علي بن الحاج	2	3
الطاهر جعفر ثبت عذره	2	9
المجموع	4	23

– **فئة الطلبة،** تطرق الأمر العلّي لهم، فحسب الفصل 24 من أمر 1292هـ/ 1875م فإن لكل طالب من طلبة جامع الزيتونة دفترا[1] خاصا به، يتضمن شهادة مشايخه ببداية قراءة الكتب وختمها، ومواظبته على دروسه، ودرجته في النجابة والفهم. وشهادة مشايخه إذا أحسن الجواب في الامتحان[2] .

-كما جاء الأمر في الباب الثالث والرابع، في صيغة نظام داخلي للجامع[3]، حيث تطرق إلى عدة نقاط:

– تنظيم امتحانات الطلبة التي تكون مرة في نهاية السنة ويكون ذلك في بداية شهر ماي، ويتم إعلام الطلبة بتاريخ الامتحان بنصف شهر. ويمتحن على الكتب التي قرأها خلال السنة.

– ضرورة تحلي الطالب بالسلوك الحسن، وآداب السؤال، والمحافظة على الأوقات المخصصة لدروسه وتجنب الغيابات والتأخرات ...، وهذا كله من أجل إضفاء الصبغة النظامية على الجامع.

– **أما فيما يخص فئة المدرسين،** فبالرغم من تعرض الأمر إليهم في بابه الثاني، إلا أنه لم يتطرق إلى عرض ترتيبات وإصلاحات تخدمه، فلم يأتي بالجديد بالرغم من الأوضاع الصعبة التي كان يعيشها المدرسون، خاصة منهم طبقة المدرسين المتطوعين.

لقد أطلعتنا كتب التراجم على أمثلة عديدة لمدرسين متطوعين يعانون ظروف مادية صعبة، نذكر من بينهم المدرس "محمد العنجاتي" الذي حدث وأن تخلف في أحد الأيام عن درسه، فلما ألح عليه طلبته عن سبب الغياب، أعلمهم أنه "لم يجد زيتا ولا ما يشتري به الزيت"[4]. إذن العبارة صريحة جدا، الظروف المادية القاسية جعلت المدرس المتطوع لا يستطيع اقتناء أبسط لوازمه،

[1]– لا بد من الإشارة هنا أن دفتر الطالب مهم جدا، حيث يحتوي على بلوغ الطالب للنصاب، يعني بداية ونهاية الكتب المقررة عليه. وبالتالي يتم إعفاءه من آداء المجبى والخدمة العسكرية. أنظر: أ. و . ت، س. ت، صد 63، م 723، أمر بتنظيم الجامع الأعظم 1292هـ/ 1875م ، الباب 03، الفصل25، وث 13 .

[2]– نفسه .

[3]– نفسه، الباب 03.

[4]– السنوسي، مصدر سابق، ج3، ص 81 .

كالزيت مثلا الذي يحتاجه ليوقد به مصباحه وينظر درسه. إنه دليل على درجة الفقر المدقع الذي تعيشه هذه الطبقة من مدرسي الزيتونة. وما المدرس "محمد العنجاتي" إلا مثال حي لعشرات المدرسين الذين يعانون نفس الظروف الصعبة.

إن الرسائل المتوفرة بين أيدينا، والتي أغلبها موجهة من مدرسي الطبقة الثالثة إلى السلطة الحاكمة تؤكد لنا وبوضوح الحالة المادية التي يعيشها هؤلاء جراء ضعف مدخولهم، ففي رسالة مؤرخة في 1 ربيع الثاني 1280هـ/ 14 سبتمبر 1863م وجهها المدرس "إبراهيم السنوسي" إلى المشير "محمد الصادق باي" مبينا له فيها الظروف الصعبة التي يمر بها، ومرد ذلك إلى زهد المرتب الذي يتقاضاه والذي لا يكفي سد حاجاته وحاجات عائلته. مبرزا في رسالته أنه بحاجة إلى مرتب يومي يكون محترما ويليق بمقامه خاصة وأن والده هو العالم الفقيه والقاضي الشيخ "محمد السنوسي" الذي خدم الأسرة الحسينية نحو عشرين سنة[1].

وبالتالي نستشف من رسالة "إبراهيم السنوسي" أو غيره من المدرسين، الإهمال الحقيقي الذي تعيشه طبقة مهمة من مدرسي الجامع الأعظم. بالإضافة إلى هذا فإن الكثير من المدرسين المالكيين يشعرون دوما بأن الحنفية بالرغم من قلة عددهم إلا أنهم أكثر حظوة، نذكر على سبيل المثال الشكوى التي رفعها بعض العلماء المالكية في عهد "محمد الصادق باي" عن كيفية توزيع الأحباس على العلماء ويرون أنه من العدالة توزيعها بالتساوي، دون النظر إلى عدد علماء المالكية والحنفية[2].

ومهما يكن من أمر، فإن الإصلاحات الصادقية مكنت الدولة من مراقبة التعليم بالجامع الأعظم، ولم يعد يتميز بالاستقلالية التي كان عليها من قبل، وأصبح بذلك التعليم الزيتوني تحت نظر ومراقبة الباي بواسطة الوزير الأكبر[3].

والجدير بالإشارة أن كل الأوامر العلّية الصادرة في شأن تنظيم التعليم الزيتوني، لم تكن موجهة للتعليم الزيتوني فقط، بل حتى للمدارس وجوامع المدن الكبرى، مثل: سوسة والقيروان وقابس وتوزر ...[4].

---

[1]– أ. و. ت، س.ت، صد 63، م 732، "مراسلة من إبراهيم السنوسي إلى المشير محمد الصادق باي"، وث 17 .

[2]– نفسه، م 740، وث 02، بتاريخ ربيع الثاني 1287هـ/جويلية 1870م . أنظر الملحق رقم 17، ص 363 .

[3]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق ، ص 93 .

[4]- Abed El Moula, Op.Cit. , p. 84 .

2.2.2. تأسيس المدرسة الصادقية:

عندما تولى "خير الدين" الوزارة الكبرى، كان التعليم التقليدي الذي مكن البلاد في الماضي من المحافظة على كيانها الروحي والثقافي قد تدهور كمّا وكيفا. فالمترددون على الكتاتيب التي تُعلِّم القراءة والكتابة لم يكن عددهم يتجاوز 14 ألف صبي في كامل الإيالة. وكان بعض المنتصبين لتعليم الناشئة لا يحسنون المبادئ التي يقومون بتعليمها. أما في المستوى الأعلى، فقد كان القليل من أصحاب الوظائف الشرعية أو المتطوعين يلقون دروسا غير نظامية في أهم جوامع مدن الإيالة. وكاد التعليم في هذا المستوى ينحصر في القرن 13هـ/ 19م في جامع الزيتونة بالعاصمة[1] .

لهذه الاعتبارات وغيرها، حاول "خير الدين" أن يتصور تعليما عصريا وحديثا، يوافق حال البلاد في تلك الفترة، ويستجيب للمتطلبات الجديدة. خاصة بعد توقف الإصلاحات الدستورية في عهد الأمان، وتدهور التعليم العسكري في المدرسة الحربية بباردو. فمن بين الحلول التي فكر فيها بالإضافة إلى إعادة تنظيم التعليم الزيتوني. إنشاء مدرسة جديدة، توافق مستجدات ومتطلبات العصر[2]، سماها "المدرسة الصادقية"[3]. وأوكل شؤون الإصلاح إلى نفس اللجنة التي أشرفت على مراجعة برامج التعليم الزيتوني[4].

إذن تعود فكرة تأسيس المدرسة إلى الوزير "خير الدين التونسي"، هذا الأخير الذي اقترح على المشير "محمد الصادق باي" بضرورة إنشاء مدرسة لتعليم العلوم العربية واللغات الأجنبية والعلوم العصرية. وبالرغم من أن الوزير "خير الدين" استشار نخبة من العلماء التونسيين في هذا المشروع العلمي الفكري، منهم: "أحمد بن الخوجة"، و"محمد الطاهر النيفر"، و"عمر بن الشيخ"، و"محمد بيرم الخامس" أثناء إقدامه على تأسيس المدرسة، وحصوله على الموافقة منهم[5]، إلا أنه واجه معارضة من طرف الكثير من المحافظين، الذين تخوفوا من ظهور مذاهب غربية أوربية في البلاد[6].

تمت الموافقة على إحداث "المدرسة الصادقية" أو "المكتب الجديد"، وتم اختيار قشلة

---

[1]– عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 67 .

[2]– Abed El Moula, Op.Cit. , p. 82 .

[3]– عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 70 .

[4]– بنبلغيث، التعليم والأوقاف في المدارس...، مرجع سابق، ص 148 .

[5]– بوطيبي، مرجع سابق، ص 169. أنظر أيضا: ابن الخوجة، صفحات من تاريخ...، مرجع سابق ، ص ص 310، 311 .

[6]– بوطيبي، مرجع سابق، ص 169 .

الزنايدية[1] مكانا لإنشائها. وكان ذلك بإصدار مرسوم علّي في 5 ذي الحجة 1291هـ/ 13 جانفي 1875م[2]. فتحت المدرسة أبوابها رسميا يوم 20 محرم 1292هـ/ 27 فيفري 1875م، تقدم من خلالها تعليما مجانيا لمائة وخمسين تلميذا[3].

– النظام التعليمي بالمدرسة:

جاء في الأمر العلّي المؤسس للمدرسة الصادقية، أن التعليم بها يشتمل على القرآن والخط واللغات الأجنبية والعلوم النقلية والعقلية التي يمكن أن تكون مفيدة للمسلمين ما لم تتعارض مع عقيدتهم[4].

إذن اعتمدت المدرسة على برنامج تعليمي متنوع في نص قانوني يحتوي على مقدمة واثنين وثمانين فصلا[5]، واشتملت اللجنة التي ساعدته عل تحرير قانون المدرسة من : "محمد بيرم الخامس" (رئيس جمعية الأوقاف)، وأحمد بن الخوجة"(المفتي الحنفي)، و"محمد الطاهر النيفر" (القاضي المالكي)، و"عمر بن الشيخ" (قاضي باردو)، وأحمد الورتتاني" (مدرّس)، و"محمد العزيز بوعتور"(باش كاتب ووزير القلم والاستشارة)، و"محمد العربي زروق" (رئيس المجلس البلدي)، ومصطفى رضوان[6](مدرّس)[7]. وهي نفس اللجنة التي عهد إليها ترتيب التعليم الزيتوني –كما

---

[1]– هي ثكنة قديمة بناها حمودة باشا في اوائل القرن 19م وهي مازالت قائمة الذات إلى يومنا هذا بنهج جامع الزيتونة عدد 55.
أنظر: ابن الخوجة، صفحات من تاريخ...، مرجع سابق، ص 311، هامش 1.

[2]– يمكن الاطلاع على الأمر العلّي بالعودة إلى: أ. و . ت، س . ت، صد 63، م 723، "أوامر علية ومراسلات متعلقة بالمدرسين وبتنظيم الدراسة بالجامع الأعظم وبالمدرسة الصادقية"، وث 2– 28 . وقد تم طبعه في كُتيب صغير من طرف مطبعة الإرادة، تونس، بعنوان "قانون المدرسة الصادقية". تحصلنا على نسخة منه من طرف مديرة المدرسة الصادقية السيدة "فاطمة وداد هلال" .

[3]– أ. و. ت، صد 64، نهاية م 751، إعلان المدرسة الصادقية، وث 06. الإعلان موجود في قسم الملاحق، أنظر: الملحق رقم 18، ص 365.

[4]– علي الزيدي، دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية في الفترة المعاصرة، منشورات منتدى الفرابي للدراسات والبدائل، صفاقس، 2014م، ص 12 .

[5]– يمكن الاطلاع عليه، بالعودة إلى: أ. و . ت، س . ت ، صد 63، م 723، "أمر علّي خاص بترتيب التعليم بالمدرسة الصادقية بتاريخ 5 ذي الحجة 1291هـ/ 13 جانفي 1875م"، وث 2– 28 .

[6]– ولد الشيخ مصطفى بن علي رضوان بمدينة سوسة سنة 1244هـ/ 1828م، تلقى مبادئ التعليم الأولي على شيوخ سوسة، ثم التحق بجامع الزيتونة سنة 1260هـ/ 1844م ودرس على يد كبار شيوخ الزيتونة أمثال "محمد بن الخوجة" و"محمد النيفر" وغيرهم. كان يعمل ناسخا للكتب بفضل خطه الجميل، تقلد عدة مناصب منها مدرسا بجامع الزيتونة في الطبقة الثانية ثم الأولى، كما عين عضوا في لجنة الكمسيون المالي، وعضوا أيضا في لجنة تنظيم التعليم الزيتوني، وفي إعداد قانون المدرسة الصادقية. توفي في 29 ربيع الثاني 1322هـ/ 12 جويلية 1904م، ودفن بمقبرة الشهداء بالمرسى. لمعلومات أكثر حول هذه الشخصية أنظر: محمد الفاضل بن عاشور، "العلامة الرئيس الشيخ مصطفى رضوان"، م.ز ، مج 9، ج5، 1374هـ/1955م، ص ص 285– 288 .

[7]– أ. و . ت، س . ت ، صد 63، م 723، "أمر علّي خاص بترتيب التعليم بالمدرسة الصادقية بتاريخ 5 ذي الحجة 1291هـ/ 13 جانفي 1875م"، وث 02.

أسلفنا الذكر–. والملاحظ أن اللجنة لم تستغرق وقتا طويلا في تحرير قانون وتراتيب المدرسة، لأن "خير الدين"لم يقترح تكوين اللجنة إلا بعد أن اكتملت في ذهنه صورة المدرسة التي كان يريد إحداثها. وهو ما تؤكده مراسلاته في باريس مع الذين كانوا يجمعون له المعلومات عن المدارس المختلفة الموجودة بأوربا[1].

والجدير بالذكر أن التعليم بالمدرسة الصادقية قُسم إلى ثلاثة أقسام[2]:

– القسم الأول: وهو مخصص للتعليم الابتدائي، مدة الدراسة أربع سنوات، يحفظ من خلالها التلميذ نصيبا من القرآن الكريم والحديث الشريف، ويتعلم القراءة والكتابة ومبادئ اللغة العربية والعلوم الشرعية من خلال حفظ المتون الأساسية مثل الأجرومية والألفية في النحو، وحفظ ابن العاشر في الفقه المالكي، ومنظومة الإمام للحنفي .

– القسم الثاني: وهو مخصص للتعليم الثانوي، يضم أربع مراتب، تدوم الدراسة في المراتب الثلاث الأولى سنة وحدة، وفي المرتبة الرابعة سنتين، أي إجمالا خمس سنوات. يدرس التلميذ فيه العلوم الشرعية ووسائلها. والظاهر أن البرنامج المخصص لهذا القسم بالمدرسة شبيه في محتواه وطرقه بما كان يلقى بجامع الزيتونة من دروس. لذلك حسب الفصلين 66/18 من الأمر العلّي فإن التلميذ مخير بعد اجتيازه لامتحان القسم الثاني والانتقال إلى القسم الثالث، أو مواصلة دراسته بجامع الزيتونة، أو الجمع بينهما. وفي هذه الحالة الأخيرة لا بد على "المدير أن يعين له أوقاتا مناسبة، حتى يمكنه الجمع بين العلم بالجامع والمدرسة"[3].

– القسم الثالث: مدة التعليم فيه سبع سنوات، وهو مخصص حسب ما جاء في ديباجة الأمر العلّي "لتعليم اللغات غير العربية وتدريس العلوم العقلية، من كل ما تحتاج إليه الأمة الإسلامية في إقامة مصالحها ولا يرفضها شرعها"[4]. هذا القسم موازي للقسمين الأول والثاني، إذ يجوز للتلميذ ابتداءً من السنة الثانية من هذا القسم أن يختار إما الجمع بين دروس القسمين الأول والثاني ودروس القسم الثالث، أو التفرغ للدراسة في هذا القسم بعد نجاحه في امتحان ختم القسم الثاني. وبناء على ذلك فقد نص الفصل 54 من قانون المدرسة، أن يقوم المدير "بمزج تعلم علوم القسم

---

[1]– عبد السلام، مواقف إصلاحية...، مرجع سابق، ص 72 .

[2]– أ. و . ت، س . ت، صد 63، م 723، "أمر علّي خاص بترتيب التعليم بالمدرسة الصادقية بتاريخ 5 ذي الحجة 1291هـ/ 13 جانفي 1875م"723، وث 02 . أنظر أيضا: عبد السلام، المدرسة الصادقية ...، مرجع سابق، ص ص 14، 15 .

[3]– نفسه، "أمر علّي خاص بترتيب التعليم بالمدرسة الصادقية بتاريخ 5 ذي الحجة 1291هـ/ 13 جانفي 1875م"، وث 9، 23 .

[4]– أ. و . ت، س . ت ، صد 63، م 723، مصدر سابق، وث 2 .

الأول والثاني بتعاليم القسم الثالث، حتى يكون الوقت كافيا لجميعها ...ويحرر في ذلك جدولا يكون معلوما للمعلم والمتعلم"[1].

أما المواد التعليمية التي تدرس في هذا القسم، فهي: اللغات الأجنبية (التركية، والفرنسية، والإيطالية) وغيرها من اللغات التي يحتاج إليها. بالإضافة إلى العلوم الرياضية (الحساب، الجبر، والمقابلة)، والهندسة (المساحة، وجر الأثقال، وهندسة الصناعات...)، والهيئة (الجغرافية، وعلم المواقيت)، والعلوم الطبيعية (علم الطب، والبيطرة، وعلم النبات والحيوان، وعلم المعادن ...)، بالإضافة إلى علم سياسة الممالك والقوانين المقررة بينهم[2].

إذن يمكننا القول أن المدرسة الصادقية تعتبر أول مؤسسة تعليمية بعد المدرسة الحربية بباردو، تدرس ضمن برنامجها التعليمي مواد تعليمية عصرية، إلى جانب المواد التعليمية الأخرى التي كانت تدرس أيضا بالجامع الأعظم. وتؤكد الدراسات أن مناهجها التعليمية المستحدثة مستوحاة من المناهج المتبعة في الثانويات الفرنسية[3].

أما عن طرائق التدريس، فقد تم استحداث طرق بيداغوحية حديثة كاستعمال السبورة وترك حرية النقاش للتلميذ[4]. كما كان التلاميذ يجلسون على مقاعد متصلة بطاولات، وكان أقرب المقاعد من المعلم للتلاميذ المتميزين في الأسبوع أو الشهر. كما كان يخصص للتلاميذ الممتازين طاولة خاصة بهم بالمطعم[5]. أما التلاميذ المخلّين بواجباتهم فكانوا يتعرضون للعقاب، ومن بين العقوبات التي كان يتعرض لها التلميذ الصادقي الذي لا يحفظ درسه هي، أكل الخبز والماء، والوقوف وقت الراحة [6]. وأقصى عقوبة تتمثل في عزل التلميذ لمدة شهر عن زملائه حيث لا يتكلم معه أحد[7].

تميزت المدرسة بالجد والمثابرة في العمل، ويتضح ذلك جليا من خلال الحجم الساعي والمواقيت المخصصة للدراسة، فحسب الفصل 53 من قانون المدرسة، يُقبِل التلاميذ على دروسهم

---

[1]– أ. و . ت، س . ت ، صد 63، م 723، مصدر سابق، وث 20 .

[2]– نفسه، الفصول 24/ 25 ، وث 13، 14 .

[3]- Abel Clarin de la Rive, Histoire générale de la Tunisie (1590-1883), Int M . P. Mignard, Pub E. Demoflys,Tunis,1883, p.383 .

[4]– كريم وجلاب ، مرجع سابق ،ص 19 .

[5]– عبد السلام، المدرسة الصادقية...، مرجع سابق، ص 20 .

[6]– أ. و. ت، س. ت، صد 64، م 753، "جداول تحتوي على بيانات متعلقة بمدرسي وموظفي بالمدرسة الصادقية ونتائج الطلبة"، وث 04.

[7]- Arnoulet , "les problèmes de l'enseignement…" , Op.Cit. , p. 36 .

من شروق الشمس إلى غروبها، تتخللها ساعات للراحة تختلف بين الشتاء والصيف. نبينها في الجدول التالي:

جدول رقم (19): مواقيت الدراسة بالمدرسة الصادقية [1] .

الأشهر	الفترة الصباحية	الفترة المسائية
من شهر أكتوبر إلى نهاية شهر مارس	تبدأ قبل الزوال بأربع ساعات ونصف إلى الزوال. تقريبا من 7:00 سا – 12:00سا	تبدأ بعد الزوال بساعتين الى قبل الغروب إلى قبل المغرب بنصف ساعة. تقريبا من: 14:00سا – 17:00سا
من شهر أفريل إلى نهاية شهر سبتمبر	تبدأ قبل الزوال بستة ساعات ونصف إلى قبل الزوال بساعة. تقريبا من6:00سا– 12:00سا	تبدأ بعد الزوال بثلاث ساعات إلى قبل الغروب بنصف ساعة. تقريبا من: 15:00سا – 18:00سا
أوقات الراحة	على الساعة 10:00صباحا في وقت الوجبات بالإضافة إلى مساء يوم الخميس	

إذن من خلال تتبع أوقات الدراسة، تبين لنا أن الحجم الساعي الدراسي يتراوح مابين عشرة إلى اثنتي عشر ساعة في اليوم. كما يضاف إلى الوقت المخصص للدروس أوقات خاصة بالمطالعة والمذاكرة، وهو حجم ساعي مرتفع إذا قارناه بالذي كان معمولا به بجامع الزيتونة مثلا. وهذا ما جعل المدرسة الصادقية معهدا يقال عنه أنه لا يطول فيه النوم[2].

أما عن أوقات العطل، فلم يكن للمدرسة عطل في السنوات الأولى، إلا أيام الأعياد الدينية، أو بعض التخفيف من أوقات الدروس في شهر رمضان، وفي فصل الصيف من 15 جويلية إلى غاية 15 سبتمبر[3].

أما عن الامتحانات السنوية فتجرى في محرم أول أشهر السنة القمرية، وقد وافق في أعوام 1291– 1295هـ/ 1875– 1878م شهر جانفي، وتدوم لمدة أسبوعين، وكانت لا تجرى

[1]– أ. و . ت، س . ت ، صد 63، م 723،"أمر علّي خاص بترتيب التعليم بالمدرسة الصادقية بتاريخ 5 ذي الحجة 1291هـ/ 13 جانفي 1875م"، وث 20 . أنظر أيضا:

Arnoulet , "les problèmes de l'enseignement…" , Op.Cit. , p. 36 .

[2]– عبد السلام، المدرسة الصادقية...، مرجع سابق، ص 20 .

[3]– نفسه، ص ص 19، 20 .

بالمدرسة بل في القاعة الكبرى من قصر الباي بحضور الوزير الأكبر "خير الدين"، الذي كان يخصص لها زيارة شخصية بعد الظهر سائر أيام الامتحان، وكامل يومي الخميس والجمعة. وكان "خير الدين" يراقب عن كثب تقدم التلامذة في مختلف العلوم والمواد وبصورة خاصة في العلوم الطبيعية والرياضية واللغات الأجنبية، وهي المواد التي يمتحن فيها التلاميذ يومي الخميس والجمعة حيث يكون الوزير متفرغ لحضور الامتحانات[1].

والجدير بالملاحظة أن امتحانات المدرسة كان يعد حدثا متميزا، وذلك من خلال الحاضرين لمشاهدتها من أولياء ورجال الدين وعلماء ومديري المدارس، وحتى البعثات الأجنبية. ويختتم موسم الامتحانات في حفل رسمي بهيج يرأسه الوزير الأكبر ويلقي فيه خطابا، بالإضافة إلى خطاب المدرسة وخطاب متفقد قسم اللغات الأجنبية، وأحيانا أستاذ آخر. وتتلى قائمة المتحصلين على الجوائز وتنشر بعد ذلك في "جريدة الرائد"[2]. وكانت الجوائز التي تمنح للتلاميذ المتفوقين قيّمة وثمينة[3].

ولبروز المدرسة في طابع نظامي متميّز، جُعل لكل التلاميذ لباسا خاصا بهم وهو، جبة مرسوم بها سنبلة وغصن زيتون بخيوط مذهبة، وشاشية تونسية[4]. وللحفاظ على المستوى والمردود الدراسي الجيّد، كان لا يقبل التلاميذ الذين لا يُبدون استعدادهم للتعليم، فمن خلال اطلاعنا على قائمة أسماء التلاميذ الذين تم طردهم، أحصينا مايلي:

جدول رقم (20): عيّنة لبعض التلاميذ الذين تم طردهم أو انقطاعهم عن الدراسة [5].

سبب طرد التلميذ/ أو انقطاعه عن الدراسة	عدد التلاميذ
لعدم قابليته	06
أخرجه وليّه	13
لمرضه المستمر	01
لكثرة التخلف	03

[1] – عبد السلام، المدرسة الصادقية...، مرجع سابق، ص 21 .

[2] – يمكن الاطلاع على قائمة الطلبة الذين تحصلوا على المرتبة الأولى في مختلف العلوم بالعودة إلى: ج . ر . ت، ع 5، 5صفر 1293هـ/ 1 مارس 1876م .

[3] – أنظر: الباب الأول، الفصل الثالث، ص 185 .

[4] – السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 179، هامش 1. أنظر أيضا: ابن الخوجة، صفحات من تاريخ...، مرجع سابق، ص 313 .

[5] – أ. و. ت، س. ت، صد 64، م 746، "قائمة فيها بيان لأسماء التلاميذ المطرودين"، وث 58 .

لعدم قابليته وسوء السيرة	11
لكبره مع عدم النجابة	01
توفي رحمه الله	01
المجموع	36

من خلال الجدول المبيّن أعلاه، اتضح لنا أن المدرسة لا تقبل التلاميذ الذين لا يُبدون استعدادا للدراسة، أو الذين يكثرون الغيابات، فالانضباط والاجتهاد واجبان على التلميذ الصادقي، ونعتقد أن هذا السير الحسن والانضباط الجيد بالمدرسة، مرده إلى الرغبة في الحفاظ على الصورة والمكانة التي تليق بمدرسة أنشئت من أجل تحديث التعليم، وإصلاح التعليم التقليدي الذي كان يتمتع فيه الطالب بقسط من الحرية في حضوره للدروس.كما لاحظنا ارتفاع نسبة التلاميذ المنقطعين عن الدراسة، فهناك آباء حرموا أبناءهم مواصلة تعليمهم بالمدرسة، فقد غادرها كما رأينا ثلاثة عشر تلميذ. وهذا راجع ربما إلى الحالة الاجتماعية الصعبة لأسر هؤلاء الطلبة، حيث يتم إرسالهم إلى العمل لكسب لقمة العيش.

كما يتضح من خلال الجدول أن كبير السن يرفض بالمدرسة، ونقصد به من تجاوز سن العاشرة، وهذا حسب ما نص عليه الفصل 34 من قانون المدرسة، "يقبل التلميذ ...إذا كان له من العمر ستة أعوام ودخل في السابع إلى تمام عشر سنين، وفي العام الأول الذي تفتح فيه المدرسة يرخص في قبوله إلى تمام خمس عشرة سنة"[1].

– الفريق التربوي وطلبة المدرسة:

أسندت إدارة المدرسة إلى "محمد العربي زروق"[2] يساعده كاهيتان أول وثاني، وهما "الأمير آلاي اسكندر" من مماليك "المشير أحمد باي"، والآلاي "أميني عمر بن بركات" مساعد الوزير"خير الدين". كما نجد عالم متميز له مكانة مهمة بالمدرسة يدعى "نونس روكة"Nonce Rocca"،

[1]– أ. و . ت، س . ت ، صد 63، م 723،"أمر علّي خاص بترتيب التعليم بالمدرسة الصادقية بتاريخ 5 ذي الحجة 1291هـ/ 13 جانفي 1875م"، وث 16 .

[2]– "محمد العربي زروق": تولى إدارة المدرسة الصادقية منذ نشأتها سنة 1291– 298هـ/ 1875 – 1881م، وفي جمادى الأخرى 1298هـ/ ماي 1881م استقال من منصبه إثر انتصاب الحماية الفرنسية على تونس بمقتضى معاهدة باردو المبرمة في 13 جمادى الأخرى 1298هـ/ 12 ماي 1881م. أنظر: ابن الخوجة، صفحات من تاريخ...، مرجع سابق، ص 312، هامش 4 .

وكان هذا الأخير يشرف على كل ما يخص تعليم اللغات الأجنبية والعلوم العقلية[1]، وكان دوره مهما بالمدرسة، إذ نجده يخطب في حفلات آخر السنة بعد المدير[2].

أما عن هيئة التدريس، فتتكون من مؤدبين يدرسون التلاميذ بقسم التعليم الابتدائي، ومدرسين زيتونيين للتدريس بقسم التعليم الثانوي، منهم ستة أحناف وأربعة مالكية. بالإضافة إلى مدرسين أجانب لتدريس اللغات الأجنبية والعلوم الدقيقة في القسم الثالث، منهم من سبق لهم التدريس بالمدرسة الحربية بباردو، بالإضافة إلى مدرسي اللغة التركية[3]. وسنقوم بتقديم قائمة عن أسماء المؤدبين والمدرسين، الذين عثرنا على أسمائهم من خلال الوثائق التي اطلعنا عليها:

جدول رقم (21): يمثل عيّنة لبعض أسماء المؤدبين والمدرسين [4] .

قسم التعليم الابتدائي – القسم الأول–	**قسم التعليم الثانوي – القسم الثاني والثالث–**		
المؤدبون	**مدرسو اللغة العربية**	**مدرسو اللغة الفرنسية والايطالية**	**مدرسو اللغة التركية**
الطيب بن إبراهيم	عثمان الشامخ	إيمون–Emon– مدرس اللغة الفرنسية	إسماعيل أفندي
محمد البوزيدي	محمد القرطبي	فيكتور سولي Victor– –Soully مدرس اللغة الفرنسية	الحاج علي رضا أفندي
علي برق الليل	محمود بيرم	فيكتور كليمان –Victor Climan– مدرس اللغة الفرنسية والإيطالية	
محمد المكادي	الصادق الشاهد		
بكار بن حسين	الحاج علي بن الحاج		
الحاج بلقاسم	الطاهر جعفر		
محمد بن عبد الله	محمد بن الخوجة		

[1]– ابن الخوجة، صفحات من تاريخ...، مرجع سابق، ص 312 .

[2]– عبد السلام، المدرسة الصادقية ...، مرجع سابق، ص19 .

[3]– ابن الخوجة، صفحات في تاريخ...، مرجع سابق، ص 312 . أنظر أيضا: عبد السلام، المدرسة الصادقية ...، مرجع سابق، ص19 .

[4]– أ. و . ت ، س. ت، صد 64، م 753. وأيضا: نفسه، صد 64، م 746. وث 57 .

صالح بن طيب	المختار الهيلة		
محمد بشير	الطاهر بن صالح		
علي الهنتاتي	علي بوشوشة		

أما عن الطلبة فحسب الإعلان الذي نشرته المدرسة بتاريخ 24 ذي الحجة 1291هـ/ 27 جانفي 1875م يُقبل فيها التلاميذ الذين يتراوح سنهم بين سبعة إلى خمسة عشر سنة، هذا في السنة الأولى، أما فيما بعد فيقبل من كان في سن السابعة إلى العشر سنوات[1]. ومجموع التلاميذ المقبولين بالمدرسة هو مائة وخمسون تلميذا، مائة من أبناء الحاضرة، وخمسون من خارجها. يقسمون إلى صنفين، الصنف الأول يقيمون في المدرسة ليلا ونهارا، عددهم خمسون تلميذا (ثلاثون من الحاضرة وعشرون من خارجها). أما الصنف الثاني فيأتون للتعليم نهارا ويعودون إلى منازلهم مساءً، عددهم مائة (سبعون من أهل الحاضرة، وثلاثون من خارجها) [2].

إذن تلاميذ الصادقية هم مزيج بين أبناء الحاضرة وخارجها، لكن انطلاقا من الوثائق المتوفرة لدينا لاحظنا أن عدد تلاميذ الحاضرة أكبر بكثير من تلاميذ الآفاق. فقد أحصت المدرسة تسجيل أربعة وتسعين تلميذا في الفترة الممتدة من محرم 1293- محرم1295هـ/1876-1878م، في حين بلغ عدد التلاميذ الآفاقيين –خارج الحاضرة- المسجلين في نفس الفترة اثنتي عشر تلميذا. وهذا ما سنوضحه في الجدول التالي:

جدول رقم (22): إحصاءات للتلاميذ المسجلين بالمدرسة من داخل وخارج العاصمة[3] .

عاصمة الإيالة	عدد التلاميذ المسجلين	تاريخ التسجيل
قرب سيدي قاسم الصبابطي	2	محرم 1293هـ/ جانفي 1876م
دريبة الجمال	1	" "
الحلفاوين	3	" "
سوق البلاط	4	" "
	1	ربيع الأول 1293هـ/ مارس 1876م
	3	محرم 1294هـ/ جانفي 1877م

[1]– إعلان المدرسة الصادقية، مصدر سابق .

[2]– نفسه .

[3]– أ. و. ت، س.ت، صد 64، م 746، "قائمة التلاميذ المسجلين للدخول إلى المدرسة الصادقية"، وث 12، 13 .

قرب بير القبة	2	" "
	4	جمادى الأولى 1293هـ/ماي 1876م
	2	شوال 1293هـ/ أكتوبر 1876م
	7	ذي الحجة 1293هـ/ ديسمبر 1876م
	4	محرم 1294هـ/ جانفي 1877م
السبخة	2	" "
الحلفاوين	15	" "
ترنجه	2	" "
قوس الحدادين	1	" "
قرب جامع القصر	4	" "
نهج باب البنات	1	" "
الحفصية	1	" "
	8	ربيع الأول 1294هـ/ مارس 1877م
الفخاخرية	2	" "
قرب حمام سي بلغيث	4	" "
	6	شوال 1294هـ/ أكتوبر 1877م
	4	ذي الحجة 1294هـ/ ديسمبر 1877م
سيدي الشامي	4	" "
	6	محرم 1295هـ/ جانفي 1878م
بطحاء رمضان باي	1	" "
المجموع	94	
خارج العاصمة	**عدد التلاميذ**	**تاريخ التسجيل**
بنزرت	1	محرم 1293هـ/ جانفي 1876م
المنستير	1	" "
	1	ربيع الأول 1294هـ/ مارس 1877م
أكودة	1	شوال 1293هـ /أكتوبر 1876م
	1	ربيع الأول 1295هـ/مارس 1878م
مساكن	4	شوال 1293هـ/ أكتوبر 1876م
	2	محرم 1294هـ/ جانفي 1877م

سوسة	1 2	" " ربيع الأول 1294هـ/ مارس 1877م
صيادة من وطن سوسة	1	محرم 1294هـ / جانفي 1877م
باجة	1	ربيع الأول 1295هـ/مارس 1878م
بنزرت	2	" "
المهدية	1	شوال 1294هـ/ أكتوبر 1877م
المجموع	19	

إذن يتضح لنا جليا من خلال الإحصائيات المقدمة أعلاه، أن عدد التلاميذ الآفاقيين أقل بكثير من تلاميذ الحاضرة، ونعتقد أن ذلك مرده إلى عزوف الأولياء ورفضهم إرسال أبنائهم إلى مثل هذه المدارس، باعتبارها منافية للشريعة الإسلامية ولا تتماشى مع أخلاق وقيم المجتمع التونسي، لأنها تقدم حسب اعتقادهم تعليما علمانيا. بينما سكان الحاضرة يرون فيها المدرسة الحديثة التي أتت بالجديد لتُكوِّن جيلا متفتحا ومتمكن في العلوم العصرية واللغات الأجنبية.

تؤكد الدراسات أن عدد تلاميذ الصادقية لم يشهد تطورا[1]، ونستشف ذلك من خلال الإحصائيات التي قدمها لنا الأستاذ "عبد السلام" حول عدد التلاميذ الذين التحقوا بالمدرسة ما بين 1292-1298هـ/1875- 1881م[2]. هذا بالرغم من تشجيع "خير الدين" ورجاله لأبناء الإيالة للالتحاق بالمدرسة، وما توفره من مناصب ووظائف إدارية عالية بعد التخرج منها[3].

– المدرسة تحقق نجاحا مشرّفا:

لقد ازدهرت المدرسة الصادقية منذ تأسيسها وأجمع على ذلك كل الملاحظين وخاصة منهم الأجانب فهذا، "د. قراسي"D.Grasset" مدير معهد الجزائر العاصمة يقول بعد زيارة أداها للمدرسة الصادقية: "لقد حضرت حصة تمارين شفوية وقمت شخصيا بإلقاء بعض الأسئلة على التلاميذ ...إني اعترف بدون مجاملة أن النتائج أحسن من نتائجنا في كثير من النواحي ...إني أقولها بكل صراحة: نتائج المعهد الصادقي رائعة..."[4]. كما يشير "حسن المتالي" في مراسلته بتاريخ غرة جمادى الثانية 1299هـ/ 19 أفريل 1882م، إلى الوزير الأكبر، يخبره فيها أن السيد "بول كمبون"Paul Cambon" وزير جمهورية فرنسا سُرَّ كثيرا من خلال الزيارة التي قام بها إلى

[1]- Abed El Moula, Op.Cit., p. 86 .

[2]– عبد السلام، المدرسة الصادقية...، مرجع سابق، ص ص 97، 98 .

[3]- Machuel, Op.Cit., p. 20 .

[4]– نقلا عن: كريم وجلاب، مرجع سابق، ص 19 .

المدرسة بالتاريخ المذكور بعد الزوال بثلاث ساعات، ومكث بها ساعتين في مشاهدة جميع أقسامها وإدارتها، وهو ينوي العودة في زيارة أخرى[1]. وبعد زيارته يقول الوزير: " قد زرت عدة مكاتب وما رأيت إلى الآن منها نتائجا تقرّ بها العين...وقد سرني أن أقيّد هنا إظهار ما حصل لي من السرور والرضى والمحبة في هذا المحل الذي هو شرف عظيم لدولة الحضرة العلية بمدينة تونس ولمعلميها..."[2].

ونظرا للمستوى التعليمي الذي كانت تتميز به المدرسة، فقد جلبت اهتمام الدول المجاورة، منها الجزائر، حيث تبيّن لنا رسالة مؤرخة في 18 صف 1299هـ/ 08 جانفي 1882م، أرسلها "حسونة المتالي" إلى الوزير الأكبر يخبره فيها أنه "كثر الطلب من أهل الجزائر لدخول أبنائهم للمدرسة"، ويذكر أيضا في المراسلة أن ذلك لن يتم إلا عن طريق القرعة، كما جرت العادة[3] .

إذن مثلت المدرسة الصادقية المعهد العصري المتفتح على المجتمعات الغربية، من خلال نشر التعليم العصري بين التونسيين وإرسالهم إلى المعاهد الأوربية[4]، للاطلاع على التطورات الحاصلة في الدول الغربية. ونتيجة لذلك ظهرت في تونس نخبة فكرية كانت تأثيراتها واضحة على الجوانب الفكرية، والاجتماعية، والسياسية[5].

– تراجع المدرسة :

تراجعت مكانة المدرسة، وذلك بعد استقالة "خير الدين" من الوزارة سنة 1294هـ/ 1877م، واستخلفه"مصطفى بن إسماعيل" الذي لم يكن يبالي بالمدرسة ولا بشؤونها وطلبتها، والأخطر من ذلك أنه امتدت يداه إلى وقف المدرسة الذي كان "خير الدين" قد أوقفه عليها، فقد استولى على أحسنها كهنشير قعفور الذي شمل 40 ألف هكتار، بالإضافة إلى ضيعات كبيرة بالوطن القبلي وأراضي وزياتين ومباني بقرنبالية[6]. كما يذكر "ماشويل"Machuel"، الطريقة التي تمت بها نهب أوقاف وأملاك المدرسة، وكيفية التلاعب بأملاكها عن طريق اللجوء إلى "المعاوضة"

---

[1]– أ. و . ت ، س. ت ، صد 64، م 746، مصدر سابق، وث 41 .

[2]– نفسه، "ترجمة شهادة الوزير "كمبون" Cambon"خلال زيارته إلى المدرسة الصادقية"، وث 29.

[3]– أ. و . ت ، س. ت ، صد 64، م 746، مصدر سابق، وث 37 .

[4]–Arnoulet, "les problèmes de l'enseignement…", Op.Cit., p. 34 .

[5]– بوطيبي، مرجع سابق، ص 180 .

[6]– ابن الخوجة، صفحات من تاريخ...، مرجع سابق، ص 317 . أنظر أيضا: عبد السلام، المدرسة الصادقية ...، مرجع سابق، ص23 .

و"الإنزال" للتحايل[1]. وقد ظفرنا بعدد كبير من الوثائق التي تتضمن أملاك أوقاف المدرسة التي تم إنزالها وأسماء المستنزلين لهم، وهم في غالب الأحيان فرنسيين[2].

إن التحايل والعبث بأوقاف المدرسة أدى إلى عسر حالتها المادية، وهذا ما تؤكده لنا المراسلات التي اطلعنا عليها والمتعلقة بسنة 1297- 1298هـ/1880-1881م، من مدير المدرسة "حسن المتالي" إلى الوزير الأكبر، تؤكد كلها على صعوبة الأوضاع المادية التي أضحت عليها المدرسة وعدم وجود مال للصرف، وأن المدرسة أصبحت عليها ديون ولا يمكن أن تلبي حاجيات المدرسة، من مرتبات المدرسين، ونفقات التلاميذ...[3] وفي مراسلة مؤرخة في جمادى الثانية 1299هـ/أفريل 1882م، يخبره بالأوضاع الصعبة التي تعيشها المدرسة وأن "أحوالها كادت أن تتوقف"[4].

وبعد سقوط تونس في يد الاحتلال الفرنسي، فرضت هذه الأخيرة سلطتها المباشرة على المدرسة، وكان ذلك بعد استقالة مديرها "العربي زروق" الذي هاجر البلاد نهائيا احتجاجا على الاحتلال الفرنسي. فقام "بول كمبون"Paul Cambon" بإصدار أمر بتاريخ 26 شوال 1299هـ/ 9 سبتمبر 1882م، يعهد بإدارة المدرسة إلى مدير تونسي وهو "حسن المتالي" ووكيل أوقاف من أصل جزائري هو "حسن بن أحمد" تحت إشراف مجلس إداري يتشكل من أعضاء تونسيين وفرنسيين بالتساوي، وكان أول قرار اتخذه هذا المجلس"اعتبار اللغة الفرنسية أساس التعليم بالمدرسة"[5] .

3.2.2.تأسيس المكتبة العبدلية[6] :

قام الوزير "خير الدين" بإنشاء المكتبة الصادقية – نسبة إلى محمد الصادق باي – محل المكتبة العبدلية، بأمر من الباي في 12 ربيع الثاني 1292 هـ / 17 ماي 1875 م، ويحتوي

---

[1]- Machuel, Op.Cit., p p. 20, 21 .

[2]- أ. و . ت، س. ت ، صد 64، م 749، "مراسلات صادرة من وكيل أوقاف المدرسة الصادقية إلى الوزير الأكبر متعلقة بأحباس المدرسة".

[3]- نفسه، وث 36 .

[4]- نفسه، وث 66 .

[5]- خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة (1900-1956م)، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 651 .

[6]- تنتسب إلى مؤسسها "أبي عبد الله محمد الحفصي"، تتواجد بإحدى أروقة جامع الزيتونة وبالضبط بالزاوية الشمالية للجامع. أنظر: حسن حسني عبد الوهاب، "جامع الزيتونة يؤدي رسالة الدين الإسلامي منذ 1243 عاما "، م . ز، مج 3، ج 2، ذي الحجة 1357هـ/ فيفري 1939م، ص 74. أنظر أيضا: ابن مامي، مدارس مدينة تونس... ، مرجع سابق، ص 86 ، هامش 682 .

على ستة عشر فصلا، تتضمن طريقة تنظيم الكتب والنظام الذي يجب أن تسير عليه المكتبة[1].

بدأت الإسهامات في تعمير المكتبة، فانطلقت المبادرة من طرف المشير "محمد الصادق باي" الذي عمل على تزويد المكتبة بما يزيد على الثلاثة آلاف مجلد من نفائس الكتب[2].

كما ساهم "الوزير خير الدين" في إثراء هذه المكتبة بإضافة ألف مجلد من خزانة كتبه الخاصة، منها كتب البيارمة. كما طلب من وكيله بإستانبول "عمر أرواي"، اقتناء ست نسخ من كتاب صحيح البخاي المنشور ببيروت ،وعناوين أخرى من إرث مكتبة "حسين خوجة" أو من مكتبة "أحمد عزب باشا"[3]. كما قام بجمع الكتب الموجودة بمكتبات المساجد والأضرحة والمدارس بعاصمة الإيالة وخارجها[4]، وضمها إلى المكتبة. يذكر "السنوسي" في هذا السياق أن كتب المكتبة "تحتوي على عشرين فنا من خط اليد الجميل، وليس فيها من الكتب المطبوعة أو الرديئة الخط إلا ما ندر. وقد عمّ بها النفع للغرباء والمحتاجين بالمطالعة والنسخ اليومي فيها."[5]

قام الوزير بوضع قانون خاص بالمكتبة، من شروطه الانتفاع بكتب المكتبة مطالعة واستنساخا دون إخراجها من المكتبة، وهي طريقة معمول بها في المكتبات العمومية بأوربا[6]، مع مراعاة بعض الخصوصيات المحلية مثل ربط توقيت عمل المكتبة بالصلوات[7]. وفي شأن تنظيم المكتبة العبدلية يقول "محمد بيرم الخامس" وهو أحد رجال الإصلاح المناصرين "لخير الدين": "...منها ما أنشأته بأمر من إحداث المكتبة الصادقية حول جامع الزيتونة وجعل لها ترتيب لم يسبق في البلاد على نحو التراتيب الجارية في الأستانة والممالك المتمدنة بحيث لا يخرج الكتاب من المحل ويستنفع المريد بما شاء من الكتب وأنواع الاستنفاع مع تحسين هيئة المكان وإحضار فرشه والمحابر والأقلام وساعة للإعلام بالوقت والرسم بأن كل الأوامر الرسمية العامة العمل يحفظ منها بتلك المكتبة نسختان لكل من أراد مراجعة ذلك وانتظام وضع الكتب وترتيبها على نسق يسهل

---

[1]– يمكن الإطلاع على نص الأمر بالعودة إلى: أ. و. ت، س. ت، صد 63، م 726، "أمر علّي صادر عن محمد الصادق باي متعلق بتنظيم مكتبة جامع الزيتونة"، وث 2 .

[2]– مخلوف، مصدر سابق، ج2 ، ص 177 .

[3]– التميمي، "تاريخ المهمات والتبادل الثقافي..."، مرجع سابق، ص 92 .

[4]– ابن الخوجة، "كيف نشأت خزائن الكتب ...."، مرجع سابق، ص 138 .

[5]– السنوسي، مصدر سابق، ج1، مرجع سابق، ص 181 .

[6] – ابن الخوجة ،"كيف نشأت خزائن الكتب ...."، مرجع سابق، ص 138 .

[7]– المقدم بن عبا، مرجع سابق، ص 40 .

الاستنفاع بها ومناولتها"[1].

إن الأمر العلّي الصادر في شأن إحداث المكتبة العبدلية جاء بالعديد من الخصوصيات والإيجابيات التي لم تعرفها المكتبات من قبل، يمكننا أن نلخصها في النقاط التالية[2]:

– يشكل بداية قطيعة مع كل التنظيمات المكتبية السابقة بالبلاد التونسية. فهذه المكتبة موجودة خارج قاعة الصلاة، كما أن قانون تسييرها يعدّ أكثر صرامة من كل التراتيب التي خضعت لها مكتبات الإيالة سابقا .

– رفض الإعارة الخارجية للكتب مهما كان السبب.

– إن ناظر القيّمَيْن المكلفيْن بالمكتبة مطالب بالبقاء عند مدخل المكتبة لمراقبة مرتادي المكتبة عند الدخول والخروج. وكذلك منع القراء من تناول الكتب بمفردهم وطلب منهم الاتصال بالقيّمَيْن للحصول عليها [3].

– القيّمَيْن على المكتبة مطالبين بمناولة القراء ما يطلبونه من الكتب بدون أية مماطلة، ولو تكرر منهم ذلك في الوقت الواحد مرارا .

– وفرت المكتبة العبدلية الكثير من الرفاهية واليسر للقراء الذين ازداد عددهم خاصة بعد ارتفاع عدد المتعلمين الناتج عن تأسيس المدرسة الصادقية، فالمكتبة تكاد تكون مفتوحة كامل اليوم. وقد ورد ذلك في الفصل الرابع من الأمر، نصه: "المكتبة تفتح بعد صلاة الصبح بنصف ساعة وتستمر مفتوحة إلى صلاة العشاء. وفي زمن المصيف تغلق عند الزوال إلى صلاة الظهر بالجامع وذلك من أوائل يونيو إلى موفى اشتنبر".

– توفر المكتبة للقراء المحابر والأقلام .

وما يجدر الإشارة إليه أن الجديد الذي جاء به أمر إنشاء المكتبة العبدلية، هو منع إخراج الكتب حماية لها من الضياع. ومن الواضح أن الوزير "خير الدين" استفاد من تجارب من سبقوه في الميدان، إذ ضاعت الكثير من الكتب نتيجة التسيّب وغياب الصرامة[4]، ويمكننا أن نستحضر مثال

[1]– بيرم الخامس، مصدر سابق، ص 67 .

[2]– أ. و. ت، س. ت، صد 63، م 726، " أمر علّي صادر عن محمد الصادق باي متعلق بتنظيم مكتبة جامع الزيتونة"، وث 2 . أنظر أيضا: المقدم بن عبا، مرجع سابق، ص ص 41، 42 .

[3]– نفسه، ص 41 .

[4]– نفسه، ص 42 .

المكتبة الأحمدية التي ضاع منها عدد كبير من الكتب، والسبب في الترتيب الذي وضعه المشير "أحمد باي" الذي ينص على إعارة الكتاب لمدة تصل إلى سنة، وهناك من لا يعيدها إلى المكتبة بعد الإعارة الخارجية[1] .

والظاهر جليا من خلال القانون الخاص بالمكتبة العبدلية، تأثر الوزير "خير الدين" وإعجابه الكبير بالمكتبات الأوربية، منها المكتبة الوطنية في باريس التي زارها مع "المشير أحمد باي"، فأبهرته خزائنها الغزيرة بالكتب وحسن تنظيمها، وقد وصفها المؤرخ "أحمد بن أبي الضياف" الذي رافقهم في هذه الرحلة[2].

إذن أراد الوزير أن يكون للمكتبة نظام جديد لم تعهده المكتبات من قبل، فكل التسهيلات متوفرة لقراء المكتبة من مطالعة داخلية ونسخ للكتب، وهذا كله عاد بالنفع على طلبة العلم، ويعبّر صاحب الشجرة عن ذلك في قوله : "...وحصل بذلك نفع عظيم للطلبة لا سيما الغرباء"[3]. وبالتالي يمكننا القول أن المكتبة ساهمت على نشر المعرفة، وشجعت مُحبي العلم على المطالعة فوجدوا بذلك متنفسا لأفكارهم وتوسيع معارفهم .

4.2.2.تشجيع الصحافة والطباعة[4] :

حتى يتمكن "خير الدين" من نشر أفكاره الإصلاحية وتشجيع مشروعه النهضوي، كان لِزاما عليه الاهتمام بالصحافة المكتوبة لتكون منبرا تعرض منه أفكاره ومشاريعه. وتعتبر جريدة "الرائد التونسي" الصحيفة الرسمية الوحيدة بالإيالة، بدأت إصداراتها منذ سنة 1277هـ/ 1860م، لكن بصفة غير منتظمة[5]. وكانت مقتصرة على نشر قرارات الحكومة وبعض الأخبار

---

[1]– تطرقنا إلى ذلك سابقا، أنظر في فصلنا هذا، ص 256 .

[2]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج4، ص ص 106، 107 . نشير هنا أن الوزير "خير الدين" أيضا تطرق إليها في كتابه "أقوم المسالك..." أنظر: مصدر سابق، ص ص 112، 113 .

[3]– مخلوف، مصدر سابق، ج2، ص 177 .

[4]– يعتبر المشير "محمد باي" (1271– 1276هـ/ 1855– 1859م) أول من أصدر الإذن بتأسيس مطبعة للصحف والكتب [4] فأمر بجلب مطبعة حجرية من باريس، ثم رأى أنه لا بد من التوسع في المشروع فقام بجلب الأحرف المعدنية مع الأجهزة التابعة لها من دار الطباعة في باريس، إلا أنه لم يحقق مشروعه لأن أجله كان أسرع حيث وافته المنية[4]. ليكمل مشروعه المشير " محمد الصادق باي" الذي ابتدأ عهد ولايته بتأسيس المطبعة الرسمية وجريدة "الرائد التونسي"[4]. أعطى امتيازها لأحد التجار الأجانب، ولكنه خصّ قسما منها بنشر الأمور الرسمية وجعلها لنظر رئيس المجلس الشعبي البلدي، أما رئاسة التحرير فأسندها للأستاذ "محمود قابادو". ثم بعد صدور بعض الأعداد من الجريدة أصبحت المطبعة الرسمية بما اشتملت عليه من الأجهزة والأحرف المعدنية من حقوق الدولة التونسية[4]. أنظر: مخلوف، مصدر سابق، ج 2، ص 175. أنظر أيضا: محمد بن الخوجة، " متى كان ظهور الطباعة بالأحرف العربية في تونس"، م. ز، مج 4، ج5، محرم 1360هـ/ فيفري 1941م، ص ص 144، 145.

[5]– قرين، مرجع سابق، ص 152 .

والمقالات المنقولة. فسعى "خير الدين" إلى إصلاح إدارتها والتشجيع على نشر مقالات في مواضيع متنوعة، فأصبحت الجريدة تصدر بشكل منتظم وفي مواعيدها[1].

عهد بالإشراف عليها إلى "محمد بيرم الخامس"(ت1307هـ /1889م) ، وتولى إدارتها صحفي سوري "منصور كرليتي"[2]. أما رئاسة تحريرها فأسندت إلى العالم المصري "حمزة فتح الله"، وبعد عودة هذا الأخير إلى مصر، تولى رئاسة تحرير الجريدة إلى الشيخ "محمد السنوسي"(ت 1318هـ/1900م) ثم الحاج "حسن لازغلي"[3](ت 1319-1901م). أما مقالات الجريدة، فكانت تصدر بأقلام أعلام ذلك الوقت، منهم "سالم بوحاجب"(ت 1343هـ/1924م)، و"الجنرال حسين"(ت 1304هـ/ 1887م)، و"محمد بيرم الخامس"[4] .

إذن أصبحت الجريدة منذ ذلك الوقت تنشر مقالات محررة باللغة العربية أو مترجمة من الصحف الأوربية، ودراسات قيّمة في التاريخ، والجغرافيا، والأدب[5]، وغيرها من المقالات التي تعمل على تنوير وإصلاح شؤون الأمة[6]. وكانت تلك المقالات تصدر عن أفكار "خير الدين" وربما كان منها ما هو بتحريره أو بمشاركته. أو حتى تلك التي تروّج لأفكاره، مثل مقالات المصلح المصري "رافع الطهطاوي"[7].

ولم تكن جهود الطباعة مقتصرة فقط على طبع جريدة الرائد، بل أصبحت تطبع الكتب أيضا من أجل دفع عجلة النهضة الثقافية. فقد طُبع في الفترة الممتدة ما بين (1290-1294هـ/1873-1877م) أربعة وعشرون كتابا، من بينها مؤلفات مدرسية في مواد عصرية

---

[1]- الغزي، مرجع سابق، ص 33 .

[2]- أصدر قبل ذلك بباريس صحيفة عربية باسم "عطارد"، لكنها لم تعمر كثيرا . تعرف على الوزير خير الدين وكبار رجال تونس ودارت بينهم محاورات ، فكانت لهذه الصلة الأثر في انتخابه لإدارة جريدة الرائد . أنظر: محمد الحبيب، "تاريخ الصحافة التونسية "، م . ز ، مج 6 ، ع 1 ، رجب 1364هـ/ 1951م ، ص 351 .

[3]- "حسن لازغلي": أصيل مدينة عنابة، نزيل تونس، ينحدر من أصول تركية. عالم في الرياضيات والفلك، صاحب مؤلف "النزهة الخيرية"، التي تحتوي على مقابلة الشهور القريقورية واليوليوسية والعربية والعبرية، وساعات طلوع وغروب الشمس، وخطوط الطول المحسوبة... وكان "خير الدين" من بين المشجعين والمهتمين بمضمون هذا التقويم. وفي جمادى الأخرى 1255هـ/ أوت 1839م بدأ في نشر طبعة له بالفرنسية بعنوان "دليل سنوي" "Annuaire Tunisien" . لتفاصيل أكثر أنظر: محفوظ، مرجع سابق، ج3، ص ص 195، 196 .

[4]- الحبيب، مرجع سابق، ص 351 .

[5]- الساحلي، مرجع سابق، ص 83 .

[6]- بيرم الخامس، مصدر سابق، ص 73 .

[7]- قرين، مرجع سابق، ص 152 .

لتلاميذ الصادقية[1]، ومصنفات[2] علماء ذلك العصر نذكر منها:

– قطعة بها صفحات مما نشر بالرائد التونسي من كتاب الحلل السندسية في الأخبار التونسية، للوزير السراج (ت 1149هـ/ 1736م) .

– مولد خير الأنام، لإبراهيم الرياحي (ت 1266هـ/ 1849م) .

– جريدة عقد الآل في التوسل للنبي بالآل، للشيخ محمود قابادو (ت 1288هـ/ 1871م) .

– الخلاصة النقية في أمراء افريقية، لمحمد الباجي المسعودي (ت 1298هـ/ 1880م) .

– كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، للوزير خير الدين التونسي(ت 1307هـ/1889م) .

وبهذا تكون الطباعة والصحافة قد لعبتا دورا كبيرا في تجديد الثقافة بالإيالة، والأهم هو تبليغ رسالة المصلحين إلى الرأي العام[3].

3. مصير الإصلاحات التعليمية:

استمرت إصلاحات المشير "أحمد باي" التعليمية وهي تؤتي ثمارها طيلة فترة حكمه وحكم ابن عمه من بعده المشير "مَحمد باشا باي"، غير أنها لم تستطع أن تتطور وتستمر مع الوقت كما أراد لها مؤسسها "أحمد باي". وذلك بسبب ما نتج عنها من فراغ في الخزينة، ولعدم رغبة من جاء من الحكام من بعده المواصلة في تلك الإصلاحات. فكان "مَحمد باي" قليل الثقافة وليس له اهتمام بشؤونها، كما أن فترة حكمه لم تدم طويلا. ثم جاء من بعده "محمد الصادق باي" الذي لم يلبث أن أطلق العنان لشهواته، ومنح السلطات الهامة في البلاد لوزيره "مصطفى خزندار". هذا مع استمرار تفاقم الوضع الاقتصادي نتيجة لتبذير المال العام. الأمر الذي أدى إلى اللجوء للقروض الداخلية والخارجية والتي لم تغن شيئا هي الأخرى[4] .

إذن كل الظروف توحي بأن الإصلاحات ستتعثر ولن تجد الأرضية الصالحة لاستمرارها، بل يمكن القول أن بعضها لن يعمر طويلا كما أراد لها منشئها. فبدأت تنهار شيئا فشيئا، فأغلقت المدرسة الحربية أبوابها – كما سلفنا الذكر– [5]. كما أن إصلاحات التعليم الزيتوني لم تنجح هي

---

[1]– قرين، مرجع سابق،، ص ص 152، 153 .

[2]– لتفاصيل أكثر أنظر: ابن الخوجة، "متى كان ظهور الطباعة ..."، مرجع سابق، ص ص 146 – 150 .

[3]– المقدم بن عبا، مرجع سابق، ص ص 32، 33 .

[4]– بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر...، مرجع سابق، ص 101 . أنظر أيضا في دراستنا، الباب الثاني، الفصل الأول، ص 192 .

[5]– أنظر في فصلنا هذا، ص 250 .

الأخرى بسبب تقاعس المدرسين وكثرة غياباتهم،[1] وعدم التزامهم بما جاء في المعلقة. ففي رسالة موجهة من شيخ الإسلام "محمد بن الخوجة" إلى الوزير الأكبر "مصطفى خزندار"، مؤرخة في 17 جمادى الأولى 1278هـ/ 19 نوفمبر 1861م تتضمن إخبار الوزير بتفاقم الغيابات في أوساط المدرسين لانشغال بعضهم بخدمة المجالس، خاصة بعد صدور قانون عهد الأمان، ويطلب منه إذنا في الإجراءات المتخذة[2].

ومن بين الأسباب التي أدت إلى فشل الإصلاحات الأحمدية، المحاباة الواقعة في توزيع المرتبات بين الشيوخ المدرسين المالكيين والحنفيين، حيث نجد ضمن الوثائق المتوفرة لدينا شكاوى محررة من طرف بعض علماء جامع الزيتونة المالكيين، نذكر منها على سبيل المثال، تلك التي بعث بها "محمد النيفر" إلى الوزير الأكبر "مصطفى خزندار" يخبره فيها أن فئة من المدرسين استفادت من إعانة الباي والمقدرة بخمس ريالات في اليوم، ويطالبه أن يحظى هو الآخر بالمثل. ونعتقد أن الفئة المقصودة هم المدرسين الحنفية، لأن "محمد النيفر" مالكي، وهذا ما يؤكد وجود محاباة وعدم مساواة بين الفئتين[3]. وهذا ما تؤكده المراسلة المذيلة من طرف عدد من المدرسين منهم، "محمد بيرم"، و"محمد الأمين بن الخوجة"، و"سالم بوحاجب"، و"حسن عباس"وغيرهم، مؤرخة في 15 رجب 1286هـ/ 20 أكتوبر 1869م، يشتكون فيها إلى الوزير الأكبر "مصطفى خزندار"، اختلال نظام بيت المال بسبب زيادة المصاريف المحددة بالمعلقة، كما تمت الإشارة في الشكوى إلى المحاباة وغياب المساواة في توزيع المرتبات بين الشيوخ المدرسين المالكيين والحنفيين، مما جعل الهدف[4] الذي سطره المشير "أحمد باي" لا يتحقق لذلك يطالبون الوزير تدارك الأوضاع لإنقـــاذ المشروع الإصلاحي الأحمدي[5] .

---

[1]– بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر...، مرجع سابق، ص 103.

[2]– أ. و . ت، س.ت، صد 63، م 727، " مراسلات صادرة من المشايخ النظار بجامع الزيتونة متعلقة بالدروس والمدرسين"، وث07.
أنظر: الملحق رقم 20، ص 368 .

[3]– أ. و . ت، صد 63، م 732، رسالة بتاريخ 21 محرم 1279هـ/ 18 جويلية 1862م، وث 07 .

[4]– ويتمثل في التسوية في المرتبات بين الشيوخ المدرسين بجامع الزيتونة المالكيين والحنفيين، تم التطرق إلى ذلك سابقا. أنظر في فصلنا هذا، ص ص 251، 252 .

[5]– أ. و . ت، صد 63، م 732، "مراسلات صادرة من المشايخ المدرسين بجامع الزيتونة إلى الوزير الأكبر تعلقت أغلبها بطلب ترقيات من طبقة الى طبقة وبإعانات مالية"، وث 36 .

وما يجب لفت الانتباه إليه هنا، أن سبب فشل الإصلاحات الأحمدية يعود أيضا إلى تهميش دعاة الإصلاح وإبعادهم عن مجال العمل في الدولة في هذه الفترة، أمثال المصلح "خير الدين"، وأنصاره ولم يتسن لهم العمل وطرح أفكارهم الإصلاحية إلا في فترة لاحقة، وذلك بعد إزاحة "مصطفى خزندار" من الوزارة، وإدخال إصلاحات في ميدان التعليم [1].

أما عن الإصلاحات الصادقية، التي كانت بإشراف "خير الدين"، فإن الدراسات تجمع على نجاحها لكن بدرجات متفاوتة، وبما أنه كان من المستحيل التوصل إلى التوفيق بين مطامع الأوربيين ومخاوف المسلمين المحافظين، فقد كانت النتائج ضعيفة ولم يتسن لإيالة تونس النهوض بالإصلاحات، وتفادي الوقوع في الاحتلال الفرنسي. إلا أن الأفكار الإصلاحية، وبعض المؤسسات مثل المدرسة الصادقية استمرت مؤثرة بعمق في البلاد[2]. فقد أخرجت جيلا متشبعا بالثقافة العلمانية، خاصة البعثات الطلابية التي أرسلت إلى الخارج. فكان الجيل المتخرج من المدرسة مزدوج الثقافة، يمزج بين العروبة والإسلام، ويحمل الثقافة الغربية المتفتحة، وبالتالي ظهور جيل مزج بين الأصالة الإسلامية والحداثة الغربية[3].

ونعتقد أن النجاح النسبي للإصلاحات التعليمية، يعود إلى ذكاء "خير الدين" في معاملته مع فئة العلماء، فقد حاول كسب هذه الفئة، من خلال بعث مؤسسات موازية للمؤسسات الدينية، وأضفى على المؤسسات المستحدثة صبغة دينية، وهذا ما لمسناه في مشروع المدرسة الصادقية من خلال تعيين إمام بالمدرسة وتخصيص وقت للصلاة. كما شجع طبع العديد من مؤلفات العلماء، وأشرك هذه الفئة في إصلاحاته، وبالتالي يمكننا القول أن "خير الدين" كان حذرا وتفادى المجازفة بتعريض مشاريعه للفشل[4].

والظاهر أن "خير الدين" كان على دراية كبيرة بالعلاقة التي جمعت العلماء برجال الدولة، وقد أشار إلى ذلك في كتابة "أقوم المسالك"، قائلا: "رجال السياسة يدركون المصالح ومناشئ الضرر، والعلماء يطبقون العمل بمقتضاها على أصول الشريعة ... فعلى رجال الشرع أن يتخذوا الطريق الوسط، فلا يعتزلون بأنفسهم عن أصحاب السياسة، فتضيع عن أنظارهم المصالح، ولا

[1]– بنبلغيث، سياسة الوزير الأكبر...، مرجع سابق، ص ص 103، 108.
[2]– قرين، مرجع سابق، ص ص 154، 155 .
[3]– بوطيبي، مرجع سابق، ص 172 .
[4]– قرين، مرجع سابق، ص 155 .

ينخرطون في خدمة أهواء السياسة، فتضيع عن أنظارهم المصالح، ولا ينخرطون في خدمة أهواء السياسة وأغراضها "[1].

إذن استطاعت الإصلاحات الصادقية أن تستمر إلى غاية سنة 1295هـ/ 1878م أي بعد استقالة "خير الدين" وهجرته إلى إستانبول. وقد حاول أتباعه أمثال "محمد بيرم الخامس"و"مصطفى رضوان" مواصلة المشروع الإصلاحي. إلا أن تعرضهم للمضايقات والدسائس من طرف الشق الرافض للإصلاح، دفعتهم للهجرة وترك البلاد. فبعد الاحتلال الفرنسي لتونس سنة 1298هـ/1881م كان أغلب أتباع "خير الدين" قد غادروا البلاد، فوصلت بذلك الحركة الإصلاحية التونسية إلى نهايتها[2].

ومما تقدم ذكره يمكننا الوصول إلى جملة من الاستنتاجات أهمها:

إن محاولات الإصلاح التي جاء بها المشير "أحمد باي" ومن بعده المشير "محمد الصادق باي" على يد وزير "خير الدين" في عمومها لم تأت بالجديد، فالإصلاحات لم تكن جذرية، حيث اهتمت بالشكل وأهملت الجوهر، خاصة فيما يتعلق بالتعليم الزيتوني. "فالصادق باي" لم يقدم جديدا من خلال أوامره العلّية، إذ وجدناها في مجملها تتمة لما بدأه المشير "أحمد باي". باستثناء الأمر العلّي المتعلق بإعفاء الطلبة من المجبى والخدمة العسكرية .

قدمت المدرسة الحربية بباردو ثم المدرسة الصادقية فيما بعد، مثالا للمدارس العصرية الحديثة التي تقدم تعليما علمانيا، لذلك وجدنا احتشاما في الالتحاق بهذه المدارس، خاصة الصادقية التي رفضت من طرف أعيان وعلماء الإيالة.

إن المتتبع للبرنامج التعليمي الزيتوني والصادقي، يجد أن هناك تنسيق بينهما، فقد كان بإمكان الطالب الصادقي مواصلة دراسته في الزيتونة، لكن لا يحدث العكس .

يعتبر تأسيس المدرسة الصادقية نقطة تحول في النظام التعليمي الحديث، حيث تم إخراج التعليم من المسجد. فبعدما كانت المدرسة تابعة للمسجد أو الجامع، أصبح المسجد تابع للمدرسة.

استطاعت الإصلاحات تنظيم وترتيب التعليم الزيتوني عن طريق ضبط جميع تفاصيل الدراسة فيه بقوانين وضوابط، وحاولت من خلالها تعويد المدرسين والطلبة على الانضباط والنظام.

---

[1]– التونسي، مصدر سابق، ص 65 .

[2]– قرين، مرجع سابق، ص 164

اهتمت النخبة الصادقية بنشر العلوم الحديثة موازية للعلوم الدينية التي كانت تدرس في جامع الزيتونة، مما أدى إلى منافسة هذا الأخير الذي كان شيوخه محافظين ومعارضين للأفكار الحديثة باعتبارها منافية للشريعة الإسلامية ولا تتماشى مع أخلاق وقيم المجتمع التونسي .

لم تستمر الإصلاحات الأحمدية والصادقية، بالشكل الذي أراده لها مؤسسوها فالتداعيات الداخلية والخارجية، حالت دون تحقيق الهدف المنشود. لتنطفئ شمعتها نهائيا بعد سقوط الإيالة التونسية في براثين الاحتلال الفرنسي .

الفصل الثالث:

مصادر تمويل التعليم ونفقاته

1.مصادر تمويل التعليم

1.1. الأوقاف

1.1.1.أوقاف الكتاتيب

2.1.1.أوقاف المدارس

3.1.1.أوقاف الجوامع والمساجد

4.1.1.أوقاف الزوايا

5.1.1.أوقاف المكتبات

2.1. الإحسانات والصدقات

1.2.1.الكتاتيب

2.2.1.المدارس

3.2.1. الزوايا

2.النفقات

1.2. الأجور والمرتبات

2.2. منحة الطلب

3.نفقات أخرى

بيّنت الكثير من الدراسات أن الأوقاف التعليمية، هي أحد مصادر تمويل التعليم في البلاد التونسية خلال الفترة الحديثة[1]، ومنهم من أرجع ذلك إلى تقليد يعود إلى الفترة الحفصية، وتواصل بأكثر كثافة خلال الفترة الحديثة[2]. وهذا دليل على أهمية الأوقاف واعتبار مداخليها من أعظم وسائل الإنفاق على العديد من المؤسسات التعليمية، سواء كان ذلك من حيث تعهدها وصيانتها، أو خلاص مرتبات القائمين عليها (مدرسين، أئمة، وقادة..)[3].

لكن السؤال المطروح، هل الأوقاف هي المصدر الوحيد لتمويل المؤسسات التعليمية؟ وإذا كان الأمر غير ذلك، فما هي مصادر التمويل الأخرى؟

1.مصادر تمويل التعليم :

1.1. الأوقاف:

تعدّ الأوقاف – الحبوس – أهم مصدر للدخل المضمون التي ساهمت في تواصل واستمرارية العديد من المؤسسات التعليمية، وبالتالي فقد ساهمت في ازدهار الحياة الثقافية بالبلاد. ومهما كان نوعها سواء أحباس خاصة أي يقع التمتع بها بعد انقراض المحبسين ونسلهم، أو أحباس خيرية – عامة– فإنها تعود بالمنفعة المباشرة للمحَبَّس عليه .

ظلت الأوقاف تغطي لفترة طويلة من الزمن جميع مصاريف المؤسسات التعليمية، فالعائدات الشهرية والفصلية والسنوية للأوقاف شكلت مصدرا مهما من الثروة. فهي مصدر العيش للزوايا والأضرحة وغيرها من المؤسسات الدينية، كما أنها مصدر الحياة والنمو للمساجد والمدارس والكتاتيب، ومعيشة العلماء والطلبة[4].

ويعتبر الحكام في مقدمة الذين حبسوا لصالح المؤسسات التعليمية، وهذا ما يؤكده الرحالة الجزائري "الورثيلاني" حيث يذكر أن حكام تونس اهتموا بالعلم، ويظهر ذلك في الأوقاف المخصصة له[5]. ويذكر في هذا السياق "ابن مامي" نقلا عن المؤرخ "حمودة بن عبد العزيز" أنه

---

[1]– من بين الدراسات نذكر على سبيل المثال: بنبلغيث، فصول في تاريخ الأوقاف ...، ص 101 . أنظر أيضا: الماجري، مرجع سابق، ص 191.

[2]– نفسه، ص 191 .

[3]– المعموري، وثيقة عن تحابيس...، مرجع سابق، ص 245 .

[4]– سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 227 .

[5]– الورثيلاني، مصدر سابق، ص 763 .

"قد أكثر مولانا – علي باي- من الجرايات والأوقاف لأهل العلم بحضرته فكثر طالب فيها ومعلمه، وارتحل إليها الناس في طلبه من الآفاق، ونفقت بها أسواقه"[1]. وإلى جانب الحكام وكبار رجال الدولة، شاركت الطبقة المتوسطة من عامة الناس بالإسهام في تمويل التعليم عبر الأوقاف، وهذا ما سنؤكده من خلال النماذج التي سيتم التطرق إليها في دراستنا.

1.1.1.أوقاف الكتاتيب:

حظيت الكتاتيب بنصيب وافر من الأوقاف، يقل أو يكثر من جهة لأخرى تبعا لأهمية الحبس[2]. وتُثبت الوثائق عددا هاما من الكتاتيب التي أوقف لصالحها العديد من العقارات والرباعات[3]، لضمان استمراريتها وديمومة نشاطها[4]. وهذا ما يبينه الجدول التالي:

جدول رقم (23): يمثل أوقاف الكتاتيب لسنة 1169هـ/ 1756م- مدينة تونس أنموذجا- [5]

الكتّاب	طبيعة أحباسه	مداخيله
كتّاب بوسنينة بالقنيطرة	حانوت ومخزن	12 ريال في السنة
كتّاب بدرب العسال	حانوت خضار وحانوت عطار وثلث وموضع زيتون في شركة جامع بوسنينة	21 ريال في السنة
كتّاب بالحفير	حانوت تحته	3 ريال في السنة
كتّاب سيدي بلحسن بالحفاوين	حانوت بالصبابطية تجاه دريبة فرشيش	-
كتّاب المؤدب عبيد بالطواحن	أرض بالبطوم بها جرايد زيتون	-
كتّاب حمام الرميمي	حانوتان جواره	10 ريال في السنة
كتّاب القمرتي	حانوت جحاك بحمام الزميمي	9 ريال في السنة
كتّاب البيطار بالحلفاوين	حبس علي باي حانوت ومخزن	-

[1]- ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 43 .

[2]- بنبلغيث، فصول في تاريخ الأوقاف ...، مرجع سابق، ص 104.

[3]- ربع، ج رباع أو أربع، تعني الأملاك الثابتة وغير المنقولة المرتبطة بالبناء، مثل: المنازل والحوانيت والحمامات. وفي الوثائق الأرشيفية يذكر هذا المصطلح للتمييز بينها وبين العقارات الثابتة الفلاحية، من أراضي وضيعات ومزارع... أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 150، هامش 1.

[4]- قاسم، مرجع سابق، ص 144 . ويمكن العودة إلى عدد لا بأس به من الوقفيات التي تعود إلى الفترة ما بين (1127هـ - 1227هـ / 1715- 1812م) كلها تبين الأوقاف المخصصة لصالح الكتاتيب . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 155- 315 .

[5]- الماجري، مرجع سابق، ص ص 200- 202 .

كتّاب سيدي البلاغ	زوج حوانت	13 ريال ونصف
كتّاب جوار الشيخ سيدي محرز	حانوت مع ستة نواصر من حبس جامع محمد باي في كل يوم	10 ريال و 3/4 و11 ناصري
كتّاب حوانيت عاشور قرب المدرسة	–	نصف ريال كمرتب يومي للمؤدب
كتّاب بالفخاخرية بناه الشيخ سيدي أحمد الباهي	حانوت	–
كتّاب حومة شريطة	مخزن	9 ريال
كتّاب تجاه سيدي بومنجل	حانوت يعمرها الإمام	–
كتّاب جوار دار شلبي	ثلث موضع زيتون في شركة الجامع تجاهه	–
كتّاب بباب البنات	مخزن	6 ريال
كتّاب سي محمد العش بمقربة من دار الباشا	زوج حوانت	18 ريال
كتّاب بمقربة من الدبدابة	حانوت	ربع ريال وخروبة
كتّاب ببطحة رمضان باي	أربع حوانت برأس الدرب	12 ريال
كتّاب بالعزافين	ثلاث حوانت	48 ريال
كتّاب بدريبة العطارين	نصف حوانت برأس الفلقة في شركة السبيل	6 ريال
كتّاب العطارين	مخزن جديد	
كتّاب سيدي المرجاني	مخزن	3 ريال
كتّاب جوار سيدي علي عزوز	هنشير بمقبولة مع زوج مواضع زيتون في عوسجة مع أرض بياضا بالمكان	
كتّاب الوزير	حانوت سوقي وطرف زيتونا بوادي القصب، طرف بالشط	36 ريال
كتّاب بالقسادرية بالتباتين لابن عامر	مخزن	–
كتّاب بسوق الشواشية الجديد	حبس السوق	–

كتّاب جوار دار السيد الداي	نصف الحانوت تحته في شركة الجامع	19 ريال ونصف
كتّاب بمقربة من دار حمودة باشا	حانوت سوقي ومخزن	39 ريال
كتّاب القصبة للترك	حانوت	12 ريال
كتّاب الأمين بسوق البلاط	حانوت	9 ريال
كتّاب سيدي بوجبره	حانوت خضار بباب السويقة وموقعا زيتونا بالشرقية	12 ريال
كتّاب تجاه تربة الكاهية	حانوت	–
كتّاب الصباغين	"	4 ريال
كتّاب بالجيارة	"	3 ريال
كتّاب قرب سيدي منصور	"	6 ريال
كتّاب بحوانت الفار	"	6 ريال
كتّاب صدام جوار المحجوب	"	6 ريال
كتّاب برحبة الخروب	حانوتان	36 ريال
كتّاب بالعزافين	مخزن الهرقماجي بباب منارة قرب سيدي الفحام	–

من خلال الجدول المبيّن أعلاه، يتضح لنا أن أوقاف الكتاتيب تميزت بالتنوع بين رباعات وعقارات، والظاهر أن الغالب هي الرباعات لأن الكتاتيب المتطرق إليها تتمركز بمدينة تونس.

كما نسجل وجود تفاوت في أوقاف الكتاتيب وبالتالي تفاوت في مداخلها، فكلما زادت نسبة العقارات والرباعات الموقوفة كلما زاد دخل الكتّاب الذي حبست لصالحه والعكس صحيح. نذكر على سبيل المثال: مكتب بالحفير بربض باب السويقة، اقتصر وقفه على حانوت تحته، يوفر دخل قدره ثلاث ريالات في السنة. في المقابل نجد مكتب العزافين بمدينة تونس، يتمثل وقفه في ثلاثة حوانيت تحته، ويوفر 48 ريالا في السنة. وحسب الأستاذة "الماجري"، فإن هذا التفاوت يعود إلى الحالة المادية للعائلات التي تقطن مختلف أرباض وأحياء مدينة تونس، فهناك أحياء وأرباض تسكنها عائلات غنية وميسورة الحال، وأخرى تسكنها عائلات أقل ثراء وربما فقيرة[1].

[1]– الماجري، مرجع سابق، ص 198 .

كما أنه كثيرا ما كان يعمد المحبسون إلى بناء محلات تجارية ويبنون فوقها مكتبا، ويُحبسون تلك المحلات التجارية على الكتّاب، وهذا ما يضمن استمرار وديمومة نشاطها[1].

2.1.1.أوقاف المدارس:

كنتيجة لتأسيس أماكن مخصصة للتدريس ونشر العلم، ظهر تحبيس أوقاف تصرف عائداتها في الإنفاق على شؤونها. فمع إنشاء المدارس أصبح من الضروري أن يُخصص لها مؤسسها وقفا، يسمح لها الإنفاق منه فيما تحتاج إليه من مرتبات (للإمام والخطيب والمدرس والمحدث والمسمع وإدارة الوقف والمؤذنين والحزابين والمنظفين والوقاد والميضاوي...)، وما تحتاجه المدرسة من مصابيح وزيت وشمع وغيرها من مستلزمات المدرسة[2]. وهكذا أخذ حال التعليم في الانتظام واستطاعت المدارس أن تقوم بمهامها على أكمل وجه، نتيجة لما أوقفه مؤسّسو المدارس، وكذلك أهل البر والإحسان من تحابيس هامة. إذ لم تكن هذه الأوقاف والأحباس موكولة إلى مؤسس المدرسة بمفرده، بل كان من حق كل شخص أن يحبس على المدارس عقارات أو أملاكا مثلما يتّم بالنسبة للجوامع احتسابا لوجه الله تعالى. وهكذا فقد حبّس الكثير من التونسيين، خصوصا منهم البايات وحتى الأشخاص الأثرياء الأوقاف الكثيرة على المدارس. ويمكننا أن نستدل بمجموعة من رسوم الأوقاف والأحباس لصالح المدارس.

جدول رقم (24): أحباس بعض المدارس .

المدرسة	طبيعة أحباسها
الحسينية الصغرى[3]	– دار بمقربة من مسجد القبة داخل تونس – طاحونة بمقربة زنقة سيدي أبي السعيد – دار قرب حمام زارقون – حانوت جوفي الباب المعد لقلي الإسفنج الكائن خارج باب الجزيرة – خمسة حوانيت خارج باب الجديد – حانوتين بسوق الفلقة – دار ومخزن بسوق الفلقة – القطعة ذات النخلة الباقية من جنينة شرقية الباب، الكائنة بقرب مسجد الحجر

[1]– قاسم ، مرجع سابق، ص 144 .

[2]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 43 .

[3]– "وقفية للباي حسين بن علي لصالح المدرسة الحسينية الصغرى ، بتاريخ أواخر صفر 1123هـ/ أفريل 1711م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 141 – 151 .

	داخل باب السويقة – الموضع المشجر زيتونا ويعرف بالنجيمي والنفاتي – الموضع المشجر زيتونا الكائنة بعقبة الرواهب بطريق بنزرت
النخلة[1]	– فندق الزبيب، الكائن بمقربة جامع الزيتونة – ثلاث حوانيت المتلاصقات الكائنين بسوق الشبارليين – حانوت الشرقي الباب الكائن بالمكان – جميع الحانوتين القبلي الباب الكائنين خارج باب اللفة، بمقربة من جامع يوسف داي – الزندالة بمقربة باب السكاجين، داخل باب المنارة – المخازن الثلاث الجوفيات الباب الكائنة بالمكان
مدرسة الجامع الجديد	– سبعة وثلاثين من العقارات والرباعات[2]
المدرسة الحسينية بصفاقس[3]	– الزندالة الكبرى الغربية الباب المعروفة بالسواري – المخزنين الغربيي الباب الملاصقين لها من جوفيها، الكائن جميع ذلك قرب حوانيت عاشور
المدرسة الحسينية بنفطة[4]	– الجنان المشجر نخيلا، المعروف ببستان الفقيه الكائن بجر رمادة الشرقية من غابة بلد نفطة – الجنان المشجر بالنخيل المعروف بسانية قارينة – الجنان المشجر بالنخيل المعروف بسانية خرابة الكائن بجر رمادة الشرقية – الجنان المشجر بالنخيل، الكائن بسانية جر فطناصة من غابة البلد المذكور – الجنان المشجر نخيلا الكائن في مجر بني علي من غابة بلد نفطة – الجنان المشجر بالنخيل، المعروف بسانية القابسي

[1]– "رسم تحبيس لفائدة مدرسة النخلة ، بتاريخ أوائل جمادى الثانية 1126هـ/ جوان 1714م" . أنظر: السعداوي ، مرجع سابق ، ص ص 176- 188.

[2]– يطول بنا الأمر إذا ذكرناها. أنظر: "وقفية حسين بن علي لفائدة الجامع الجديد والمدرسة بتاريخ أواسط حجة الحرام عام 1142هـ / جويلية 1730م" . نفسه، ص ص 194- 213 . وللإشارة هنا نذكر أن "الباي محمد الرشيد" ابن "حسين بن علي" أضاف أوقافا لصالح المدرسة والجامع، وكان ذلك سنة 1171هـ/ 1758م. أنظر: ابن الخوجة، تاريخ معالم...، مرجع سابق، ص 212 .

[3]– "وقفية حسين بن علي لفائدة مدرسته بصفاقس بتاريخ أواخر جمادى الأخرى 1127هـ / جوان 1715م" . أنظر: السعداوي ، مرجع سابق، ص ص 387 - 390 .

[4]– "وقفية حسين بن علي لفائدة مدرسته بنفطة بتاريخ أواخر شوال 1128هـ / أكتوبر 1716م" . أنظر: نفسه، ص ص 405 - 412 .

حوانيت عاشور[1]	– الفرن المعد لطحن الطعام – الحانوت الشرقي الباب – المخزن الشرقي الباب، المعد للحاكة الملاصق للفرن، الكائن جميع ذلك بقنطرة ابن شاكر داخل باب السويقة – دارين بالمكان، واحدة وأخرى جوفية – واحد وثلاثين من عقارات ورباعات
المدرسة الباشية	– ستة وأربعون من العقارات والرباعات[2]
الحسينية الكبرى –الجديدة–[3]	– إنزال دار واقعة في نهج سيدي المرجاني – إنزال متجر بسوق البلاط – ثلثا هنشير معروف بهنشير بوشريك في الوطن القبلي – كراء طاحونة بأريانة – ثلاثة أثمان من دار قنصلية دولة اسبانيا جوفية المفتح – أربعة وعشرون رباعا (2 فندق، 11 حانوت، 11مخازن)
المدرسة الطابعية[4]	– خمسة هناشير من مناطق مختلفة في الإيالة (قرفال، بير الضفا الكائن برج نفات، مجردة، عين صمادح بوادي الحوميس بافريقية) – بقر ومواشي –تسعة عشر بئرا من الهنشير المعروف بالفلاحين بالجزيرة القبلية – زيتون بسانية الشرقي بهنشير القويس – نصف من السانية المعروفة بسانية موسى – زيتون بسانية المقلوبة، وتعرف بالحمرة – أرض ذات بئر، تعرف بالنفعة – خمس أراضي مشجرة زيتونا بغابة بلد المقلوبة المعروفة بالغابة الحمرة جوفي تونس – سوق محدث البناء مشتمل على ثلاث وخمسين حانوتا

[1]– أنظر: "أحباس مدرسة حوانيت عاشور وتربتها. "وقفية بتاريخ أواسط ربيع الثاني 1159هـ/ ماي 1746م ". السعداوي ، مرجع سابق، ص ص 419- 432 .

[2]– يطول بنا الأمر إذا ذكرناها. أنظر: أحباس المدرسة الباشية، "وقفية بتاريخ أواسط حجة الحرام 1177هـ/ جوان 1764م" . نفسه، ص ص 441- 456 .

[3]– أ. و. ت، س. ت، صد 62، م 700، دفتر يشمل أوقاف مدارس الحاضرة ماعدا المدرسة الباشية (1281- 1305هـ/ 1864- 1887م)، ص ص 117- 119 . أنظر أيضا: ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 375 .

[4]– المعموري، وثيقة عن تحابيس...، مرجع سابق، ص ص 248- 258، 262 .

مدرسة بئر الحجار[1]	– سبعة هناشير في مناطق مختلفة من الإيالة (باجة، ماطر، وطن بني زرى) – وكالة قبلية بسوق الجرابة داخل باب المنارة تعرف بوكالة موسى – ثلاث مخازن – بيت جوفي بمدرسة بني منصور – أراضي منزلة بالحرايرية – زياتين بغابة تونس
المدرسة الشماعية[2]	– ثمانية عشر حانوت خارج باب الجديد – ثلاث حوانيت داخل باب الجديد – مخزن أسفل المدرسة – خمسة مخازن خارج باب الجديد – قهوة قبلي (كذا) النعال – زياتين بغابة تونس وزغوان
المدرسة التوفيقية[3]	– واحد وعشرون حانوتا بسوق الشواشي خارج باب السويقة – هنشير بجر مزارع المحمدية – هنشير بمزارع السيجومي – أراضي زيتون بغابة تونس – أرض (كذا) بسبخة السيجومي – أرض بالبحر الأزرق بالمرسى – أرض قرن الكبش
المدرسة الصادقية[4]	– هناشير ومساحات كبيرة مثل هنشير قعفور الذي مساحته 40 ألف هكتار بالوطن القبلي – أراضي وزياتين ومباني بجهة قرنبالية – أراضي بجهة القيروان، وأراضي صالحة للبناء بالعاصمة تمسح أكثر من 20 هكتار

[1]– أ. و. ت، س. ت، صد 62، م 700، مصدر سابق، وث 122، 123 .

[2]– نفسه، وث125– 129 .

[3]– نفسه، وث 132، 133 .

[4]– جاءت تحابيس "الصادق باي" لصالح المدرسة في أمر علّي بتاريخ 02 صفر 1292هـ/ 09 مارس 1875م يحتوي 231 فصلا.
أنظر: محمد صالح المزالي، "تحبيس محمد الصادق باشا عدة أملاك لفائدة المعهد الصادقي"، م. ت. مغ، ع 6، جويلية 1976م، ص ص 129– 132 .

	– أراضي وزياتين ومخازن وحوانيت ومباني سكنية موزعة على مختلف جهات الإيالة (الحاضرة وأحوازها، ماطر، تبرسق، صفاقس، قليبية، باجة...) [1]

انطلاقا من الجدول أعلاه، يتضح لنا مدى أهمية عدد الأحباس التي وقفها المؤسسون على مدارسهم، وشساعة الأراضي المحبسة. ويظهر جليّا مدى تنوع وكثرة الرباعات والعقارات المحبسة خاصة لصالح مدرسة "يوسف صاحب الطابع" والمدرسة الصادقية، وأكثر العقارات المحبسة موجودة بالجهات الزراعية المشهورة بخصوبتها مما يجعلها ذات إنتاج وفير[2]. كما تميزت المدرسة الحسينية الكبرى هي الأخرى بأوقافها الواسعة، وهذا ما يؤكده المؤرخ "ابن عبد العزيز" في باشيه، حيث يذكر أن "علي باي الثاني" أجرى على المدرسة أوقافا واسعة لم تكن في مدرسة من مدارس غيرها [3].

ومن خلال الشروط الواردة في الوقفيات، يتضح لنا أن المحبّس اشترط إقامة عدد معين من الطلبة الواردين من الآفاق في المدرسة، ويكون السكن فرديا مجانيا. وهذا ما يؤكد على انفتاح التعليم التقليدي على مختلف أرجاء الإيالة، وعدم اقتصاره على مجال المدينة فقط. ومن ثمة عدم اقتصاره على شرائح من المجتمع دون غيرها[4]. كما يتضح لنا من خلال الجدول أن هناك حضور للمذهبين الحنفي والمالكي، فهناك من المدارس من اشترطت أن يكون طلبتها من المذهب المالكي، مثل المدرسة الحسينية الصغرى ومدرسة والنخلة، وأخرى مخصصة لطلبة المذهب الحنفي، مثل المدرسة الباشية. وأخرى جمعت بين طلبة المذهبين الحنفي والمالكي، كالمدرسة الحسينية الكبرى، وهذا إيذانا لبداية التعايش بين المذهبين.

والواضح أن حكام الأسرة الحسينية أولوا عناية كبيرة بالتعليم، من خلال الأوقاف المخصصة لمؤسساتهم، فها هو "علي باي الثاني" يهتم بإعادة إحياء الأوقاف وترتيب التعليم بالمدرستين التوفيقية[5] والجاسوسية المنسوبة إلى الشيخ "أبي حفص عمر الجاسوس" دفين الجلاّز.

---

[1]– بلغ عدد الأملاك الموقوفة على المدرسة عددا كبيرا من الرباعات والعقارات، وهذا ما تؤكده رسوم الوقف التي وصل عددها الى 434 رسما ، سلمها "محمد الصادق باي" للوزير الأكبر خير الدين في 231 فصلا، جمعت وجاءت في قائمة جماعية. وقد أورد هذا الأمر الأستاذ "محمد مزالي"، أنظر: مرجع سابق، ص ص 129– 132 .

[2]– ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 216 .

[3]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 205 .

[4]– زهير بن يوسف، مرجع سابق، ص 57 .

[5]– تسمى أيضا بمدرسة جامع الهواء، وهي مدرسة أسست أيام الدولة الحفصية. لمعلومات أكثر عنها. أنظر: الطويلي، مراكز الثقافة والتعليم...، مرجع سابق، ص ص 39 ، 40 .

فقد شهدت المدرسة ضياع أوقافها ولم يبقى منها إلا القليل لا يكفي متطلباتها. فأوقف عليها الباي أوقافا تكفيها. ويذكر صاحب "الكتاب الباشي" "أنها عمرت الآن بقراءة العلم الشريف"[1].

ويحدثنا الرحالة الجزائري "الورثيلاني" الذي مرّ بتونس سنة 1180هـ/ 1766م عن إعجابه بما شاهده في تونس من ازدهار العلم في العاصمة تونس وفي المناطق الأخرى التي زارها، حيث يذكر أن هناك مجهودات يبذلها الحكام في سبيل إعانة وتشجيع العلم، ومن ذلك بنائهم للمدارس[2].

3.1.1. أوقاف الجوامع والمساجد:

أَمّنت الأوقاف مصادر دخل قارة للمؤسسات الدينية، وتتميز العقارات المحبسة عليها في عهد حكم الأسرة الحسينية بالكثرة والتنوع، إذ بلغ مجموع تلك المتعلقة بجامع الزيتونة خلال النصف الثاني من القرن19م، حسب الدراسة التي أعدها الأستاذ "فتحي المرزوقي" 527 بين عقارات ورباعات، منها 272 حضرية و255 ريفية[3]. وهذا العدد المسجل في عدد العقارات المحبّسة يترجم مدى أهمية جامع الزيتونة، باعتباره أقدم مؤسسة دينية وتعليمية. والجدول المرفق أدناه يبيّن أوقاف بعض الجوامع والمساجد.

جدول رقم (25): أنماذج من أوقاف بعض الجوامع والمساجد[4] .

الجامع أو المسجد	أوقافه
أوقاف على دروس ومدرسي جامع الزيتونة	* حبس الباي "حسين بن علي" – الحمام الغربي الباب الكائن بالقشاشين – القهوة الشرقية الباب الكائنة سوق القلفة

[1]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 302 .

[2]– الورثيلاني، مصدر سابق، ص 763 .

[3]– المرزوقي، مرجع سابق، ص 198 .

[4]– تم رصد الجدول انطلاقا من المصادر والمراجع التالية:

– "وقفية بتاريخ أواخر صفر سنة 1125هـ/ أواخر مارس 1713م". أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 350 – 354 .

– "وقفية بتاريخ أواسط جمادى الأولى سنة 1129هـ/ أواخر أفريل 1717م". أنظر: نفسه، ص ص 356 – 358 .

– "وقفية بتاريخ أواسط جمادى الأولى سنة 1136هـ/ أوائل فيفري 1724م". أنظر: نفسه، ص ص 358،359 .

– بنبلغيث، التعليم والأوقاف...، مرجع سابق، ص 111 .

– أ.و.ت، السلسلة C2، ح10، م 21، "رسوم أراضي وقف جامع الزيتونة ومؤذنيه وقرائه، "وقفية بتاريخ أواسط ذي القعدة 1223هـ/ أواخر جانفي 1809م ".

– نفسه، م 126، رسوم أراضي وقف الجامع الأعظم بسوسة، "وقفية بتاريخ أواخر محرم 1253هـ/ أوائل ماي 1837م ".

– نفسه، "وقفية بتاريخ أواخر محرم 1208هـ/ أوائل سبتمبر 1793م ".

	– الحانوت القبلي الباب وصار الآن قهوة في سوق الترك – الحانوتين المتلاصقين الكائنتين بطرف سوق البشماقيين من سوق الترك – الموضع المشجر زيتونا بأرض أقرج، ظاهر تونس المحروسة، ويعرف بالرميلة – الدار الشرقية الباب الكائنة قرب سبالة المدينة داخل تونس – الموضع المشجر زيتونا الكائن بقرب المنهلة جوفي تونس المحروسة – الموضع المشجر زيتونا الكائن بوادي الذئب، ظاهر تونس المحروسة – الطريفة زيتونا الكائنة بمعصرة النجانين شرقي تونس المحروسة – الأربعة أخماس إلا ثلث ثمن الخمس من الموضع المشجر زيتونا الكائن بغابة بلّي قبلي تونس المحروسة – الخميس وثلث ثمن الخمس المكمل للموضع المذكور * ومن أحباس عامة الناس لصالح الجامع نذكر: – تحبيس دار ومخزن بمقربة من الصوافين خارج باب منارة على عبد الكبير بن الشيخ علي بن موسى صاحب درس الصلاة على النبي بباب الجنائز بالجامع الأعظم – تحبيس قطعة أرض كائنة بمزارع بلد رأس الجبل على درس باب الشفاء بجامع الزيتونة – كما أوقف أحدهم طاحونة في رأس الجبل على درس الشيخ القرطبي طبقا لوثيقة مؤرخة سنة 1252هـ/1836م، ويقرأ الدرس بجامع الزيتونة
جامع الزيتونة	– حبست الحرة عائشة بنت علي بلغيث، جميع الموضع المشجر زيتونا الكائن بهنشير الباجيين جوفي منزل بوزلفة، على أبنائها ثم أبناء أبنائها فإذا انقرضوا عن آخرهم ولم يوجد لهم ذرية، رجع النصف من ذلك للجامع الأعظم
الجامع الأعظم بسوسة	– حبس حميدة بن الحاج التونسي، جميع الثمانية أصول زيتونا بالمكان المعروف بوادي غنيم (خارج سوسة)، ويصرف ما تحصل من ريع ذلك على الجامع المذكور في جميع ما يحتاج إليه – حبست الحرة لطيفة بنت المرحوم عبد اللطيف العجلي السوسي،

	جميع العشرة أصول زيتونا خارج محروسة سوسة في غربيها وبالمكان المعروف، بحمام معروف، على حفيدتها الحرة خديجة، ثم على أعقابها فإذا انقرضوا عن آخرهم، رجع الحبس للجامع الأعظم
جامع السادة الأنصار بالقيروان	– خمسة عشر محلا – سبعة حوانيت ونصف – ثلثي حانوتين – تسعي (2/9) حانوت – ثلاثة أرباع حانوت – ثلاث أرباع كوشة وجزء من دار الدبغ

نلاحظ من خلال ما يبسطه الجدول من معطيات أن مصادر الأوقاف متنوعة، فالرغبة في المشاركة في قيام المؤسسات الدينية، والحصول على الأجر والثواب دفع بكل شرائح المجتمع إلى المشاركة فيها.كما تبيّن لنا من خلال العيّنة التي تم الاطلاع عليها من رسوم الأحباس الخاصة بالجوامع والمساجد، أن هناك انخراط لفئات اجتماعية مختلفة في عملية التحبيس. فمنهم أصحاب السلطة والجاه، ومن بينهم الباي "حسين بن علي" الذي أكدت رسوم تحابيسه أنه أوقف العديد من العقارات والرباعات لصالح دروس ومدرسي جامع الزيتونة. كما نجد أيضا مساهمة الطبقة المتوسطة – عامة الناس– في الأوقاف، حيث يتبين لنا أن سكان الحي أو المنطقة التي يوجد بها المسجد أو الجامع، لا يترفعون أن يحبسوا ولو أبسط جزء من ملكياتهم، وهذا ما لاحظناه في أوقاف جامع السادة الأنصار، فهناك من حبس ثلاثة أرباع من حانوته يعني جزء بسيط جدا.

والظاهر أن مثل هذه الأوقاف البسيطة جدا، يكون أصحابها من ذوي الدخل المحدود ومن المعقول جدا أن يكونوا من الفقراء. لأن المسلم يحاول أن يساهم ولو بجزء بسيط في سبيل المؤسسات الدينية، لكسب الأجر والثواب. كما لاحظنا أيضا أن عملية التحبيس إستهوت أيضا بعض النساء، فقد امتلكت المرأة في الشريعة الإسلامية الأهلية الكاملة للتصرف في حقوقها تملكا وبيعا وشراء[1]. وتعتبر "فاطمة بنت أحمد حفيدة عثمان داي" من أشهر النساء التونسيات اللواتي عرفن بأوقافهن الكثيرة، فقد حبست هذه الأخيرة ما يقارب مائة وخمسين من العقارات

[1]– الشيباني بنبلغيث، أبحاث في تاريخ تونس الحديث والمعاصر، ط1، دار نهى، صفاقس، 2008م، ص 123 .

والرباعات، على الجامع الجديد وعلى التربة التي تدفن بها وعلى القراء بجامع الزيتونة والجامع الجديد[1].

4.1.1.أوقاف الزوايا –زاوية سيدي لونيس وسيدي البشير – أنموذجا– :

تعتبر زاويتا "سيدي لونيس" و"سيدي البشير"[2] بالحاضرة تونس من الزوايا التي حظيت بأوقاف لا يستهان بها، خاصة من طرف حكام الأسرة الحسينية. فقد حبس "محمد بن حسين باي" (1169- 1172هـ/ 1756- 1759م) على "سيدي لونيس" أحد أحفاد "سيدي عبد السلام بن مشيش" هنشير بنزرت، الذي يعرف بعين الجنان أو ببني زرزور ليستعين به على طلبة زواياه، وكان ذلك في أوائل جمادى الثانية 1170هـ/ أواخر فيفري 1757م. كما جدّد "علي باي الثاني" تحرير الهنشير وصاغ أمره كالآتي: " أمرنا هذا بيد محبنا الشيخ البركة سيدي لونيس وأننا حررنا له هنشير عين الجنان الكائن بجزيرة بني بنزرت... المحبس على زاوية الشيخ المذكور من أداء الحضرة والصيفية. ولا يطرقهم أحد من المخازنية، تحريرا تاما، إعانة لزاوية الشيخ المذكور في إطعام الطعام"[3].

ومن خلال هذا النص من الأمر، نفهم أن الحكام كانوا يعفون الزوايا من الضرائب إعانة لهم على الزاوية وطلبتها، ومن ذلك أن الباي "حمودة باشا"(1196- 1229هـ/ 1782- 1814م) قام بإعفاء هنشير عين الجنان "لسيدي البشير"، ولا يُطالب فلاحي الهنشير بالاعشار، ومنع دخول المخزن إليه . كما حبس "علي باي الثاني" في أواسط ربيع الثاني 1178هـ/ أواسط أكتوبر 1764م، هنشير بني وشفان الموجود ببجاوة – ماطر–، لإطعام الطعام والقيام بشؤون الطلبة وزوايا سيدي لونيس من إصلاح وتنوير وتحصير ...[4] .

أما عن زاوية سيدي البشير، فقد حظيت هي بأوقاف لا يستهان بها. فقد حبس "حسين باي الثاني"(1239 – 1251هـ/ 1824- 1835م) في أوائل ذي الحجة 1235هـ/ أواسط سبتمبر 1820م – أي قبل توليه الحكم – هنشير يدعى الحمراء بجهة وطن ماطر. ووضعه تحت تصرف القائمين على الزاوية، وطلب المدعو "شاكير" رفع يده من الهنشير وإبطال الكراء الذي بيده، وأن يُرجع للزاوية كل ما أخذه من الهنشير من تبن وغيره. وعمد والده "محمود باي" (

---

[1]– "وقفية بتاريخ أواسط ذي الحجة 1139هـ/ أوائل أوت 1727م". أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 324 – 343 .

[2]– أنظر ترجمته في: الباب الأول، الفصل الأول، ص 72، هامش 01 .

[3]– قاسم، مرجع سابق، ص 198 .

[4]– نفسه، ص ص 198، 199 .

1230- 1239هـ/ 1814- 1824م) إلى تحرير الهنشير من جميع الضرائب، وأصدر أمرا بعدم دخول أي مخازني إليه. وقد تنازل الحسينيون عن سلطانهم ونفوذهم في أماكن مختلفة ووهبوها لزاوية "سيدي لونيس" و"سيدي البشير" وجعلوا نظر هذه الضياع ونظر من عليها للشيوخ، ومنعوا أتباعهم من الدخول إلى الهناشير ولو على وجه الضيافة. وأعفوا الزاويتين وفلاحيها وخماسيها من كل الضرائب مهما كان نوعها إعانة للزاوية على القيام بواجباتها لخدمة العلم[1].

والواقع أن البايات الحسينيين يجلّون الزاويتين ويعطفون على شيوخهما لما يعتقدون فيهم من صلاح ولما يحملونه من شرف النسب والتزامهم بنواهي وأوامر البايات، بالإضافة إلى حرصهم على كسب ود أتباع الزاويتين خاصة الزواوة[2] الذين يمثلون مع الجيش عماد القوة العسكرية، وفي مقابل ذلك يتمتع الشيوخ بالضيعات الواسعة وبالنفوذ والتقدير[3].

يبدو أن منح الضيعات والهناشير، والإعفاء من الضرائب واللزم، لصالح الزوايا خاصة تلك التي تملك قاعدة شعبية كبيرة، يقابله الولاء والطاعة من طرف شيوخ الزوايا وأتباعهم. وبالتالي ضمان الاستقرار والولاء للحكم .

5.1.1. أوقاف المكتبات – مكتبة مدرسة حوانيت عاشور والمكتبة الأحمدية– أنموذجا–

لا تتمثل الأوقاف في الرباعات والعقارات التي تدرّ المال على المؤسسات التعليمية فقط، بل يمكن أن تتمثل أيضا في الكتب، فنجد بايات الأسرة الحسينية من الحكام الذين أولوا أهمية كبيرة بقضية حبس الكتب لصالح المدارس، ومن ذلك الباي "علي باشا" (1135- 1169هـ/ 1740- 1756م) الذي كان مولعا وشغوفا بجمع واكتساب الكتب –كما سبق وأن ذكرنا–[4]. وفي رسم تحبيس على المدرسة العاشورية الذي يعود إلى تاريخ أوائل جمادى الأولى 1159هـ/

---

[1]– قاسم، مرجع سابق، ص ص 199، 200 .

[2]– جند الزواوة – نسبة إلى الزواوة، منطقة القبائل بالجزائر–، فرع من الجيش غير النظامي، مواز تقريبا لعسكر الحنفية، وقد عرف أفراده في تونس كجنود في الجيش منذ الفتح العثماني، وكون منهم حمودة باشا حرسا شخصيا. وعندما بدأت فكرة التخلي عن الجيش الانكشاري في أوائل القرن 13هـ/ 19م، ازداد عددهم في الجيش في عهد "محمود باي" الذي اعتنى بهم، وجعل لهم مرتبا. لكن مع مرور الوقت وخاصة بعد تكوين الجيش النظامي من طرف "أحمد باي" أصبحوا يشعرون بفقدان أهميتهم في البلاد، فقاموا بنوع من التمرد . ونتيجة لذلك عاد بعضهم إلى الجزائر. لكن في عهد "محمد الصادق الباي" أولاهم عناية خاصة، وذلك لحاجته إليهم لإخماد ثورة "ابن غذاهم" التي اندلعت سنة 1281هـ/ 1864م. أنظر: بنبلغيث، الجيش التونسي ...، مرجع سابق، ص ص 138، 139. أنظر أيضا: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص 121 .

[3]– قاسم، مرجع سابق، ص 200 .

[4]– أنظر: الباب الأول، الفصل الأول، ص 81 .

أواخر ماي 1746م، قائمة طويلة من الكتب بلغ عددها 357 مجلدافي علوم مختلفة، وهي كالآتي:

جدول رقم (26): العلوم التي حبست عليها الكتب وعدد المجلدات المحبسة عليها [1] .

العلوم التي حبست عليها الكتب	عدد المجلدات المحبسة
كتب متعلقة بالقرآن الكريم من تفسير وغيره	50 مجلد
كتب الحديث	123 مجلد
كتب الفقه	83 مجلد
كتب في أصول الدين	17 مجلد
كتب الأصول والمعاني والبيان	19 مجلد
كتب المنطق	07 أسفار
كتب النحو	41 مجلد
كتب السيّر	10 أسفار
كتب اللغة	03 أسفار
فن الحساب	سفران

وهذا كله بحضور شهود عدول تم ذكرهم في رسم التحبيس. واشترط الباي في وقفيته أن لا يتم إعارة الكتب، ويمنع إخراجها من المدرسة المذكورة، ما عدا شيخ المدرسة، فإذا أراد كتابا يأخذه ثم يعيده بعد الانتهاء منه[2].

وما تجدر الإشارة إليه أن الباي "علي باشا" لم يقتصر تحبيسه للكتب على المدارس والمساجد فقط، وإنما هناك وقفيات تذكر أن الباي حبّس عددا معتبرا من الكتب في الأحكام الشرعية على مذهب الإمام مالك في مكتبات المحكمة الشرعية بمدينة تونس والمحكمة الشرعية بباردو، ليستعين بها من يكون قاضيا بها على فصل القضايا بين الخصوم. واشترط في تحبيسه الخاص بالمحكمة الشرعية بمدينة تونس أن لا يخرج كتابا من الكتب المحبسة خارج المحكمة[3].

[1]– "وقفية تخص الكتب المحبسة على المدرسة العاشورية بتاريخ أوائل جمادى الأولى 1159هـ /أواخر ماي 1746م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 466.

[2]– نفسه، ص ص 465 – 489 .

[3]– "وقفية خاصة بالكتب المحبسة على المحكمة الشرعية بمدينة تونس، بتاريخ أواخر جمادى الأولى 1159هـ/ أواسط جوان 1746". أنظر: نفسه، ص ص 489 ، 492 .

أما في التحبيس الخاص بالمحكمة الشرعية بباردو، فأذن لمن يكون قاضيا بالمحكمة أن يستعير الكتب التي هو بحاجة إليها إلى بيت سكناه للمطالعة فيها[1]. وهذا كله بهدف التخفيف من معاناة البحث عن الكتب، وتسهيل مهمة القضاة والقيام بها على أكمل وجه.

وقبل أن نختم دراستنا المقتضبة عن الأوقاف، لا بد من الإشارة إلى أن هذه الأخيرة كثيرا ما كانت تتعرض للتعدي، ولذلك نجد شكاوى تصدر من بعض العلماء في هذا الشأن، ومن ذلك الشكوى التي رفعها "محمد سعادة" إلى الباي "حسين بن علي" يخبره فيها عن التعدي الذي تتعرض له أوقاف جامع الزيتونة، من طرف ناظرها الفقيه "أبو القاسم النابلي"، حيث يذكر في هذا الصدد سوء تصرف الناظر في أوقاف الزيتونة، وعبثه بها وعدم التزامه بشروط المحبّس[2]. وهذا ما يؤكد عدم أمانة الكثير من المشرفين على الحسابات المالية للأوقاف، وممارستهم لأساليب ملتوية للاستحواذ عليها.

ونظرا للانسياب الذي شهدته معظم أوقاف[3] المؤسسات التعليمية، قام الوزير"خير الدين" بالنظر فيها والاهتمام بها، لأنها تعتبر مصدر دخل هام، يضمن استمرار المؤسسات العلمية والدينية. فأسس جمعية لإدارة الأوقاف سنة 1291هـ/ 1874م، وأوكل لها مهام إحصاء الأحباس وضبط مداخيلها والاعتناء بالمشاريع الراجعة لها بالنظر وجعل على رأسها "بيرم الخامس"[4]. وكانت التقارير تصل الوزير بشكل مستمر من طرف رئيس جمعية الأوقاف، حول كل المسائل التي تخص التعليم ومؤسساته[5]. وقد حظينا بعدد لا بأس به من الوثائق نذكر على سبيل المثال التقرير الذي أعده "محمد بيرم الخامس" إلى الوزير الأكبر "خير الدين" يخبره فيه عن تفاصيل إصلاح المكتب الواقع أمام باب الروم بالمنستير والذي تداعى للانهيار، ويذكر في تقريره أن المكتب أصبح في حالة جيدة، و قد عاد المؤدب للتدريس مجددا[6] .

---

[1]– وقفية خاصة بالكتب المحبسة على المحكمة الشرعية بباردو، بتاريخ أواخر جمادى الأولى 1159هـ/ أواسط جوان 1746م . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 492، 493 .

[2]– لتفاصيل أكثر أنظر: الهيلة، مرجع سابق، ص ص 387 – 390 .

[3]– تأثرت الأوقاف منذ النصف الثاني للقرن 13هـ/ 19م بالوضع العام للبلاد، حيث شهدت ثورات سياسية مثل ثورة "ابن غذاهم" سنة 1281هـ/ 1864م. بالإضافة إلى الكوارث الطبيعية كالقحط والجفاف مثل ما حدث سنة 1285هـ/ 1868م فازدادت مساحة الأراضي الجرداء من تلك الأوقاف، فأصبحت بدون زراعة، وتعاني من الإهمال. أنظر: بنت معجب بن سعيد الحامد، مرجع سابق، ص 205 .

[4]– كريم وجلاب، مرجع سابق، ص 18 .

[5]– أنظر: أ. و. ت، س. ت، صد 62، م 700، "مراسلات صادرة عن رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر متعلقة أغلبها بالأحباس وبالتصرف في ريعها" .

[6]– نفسه، "رسالة من محمد بيرم إلى الوزير خير الدين بتاريخ 03 محرم 1293هـ/ 29 جانفي 1876م"، وث 04 .

وقد أقبل "بيرم الخامس" بكل جد على الوظائف التي أسندت إليه[1]. فأصبحت مداخيل الأوقاف العامة تشهد تحسنا. ونستشف ذلك من خلال الإحصائيات التي أوردها "بيرم الخامس"، حيث ارتفعت عائدات الأوقاف من 1.204.000 ريال سنة 1291هـ/ 1874م إلى 2.540.73 ريال سنة 1295هـ/ 1878م. أي بمعدل 50% في ظرف خمس سنوات. وتم في هذه الفترة إصلاح 3330 مكانا[2]، كما استطاع أن يرد إلى حظيرة الأوقاف العامة العديد من الأملاك التي تم الاستيلاء عليها[3].

2.1. الإحسانات والصدقات :

هي عبارة عن منحة أو هبة –هدية–[4] توزع بغير مناسبة وبصفة غير منتظمة، عرفت انتشارا كبيرا خاصة في القرن الثامن عشر منذ اعتلاء الباي "حسين بن علي" العرش، وتضاعف عدد المنتفعين بهذه الهبات في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وهي الفترة التي يشهد فيها جلّ المؤرخين على الانتعاشة الاقتصادية التي عرفتها الإيالة التونسية[5]، وكانت توجه إلى مختلف المؤسسات العلمية منها:

1.2.1.الكتاتيب:

كانت الإحسانات من الحوافز التي شجعت المؤدب على السهر والعمل بإتقان من أجل تعليم القرآن وتحفيظه، فهو يحصل عليه كلما حفظ الصبي سورة قرآنية وأتقنها. وغالبا ما تقدم الإحسانات للمؤدب من طرف عائلة الصبي في مناسبات دينية، كعيد الفطر وعيد الأضحى، والمولد النبوي وعاشوراء، وكذلك عندما يصل الصبي في حفظه للقرآن إلى سور معينة[6]. كما كان يأخذ المؤدب بدل تزيين ألواح الصبيان، نصف ريال وأربعة من البيض على كل لوح يزينه، وترسل

---

[1]– عبد السلام، المؤرخون التونسيون...، مرجع سابق، ص 449 .

[2]– بيرم الخامس، مصدر سابق، ص 63 .

[3]– عبد السلام، المؤرخون التونسيون...، مرجع سابق، ص 450 .

[4]– وجدت منذ القدم عند العرب والمسلمين ، فالأمير يمنح من ديوان العطاء الهدايا لمن أراد تبجيلهم، كما أن السلطة التي كانت تمارس الاضطهاد في سبيل الحصول على فائض الإنتاج ، كانت تعمل على تجميل وجهها القبيح عن طريق الهدايا والهبات. والهدية في حقيقة الأمر هي عملية إعادة توزيع لما صادره أو نهبه الأمير من الأفراد ، لحثهم على طاعته وولائه ، وبالتالي يتم إعادة التوازن بين السلطة والمجتمع. أنظر : المنصف الشربطي،" الإحسانات الموزعة على الزوايا في القرن الثامن عشر: الدلالات السياسية والاجتماعية والدينية "، م .ت . مغ، ع 99 – 100، ماي 2000م، ص 551 .

[5]– نفسه .

[6]– الميزوري، مرجع سابق، ص 163 .

العائلات طعاما إلى الكتاتيب بمناسبة "الختمة"، يسمى ذو الحذاق[1]. وهي بمثابة هدايا عينية، تخضع قيمتها للمستوى المادي للأسر.

إذا كان المستوى المادي هو الذي يتحكم في قيمة ونوع الإحسانات، فإن هذه الأخيرة تختلف من مؤدب لآخر، فالمؤدبون الذين يعلّمون أبناء الحكام ورجال الدولة، وغيرهم من الأعيان والأغنياء –مؤدبو الصراية–، كانوا يتميزون عن باقي المؤدبين الذين يعلّمون أبناء العامة، بإحسانات تكون أفضل. والجدول التالي يبيّن ذلك:

جدول رقم (27): قيمة بعض الإحسانات المقدمة لفئة المؤدبين[2] .

المؤدب	قيمة الإحسان بالريال/ شهري	السنة
خرج إحسان للفقيه محمد دويره	10 ريال	1130هـ/ 1718م
خرج إحسان للفقيه عبد الكريم عن ختمة سيدي علي باي صانه الله	5 ريال	" "
خرج إحسان للفقيه عبد الكريم عن أولاد عصمان على الفتح والأعراف وختمة حسين ومرزوق	8 ريال	" "
خرج إحسان للفقيه عبد الكريم عن ختمة سيدي محمد احمد ولد عصمان على البقرة، ولختمة مرزوق وحسين عن الأعراف	6 ريال	" "
إحسان للمؤدب على ختمتي الأسعدين سيدي حمودة باشا وسيدي إسماعيل باي سورة سبّح	40 ريال	1177هـ/ 1764م
إحسان للحاج علي بن عمر المؤدب على ختمة الأسعد سيدي محمود باي صانه الله سورة يس	20 ريال	" "
إحسان للفقيه معمر المؤدب الرجل المسن	50 ريال	1178هـ/ 1765م

[1]– الحشايشي، العادات والتقاليد...، مرجع سابق، ص ص85 ، 86 .

[2]– أ. و. ت، دفتر رقم 2144، يشتمل على الإحسانات المقدمة للبعض من سكان سائر أماكن البلاد، وبعض الزوايا والبلدان المجاورة: الجزائر والمغرب والصحراء، ص ص 65– 112. أنظر أيضا: الماجري، مرجع سابق، ص ص 206– 209. للإضافة هنا نذكر أن "الماجري" اعتمدت على دفاتر جبائية أخرى تحت رقم: 5، 266، 3397 . وقد حاولنا الإطلاع عليها للاستفادة منها، لكن تعذر علينا ذلك لأنها في طور المعالجة.

إحسان للمؤدب على ختمة الأسعد سيدي حمودة باشا صانه الله سورة الملك على يد الحاج عنبر	20 ريال	" "
إحسان للمؤدب على ختمة الأسعد سيدي محمود باي صانه الله سورة مريم	" "	" "
إحسان للمؤدب إدريس	" "	1179هـ/ 1766م
إحسان لولد الفقيه علي بن عمر المؤدب	100 ريال	1180هـ/ 1767م
إحسان للفقيه سي علي بن عمر المؤدب على ختمة أسعدين من موالينا رعاهم الله	40 ريال	1181هـ/ 1768م
إحسان لمؤدب الأسعد سيدي عثمان باي صانه الله على ختمة تبارك	20 ريال	1184هـ/ 1771م
إحسان للحاج سالم الشريف مؤدب جامع الشيخ الأشهب جوار جامع الخصبة بباب الجزيرة	2 ريال	" "
إحسان للفقيه سالم دويره على ختمة الأسعد سيدي عثمان باي صانه الله سورة الرحمن	20 ريال	" "
إحسان لمؤدب المماليك	15 ريال	1185هـ/ 1772م
إحسان لمؤدبة أخوات الأسعد سيدي حمودة باشا صانه الله	10 ريال	1188هـ/ 1775م
إحسان لابنة المؤدب على يد نصر قايد الدار	50 ريال	1171هـ/ 1758م
إحسان لابنة المؤدب في حجه عن مرواح المعظم سيدنا علي باي دام علاه من محلة الصيف	20 ريال	" "
إحسان لمؤدبة بنات سيدنا دام علاه على سورة يس	" "	1176هـ/ 1763م
إحسان لمؤدبة بنات سيدنا دام علاه على ختمة سورة مريم	" "	" "
إحسان لمؤدبة بنات سيدنا دام علاه على	10 ريال	1177هـ/ 1764م

ختمة لم يكن		
إحسان للمؤدبة على ختمة ابنة المعظم سيدنا دام علاه على سورة البقرة في شوال	40 ريال	1178هـ/ 1765م
إحسان للمؤدبة على ختمة ابنة المعظم سيدنا دام علاه على يد الحاج جوهر	10 ريال	1193هـ/ 1780م
إحسان للمؤدب عن ختمة سيدي محمد باي سورة البقرة	500 ريال	1255هـ/ 1840م
إحسان للمؤدب عن ختمة سيدي الأمين سورة البقرة	" "	" "

نستنتج من خلال ما ورد في الجدول أن قيمة الإحسان تختلف من مؤدب لآخر، والظاهر أن ذلك راجع إلى جنس المتعلم، فتعليم الذكر يدفع عليه أكثر مما يدفع لتعليم البنت، فعلى سبيل المثال قدر إحسان مؤدب الباي "حمودة باشا" بـ 20 ريال، بينما مؤدبة أخواته البنات، قدر بـ 10 ريال. كما يختلف الإحسان أيضا وفقا لنوع السورة المختومة، فقد تبين لنا من خلال المعلومات الواردة أعلاه أن ختم سورة البقرة استحوذت حصة الأسد، ليصل مقدار إحسان المؤدب أثناء الختم إلى 500 ريال. ليتناقص شيئا فشيئا حسب طول وقصر السور المختومة.

وللإشارة، فإنه نظرا لارتفاع حجم إحسانات مؤدبي الصراية والامتيازات التي يتمتعون بها، فإننا نجد أن العديد منهم يتهافتون للحصول على شرف تعليم أحد أبناء هذه الفئة من المجتمع، والدليل على ذلك الفرحة التي غمرت "محمد الخضراوي" عندما طلب منه الباي "حسين بن علي" أن يكون مؤدبا لابن أخيه "علي باشا"، وفي هذا السياق يذكر "الصغير بن يوسف": "...وطلع إلى تونس فرحا مستبشرا وأخبر أولاده وعياله"[1]. وهذا دليل على أهمية هذه الوظيفة، وما تدرّه على صاحبها من دخل وخير وفير.

كما كانت توجه الصدقات إلى الكتاتيب التي تشكو من قلة التمويل، ومن ذلك الصدقة التي كان يخرجها "علي باي الثاني" في كل عام بمناسبة المولد النبوي الشريف، قدرها ألفين ريال تقسم بين القراء والمؤدبين بالكتاتيب[2]. كما كان يرسل "يوسف صاحب الطابع" بمبلغ مالي في كل سنة مع وكيله "أبي الحسن علي الباز" إلى كتاتيب الحاضرة، حيث يدفع للمؤدب 5 ريال، ولكل

[1] – الصغير بن يوسف، مصدر سابق، مج1، ص 55 .

[2] – ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 309.

واحد من الصبيان نصف ريال[1]. كما أكد "ابن سلامة" في كتابه "العقد المنضّد" أن المشير "أحمد باي" تواصل في هذا التقليد [2] .

وبالرغم من تفاوت قيمة وحجم الإحسانات، إلا أنها استطاعت أن تساهم في تحسين الأوضاع المادية للمؤدبين، وسد فجوة نقص الأحباس المخصصة لهم وللكتاتيب بصفة عامة .

2.2.1.المدارس:

يعتبر الباي "حسين بن علي" من البايات الذين تميزوا بكثرة إحساناتهم لأصحاب العلم، نذكر على سبيل المثال الإحسانات التي كان يرسلها للعالم المدرس "محمد بن أحمد" (لم نقف على تاريخ وفاته) وهو من علماء قفصة، وتتمثل في عشرين قفيزا من الشعير وعشرة أمطار زيتا، وعدة رؤوس من الغنم سنويا، لإعانته على إطعام الطلبة[3]. كما لا يمكننا إغفال الإحسانات التي هي الأخرى كانت تقدم للمدرسين، لتحسين وضعهم المادي من جهة، ولتشجيعهم من جهة أخرى. ومن ذلك الكسوة التي كان يرسلها الباي "حسين بن علي" إلى المدرسين في كل عام، وفي هذا السياق يذكر "حسين خوجة" في ترجمته "لعلي الأزهري" الذي كان مدرسا بإحدى مدارس سوسة، أن الباي كان "يحسن له في كل عام بكسوة"[4].

كما كانت تخصص مبالغ مالية في شكل هدايا أو عطايا في مناسبات مختلفة، كشهر رمضان والعيدين. فقد نصت وقفية مدرسة حوانيت عاشور، على أن يزيد الوكيل للمدرسين والطلبة وغيرهم من موظفي المدرسة في رواتبهم من فائض أوقاف المدرسة[5].

ومن الإحسانات التي تمتع بها المدرسون من طرف الحكام ، مرتبهم الذي لم ينقطع بالرغم من الانقطاع عن التدريس لأسباب صحية أو غيرها، نذكر على سبيل المثال "قاسم بن عبد الملك الحجازي" (لم نقف على تاريخ وفاته) الذي كان يرسل إليه الباي "حسين بن علي" مرتبه إلى بيته

---

[1]- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 95 .

[2]- نقلا عن: الماجري، مرجع سابق، ص 212 .

[3]- خوجة، مصدر سابق، ص 143 .

[4]- نفسه، ص 136 .

[5]- "وقفية بتاريخ أواسط ربيع الثاني 1159هـ/ أوائل ماي 1746م". أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 428، 429 .

بسبب المرض[1]. كما استمر مرتب" أبي عبد الله السويسي" ولم ينقطع بسبب الوعكة الصحية التي ألزمته البقاء في المنزل. فأمر الباي "علي باشا" مدّه بمرتبه كإعانة له[2].

3.2.1.الزوايـــــا:

كانت العديد من الزوايا تتلقى الإعانات والهبات، ممثلة في الهناشر والإقطاعات، لإعانتها على نشر التعليم وتحفيظ القرآن، وإطعام الطعام للفقراء والمساكين وعابري السبيل. ومن هذه الزوايا، الزاوية البكرية فقد كان الحكام من الحفصيين والمراديين والحسينيين يحسنون إليها ليوفروا لها وسائل القيام بأهدافها الاجتماعية[3]. ومن الزوايا التي تتعهد بتعليم القرآن الكريم وإطعام الطعام، الزاوية النورية حيث كان "علي النوري" يحسن للطلبة ويطعمهم الطعام من ماله الخاص[4]. كما أخذت الزاوية على عاتقها مسؤولية التكفل بالإنفاق على طلبتها من تبرعات أهل الفضل والإحسان[5].

كما تجدر بنا الإشارة إلى إحسانات توزع من طرف رجال السلطة على الزوايا قصد إتمام بنائها أو إصلاحها، أو توزيع الخبز عليها وهو ما يعرف "بالسمّاط". والجدول التالي يوضح الإحسانات التي وزعت على بعض الزوايا والأضرحة في مناسبات مختلفة، كمرور الباي في المحلة، أو يوم لباسه للقفطان، ومواسم أخرى كعاشوراء وشهر رمضان، والمولد النبوي الشريف ....

جدول رقم (28): قيمة الإحسانات التي استفادت منها بعض الزوايا [6] .

الزاوية التي استفادت من الإحسان	قيمة الإحسان بالريال	السنة
إحسان على بناء زاوية الشيخ سيدي الحلفاوي	150	1142هـ/ 1730م
إحسان على إصلاح زاوية سيدي الكلاعي	50	" "
إحسان لزاوية الوحيشي	10	1170هـ/ 1756م

[1]– السراج، مصدر سابق، مج3، ص 363 . أنظر أيضا: خوجة، مصدر سابق، ص 257 .

[2]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 163 .

[3]– قاسم، مرجع سابق، ص 196 .

[4]– خوجة، مصدر سابق، ص 128 .

[5]– مقديش، مصدر سابق، مج1، ص 13 .

[6]– الشربطي، مرجع سابق ، ص ص 553-557.

إحسان لزاوية سيدي العيوني	06	" "
إحسان لزاوية سعد الهمامي	04	" "
صدقة بزاوية سيدي محرز بن خلف ليلة عاشوراء	30	1173هـ/ 1759م
إحسان لزاوية سيدي بوحميدة	06	1178هـ/ 1764م
حق خبز صدقة بالمدارس والزوايا والرباطات على يد مشايخهم	87	جمادى الثانية سنة 1179هـ/ 1765م
حق خبز صدقة بمقام الشاذلي	58.5	جمادى الثانية من نفس السنة
إحسان لزاوية الشيخ القرداوي بالقيروان يوم لباس سيدي حمودة باشا القفطان غرة محرم	$30,^{1}/_{4}$	1191هـ/ 1777م
إحسان لزاوية الشيخ سيدي غيث بن قاسم	42	1192هـ/ 1778م
إحسان لزاوية سدي عباس الغرياني	30	" "
إحسان لزاوية مرابط المزقيد	15	" "
إحسان لزاوية القابسي بالقيروان	09	" "

إن المتأمل في الإحسانات يلاحظ بوضوح تنوعها واختلاف قيمتها وأهميتها من مؤسسة لأخرى. وهذا ما جعلنا نتساءل، هل كانت توزع لأغراض علمية ودينية، أم كانت لها أغراض أخرى كامنة؟ للإجابة على هذا التساؤل لا بد من الاضطلاع على دور هذه المؤسسات ورجالاتها في المجتمع، خاصة منها الزوايا.

إن لهذه الأخيرة أهمية كبيرة في الحياة الاجتماعية من جهة، ومن جهة أخرى تعد طرفا فاعلا في سياسة الدولة، فهي همزة وصل بين الحاكم والمحكوم. لذلك لا نستبعد سر الإحسانات والهبات التي تحظى بها هذه الأطر ومحاولة احتوائها من طرف السلطة، واستغلال مكانة رجالها الروحية لتحقيق مآرب سياسية، والمتمثلة في الولاء وضمان استمرارية الحكم .

2.النفقات – المصاريف– :

1.2.الأجور والمرتبات:

1.1.2. أجر المؤدب:

يختلف أجر المؤدب من مكتب لآخر، وذلك حسب مصدر مورد الكتّاب، فهناك كتاتيب تابعة لأوقاف مدرسة أو جامع، وأخرى لها أوقاف خاصة بها، وكتاتيب تتأتى أجور مؤدبيها من آباء الصبيان. وهذا ما سنبينه أدناه بالتفصيل.

– الصنف الأول: الكتاتيب التي تحظى بمرتبات يومية وشهرية، ولا يكون لها أحباس خاصة بها، وإنما هي ملحقة بأوقاف مدرسة أو جامع، وتنتفع بجزء من مداخلها. وهذا ما يبينه لنا الجدول التالي:

جدول رقم (29): قيمة أجر مؤدبي الكتاتيب[1] .

المكتب	قيمة الأجر اليومي	السنة	الشرط الوارد في الحبس
المكتب الكائن تجاه التربة الحسينية الصغرى[2]	ناصريان	1127هـ/ 1715م	–
المكتب الملاصق للجامع الجديد	ستة نواصر	1142هـ/ 1730م	بشرط أن لا يأخذ على الصبيان شيء
مكتب مدرسة حوانيت عاشور	ربع ريال	1159هـ/ 1746م	بشرط أن لا يأخذ على الصبيان شيء
مكتب الجامع الجديد[3]	نصف ريال	–	–
مكتب متصل بتربة سيدي محرز بن خلف[4]	ربع ريال	1203هـ/ 1789م	بشرط أن لا يأخذ على الصبيان شيء

[1]– الماجري، مرجع سابق، ص 221 .

[2]– ما رتب من فاضل محصول أوقاف المدرسة الحسينية الصغرى، لمن يكون مؤدبا بالمكتب . "وقفية بتاريخ أوائل جمادى الأخرى 1127هـ/ أواسط جوان 1715م". أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص ص 155، 156 .

[3]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 301 .

[4]– الماجري، مرجع سابق، ص 222 .

مكتب بمدرسة يوسف صاحب الطابع[1]	نصف ريال	1228هـ/ 1813م	–
مكتب المدرسة الصادقية[2]	5 ريال	1292هـ/ 1875م	–

نستنتج من خلال الإحصائيات الواردة في الجدول أعلاه أن راتب المؤدب يختلف من كتّاب لآخر، وذلك وفقا لأهمية الأحباس المخصصة لها، ووفقا للمقدار الذي يحدده المحبّس. بالرغم من أن ممارسة التأديب قد اعتبرت حرفة مثلها مثل باقي الحرف الأخرى، إلا أنه كثيرا ما كان يشترط المحبّس أن لا يأخذ المؤدب في مقابل أجره أي شيء على الصبيان. ولعل هذا الصنف من الشروط أدت في الفترات اللاحقة إلى شلل الكتاتيب، حيث لم يراع الشرط المذكور مسألة تغير قيمة العملة[3].

ومن خلال هذا الشرط يتبين لنا حرص المحبس على توفير تعليم مجاني للفئات الاجتماعية الفقيرة، من أجل تحقيق صدقة جارية تخدم صاحبها، وتضمن له أجرها وثوابها في الآخرة. وهو ما يستجيب لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له » .

– الصنف الثاني: وهي الكتاتيب التي تحظى بأحباس خاصة بها، وبالتالي لا تخضع إلى نظام الرواتب، حيث ينتفع المؤدب مباشرة بتلك الأحباس ويتصرف في مداخلها. ومن ذلك المكتب الملاصق لزاوية سيدي أحمد بن عروس، الذي أحدث تحته المؤدب حانوتا وهو المتصرف في الكراء وغيره[4].

[1]– المعموري، وثيقة عن تحابيس...، مرجع سابق، ص 261 .

[2]– أ. و. ت، س. ت، صد 64، م 746، وث 57 . نشير هنا أن المرتب الوارد في الوثيقة، هو مرتب شهري والمقدر بـ 150 ريال. وبعملية حسابية قمنا باستخراج المرتب اليومي .

[3]– الماجري، مرجع سابق، ص ص 221، 203 .

[4]– نفسه، ص 224 .

– الصنف الثالث: وهي الكتاتيب التي يحظى مؤدبوها بمرتبات شهرية من آباء الصبيان، أي أن المؤدب هنا بمثابة الأجير، وكثيرا ما كان يعاني هذا الأخير بتأخر الأولياء عن تسديد الأجر، وهذا ما يبينه تقرير "أحمد الكسراوي" أمين المؤدبين بالحاضرة، حيث يذكر أن الأولياء "لا يعطون حق المؤدب بكل شهر بل بعد شهرين وأكثر مع أنه ريال واحد"[1]. وبالتالي، فإن أجرة المؤدبين في هذه الحالة تشهد عدم الاستقرار، لأنها رهينة قدرات أو رغبة الآباء في الدفع[2]. كما يختلف أجر المؤدب من منطقة لأخرى، فعلى سبيل المثال تذكر الأستاذة "عصامي" في دراستها التي أعدتها حول التعليم بالجريد، أن صبيان المنطقة يحضرون كل يوم الأربعاء إلى المؤدب " الربعية"، وتتمثل في بعض النقود حسب المقدرة ومن لا يستطيع ذلك يحضر بعض البيض أو العسل أو القمح أو التمر... وفي آخر كل شهر يُعطى مبلغ مالي للمؤدب حسب الاستطاعة لأن مقدارها غير مضبوط، وهي تتراوح عموما بين واحد وخمسة ريالات[3].

لكن المثير للانتباه أن اتخاذ أجرا على تعليم الصبيان القرآن الكريم، ظل مسألة أُثير فيها الجدل الكثير بين الفقهاء، فمنهم من يرى أن التعليم في هذه المرحلة يكتسي الصبغة الدينية، وبالتالي يجب أن يكون في سبيل الله تعالى لإصلاح ناشئة المسلمين، لا طمعًا في مال أو جاه[4]، أي أنه عمل خيري، يرجى منه الأجر والثواب من الله. وهذا ما تؤكده إحدى الرسائل التربوية، حيث جاء فيها: "...استئجار المعلم لأدب الوِلدان من الكذب والسرقة وغير ذلك، وأما القرآن فالله يعلمه لمن يشاء ويرضى لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2)﴾[5]. وهناك من أجاز أخذ أجرة على الصبيان، خاصة إذا كان المؤدب فقيرا أو لا يملك إلا الشيء القليل، ومن الذين أجازوا أخذ الأجرة الرسول صلى الله علية وسلم[6]. ومن بين الفقهاء الذين أجازوا ذلك أيضا، نذكر منهم الفقيه "سحنون"[7].

---

[1]– أ. و . ت، س.ت، صد 63، م 742، "تقرير بتاريخ أوائل ربيع الأول 1292هـ/ أوائل أفريل 1875م"، وث 9 .

[2] – الماجري، مرجع سابق، ص 225 .

[3]– عصامي، مرجع سابق، ص ص 118، 119 . أنظر أيضا: Abdel Maoula, op.cit., p. 76.

[4]– طلس، مرجع سابق، ص 60 .

[5]– الآية 1 و2 من سورة الرحمن. أنظر: مجهول، رسالة في تعليم الصغار، مخطوط رقم 6327، د. ك. و، تونس، رس 9، ص 136 .

[6]– طلس، مرجع سابق، ص 73 .

[7]– ابن سحنون، مصدر سابق، ص ص 119 – 126 .

وبالرغم من اجتهاد الفقهاء في إيجاد مخرج وإصباغ شرعية الحصول على الأجر، والإقرار بشرعية ممارسة التعليم كحرفة للارتزاق، إلا أن القناعات الموروثة عن الممارسات الأولى ظلت راسخة نوعا ما بترسُباتها في الذهنيات[1]. فالكثير من المؤدبين كانوا يمارسون المهنة مجانا، نذكر من بينهم "عبد الله محمد الفرياني"(لم نقف على تاريخ وفاته) الذي كان يعلم أطفال المسلمين احتسابا لله تعالى[2].

2.1.2.أجر المدرس:

يرى "ابن خلدون" أن القائمين بمهمة التعليم والقضاء والفتية والإمامة والخطابة ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب، لأنهم لا يتقاضون إلا القليل[3]. إلا أن هناك من المدرسين من عظمت ثروتهم، ويكون ذلك في الغالب نتيجة انتمائهم إلى سلك القضاء أو الإفتاء أو وظائف أخرى هامة، بالموازاة مع مهنة التدريس. أي نجد مدرسا يجمع أكثر من مهنة، نذكر على سبيل المثال "أحمد العوادى" (ت سنة 1243هـ/18128م) الذي تولى خطة التدريس والتوثيق[4]، و"أحمد بن عاشور" (ت 1255هـ/ 1839م) الذي كان مدرسا بالجامع الأعظم، ويمارس مهنة التوثيق[5]. وتفاوت ثروة المدرسين أمر لا ريب فيه، فهناك الثري الذي لا يمثل إليه أجر التعليم إلا قسطا ضئيلا من مداخله، بينما يراه الآخر أنه أجر متواضع لا يكاد يسد حاجات أسرته[6].

وللإشارة فإن أجر المدرّس يعيّنه في الغالب مؤسس المدرسة، فيتقاضى مُرتّبا مقابل ما يلقيه من دروس، وغالبا ما يكون نصيبا من ريع وقف خاص[7]. وقد أمدتنا الوثائق المتوفرة بين أيدينا بمعلومات تخص الأجر اليومي والشهري الذي يتقاضاه المدرس. وهذا ما سنبينه في الجدول التالي:

---

[1]– الماجري، مرجع سابق، ص 226 .

[2]– مقديش، مصدر سابق، مج2، ص 226 .

[3]– ابن خلدون، مصدر سابق، ص 210 .

[4]– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 151 .

[5]– نفسه، ج8، ص 44 .

[6]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص ص 90 ، 91 .

[7]– زهير بن يوسف، مرجع سابق، ص 59 .

جدول رقم(30): قيمة الأجر اليومي أو الشهري للمدرس[1] .

المدرسة	قيمة الأجر اليومي أو شهري[2]	السنة
المدرسة الحسينية الصغرى	46 ريال (ش) 8 نواصر (ي)	1123هـ/ 1711م 1293هـ/ 1876م[3]
مدرسة النخلة	8 نواصر (ي) 30 ريال (ش)	1142هـ/ 1730م 1293هـ/ 1876م
مدرسة حوانيت عاشور	نصف ريال، بزيادة ثمانية عشر ريال في السنة (ي) 20 ريال (ش)	1159هـ/ أوائل ماي1746م 1293هـ/ 1876م
الباشية	نصف ريال، بالإضافة إلى ثمانية عشر ريالا في كل سنة (ي) 60 ريال (ش)	1159هـ/ أوائل ماي1746م 1293هـ/ 1876م
المدرسة الحسينية الكبرى –الجديدة–	46 ناصري (ي) 51 ريال (ش) للمدرس الحنفي 15 ريال (ش) للمدرس المالكي	1191هـ/1777م 1293هـ/ 1876م
يوسف صاحب الطابع	1 ريال (ي) 56 ريال (ش)	1230هـ/ 1815م 1293هـ/ 1876م
مدرسة محمد باي بباجة	48 ريال (ش)	1149هـ/ 1736م

[1]– قمنا رصد إحصائيات الجدول انطلاقا من المصادر والمراجع التالية :

– "وقفية لصالح المدرسة الحسينية الصغرى بتاريخ أواخر صفر 1123هـ/ أواسط أفريل 1711م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 150.

– "وقفية لصالح مدرسة النخلة بتاريخ أواسط حجة الحرام 1142هـ/ أواسط جويلية 1730م" . أنظر: نفسه، ص 216.

– "وقفية لصالح المدرسة العاشورية بتاريخ أواسط ربيع الثاني 1159هـ/ أوائل ماي1746م" . أنظر: نفسه، ص ص 425– 427.

– أنظر رسوم التحابيس لفائدة المدرسة، بالعودة إلى: نفسه، ص ص 425، 426، 452 .

– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 299 .

– المعموري، وثيقة عن تحابيس...، مرجع سابق، ص 260 .

– زهير بن يوسف، مرجع سابق، ص 56 .

– الماجري، مرجع سابق، ص 224 .

– أ . و . ت. س.ت ، صد 64، م 746، مصدر سابق، وث 57 .

[2]– نشير هنا أن المرتبات التي أشرنا أمامها بالحرف ((ش)) هي مرتبات شهرية، بينما المرتبات المشار أمامها بالحرف ((ي)) فهي مرتبات يومية.

[3]– كل المرتبات التي تعود إلى هذه السنة، قمنا برصدها انطلاقا من: أ. و. ت، س. ت، صد 63، م 739، "قائمات إحصائية لمدارس الحاضرة وبيان بعض مصاريفها"، وث 03، 04 .

المدرسة الشماعية	30 ريال (ش)	1293هـ/ 1876م
المدرسة المرادية	25 ريال (ش)	" "
المدرسة المنتصرية	25 ريال (ش)	" "
المدرسة المرجانية	45 ريال (ش)	" "
المدرسة التوفيقية	27 ريال (ش)	" "
المدرسة السليمانية	26 ريال (ش)	" "
مدرسة جامع الجديد	22 ريال (ش)	" "
مدرسة سيدي يوسف	26 ريال (ش)	" "
المدرسة الحربية بباردو[1]	100 ريال (ش)	1281هـ/ 1864م
المدرسة الصادقية[2]	250 ريال (ش)	1294هـ/ 1877م

إن المتأمل في المرتبات الواردة بالجدول أعلاه يلاحظ بوضوح ذلك الاختلاف الشاسع في مرتبات المدرسين، حيث سجلنا في سنة 1293 هـ/ 1876م أدنى مرتب قُدر بـ 20 ريال بمدرسة حوانيت عاشور، وأقصاه بالمدرسة الصادقية بمرتب قُدر بـ 250 ريال. ونعتقد أن هذا الاختلاف يعكس قيمة المدرسة الصادقية آنئذ حيث كان يتم تشجيع المدرسين بمنحهم مرتبات تليق بمقامهم ومقام المدرسة. ومن جهة أخرى يمكن إرجاع ذلك إلى عائدات الأوقاف التي تتكفل بمختلف مصاريف المدرسة منها مرتب الشيخ المدرس، فلا يمكننا أن نغفل عن قيمة عائدات أوقاف المدرسة الصادقية، فقد بلغت عائداتها في السنوات الأولى من تأسيسيها بـ 2400 فرنك[3].

كما يذكر "محمد بيرم الخامس" في صفوته أن الأوقاف التي خصصها الوزير لصالح المدرسة يزيد دخلها السنوي عن 250 ألف ريال[4]. وهذا ما يفسر حسب اعتقادنا ارتفاع أجر مدرس الصادقية مقارنة بأجور زملائه بالمدارس الأخرى. وفي هذا السياق يؤكد التقرير الذي أرسله رئيس جمعية الأوقاف "محمد بيرم الخامس" (ت 1307هـ/ 1889م) إلى الوزير الأكبر "خير الدين" بتاريخ 3 محرم 1293هـ/ 29 جانفي 1876م، أن المشايخ المدرسين يتقاضون أجرا شهريا، لكنه يختلف من مدرسة لأخرى، وذلك حسب تنوع المداخيل المالية. وهذا أهم ما جاء فيه: "... إن المدارس بالحاضرة لها مرتبات جارية للمشايخ والتلامذة منها ما هو بنص المحبس ومنها ما هو

[1]– الماجري، مرجع سابق، ص 224 .

[2]– أ . و . ت. س.ت ، صد 64، م 746، وث 57 .

[3]– عبد السلام، المدرسة الصادقية ...، مرجع سابق، ص 23 .

[4]– بيرم الخامس، مصدر سابق، ص 66 .

بأوامر علية ومنها ما هو بجاري العادة لعدم وجود النص مع التفاوت بينها في المقدار فالمشايخ بعضهم يبلغ مرتبه في الشهر خمسة وأربعين وبعضهم دون ذلك إلى الخمسة عشر مع أن القيام بالوظائف التي عليها المرتبات لا يتيسر الاحتساب عليها والحالة هاته ولأن قد طلب بعض من لم تكن بمدرسته تلامذة أصلا المرتب فيها نحن انهينا ذلك إلى حضرتكم العلية لترشدونا إلى ما يكون عليه العمل"[1].

أما تغيّر الرواتب فهو راجع بالأساس إلى تغير قيمة العملة[2]، حيث أصبح راتب شيخ مدرسة صاحب الطابع 56 ريال سنة 1293هـ/ 1876م، مقابل30 ريال في الشهر سنة 1230هـ/ 1815م .

تشير المصادر بدورها أن المدرسين كانوا يتقاضون أجرا، ويعتبر الباي "حسين بن علي" من البايات الحسينيين الذين سنوا عادة إعطاء الرواتب، فقد خصّ "للشيخ "محمد سعادة" (ت سنة 1171هـ/ 1757م) مرتبا بعد تعيينه مدرسا بجامع الزيتونة[3]. كما عيّن أجرا للمدرس "أحمد زروق" الذي كان يدرس بمسجد والده بالقيروان[4].وعيّن "علي باي الثاني" لكل مدرس مرتبا خاصا به[5].

3.1.2.أجور الموظفين – المدارس والجوامع أنموذجا – :

إنه لمن الصعب ضبط عدد الموظفين الموجودين في كل المدارس والجوامع، ومعرفة مهام كل واحد منهم، فالمصادر لم تخصهم بالذكر إلا نادرا، لذلك كان لا بد علينا استقراء المادة الأرشيفية المتوفرة بين أيدينا، للتعرف على الموظفين القائمين على المدارس والجوامع، وفي نفس الوقت التعرف على الأجور التي يتقاضونها. وتعتبر الوثائق الخاصة بعقود التحبيس السبيل للوصول إلى ما نصبو إليه. وهذا ما سنوضحه في الجدول التالي:

---

[1]– أ. و .ت، س. ت، صد 61، م 691 ، " مراسلة صادرة عن رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر"، وث 05 . أنظر نص الوثيقة كاملا في الملحق رقم 17، ص370 .

[2]– أنظر: محمود فروة، "النظام النقدي في تونس في القرنين الثامن والتاسع عشر: مدخل لدراسة احد مؤشرات اقتصاد الإيالة التونسية (1740–1891م)"، م. ت .ع . للد.ع، ع 1– 2، جانفي 1990م، ص ص 215– 233 .

[3]– خوجة، مصدر سابق، ص 249 .

[4]– نفسه، ص 124 .

[5]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 204 .

جدول رقم (31): عيّنات لأجور الموظفين ببعض المؤسسات التعليمية [1] .

المدرسة/الجامع	المنتفعون	قيمة الأجر اليومي	ملاحظات
المدرسة الحسينية الصغرى	الإمام المرتب لإقامة الصلوات الخمس بمسجدها	2 ناصري	–
	القيم بالمدرسة وبيوتها من كنس وفرش حصر وغلق وإيقاد مصابيح	4 نواصر	–
	الوكيل الناظر للأحباس	" "	–
مدرسة حوانيت عاشور	القائم بشؤونها من كنس وفرش حصر وحل وغلق وإيقاد مصابيح وغيرها من الضروريات	" "	–
	الوكيل الناظر على أحباسها	" "	ذكر المحبس أنه تم زيادته 6 نواصر، وبالتالي أصبح المرتب بقيمة 10نواصر
	إمام المدرسة	1 ناصري	–
المدرسة الباشية	خوجات حنفية: – خوجة يقيم الصلوات الخمس – خوجة يقرأ سورة الملك بعد الزوال وسورة عمّ بعد صلاة العصر – خوجة يقرأ في المصحف الموجود	2 نواصر " " " "	–

[1] – قمنا برصد إحصائيات الجدول انطلاقا من المصادر والمراجع التالية :

– يمكن الإطلاع على الوقفيات المتعلقة بهذه المدارس، بالعودة إلى: السعداوي، مرجع سابق .

– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 300 .

– المعموري، وثيقة تحابيس...، مرجع سابق، ص ص 260، 261 .

– "وقفية فاطمة عثمانة لصالح جامع الزيتونة والجامع الجديد وتربتها بتاريخ أواسط ذي الحجة 1139هـ/ أوائل أوت 1727م" . أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 343.

– المعموري، وثيقة عن تحابيس...، مرجع سابق، ص ص 258– 260 .

– أ. و. ت، س.ت، صد 64، م 750، "مرتبات موظفي المدرسة الصادقية لسنة 1293هـ/ 1876م"، وث 02.

	بمسجد المدرسة أربعة أثمان من القرآن العظيم بين الصلاتين، قرب صلاة العصر		
	ثمانية قُراء مالكية حافظين للقرآن الكريم يقرءون حزبين كل يوم بعد صلاة العصر	ناصرين لكل قارئ	–
	شيخ القُراء	4 نواصر	–
	القائمان على الكنس والتسييق	4 نواصر لكل واحد منهما	–
	القائم على ملئ الماء بالدولاب وبغيره بميضأة المدرسة	8 نواصر	–
	الوكيل الناظر على أوقاف شؤون المدرسة	" "	–
	مستخلص الأكرية من تحت نظر الوكيل	4 نواصر	–
	شاهد عدل يقيد محصول الأوقاف والمصاريف	" "	له زيادة في حالة معاينة العمال القائمين على ترميم المدرسة
المدرسة الحسينية الكبرى	شيخ حنفي	–	لم يذكر الراتب
	شيخ مالكي	–	
	شيخ يقرئ القرآن	–	
	ثمانية مؤذنين	–	
	ناظر الأوقاف	1 ريال	–
مدرسة يوسف صاحب الطابع	الشاهد على الأوقاف	نصف ريال	–
	ثلاثة ميضاوية – بالمدرسة والجامع–	ربع ريال و1 خروبة لكل ميضاوي	–
جامع الزيتونة	ثمانية قراء	ناصري لكل قارئ	يقرؤون كل يوم حزبين

	شيخ القراء	ناصريين	–
	المدرس	4 نواصر	يقرئ الفقه والتوحيد وغير ذلك
جامع يوسف صاحب الطابع	إمام الصلوات الخمس	ربع ريال	–
	خليفة الامام	"	–
	خطيب يوم الجمعة والعيدين	6 خرارب	–
	خليفة الخطيب	خروبتان	–
	إمام صلاة التراويح في شهر رمضان	20 ريال في الشهر	–
	خواجات الجامع: باش خوجة (كبيرهم) أربعة خواجات الباقين	ربع ريال 10 نواصر لكل واحد	–
	القارئ على الختمة	خروبتان في اليوم	–
	المؤذن	"	–
	12 وقّاد	8 نواصر لكل واحد منهم	–
	2 سقاية يناولون الماء للجالسين بالجامع أوقات الصلاة	3 نواصر للواحد	–
المدرسون	شيخ درس التفسير	6 خرارب	–
	مدرس الحديث والعلوم الشريعة	ربع ريال	–
	مدرس الحديث	6 خرارب	–
	مدرس صحيح البخاري	ربع ريال	–
	مدرس علوم القرآن	"	–

	مدرس يدرس درسا واحدا في أي فن من فنون العلوم الشرعية	"	–
المدرسة الصادقية[1]	الإمام	150ريال	–
	المجود	"	–
	الكاتب	300 ريال	–
	الطبيب	200 ريال	–
	معلم الخط الثلثي	150 ريال	–
	الكامنجي	"	–
	03 قيّمين	405 ريال شهريا	لكل واحد 150 ريال
	02 قيّمين بالمضيئة	150 ريال شهريا	لكل واحد 75 ريال
	الطباخ ومساعديه	170ريال شهريا	90 ريال له، و40 ريال لكل واحد من مساعديه
	المكلفون ببيت الصفرة	100 ريال شهريا	–
	ثلاثة ورقلية مكلفون بالنظافة	"	–
	المكلف بتوصيل التلامذة إلى ديارهم	120 ريال شهريا	–
	العساس بالسطح	30 ريال شهريا	–
	البواب	100 ريال شهريا	–

نلاحظ أن هناك اختلاف في عدد الموظفين من مؤسسة لأخرى، لكن بصفة عامة كل مدرسة نجد فيها المدرس الذي يشترط أن يكون إما مالكيا أو حنفيا حسب المذهب الذي

[1] – تجدر بنا الإشارة إلى أن مرتبات موظفي المدرسة الصادقية المذكورة هي شهرية وليست يومية .

حُبست له المدرسة، كما يتم تحديد العلم الذي يقوم بتدريسه –كما ذكرنا ذلك سابقا– ، كما وردت تسميات لوظائف أخرى مثل: الوكيل الناظر، وهو من يتولى شؤون الوقف، والقيّم، وهو من يتولى جميع خدمات المدرسة والقيام بمستلزماتها من (كنس وفرش وحصر وغلق وإيقاد المصابيح...) والميضاوي ،والبواب. وللإشارة، فإنه كثيرا ما كان يشغل الموظف الواحد عدّة مهام، حيث نجد على سبيل المثال الشيخ المدرس بالإضافة إلى مهمته المتمثلة في التدريس، توكل إليه أيضا مهمة الإمامة بالمدرسة[1]، كما يشرف على النظام الداخلي، وفي بعض الأحيان الوكيل على الأحباس[2].

وحسب اعتقادنا أن تزايد وتناقص الموظفين، واشتغال موظف واحد في أكثر من وظيفة، مرده إلى أهمية الأحباس الموقوفة على كل مدرسة. فكلما كانت أحباس المدرسة لا بأس بها كلما كان عدد الموظفين أكثر، ومرتباتهم أحسن. وما شد انتباهنا هو غياب بعض الموظفين الذين نعتقد ضرورة وجودهم، مثل: المشرف على مكتبة المدرسة، والطباخ، هذا الأخير الذي لم يكن موجودا في المدارس التي تطرقنا إليها بالرغم من ورود مصطلح مطبخة ببعض رسوم التحبيس[3]. وهذا ما أدى إلى تكفل الطالب بطهي الطعام بنفسه[4].

لاحظنا ورود بعض الاستثناءات بالمدرسة الصادقية، حيث سجلنا حضور موظفين لم نجد لهم ذكر من قبل مثل (الكامنجي، الطبيب، والمكلف بتوصيل التلامذة إلى ديارهم). ويعود وجودهم حسب اعتقادنا بالمدرسة الصادقية بالضبط إلى عصرنة التعليم بهذه المؤسسة، والتفتح على نمط المدارس الأوربية. فالطبيب وُجد لتفحص حالة الطلبة بشكل دوري والاطمئنان على صحة التلاميذ[5]. وتم استحداث مادة لم يكن لها وجود في مدارس أخرى وهي "الموسيقى". كما حظي تلاميذ المدرسة بمرافق إلى منازلهم، والظاهر أن المقصودين هنا هم صبيان كتّاب المدرسة لأنهم صغار السن ويحتاجون إلى المرافقة.

---

[1]– أنظر على سبيل المثال: "رسم تحبيس خاص بالمدرسة الباشية بتاريخ أواسط ذي الحجة 1177هـ/ أواسط جوان 1764م". السعداوي، مرجع سابق، ص 452 .

[2]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 98 .

[3]– أنظر: "رسم تحبيس خاص بالمدرسة الحسينية الصغرى بتاريخ أواخر صفر 1123هـ/ أواسط أفريل 1711م". السعداوي، مرجع سابق، ص 149 .

[4]– أنظر: الباب الأول، الفصل الثالث، ص 174 .

[5]– عبد السلام، المدرسة الصادقية ...، مرجع سابق، ص 20 .

أما الجوامع فهي الأخرى لوحظ فيها اختلاف في قيمة رواتب القائمين عليها، فإذا أخذنا على سبيل المثال راتب المدرس بجامع الزيتونة الذي قُدر بـ أربعة نواصر، في حين تراوح ما بين ستة خرارب إلى ربع ريال بجامع "يوسف صاحب الطابع. وهذا راجع إلى نسبة مداخيل الأحباس الموقوفة على كل مؤسسة –كما سبقنا الذكر–.

4.1.2.منحة الطلبة:

تؤكد بعض الدراسات أنه لم تكن توجد منح خاصة بالطلبة في الفترة الحفصية، إلا أنه بداية من الفترة العثمانية، وبالضبط في مرحلة حكم "يوسف داي"(1019- 1047هـ/ 1610- 1637م) قام بتعيين منح خاصة للطلبة القاطنين بالمدرسة اليوسفية، ومن بعده "مراد باي الثاني"(1077- 1086هـ/ 1666- 1675م) الذي اشترط في تحبيسه على المدرسة المرادية أن يكون لكل طالب ناصريان في اليوم من مداخيل الأوقاف[1]. ونفس التقليد واصله بايات الأسرة الحسينية.

جدول رقم(32): أنموذج لقيمة المنحة التي كان يتقاضاها الطالب ببعض المدارس لسنة 1293هـ/ 1876م[2] .

المدرسة	قيمة المنحة الشهرية/ الريال
المدرسة الحسينية الصغرى	4 ريال
مدرسة النخلة	3 ريال
مدرسة حوانيت عاشور	4 ريال
المدرسة المنتصرية	"
مدرسة جامع يوسف صاحب الطابع	"
المدرسة الجديدة – الحسينية الكبرى–	– 2 ريال للطلبة الحنفية – 2 ريال للطلبة المالكية
مدرسة بئر الحجار	4 ريال
المدرسة الشماعية	2 ريال
المدرسة المرادية	"
المرجانية	5 ريال

[1]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، مرجع سابق، ص 103 .

[2]– أ. و. ت، س. ت، صد 63، م 739، وث 03، 04 .

التوفيقية	7 ريال

نلاحظ أن منحة الطالب تختلف من مدرسة لأخرى، حيث سجلنا أعلى منحة كان يتقاضاها الطالب بالمدرسة التوفيقية قيمتها سبعة ريالات للطالب الواحد في الشهر، ثم تليها المدرسة المرجانية بخمس ريالات، وأخفضها ريالين بمدارس أخرى كالشماعية والمنتصرية والمرادية... ولعل أن هذا الاختلاف والتفاوت في مبلغ المنحة، راجع حسب اعتقادنا إلى حجم الأحباس الموقوفة على كل مدرسة. وبالتالي من الطبيعي أن يحاول الطالب الالتحاق بالمدرسة التي توفر له أفضل منحة [1]. كما استفاد الطلبة بالإضافة إلى المنحة، من حسنات وصدقات صاحب المؤسسة التعليمية أو من طرف الحكام، فقد كان "علي النوري" يحسن إلى الطلبة ويطعمهم الطعام ويكسوهم من ماله الخاص. كما كان يرسل "حسين بن علي" الطعام إلى طلبة الزاوية الجمنية بجربة [2]. كما كان "حسين بن علي" من أكثر البايات الحسينيين كرما وتصدقا على الطلبة، ويذكر لنا "الصغير بن يوسف" في هذا الصدد أن الباي كان يهتم بالمدارس وطلبتها، من خلال "مدهم بالإحسانات السنية"[3].

كما استفاد طلبة الزوايا والمقامات التي كان يزورها البايات أو أثناء مرور المحلة من الإحسانات والصدقات، ومن ذلك الصدقة التي قدمها الباي "محمد الرشيد"(1169-1172هـ/ 1756- 1759م) خلال زيارته الأولى والثانية سنة 1171هـ/ 1757م و سنة 1172هـ/ 1758م لمقام الشيخ المسطاري ببنزرت، وتراوحت قيمة الإحسانات مابين 2 و 6 ريال[4].

3. نفقات أخرى:

1.3. مصاريف صيانة المؤسسات التعليمية– المدرسة الشماعية أنموذجا– :

تأخذ مصاريف صيانة المؤسسات التعليمية حصة الأسد من المداخيل، وقد سجلنا خلال الفترة المدروسة عمليات تخص صيانة المدرسة الشماعية.

---

[1]– ابن مامي، مدارس مدينة تونس...، ص 104 .

[2]– خوجة، مصدر سابق، ص ص 128، 132 .

[3]– مصدر سابق، مج1، ص ص 22، 23 .

[4]– الشربطي، مرجع سابق، ص 556 .

جدول رقم(32): مصاريف صيانة المدرسة الشماعية في جمادى الأولى 1183هـ/ 1770م[1].

الشهر والسنة التي خرج فيها المصروف	طبيعة المصاريف	قيمة المصروف/ بالريال
جمادى الأولى 1183هـ/ 1770م	– حق مسمار ورزز	ريال ونصف
	– حق نجار عن الباب والدفة	2 ريال
	– حق ترقيع الأبواب	" "
	– حق سمار للترقيع	ربع ريال
	– حق جبس لتركيب دفة البابين المذكورين	" "
		" "
رجب من نفس السنة	– حق بلاط جديد وتركيب سفالي جدد	2 ريال ونصف
	– حق خمسة أسطال جبسا بالحمالة لتركيب السفالي المذكورة	ربع ريال
	– حق أجرة خدام لتقليع البلاط القديم	" "
	– حق ثلاث وخمسين بلاطة مالطية	9 ريال ونصف
	– حمالة البلاط والسفالي المذكورة للمدرسة	نصف ريال
	– حق نقاشة الحجر	ريال ونصف
	– تجرية سطوح المدرسة والحوانيت المجاورة لها والمخزنين	23 ريال
	– حق اختبار مدى متانة جدران المدرسة	2 ريال
	– حق مفتاح لباب المدرسة لضياع مفتاحها السابق	نصف ريال

[1]– أ. و. ت، دفتر رقم 2304، يشتمل على بيان محصول أوقاف المدرسة الشماعية، وعلى بيان المصروف الخارج من ذلك في مصالح المدرسة (1186– 1199هـ/ 1773– 1785م)، ص ص 5 – 11.

2.3. مصاريف أخرى لصالح المدارس:

المدرسة	طبيعة المصاريف	قيمة المصروف اليومي	مصاريف/ ريال سنة 1293هـ/ 1876م[1]
المدرسة الحسينية الصغرى	لاستصباح القناديل بمسجد المدرسة	ناصريان في كل يوم	1835
	للدلو والحبل والميضأة والاستسقاء وثمن الحصر	" "	
مدرسة حوانيت عاشور	الزيت المعد لاستصباح قناديلها	" "	–
	للدلو والرشاء المعد للاستقاء من بئرها والحصر التي تفرش بمسجدها وصحنها	" "	
	للاستصباح بالمدرسة، وبمسجدها وصحنها وسقيفها ومرحاضها وصومعتها	ستة أمطار[2] زيت في كل سنة	
	لمصروف يوم ختم صحيح البخاري في أخريات شهر رمضان. تقسم كالآتي: – للشيخ المدرس – لكل طالب – للمؤذن – لنقيب المدرسة – لوقاد الجامع – لقارئ كتاب شيخ البوني – والباقي يصدق به للفقراء والمساكين[3]	25 ريال 3ريال ربع ريال ربع ريال " " 1 ريال 1 ريال	

[1]– أ. و. ت، س. ت، صد 63، م 739، وث 03، 04 .

[2]– المطر: مكيال للزيت وتختلف سعته من جهة لأخرى، في تونس المطر يساوي 20 لتر. أنظر: السعداوي، مرجع سابق، ص 429، هامش 1.

[3]– أنظر: "وقفية مدرسة حوانيت عاشور والتربة . وقفية بتاريخ أواسط ربيع الثاني 1159هـ/ ماي 1746م" . نفسه ، ص ص 430، 431 .

المدرسة الباشية[1]	لمصروف يوم ختم صحيح البخاري في أخريات شهر رمضان. تقسم كالآتي: – لراوي الحديث – لقارئ كتاب الشيخ البوني – لعشرة طلبة المقيمين بالمدرسة – لثمانية قراء – شاهد الحبس المذكور – قارئ كتاب دلائل الخيرات – الوقاد والميضاوي – لوقاد الجامع الأعظم – والباقي يصدق به للفقراء والمساكين	30 ريال 3 ريال 2 ريال 5 ريال 6 ريال ونصف نصف ريال " " " " 2 ريال 5 ريالات	–
	لاستصباح المدرسة والتربة	15 مطرا من الزيت في السنة، من حساب مطر واحد في الشهر، إلا شهر رمضان فله 4 أمطار لزيادة القناديل فيه	
		ما تحتاجه المدرسة من الحصر والقناديل والخفّاف والفخار والناف والشمع والطيب	يشتريه الوكيل وقت الحاجة إليه، ويقيده بزمام شاهد الحبس المذكور مع المصاريف الطارئة
المدرسة الحسينية الكبرى –الجديدة–	يوم ختم صحيح البخاري من شهر رمضان في كل سنة		4738

[1]– أحباس المدرسة الباشية . "وقفية بتاريخ أواسط حجة الحرام 1177هـ/ جوان 1764م" . السعداوي، مرجع سابق، ، ص ص 441–456.

	يوم عاشوراء من كل سنة يختن بها مائة صبي من الفقراء	يعطى لكل واحد كسوة وريال	
	زيت لاستصباح السرج بالإضافة إلى شمع وطيب[1]		
مدرسة وجامع صاحب الطابع	– 20 مطر زيت لإنارة القنادل في شهر رمضان، وشراء الزيت للاستعمال اليومي لإنارة القنادل – شراء القنادل – شراء خفاف وقطن – 3 محابس لوضع ماء الشرب – 4 حلالب – 3 قلال – شراء 60 خبزة، 30 منها لطلبة المدرسة، و30 أخرى لصبيان المكتب[2]	1 ريال ونصف في اليوم	–
مدرسة بئر الحجار	–	–	1692
مدرسة النخلة	–	–	1414
المدرسة الشماعية	–	–	684
المدرسة المرادية	–	–	1314
المدرسة الأندلسية	–	–	1679
المدرسة المنتصرية	–	–	1055

[1]– ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 300 . وللإشارة هنا أن المؤرخ لم يفصل لنا في المصاريف .

[2]– المعموري، وثيقة التحابيس...، مرجع سابق، ص ص 261، 262 .

المدرسة التوفيقية	–	–	1842
المدرسة المرجانية	–		1329

لاحظنا من خلال الجدول أن المحبسون خصصوا مقدارا من المداخيل، للقيام بما تحتاجه المؤسسات التعليمية والدينية من أشغال الرم والصيانة لتبقى قائمة، والأهم أن تواصل مهمتها التي أسست من أجلها، ألا وهي التعليم.كما خُصصت مصاريف لإحياء المواسم الإسلامية كليلة عاشوراء، وليلة النصف من شعبان ، وليلة المعراج، وليلة سبعة وعشرون من رمضان، وختم صحيح البخاري...

وفي خاتمة هذا الفصل نستنتج أن:

الأوقاف ساهمت بقسط كبير، لتواصل المؤسسات التعليمية والدينية في القيام بوظيفتها الاجتماعية ودورها التعليمي الديني، ومن ذلك التعليم بالكتاتيب باعتبارها الشريان الذي يغذيه .

تكمن أهمية الأوقاف في ضمان مرتبات ومداخيل المدرسين والموظفين وحتى الطلبة، ووجدناها أنها تختلف من مؤسسة لأخرى حسب أهمية وحجم الأوقاف المخصصة لها .

من خلال دراستنا للأوقاف التعليمية، وأسماء الواقفين تبين لنا أن المشاركة في الأوقاف لم تكن محصورة على الحكام والأمراء فقط، بل ساهمت فيه فئات المجتمع من الطبقة المتوسطة – عامة الناس– .

إن مشاركة الطبقة العامة في عملية الوقف، هو مساهمة في تمويل التعليم. وهذا دليل على وجود الوعي وروح المسؤولية في نشر التعليم والمساهمة في تمويله .

لاحظنا أن العديد من الوقفيات الخاصة بعامة الناس، تكون على أنفسهم ثم على ذريتهم ثم على ذرية ذريتهم وهكذا، قبل أن تؤول الأوقاف إلى المؤسسات التعليمية أو الدينية. على عكس الحكام وأصحاب الجاه والثروة، الذين كانوا يحبّسون مباشرة على المؤسسة المراد التحبيس عليها.

نستنتج أن أجور الموظفين ومنح الطلبة كانت توزع حسب الأولويات، وغالبا ما كانت تضع نصوص التحابيس الموظفين في مقدمة المستحقين، باعتبار أن لا قيام لمؤسسة بدونهم. أما الطلبة فيتصدرون أسفل سلم الرواتب. وإذا ضاق الحبس، فإن الطلبة يحذفون ويتركون[1].

[1]– الحناشي، مرجع سابق، ص 141 .

كان للإحسانات والصدقات دور بارز في مساعدة المؤسسات التعليمية وموظفيها، فقد لاحظنا أنها كانت في كثير من الأحيان سببا في استمرار التعليم، ومنع توقف بعض المؤسسات التعليمية من مواصلة التعليم بها. كما ساهمت في تحسين الأوضاع المادية للمؤدبين والمدرسين، الذين كانوا يشتكون من قلة الراتب.

تحصلت جل المؤسسات التعليمية على النفقات والمصاريف التي تحتاجها، إلا في حالة تراجع مداخيل وريع الأوقاف، فإن ذلك حتما سيؤدي إلى نقص أو صعوبة تحمل أعباء المصاريف والنفقات. كما أن الضائقة المالية التي كانت تعيشها البلاد غي عهد "محمد الصادق باي" كان لها آثار سلبية على التعليم والمدرسين، فقد لاحظنا كثرة الشكاوى والرسائل التي كانت تبعث إلى الوزارة الكبرى من طرف المدرسين مطالبين تسديد الأجور أحيانا، والزيادة فيها أحيانا أخرى .

أن قطاع التعليم بمختلف فروعه، قد ساهم بفضل مداخيل الأوقاف من تشغيل عدد من الموظفين. مما ساعد على امتصاص البطالة في المجتمع التونسي.

خاتمة الباب:

من كل ما تقدم ذكره في فصول الباب الثاني، يمكننا القول أن الحركات الإصلاحية والتحديثية التي شهدها العالم الإسلامي بين 1203 – 1281هـ/ 1789 – 1864م، كانت من الأسباب والدوافع التي حركت رجال الدولة والعلماء لضرورة إعادة النظر في أوضاع البلاد التونسية بما فيها الأوضاع التعليمية والفكرية، التي لا يمكنها أن تكون بمعزل عن باقي الأوضاع الأخرى. ولهذا فقد مثلت إصلاحات الباي "حمودة باشا الحسيني" البوادر الأولى لمسار إصلاحي، ما انفك يحقق نضجا ونجاحا في الربع الثاني من القرن 19م.

بدأت تجربة التعليم الحديث خارج المؤسسات التعليمية التقليدية من خلال بعث مؤسسات حديثة تعتمد على علوم ومناهج تعليمية جديدة، كالمدرسة الحربية بباردو والمدرسة الصادقية .

لاحظنا تباين آراء المصلحين حول طريق تحديث التعليم، باعتباره مظهر من مظاهر التنظيم الاجتماعي له ارتباط وثيق بمجالات الحياة الأخرى (السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية).

لم تستمر الإصلاحات الأحمدية والصادقية، بالشكل الذي أراده لها مؤسسوها فالتداعيات الداخلية والخارجية، حالت دون تحقيق الهدف المنشود. لتنطفئ شمعتها نهائيا بعد سقوط الإيالة التونسية في براثين الاحتلال الفرنسي .

الخاتمـــــة

لقد أفضت بنا دراسة النظام التعليمي بإيالة تونس خلال القرنين 12-13هـ/ 18-19م إلى كشف النقاب والإجابة عن العديد من الإشكالات والإستفهامات المطروحة، واستخلاص بعض الاستنتاجات الجوهرية أهمها:

ألقت دراستنا أضواءً على مختلف المؤسسات والمراكز التعليمية التي كانت موجودة بالإيالة خلال الفترة المدروسة. فلاحظنا وجود مؤسسات خاصة بالتعليم الابتدائي والمتمثلة في الكتاتيب، وأخرى متعلقة بتعليم ما بعد الكتاتيب، والمتمثلة في الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا والمكتبات. وبينت لنا دراستنا أن جلّ تلك المؤسسات موروثة عن الحفصيين والعثمانيين. لكن هذا لم يمنع من تسجيل مؤسسات تعليمية يعود تشييدها إلى الفترة الحسينية. وقد شارك في تشييدها إلى جانب الحكام، كبار موظفي ورجال الدولة وأصحاب الجاه والثروة. لكن ما يسجل كنقطة سلبية في تلك المنجزات، هو تمركز غالبيتها بالحاضرة تونس، وإهمال دواخل الإيالة، وهذا ما أدى إلى انتشار الجهل والأمية في الكثير من البوادي والأرياف.

بعد تتبعنا للمناهج التعليمية لاحظنا أنها لم تشهد تغييرا يذكر منذ الفترة الحفصية، وهي مشتركة ومتشابهة بين الدول الإسلامية عامة والمغاربية خاصة. تقوم أساسا في الكتاتيب على تعليم مبادئ الدين. أما في مرحلة ما بعد الكتاتيب فهي الأخرى لم تشهد تغييرا، فالكتب التي تدرس في الفترة الحسينية هي نفسها التي كانت تدرس منذ الفترة الحفصية. فلم تكن هناك تصانيف جديدة ماعدا بعض التآليف في الفقه الحنفي التي دخلت إلى الإيالة عن طريق الأتراك العثمانيين. وهذا ما أدى إلى انزلاق التعليم في مرحلة الجمود الفكري الذي ساده التكرار والنقل وكثرة الحواشي وشرح المصنفات والإطناب فيها والابتعاد عن روح البحث.

لاحظنا أن البرامج التعليمية كانت تتمحور أساسا على العلوم النقلية ذات الطابع الديني (القرآن، والحديث، والتفسير، والفقه...)، في حين تقلصت العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق والرياضيات...وبالتالي يمكننا القول أن التعليم كان يغلب عليه الطابع الديني البحت .

كما لامسنا غياب المقررات والبرامج المحددة والمضبوطة، حيث وجدناها تستند إلى اجتهاد وتصرف الشيخ المدرّس أو صاحب المدرسة أو الزاوية، حيث يختار من الكتب تلك التي يرغبها، أو حتى التي تكون تحت رغبة الطالب. وهذا راجع إلى غياب هيئة رسمية تابعة للدولة تقترح وتتابع البرامج التعليمية والمقررات. كما لم يكن هناك ضبط لأوقات التدريس، فقد تمتع المدرّس بحرية التصرف في الوقت، مما يؤدي لا محال إلى غياب الانضباط . لتختلف الأوضاع مع الإصلاحات

الأحمدية والصادقية التي جاءت بضرورة ضبط ومنهجة التعليم، وهذا ما لامسناه جلّيا في نص المعلقة. لكن كثرة غيابات المدرسين وتقاعس القائمين عليها حال دون تحقيق الهدف المنشود .

طرائق التعليم هي الأخرى لم تشهد تغييرا، حيث احتفظ التدريس بالطرق الكلاسيكية الموروثة، والمتمثلة في الإسماع والإلقاء والإملاء. هذه الطرق التي كانت مبنية أساسا على حشو ذهن المتعلم بالمعلومات، ليقوم بحفظها واسترجاعها. فغاب عن حلقات العلم النقاش والنقد والتحليل، وغلب عليها طابع الجمود والتكرار. لكن هذا لم يمنع من ظهور طرق تدريسية حديثة على يد علماء وشيوخ متضلعين، فتحوا من خلالها باب النقاش والمشاركة، وأصبح بذلك الطالب محور العملية التعلمية .

إن التجمد – إن صح التعبير– الذي انزلق فيه التعليم، دفع بالمفكرين والعلماء إلى التفكير في ضرورة إعادة النظر في النظام التعليمي التقليدي الذي أضحى لا جدوى ولا فائدة منه خاصة في خضم التغيرات والتداعيات التي يشهدها العالم الغربي. بالإضافة إلى الأوضاع الصعبة التي كانت تعيشها الإيالة في مختلف المجالات. كما لا ننسى أن الإيالة وقتئذ كانت مهددة باحتلال وشيك من طرف فرنسا، خاصة بعد احتلال الجزائر سنة 1246هـ/ 1830م .

لعبت الإجازة العلمية دورا هاما في المسار العلمي للطالب، فكانت بمثابة شهادة تخرجه، ووظيفته المستقبلية تتوقف على عدد الإجازات المتحصل عليها وأسماء الشيوخ الذين أجازوه. حيث لاحظنا تهافت الطلبة للحصول على الإجازات من الشيوخ المدرسين المعروفين بشهرتهم ومكانتهم العلمية. لكن الإصلاحات جاءت بالجديد فأصبح الطالب يجري امتحانات في أوقات معلومة .

كان للأوقاف دور كبير في تمويل التعليم وما يحتاجه من مصاريف ونفقات (أجور المدرسين، منح الطلبة، أجور الموظفين، الترميم، الإصلاح...). بالإضافة إلى الحسنات والصدقات التي كانت تخصص للمدرسين والطلبة وللزوايا والقائمين عليها. وما شدّ انتباهنا أثناء إعدادنا لهذه الدراسة أن المدرسة الحربية بباردو لم تحظى بأوقاف خاصة بها. فكانت مصاريفها على عاتق خزينة الدولة .

استطاعت الجاليات الأوربية تثبيت وجودها بالإيالة من خلال إحداث مؤسسات تعليمية خاصة بتعليم أبنائها، ولاحظنا أن الجالية الفرنسية هي التي حظيت بعدد أكبر من المؤسسات التعليمية، التي استقبلت مختلف الجنسيات، خاصة منها الايطالية والمالطية. ولاحظنا أن ذلك كان

بإيعاز وتشجيع، وكذا بجهود رجال الدين والحركات التبشيرية المسيحية. مما أدى إلى تسرب الثقافة الأوربية في أوساط المجتمع التونسي، ومنافسة التعليم الأجنبي للتعليم المحلي.

كما كان للجالية اليهودية هي الأخرى تعليما خاصا بأبنائها، يتلقوه بالمدارس التقليدية التي تعرف "بالمدرشيم"، بالإضافة إلى المدارس الحديثة التي قامت بإنشائها "الرابطة الإسرائلية العالمية". وللإشارة فإن حكومة البايات الحسينيين لم تتدخل في شؤون ولا في مناهج المدارس الأوربية واليهودية، حيث وجدناها تتمتع بقسط كبير من الحرية .

توصلنا من خلال دراستنا أن الإصلاحات سواء منها الأحمدية أو الصادقية، في مجملها لم تمّس من جوهر التعليم التقليدي العتيق. وقد كان واضحا أن إجراءات مثل هذا النوع غير كافية لإصلاح التعليم، خاصة وأن الإيالة التونسية بدأت تتفتح على حضارة الغرب وتطوراتها. وبالتالي اتضح مدى عجز هذا النمط من التعليم وتخلفه، وتم التأكد على ضرورة مراجعته من أساسه والاستفادة من تجارب الغربيين وعلومهم، وحتمية بعث تعليم عصري.

عرف التعليم بإيالة تونس خلال النصف الأول من القرن 19م نقلة نوعية. وتمثل ذلك في ظهور التعليم العسكري إلى جانب التعليم المدني. فقد كانت المدرسة الحربية بباردو منطلقا للدخول في تجربة التعليم الحديث خارج المؤسسات التعليمية التقليدية. وبالتالي يمكننا اعتبارها محاولة إصلاحية مبكرة. وقد أكدت على وجوب الاهتمام بالتعليم الحديث، لكنها ما لبثت أن أصبحت عبئا ثقيلا على ميزانية الدولة في عهد "محمد الصادق باي"، وأهملت تماما ثم أقفلت أبوابها وانتهت دون تحقيق أهدافها .

بدأ التعليم يعرف تنظيما وتقنينا من طرف الحكومة، وكان ذلك من خلال تأسيس لجنة علمية عملت على ضبط العلوم التي يجب أن تدرس والكتب المقرر تعليمها في كل علم. فبدأت ملامح المنظومة التربوية ترتسم ابتداءً من سنة 1258هـ/1842م وهو تاريخ صدور المعلقة في عهد المشير "أحمد باي"، حيث تضمنت تراتيب تخص التعليم بجامع الزيتونة وسائر جوامع ومدارس الإيالة. ليتم تطعيمها بإصلاحات مكملة في عهد "محمد الصادق الباي".

إن حركة إصلاح الوزير "خير الدين" كانت استمرارا للمشروع الذي بدأه "حمودة باشا" ثم من بعده "أحمد باي". وانطلاقته في مشروعه الإصلاحي مرده إلى الدعم الذي تلقاه من طرف نخبة من الشباب المتحمسين والمساندين لأفكاره. وهم من تلاميذ المدرسة الحربية بباردو، الذين

تكونوا ودرسوا على يد أساتذة زاروا العواصم الأوربية واحتكوا بالأساتذة الأوربيين الذين كانت تعج بهم المدرسة الحربية، أمثال "سالم بوحاجب" و"محمود قابادو" و"محمد بيرم الخامس".

بالرغم من اختلاف رجال الإصلاح في أفكارهم، وفي سبل ووسائل تطبيقها، إلا أنهم يتقاطعون في فكرة واحدة والمتمثلة في ضرورة إصلاح التعليم التقليدي، والاقتباس من الغرب. ونعتقد أن رجال الإصلاح بما فيهم "خير الدين" قد وقعوا في خطأ فاذح والمتمثل في طريقة الاقتباس من الغرب، حيث قاموا بالنقل شكلا ومضمونا. فأحدثت مؤسسات هي نسخة عن مثيلاتها الأجنبية رُكّبت على جسد اجتماعي لم يتمكن من التفاعل والاندماج معها.

لم تحدث الإصلاحات الصادقية المتعلقة بالتعليم الزيتوني تغييرا يُذكر، حيث أبقت على ميزاته الأساسية والموروثة. تبدو وكأنها حلقة جديدة أضيفت إلى الإصلاحات الأحمدية السابقة التي تضمنتها المعلقة. فلم نشهد تغييرا في المواد والمناهج، بل حافظت على الأساليب والمواد التقليدية. لكن استطاعت إصلاحاته تنظيم وترتيب التعليم الزيتوني عن طريق ضبط جميع تفاصيل الدراسة فيه بقوانين وضوابط، وحاولت من خلالها تعويد المدرسين والطلبة على الانضباط والنظام والتقيد بالتوقيت الرسمي للدراسة وتجنب الغيابات إلا لعذر شرعي .

لم تحدث قطيعة بين التعليم التقليدي والحديث، والدليل على ذلك وجود تنسيق بين التعليم الزيتوني وتعليم المدرسة الصادقية، حيث كان بإمكان الطالب الصادقي أن يواصل دراسته بالزيتونة، وفي نفس الوقت لايزال طالبا بمدرسته .

بالرغم من قصر مدة تولي "خير الدين" الوزارة الكبرى، إلا أن منجزاته كانت كبيرة منها، المدرسة الصادقية التي تعتبر تجربة ناجحة، فقد فتحت أبوابها للطلاب القائمين في العاصمة والوافدين من داخل الإيالة. وقدمت لهم كافة التسهيلات للإقامة داخل المدرسة على نفقة الدولة. أما بالنسبة لبرنامجها التعليمي فقد اعتمدت المدرسة على مناهج علمية عصرية. وتدريس العلوم العصرية باللغات الأجنبية. وقامت إدارتها بتشجيع الشباب التونسي للدراسة في معهدها والملحقات التابعة لها.

إن ما يعاب على الإصلاحات هو مركزيتها، فهي لم تخرج عن جدود عاصمة الإيالة متجاهلة بذلك باقي أنحاء البلاد، حتى وإن كانت هناك محاولات من طرف "خير الدين" لكنها لم تلقى الاهتمام والمتابعة الكافية كالتي شهدتها العاصمة .

تبين لنا من خلال دراستنا أن الإصلاحات في مجملها تعثرت ولم تكمل طريقها إلى النهاية. وذلك راجع إلى جملة من الأسباب والعوامل التي حالت دون وصولها إلى الهدف المنشود. حيث كان من الصعب إصلاح تعليم عرف سنوات طويلة من الركود والتأخر في ظرف زمني قصير، كما أن الساحة العلمية كانت مليئة بالمناهضين والرافضين للتغيير، والمساس بالتعليم الزيتوني التقليدي، فوجدت معارضة من "زعماء الجمود" باسم الدين. وبالتالي وقف الرافضون موقفا عدائيا ووضعوا العراقيل لتتوقف الإصلاحات في النهاية جملة واحدة .

وأخيرا لا يسعنا إلا الإشادة بالدور الكبير الذي لعبه حكام الأسرة الحسينية، وغيرهم من رجال الدولة والأثرياء والمحسنين، في نشر التعليم ورعاية العلماء، وتجميع المكتبات العلمية، وبناء المؤسسات التعليمية. التي كان لها دور كبير في إذكاء الحركة العلمية والثقافية، ومما لا شك فيه أنها عادت بالنفع على البلاد والعباد .

الملاحـــق

ملحق رقم 01

صورة لكتاب تقليدي[1]

[1]- صورة افتراضية للمؤدب والصبيان بالمكتب، تم التقاطها في المعرض الدولي للكتاب، تونس، بتاريخ 29 جمادى الثانية 1438هـ/ 27 مارس 2017م.

ملحق رقم 02

صور لألواح ختم القرآن[1]

[1]- الماجري، مرجع سابق، ص211 .

ملحق رقم 03

جدول يمثل إحصاء عدد الكتاتيب والتلاميذ في بعض مناطق الإيالة لسنة 1292–1293هـ/ 1875–1876م[1].

المنطقة	عدد الكتاتيب	عدد التلاميذ
تونس	22	639
القيروان	65	1635
سوسة ووطنها	45	839
المنستير ووطنها	19	427
صفاقس	23	650
وطن صفاقس	14	261
جربة	39	1059
قفصة وعملها	23	270
توزر	26	564
نفطة	37	366
الوديان	14	161
نفزاوة	11	171
زغوان	03	60
تستور	04	82
الوطن القبلي	42	1268
المجموع	311	8452

[1]– الميزوري، مرجع سابق، ص 108.

ملحق رقم 04

جامع الزيتونة

مدخل الجامع

مئذنة الجامع

أحد أروقة الجامع

جانب من مظهر داخلي للجامع

جانب من بهو الجامع

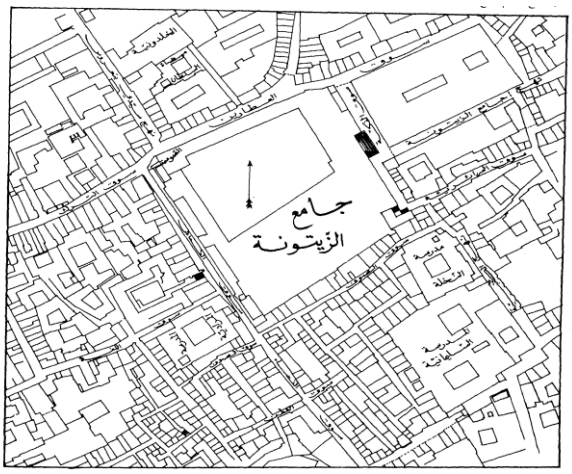

مخطط يمثل موقع الجامع[1]

[1]– محمد العزيز بن عاشور، مرجع سابق، ص 6 .

ملحق رقم 05

خريطة تمثل موقع المدارس التي تأسست خلال الفترة الحسينية[1]

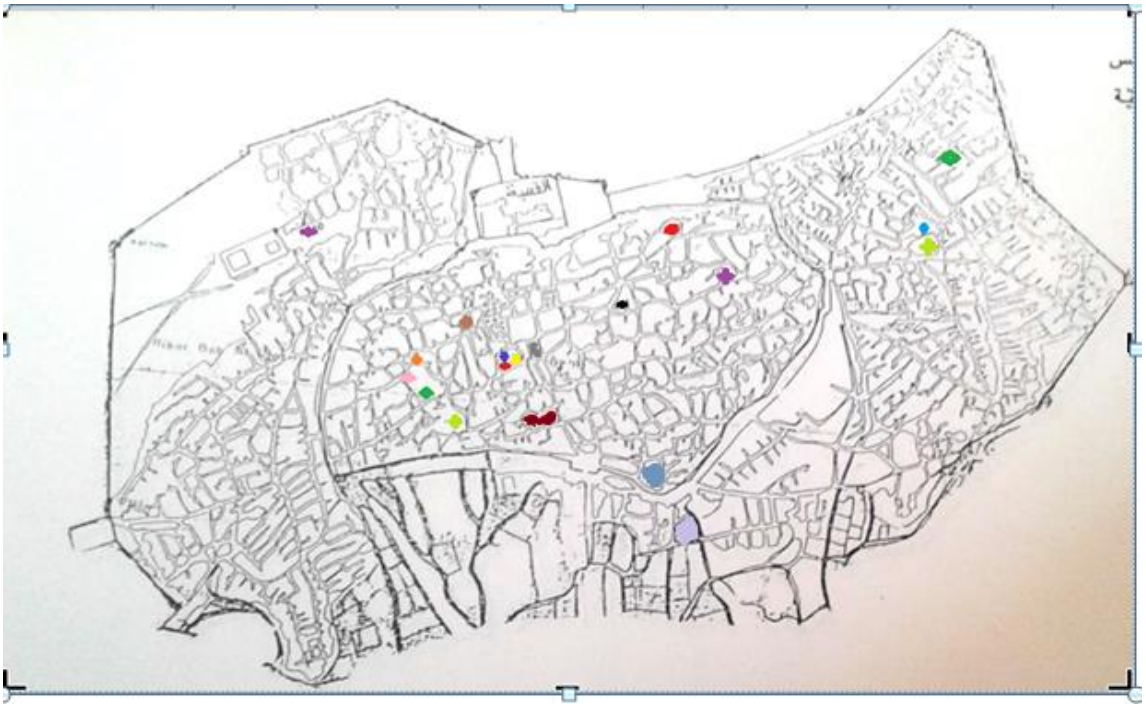

الحسينية الصغرى
النخلة
الجامع الجديد
حوانيت عاشور
الباشية
السليمانية
بئر الحجار
سيدي شيخة
مدرسة الفتيات
مدرسة إخوان المذهب المسيحي

ابن ملوكة
مدرسة زاوية الباهية
المدرسة الطابعية
المدرسة الجاسوسية
المدرسة المرادية
مدرسة الزاوية البكرية
الحسينية الكبرى
مدرسة الفتيان تونس
مدرسة القس بورغاد
مدرسة القديس يوسف

[1]- الميزوري، مرجع سابق، ص 95 .

ملحق رقم 06

مدرسة النخلة

بهو المدرسة

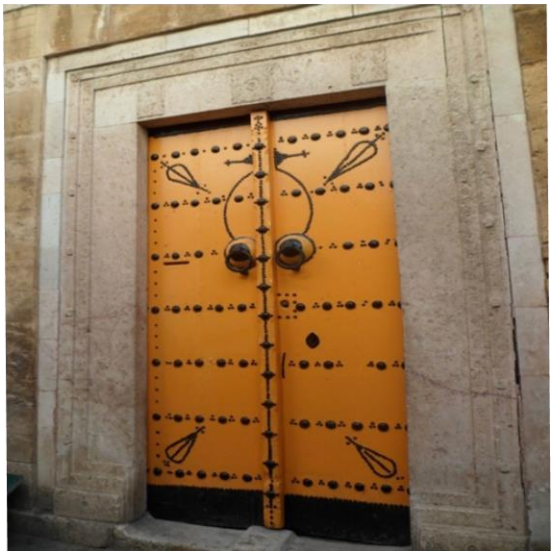

مدخل المدرسة

ملحق رقم 07

المدرسة الباشية

مدخل المدرسة

بهو المدرسة

ملحق رقم 08

المدرسة السليمانية

مدخل المدرسة

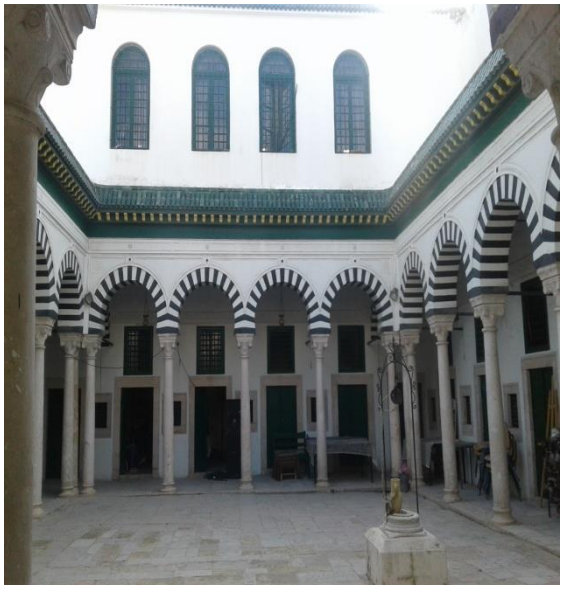

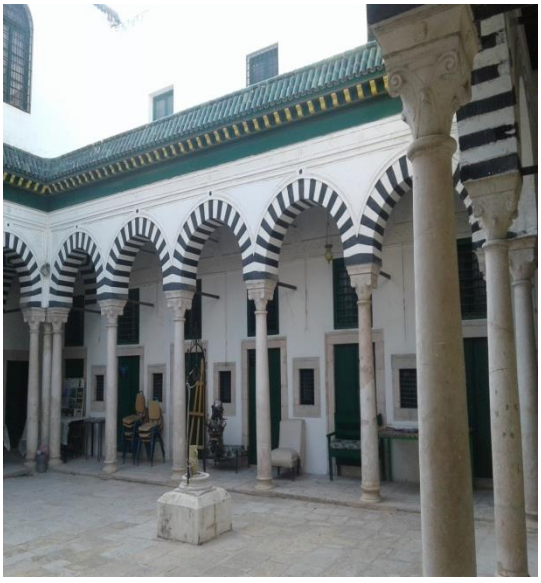

بهو المدرسة

ملحق رقم 09

المدرسة الصادقية

مدخل المدرسة

بهو المدرسة

المظهر الخارجي للمدرسة

ملحق رقم 10

نص إجازة العالم إبراهيم الرياحي للشيخ الحنفي محمد بن الخوجة[1]

الحمد لله الذي وصل بسيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله ومسلم مقطوع الأنساب. فسارت الأسانيد إلى الله تعالى ترفل في حلل هذا الانتساب. والعلماء بها في حقه مكان قاب قوسين أو أدنى تجتني جنى الاغتراب. الذي هو منتهى الآراب. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تزلف منزلة قائلها من رب الأرباب. وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله القائل أنا لها يوم طيش الألباب. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم المئاب.

وبعد فقد ساعفت الأخ الفاضل الإنسان الكامل الذي فيه من العلم المتين شمائل. وعليه من التوفيق دلائل. أبا عبد الله الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ العلامة سيدي أحمد بن الخوجة مفتي السادات الحنفية. بتونس المحمية. في ما التمسه مني من الإجازة التي كانت عند العلماء مقام الواجب واستحالت الآن إلى الرفض الكلي فكان عليه ضربة لازب وإن كنت لست أهلا ما التمس ولا جذوة نور يرجيها من اقتبس رغبة في بقاء السند إلى سيد الأنام. واستمطار بركة الرجال اللذين هم آباء الإسلام . فقد أجزته في شاطئ العلوم. والخوض في بحارها بمقاذف الفهوم. وأجزت له أن يروي عني صحيح إمام الإسلام. وعمدة الخاص والعام. أبي عبد الله سيدي محمد البخاري عن شيخنا سيدي محمد بن الأمير المغربي السلاوي عن... عن الإمام البخاري موصى في ذلك بما أوصاني به من آخذت عنه من الاعتراف بالحق وترك الهوى والإخلاص في تبليغ العلم ومعاملة الطلبة بالحلم واتباع السنة في الأقوال والأفعال والأحوال والإعراض عن الخلق في الأدبار والإقبال وجماع ذلك كله التقوى وأن لا ينساني من صالح دعواته في خلواته وجلواته جعلني الله وإياه من حزبه المفلحين. ونظمني وإياه في سلك الهادين المهتدين. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.

كتب ذلك بيده الفانية فقير الله إليه إبراهيم بن عبد القادر الرياحي ستر الله عيبه وغفر ذنبه وأصلح عمله وبلغه أمله آمين. في أواسط المحرم الحرام فاتح شهور عام ستة وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة النبوية. على صاحبها أفضل الصلاة وازكي التحية. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

[1]- الرياحي، مصدر سابق، ص ص 93، 94 .

ملحق رقم 11

أمر من المشير "محمد الصادق باي" بتاريخ 16 ذو القعدة 1292هـ/ 13 ديسمبر 1875م، إلى الوزير "خير الدين" يأمره تطبيق الأمر القاضي بإعفاء المؤدبين[1]

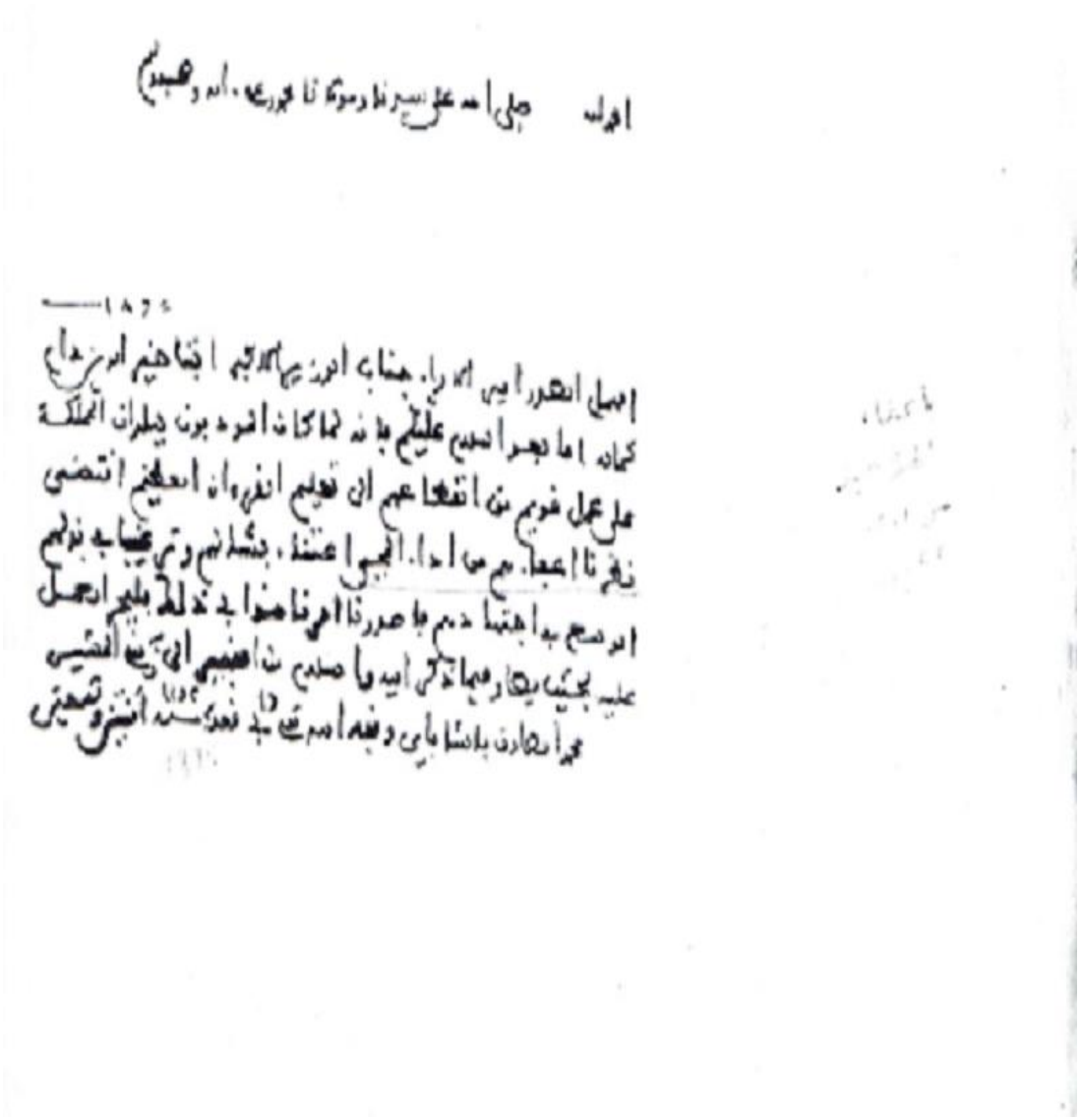

[1]- أ. و. ت، س.ت ، صد 63، م 736، ، وث 2 .

الحمد لله صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الصدر الهمام أمير الأمراء جناب الوزير الأكبر ابننا خير الدين دام كماله أما بعد السلام عليكم فإنه لما كان المؤدبون ببلدان المملكة على عمل قديم من انقطاعهم إلى تعليم القرآن العظيم اقتضى نظرنا إعفاءهم من أداء المجبى اعتناء بشأنهم وترغيبا في بذلهم الوسع به اجتهادهم. فأصدرنا أمرنا هذا في ذلك فليجد العمل عليه بحيث (كذا) فيما ذكر إليه والسلام. من الفقير إلى ربه المشير محمد الصادق باشا باي وفقه الله تعالى.

في 16 ذي القعدة سنة 1292 اثنين وتسعين .

ملحق رقم 12

عقد اتفاق بين المشير أحمد باي والمدرس الفرنسي"سولي" للتدريس بالمدرسة الحربية بباردو[1]

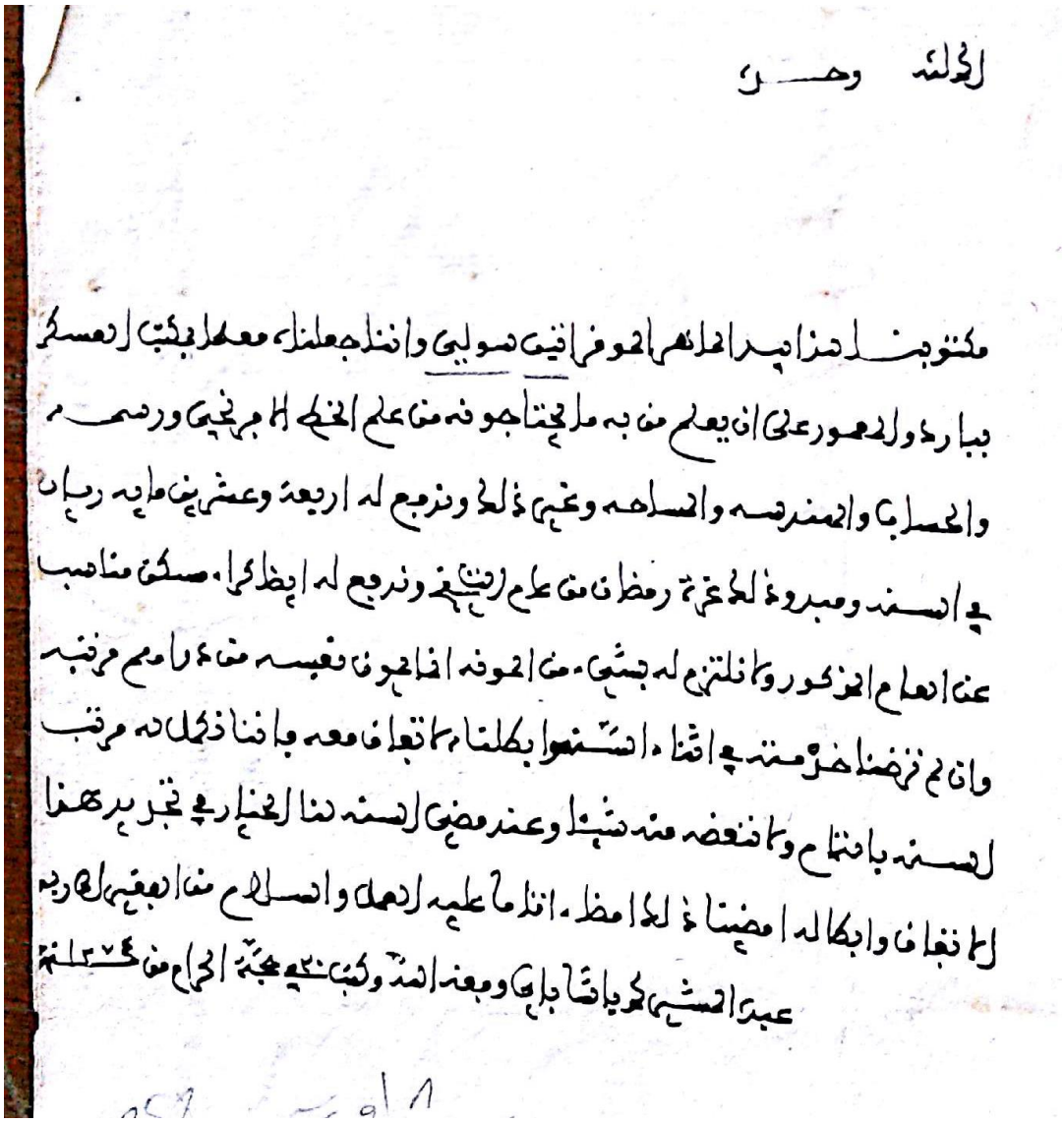

[1]- أ . و . ت. س. ت، ح 183، م 1018، وث 64.

الحمد لله وحده

مكتوبنا هذا سيد الماهر الموقر اتين سولي وأننا جعلناه معلما بمكتب العسكر بباردو المعمور على أن يعلم من به ما يحتاجونه من علم الخط الإفرنجي ورسمه والحساب والهندسة والمساحة وغير ذلك وتدفع له أربعة وعشرين ماية ريال في السنة ومبدء ذلك غرة رمضان من عام التاريخ ونرفع له أيضا كراء مسكن مناسب عن العام المذكور ولا نلتزم له شيئ من المؤنة إنما يمون نفسه من دراهم مرتبه وان لم ترضنا خدمته في أثناء السنة بطلنا الاتفاق معه فإننا نكمل له مرتب لسنة بإتمام ولا ننقص منه شيئا وعند مضي السنة لنا الاختيار في تجديد هذا الاتفاق وإبطاله .

أمضينا ذلك إمضاءا تاما عليه الحمد والسلام من الفقير إلى ربه عبده المشير محمد باشا باي وفقه الله وكتب في 20 حجة الحرام من سنة 1274 .

ملحق رقم 13

عقد اتفاق بين الوزير الأكبر"مصطفى خزندار" والمدرس الايطالي "السينيور شيروتي" للتدريس بالمدرسة الحربية بباردو[1]

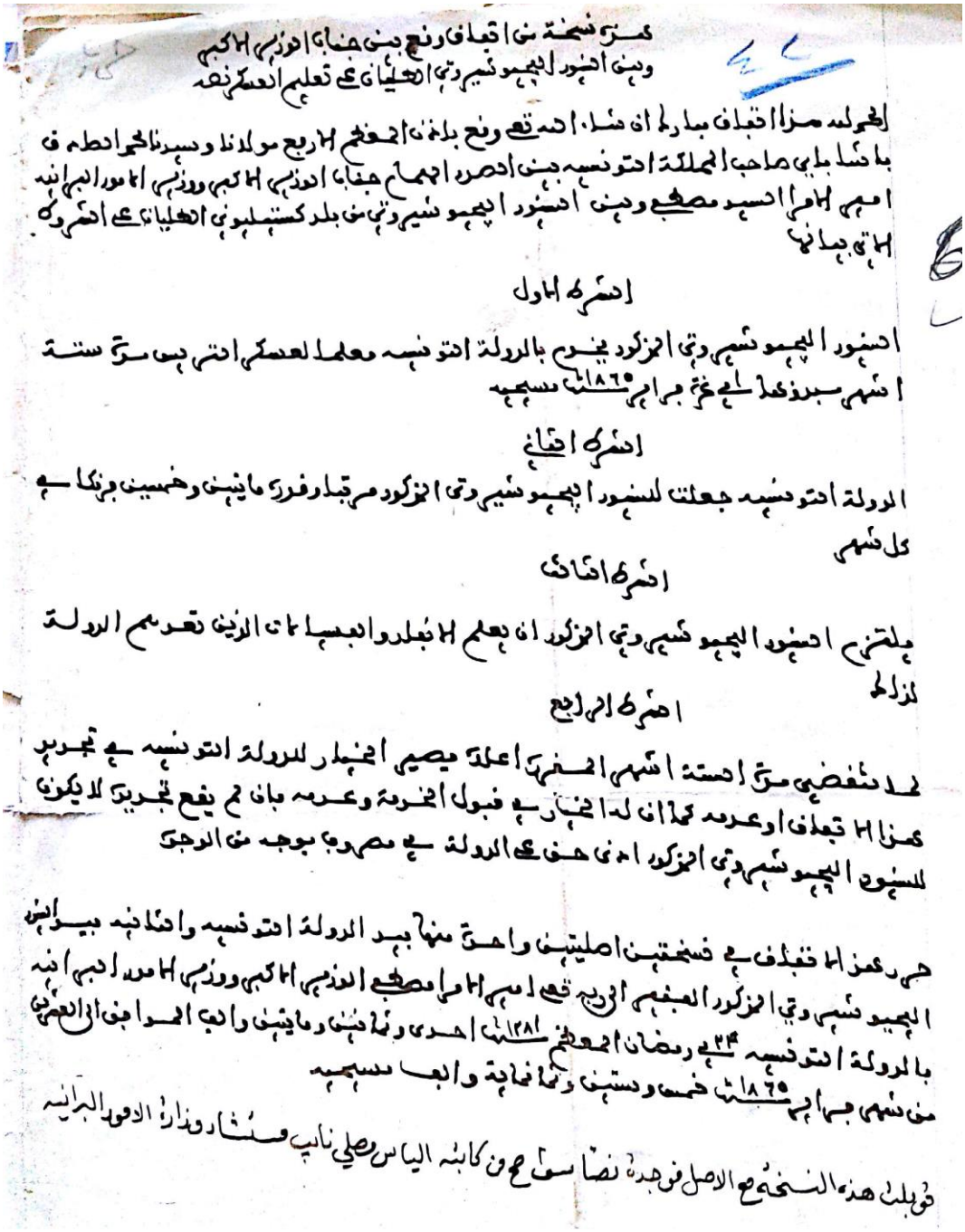

نسخة من اتفاق وقع بين جناب الوزير الاكبر
وبين الشهير الجهبو شيروتي الطليان على تعليم العسكر نصه

الحمد لله هذا اتفاق مبارك ان شاء الله تعالى وقع بالمقام المعظم الرفيع مولانا وسيدنا محمد الطاهر باشا بلاي صاحب المملكة التونسية بين الدولة الجناب الوزير الاكبر ووزير الامور البرانية المعبر الامر الاسبد مصطفى وبين الشهير الجهبو شيروتي من بلد كستيلبونى الطليان على العسكر الذي هو باق بيانه

الفصل الاول

الشهير الجهبو شيروتي المزكور يخدم بالدولة التونسية معلما للعسكر التي هي مرتبة ستة اشهر سبروفا لمدة خمسة عشر يوما ابتداء من 1865 مسيحية

الفصل الثاني

الدولة التونسية جعلت للشهير الجهبو شيروتي المزكور مرتبا قدره مائتين وخمسين فرنكا في كل شهر

الفصل الثالث

يلتزم الشهير الجهبو شيروتي المزكور ان يعلم الطلبة والعساكر الذين تعينهم الدولة لذلك

الفصل الرابع

لا ينقضي مرتبة اشهر الفصل الاول ميعاد اختبار للدولة التونسية في تجديد هذا الاتفاق او عدمه كما ان له اختيار في قبول الخدمة وعدمه فان لم يقع تجديد لا يكون للشهير الجهبو شيروتي المزكور اي حق على الدولة في مصروف بوجه من الوجوه

هذا وهذا الاتفاق في نسختين اصليتين واحدة منهما بيد الدولة التونسية والثانية بيد الشهير الجهبو شيروتي المزكور العبد الفقير امام المقام المعظم الوزير الاكبر ووزير الامور البرانية بالدولة التونسية في 24 رمضان المعظم 1281 احدى ومائتين والف الموافق الثاني العشرين من شهر مايو سنة 1865 خمس وستين وثمانمائة والف مسيحية

قوبلت هذه النسخة مع الاصل فوجدت نصا سواء حرر من كاتبه الياس وصلي نائب قنصلية وزارة الامور البرانية

[1]- أ . و . ت. س. ت، ح 183، م 1018، وث 06 .

هذه نسخة من اتفاق وقع بين جناب الوزير الأكبر
وبين السنيور البميو شيروتي الطليان (كذا) تعليم العسكر هذا نصه

الحمد لله هذا اتفاق مبارك إن شاء الله تعالى وقع بإذن المعظم الأرفع مولانا وسيدنا محمد الصادق باشا صاحب المملكة التونسية بين الصدر الهمام جناب الوزير الأكبر ووزير الأمور البرانية أمير الأمراء السيد مصطفى وبين السنيور البميو شيروتي من بلد كستيليوني الطليان على الشروط الآتية بيانها .

الشرط الأول

السنيور البميو شيروتي المذكور يخدم بالدولة التونسية معلما لعسكر(كذا) مدة ستة أشهر مبدؤها في غرة فبراير سنة 1865 مسيحية .

الشرط الثاني

الدولة التونسية جعلت لسنيور البميو شيروتي المذكور مرتبا وقدره مايتين وخمسين فرنكا في كل شهر.

الشرط الثالث

يلتزم السنيور البميو شيرورتي المذكور أن يعلم الأنفار والفسيالات الذين تعدهم الدولة لذلك .

الشرط الرابع

لما تنقضي مدة الستة أشهر المقررة أعلاه يصير الخيار للدولة التونسية في تجديد هذا الاتفاق أو عدمه فان لم يقع تجديده لا يكون للسنيور البميو شيرورتي المذكور ادني حق على الدولة في مصروف بوجه من الوجوه .

جرد هذا الاتفاق في نسختين أصليتين واحدة منها بيد الدولة التونسية والثانية بيد السنيور البميو شيروتي المذكور الفقير الى ربه تعالى أمير الأمراء مصطفى الوزير الأكبر ووزير الأمور البرانية بالدولة التونسية في 24 رمضان المعظم سنة 1281 إحدى وثمانين ومايتين وألف الموافق الى العشرين من شهر فبراير سنة 1865 خمس وستين وثمانماية وألف مسيحية .

قوبلت هذه النسخة مع الأصل فوجدت نصا (كذا) صح من كاتبه الياس مصلي نايب مستشار وزارة الأمور البرانية .

ملحق رقم 14

ورقة العقوبات الخاصة بالتلميذ عبد الله بن السعيد

من تلاميذ المدرسة الحربية ببباردو[1]

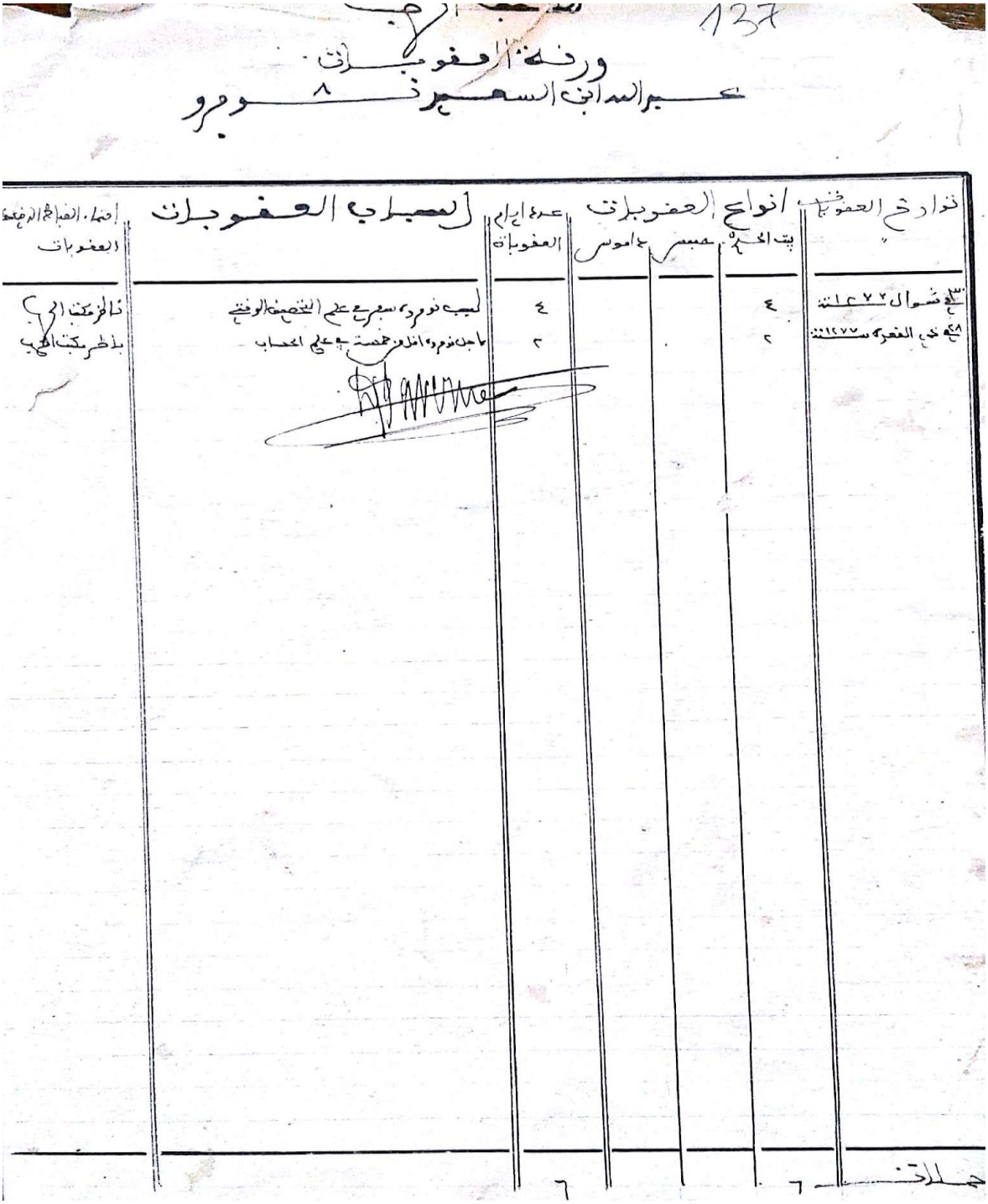
137

ورقة العقوبات

عبد الله ابن السعيد بباردو

نوادر العقوبات	أنواع العقوبات: بيت الخزنة	حبس	حاموس	عدد أيام العقوبات	أسباب العقوبات	أعضاء الضباط الذين رفعوا العقوبات
في شوال ٧٢ عائلة	٤			٤	لعب القمار وسبّ على التخصيص الوقتي	ناظر مكتب الحربية
في ذي القعدة سنة ١٢٧٧	٢			٢	ما جاش يوم واحد وخمسة يوم على الحساب	بأمر مكتب الحربية
				٦		
حملات	٦					

[1]- أ . و . ت، س. ت، ح 183 ، م 1018، وث 137 .

ورقة العقوبات

عبد الله بن السعيد نومرو 8

تواريخ العقوبات	أنواع العقوبات				أسباب العقوبات	إمضاء الضباط الذين حكموا العقوبات
	دار الحرب	حبس	داموس	عدد أيام العقوبات		
في 30 شوال 1277هـ	4			4	لسبب نومرو صفر في علم التحصين الوقتي	ناظر مكتب الحرب
في 28 ذي القعدة 1277هـ	2			2	اجل نومرو أقل من خمسة في علم الحساب	ناظر مكتب الحرب
جملات	6			6	الإمضاء	

ملحق رقم 15

معلقة أحمد باي الصادرة سنة 1258هـ/ 1842م

المنظمة للتعليم الزيتوني

« الحمد لله رافع العلماء على ذُرى شرف كامل، الذي لا يُضيع عمل عامل، ولا يخيّب من فضله العميم أمل آمل، معوّد العلم وأهله بكل يسر شامل، ومنجده في الأزمات بكل كاف من أوليائه وكافل، وممده بناصر بعد ناصر ومناضل بعد مناضل... أمير العصر، ومشير هذا المصر... مولانا وسيدنا ذلك المشير أحمد باشا باي أمير المؤمنين بالقطر التونسي، اعزّ الله به عصابته، وأدام إصابته، فأمر بهذا الرقيم، المتلقى بالطاعة والتعظيم، في أن جميع دخل بيت المال الذي كان يستعين به على مصالح العباد، ومهمات البلاد، جعله إعانة للعلم الشريف على ترتيب أنتجه فكره السديد، ورأيه الصائب الحميد، وهو انتخاب خمسة عشر عالما من المالكية، ومثلهم من الحنفية، وجعل لكل واحد منهم ريالين في كل يوم، على أن يقرئ بهذا الجامع الأعظم درسين في أي فن وفي أي وقت تيسر له من النهار، ومن تخلف بغير عذر شرعي لا يستحق المرتب أيام تخلفه، إلا يوم الخميس ويوم الجمعة وشهر رمضان وأيام العيدين. وقلّد النظر في ذلك لشيخي الإسلام الحنفي والمالكي، ومرتب واحد كل منهما على النظر مائة ريال في كل شهر، وأعانها على النظر مائة ريال في كل شهر، وأعانهما عل النظر في ذلك بالقاضيين الحنفي والمالكي، وجعل لكل واحد منهما ثلاث ريالات في اليوم، بشرط أن يأتي كل واحد من الأربعة يوما إلى الجامع لتحريض المتكاسل وطرح مرتب من لم يحضر من المدرسين بغير العذر الشرعي. وقلد هؤلاء المشايخ الأربعة النظر في حفظ بيت المال لأحد عدا العلماء المذكورين والمشايخ والنظّار والقيّمين عليه، وتجهيز دفن الغرباء. كما امر بتحرير مصرف بيت المال في ظهير بيد الآغة لا يتجاوزه. وبعد كل ستة أشهر من شهر التاريخ يحضر القيّمون على بيت المال في الجامع لدى المشايخ الأربعة ويحاسبونهم على الدخل والخرج فصلا فصلا، ويسطرون المحاسبة مصحّحة بخطوطهم، وترفع إلى مولانا ليأمر بإمضائها. وإذا فضل في بيت المال شيء من المصرف المذكور فان الفاضل يشتري به عقار ليكون رَيْعه تقوية لبيت المال، وذلك مدة خمس سنين. وبعد السنة الخامسة، إذا فضل شيء من دخل بيت المال الذي منه دخل العقار المشترى من فاضل الخمس سنين، فإن ذلك الفاضل يقسم على

المنقطعين لقراءة العلم على المشايخ المذكورين، سويّة بينهم. ولا يستحق ذلك إلا المواظب على القراءة.

والنظر في قسمة ذلك على المواظبين من الطلبة للمشايخ الأربعة. وإذا نقص واحد من هؤلاء الثلاثين عالما، فإن من يتولى عوضه يكون باتفاق المشايخ الأربعة، ينتخبون أعلم الموجودين في العصر. وإن تساوت رتبة الموجودين فلا بدّ من امتحانهم بالمناظرة بمحضر المشايخ حتى يكون من تقدم إنما هو بنفسه. ويُرفع اسمه إلى مولانا ليأمر له بظهير في خطته يستحق به المرتب المذكور. وحكم، أيده الله، بجميع ذلك وأمضاه، وألزم العمل بمقتضاه، رغبة في إظهار العلم وتحصيل علاه، والهدى هدى الله. وأمر، أدام الله أمره، وأعلى الخافقين ذكره، برسم هذا الظهير في هذا البيت المعمور حرصا على بقائه على شرطه مدى الدهور، لا سبيل لنقضه بعد إبرامه، ولا لنسخه بعد إحكامه، يديمه الله ورسوله والمؤمنون، وتقوّية الإعصار والسنون، ومن سعى في نقضه فما ربك بغافل عما يعمل الظالمون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون، ولمثل هذا فليعمل العاملون، والله خلقكم وما تعملون » .

وكتب في 27 رمضان سنة 1258هـ [1].

[1]- ابن أبي الضياف، ج4، مصدر سابق، ص ص 65 – 67 .

ملحق رقم 16

تقرير حول غيابات مدرسي الجامع الأعظم [1]

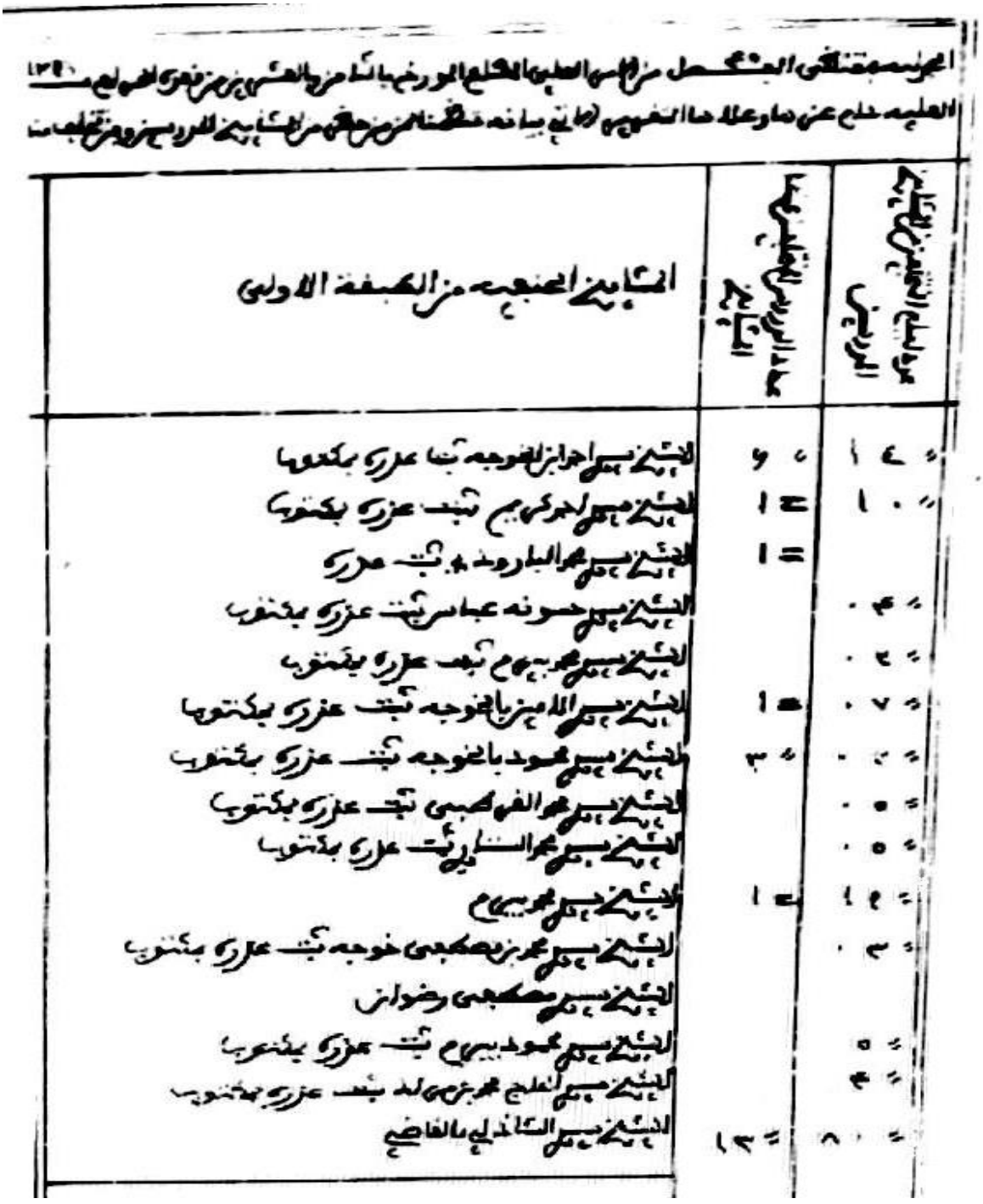

[1]- أ. و . ت، صد 63، م 728، "مراسلات صادرة عن المشايخ النظار بجامع الزيتونة متعلقة بالدروس والمدرسين"، وث 10،11.

تابع الوثيقة[1]

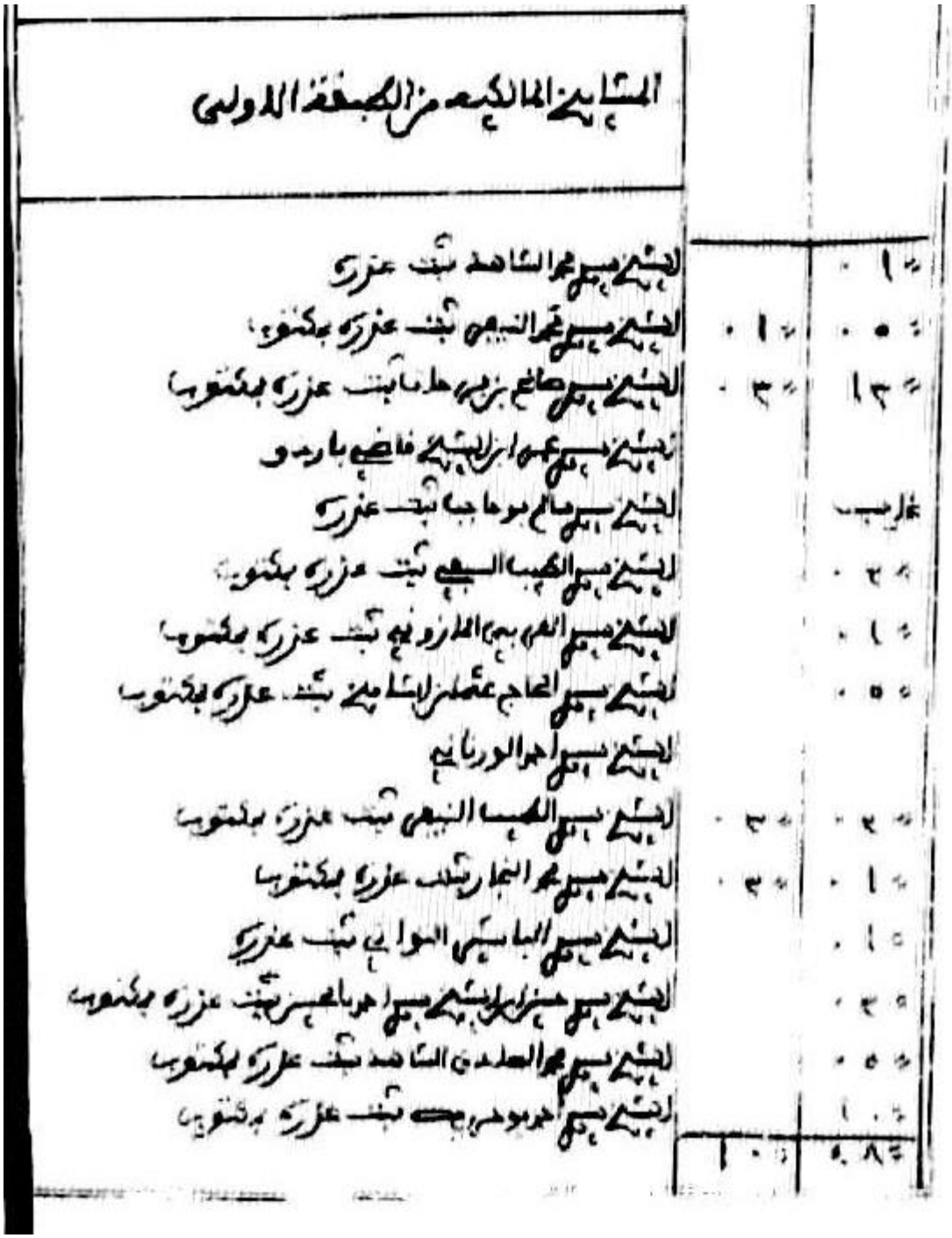

[1]– قمنا بتقسيم الوثيقة إلى قسمين لأنها طويلة جدا .

بمقتضى الفصل 45 من الأمر العلي المطلع المؤرخ بالثامن والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة 1293هـ العلية دام عزها وعلاها التقرير الأتي بيانه متضمنا من حضر من المشايخ المدرسين ومن تخلف منهم .

المشايخ الحنفية من الطبقة الأولى	عدد الدروس المتخلف عنها المشايخ	عدد أيام المتخلفين من المشايخ المدرسين
الشيخ سي أحمد ابن الخوجة ثبت عذره بمكتوب	6	14
الشيخ سي أحمد كريم ثبت عذره بمكتوب	1	10
الشيخ سي محمد البارودي ثبت عذره	1	-
الشيخ سي حسونة عباس ثبت عذره بمكتوب	-	4
الشيخ سي محمد بيرم ثبت عذره بمكتوب	-	2
الشيخ سي الامين بالخوجة ثبت عذره بمكتوب	1	7
الشيخ سي محمود بالخوجة ثبت عذره بمكتوب	3	3
الشيخ سي محمد القرطبي ثبت عذره بمكتوب	-	5
الشيخ سي محمد الستاري ثبت عذره بمكتوب	-	5
الشيخ سي محمد بيرم	1	19
الشيخ سي محمد بن مصطفى خوجة ثبت عذره بمكتوب	-	3
الشيخ سي مصطفى رضوان	-	-
الشيخ سي محمود بيرم ثبت عذره بمكتوب	-	5
الشيخ سي الحاج محمد مراد ثبت عذره بمكتوب	-	4
الشيخ سي الشاذلي بلقاضي	13	-
المشايخ المالكية من الطبقة الأولى		80
الشيخ سي محمد الشاهد ثبت عذره	-	1
الشيخ سي محمد النيفر ثبت عذره بمكتوب	1	5
الشيخ سي الصالح بن فرحات ثبت عذره بمكتوب	3	13
الشيخ سي عمر ابن الشيخ قاضي باردو	-	-
الشيخ سي سالم بوحاجب ثبت عذره	-	غايب

2	–	الشيخ سي الطيب السبعي ثبت عذره بمكتوب
1	–	الشيخ سي العربي المازوني ثبت عذره بمكتوب
5	–	الشيخ سي الحاج عثمان الشامخ ثبت عذره بمكتوب
–	–	الشيخ سي أحمد الورتاني
2	3	الشيخ سي الطيب النيفر ثبت عذره بمكتوب
1	3	الشيخ سي محمد النجار ثبت عذره بمكتوب
1	–	الشيخ سي الباشير التواتي ثبت عذره
3	–	الشيخ سي حسين ابن الشيخ سي أحمد بلحسين ثبت عذره بمكتوب
5	–	الشيخ سي محمد الصادق الشاهد ثبت عذره بمكتوب
10	–	الشيخ سي أحمد بوخريص ثبت عذره بمكتوب
48	10	

ملحق رقم 17

شكوى من علماء مالكيين حول كيفية توزيع ريع الأوقاف بين العلماء المالكيين والحنفيين [1]

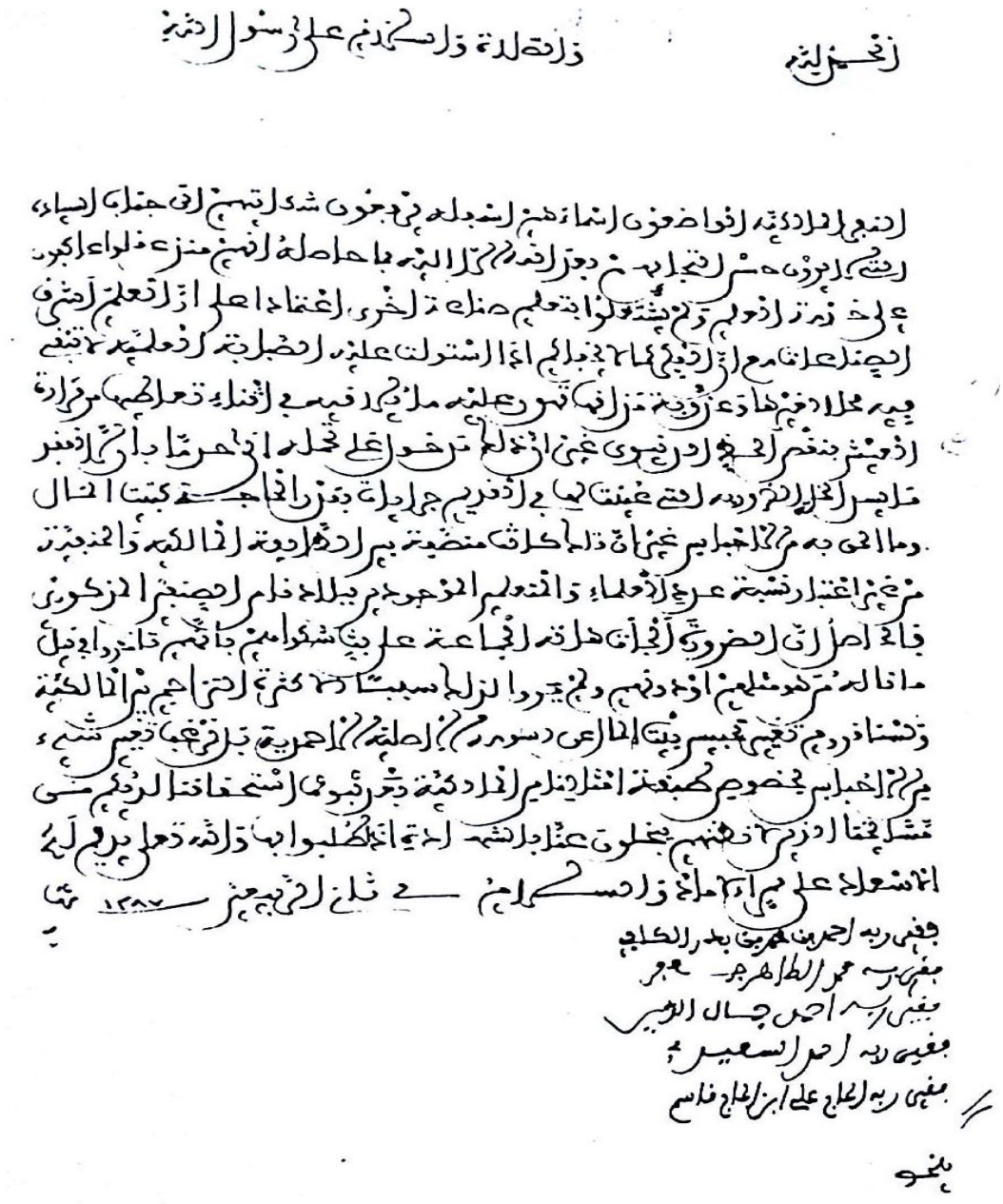

[1]- أ. و . ت، س.ت، صد 63، م 740، "مراسلة بتاريخ ربيع الثاني 1287هـ/ جويلية 1870م"، وث 2 .

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

النفر المالكية الواضعون أسماءهم أسفله يرفعون شكايتهم إلى جانب السيادة التي لا يرون حسن التجائهم بعد الله إلا إليه بما حاصله أنهم منذ عقلوا عاكفون على خدمة العلم ولم يشتغلوا بتعليم صناعة أخرى اعتمادا على أن العلم اشرف الصناعات مع أن الفكر لا يخفاكم إذا استولت عليه الصبابة العلمية لا تبقى فيه مجالا لغيرها وعذوبة مذاقها تهون عليه ما يلاقيه أثناء تعاطيها من مرارة العيش بنقص الحظ الدنيوي غير أن ذلك مدخول على تحمله إلى حد ما بان لا نفقد ما يسد الخلة الضرورية التي عينت لها في القديم جرايات بقدر الحاجة كبيت المال وما الحق به من الأحباس غير أن تلك كانت منصبة بيد الطائفة المالكية والحنفية من غير اعتبار نسبة عدد العلماء والمتعلمين الموجودين ببلادنا من الصنفين المذكورين فالحاصل أن الضرورة ألجأت هاته الجماعة على بث شكواهم فإنهم تأخروا في نيل ما ناله من هو مثلهم أو دونهم ولم يروا لذلك سببا إلا كثرة تزاحم بين المالكية ولسنا نروم تغيير تحبيس بيت المال عن رسومه الأصلية الأحمدية بل نرغب تعيين شيء من الأحباس بخصوص طبقة أمثالنا من المالكية بعد ثبوت استحقاقنا لديكم من مشايخنا الذين لا نظنهم يبخلون عنا بالشهادة إذا طلبوا بها والله تعالى يديم لكم الإسعاد على سير الآماد والسلام في ثاني الربيعين 1287

عن فقير ربه أحمد بن محمد بن بدر الكافي

فقير ربه محمد الطاهر جعفر

فقير ربه أحمد جمال الأمين

فقير ربه احمد السعيدي

فقير ربه الحاج علي بن الحاج قاسم

ملحق رقم 18

إعلان فتح المدرسة الصادقية[1]

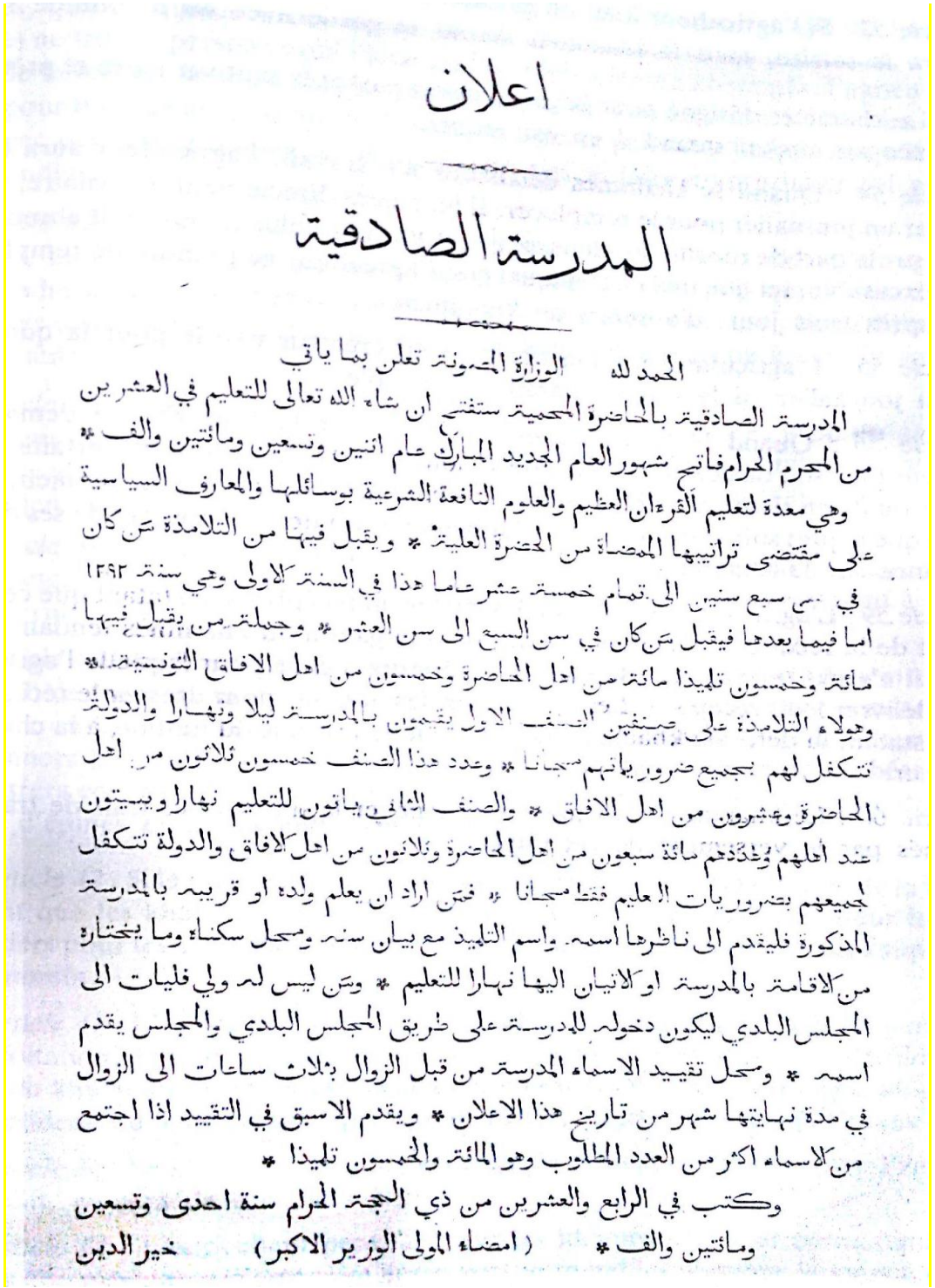

اعلان

المدرسة الصادقية

الحمد لله الوزارة المصونة تعلن بما يأتي

المدرسة الصادقية بالحاضرة المحمية ستفتح ان شاء الله تعالى للتعليم في العشرين من المحرم الحرام فاتح شهور العام الجديد المبارك عام اثنين وتسعين ومائتين والف * وهي معدة لتعليم القرءان العظيم والعلوم النافعة الشرعية بوسائلها والمعارف السياسية على مقتضى تراتيبها المرضاة من الحضرة العلية * ويقبل فيها من التلامذة من كان في سن سبع سنين الى تمام خمسة عشر عاما هذا في السنة الاولى وهي سنة ١٢٩٢ اما فيما بعدها فيقبل من كان في سن السبع الى سن العشر * وجملة من يقبل فيها مائة وخمسون تلميذا مائة من اهل الحاضرة وخمسون من اهل الافاق التونسية * وهولاء التلامذة على صنفين الصنف الاول يقيمون بالمدرسة ليلا ونهارا والدولة تتكفل لهم بجميع ضروريانهم مجانا * وعدد هذا الصنف خمسون ثلاثون من اهل الحاضرة وعشرون من اهل الافاق * والصنف الثاني ياتون للتعليم نهارا ويبيتون عند اهلهم وعددهم مائة سبعون من اهل الحاضرة وثلاثون من اهل الافاق والدولة تتكفل لجميعهم بضروريات التعليم فقط مجانا * فمن اراد ان يعلم ولده او قريبه بالمدرسة المذكورة فليقدم الى ناظرها اسمه واسم التلميذ مع بيان سنه ومحل سكناه وما يختاره من الاقامة بالمدرسة او الاتيان اليها نهارا للتعليم * ومن ليس له ولي فليات الى المجلس البلدي ليكون دخوله للمدرسة على طريق المجلس البلدي والمجلس يقدم اسمه * ومحل تقييد الاسماء المدرسة من قبل الزوال بثلاث ساعات الى الزوال في مدة نهايتها شهر من تاريخ هذا الاعلان * ويقدم الاسبق في التقييد اذا اجتمع من الاسماء اكثر من العدد المطلوب وهو المائة والخمسون تلميذا *

وكتب في الرابع والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة احدى وتسعين ومائتين والف * (امضاء المولى الوزير الاكبر) خير الدين

[1]- أ . و . ت، س. ت، صد 64، نهاية م 571، وث 06 .

ملحق رقم 19

تقرير حول تلاميذ وموظفي المدرسة الصادقية

في مدة الثلاثة أشهر الثانية من سنة 1298هـ/1880م[1]

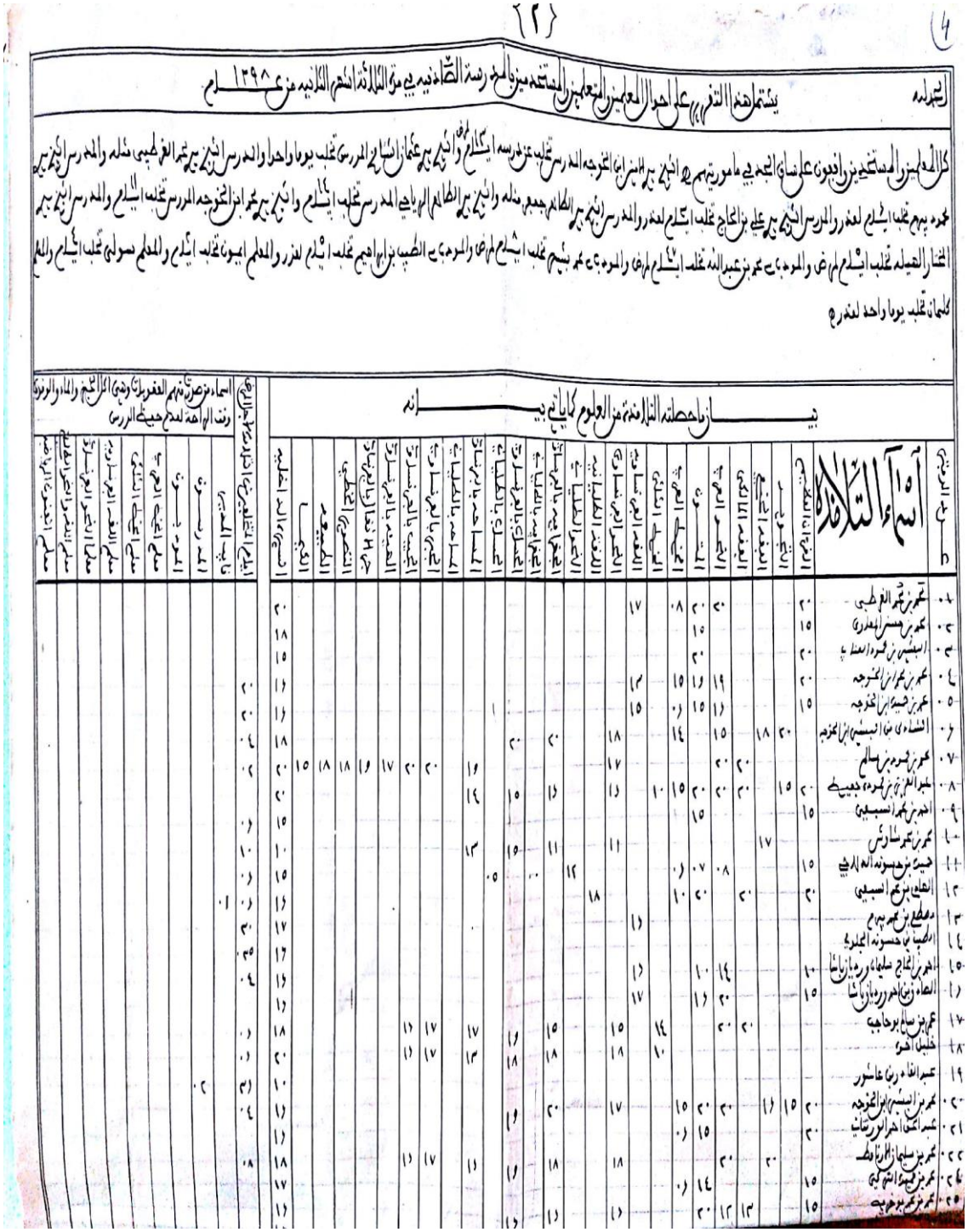

[1]- أ. و . ت ، س. ت، صد 64، م 753، وث 04 .

الحمد لله يشتمل هذا التقرير على أحوال المعلمين والمتعلمين المستخدمين بالمدرسة الصادقية في مدة الثلاثة أشهر الثانية من عام 1298.

كل المعلمين المستخدمين واقفون على ساق الجد في مأموريتهم هم: الشيخ سي الأمين بن الخوجة المدرس تخلف عن درسه 13 أيام. والشيخ سي عثمان الشامخ المدرس تخلف يوما واحدا، والمدرس الشيخ سي محمد القرطبي مثله، والمدرس الشيخ سي محمود بيرم تخلف 06 أيام لعذر، والمدرس الشيخ سي علي بن الحاج تخلف 02 أيام لعذر، والمدرس الشيخ سي الطاهر جعفر مثله، و الشيخ سي الطاهر الرياحي المدرس تخلف 14 أيام، والشيخ سي محمد بن الخوجة المدرس تخلف 11 أيام، والمدرس الشيخ سي المختار الهيلة تخلف 05 أيام لمرض، والمؤدب محمد بشير تخلف 08 أيام لمرض، والمؤدب سي الطيب بن إبراهيم تخلف 05 أيام لعذر، والمعلم إيمون تخلف 02 أيام، والمعلم سوليي تخلف 04 أيام، والمعلم كلمان تخلف يوم واحد لعذره .

الجدول

ملحق رقم 20

رسالة موجهة من شيخ الإسلام محمد بن الخوجة
إلى الوزير الأكبر مصطفى[1]

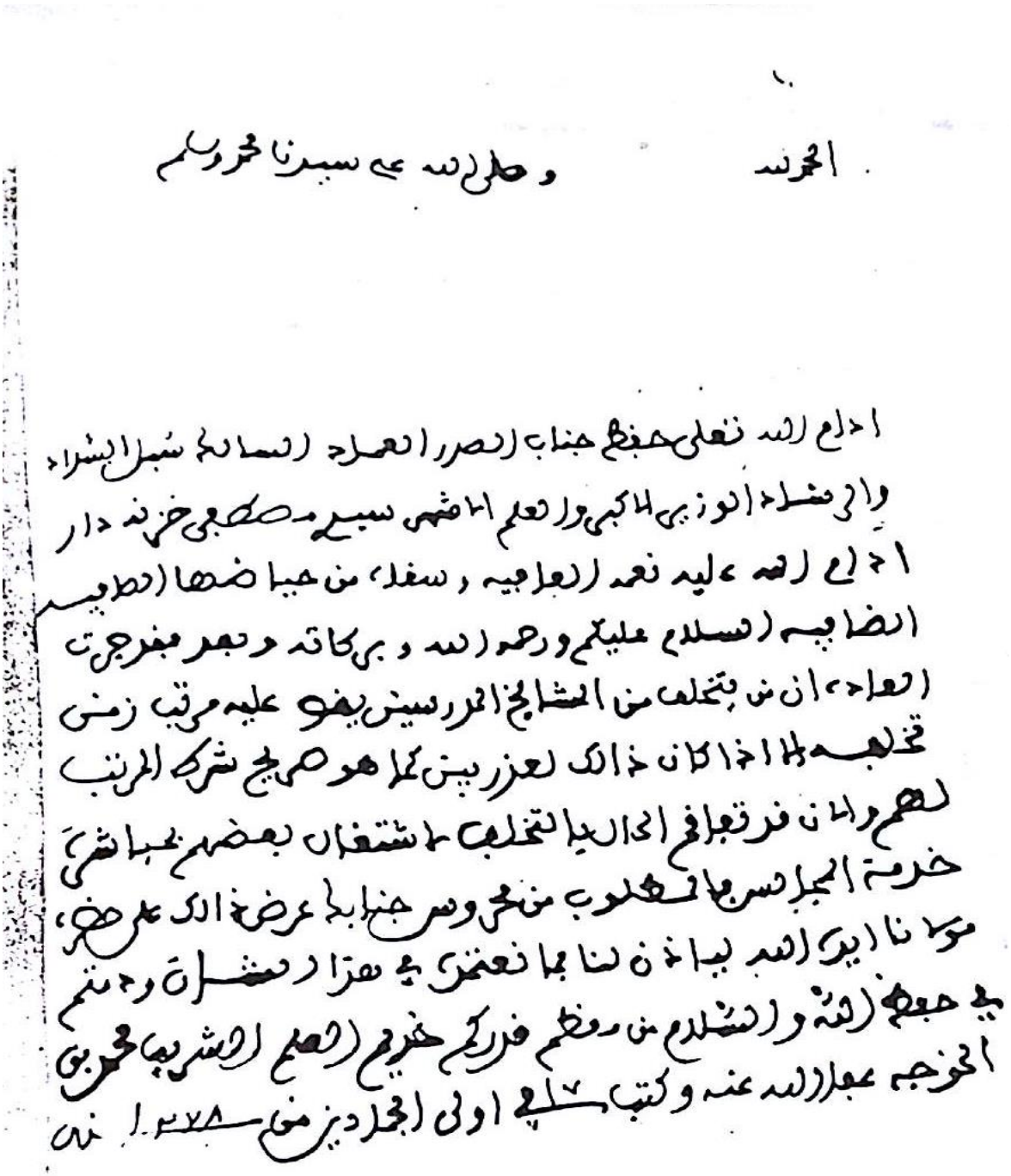

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

[1]- أ. و . ت، صد 63، م 727، " مراسلات صادرة من المشايخ النظار بجامع الزيتونة متعلقة بالدروس والمدرسين"، وث 07 .

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

أدام الله تعالى حفظ جناب الصدر العماد السالك سبل السداد والرشاد الوزير الأكبر والعلم الأشهر سيدي مصطفى خزنه دار أدام الله عليه نعمة العافية وسقاه من حياضها الصافية الضافية السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد جرت العادة أن من يتخلف من المشايخ المدرسين يقص عليه مرتب زمن تخلفه إلا إذا كان ذلك لعذر بيّن كما هو صريح شرط المرتب لهم والآن قد تفاقم الحال بالتخلف لاشتغال بعضهم بمباشرة خدمة المجالس بالمطلوب من محروس جنابك عرض ذلك على حضرة مولانا أيده الله ليأذن لنا بما نعتمده في هذا الشأن ودمتم في حفظ الله والسلام من معظم قدركم خديم العلم الشريف محمد بن الخوجة عفا الله عنه وكتب في 17 أولى الجمادين من 1278 .

ملحق رقم 21

تقرير من رئيس جمعية الأوقاف محمد بيرم إلى الوزير الأكبر خير الدين[1]

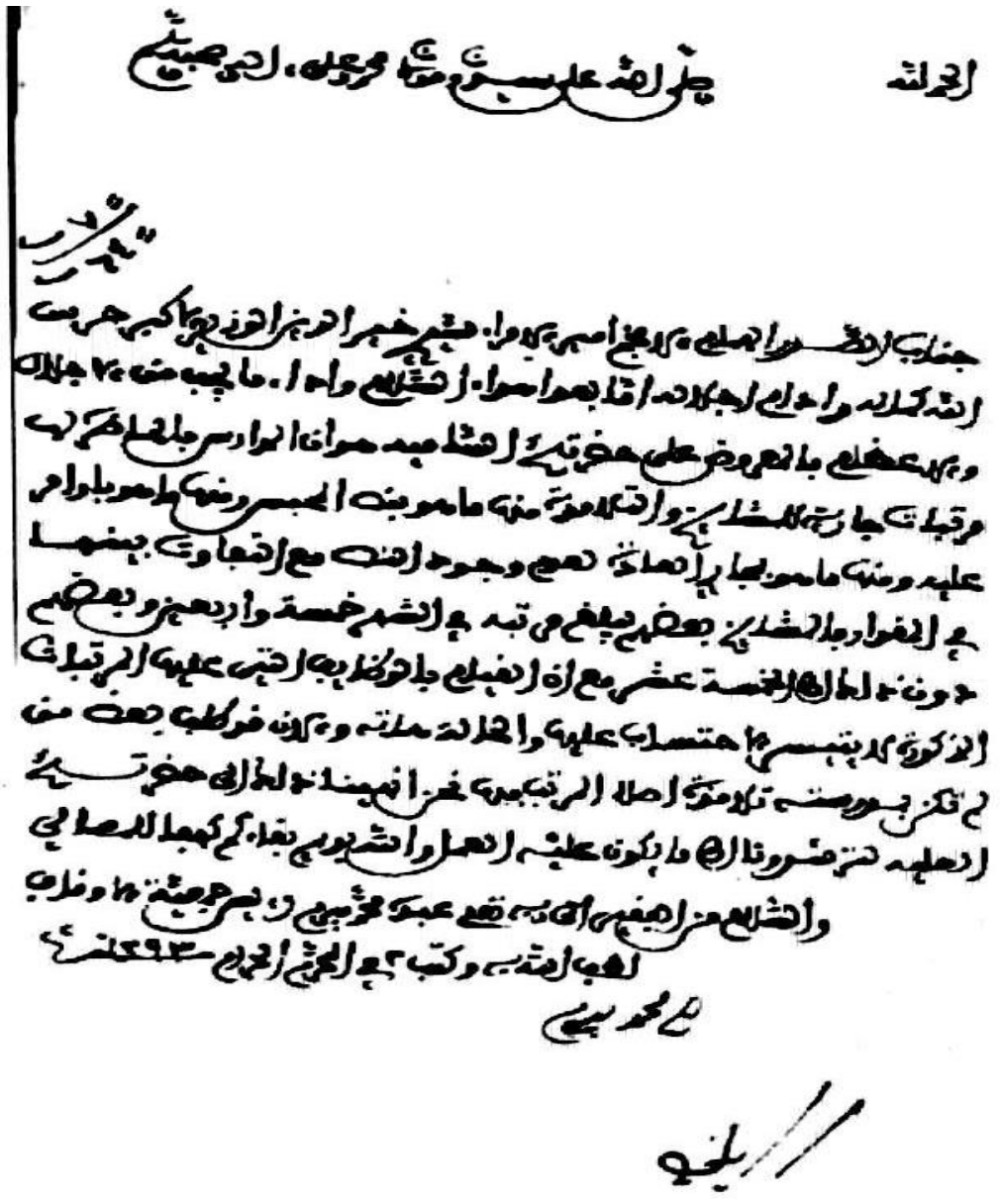

[1]- أ. و .ت ، س. ت ، صد 61، م 691 ، " رسالة من رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر خير الدين بتاريخ 3 في محرم 1293هـ/ 29 جانفي 1876م"، وث 5 .

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى أهله وصحبه وسلم

جناب الصدر الهمام والأفخم أمير الأمراء سيدي خير الدين الوزير الأكبر حرس الله كماله وأدام إجلاله أما بعد إسداء السلام وأداء ما يجب من الإجلال والإعظام فالمعروض على حضرتكم السامية هو إن المدارس بالحاضرة لها مرتبات جارية للمشايخ والتلامذة منها ما هو بنص المحبس ومنها ما هو بأوامر علية ومنها ما هو بجاري العادة لعدم وجود النص مع التفاوت بينها في المقدار فالمشايخ بعضهم يبلغ مرتبه في الشهر خمسة وأربعين وبعضهم دون ذلك إلى الخمسة عشر مع أن القيام بالوظايف التي عليها المرتبات لا يتيسر الاحتساب عليها والحالة هاته ولأن قد طلب بعض من لم تكن بمدرسته تلامذة أصلا المرتب فيها نحن أنهينا ذلك إلى حضرتكم العلية لترشدونا إلى ما يكون عليه العمل والله يديم بقاءكم كعبا للمعالي والسلام من الفقير إلى ربه تعالى عبده محمد بيرم رئيس جمعية الأوقاف لطف الله به وكتب 3 في المحرم الحرام سنة 1293هـ .

صح محمد بيرم

الإمضاء

البيبليوغرافيا

قائمة المصادر والمراجع[1]:

القرآن الكريم: برواية ورش عن نافع .

1. المصادر:

1.1. الأرشيف الوطني التونسي:

1.1.1. السلسلة التاريخية:

- **صندوق رقم 62:**

– ملف 691 ، مراسلات صادرة عن رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر متعلقة اغلبها بالأحباس وبالتصرف في ريعها .

- **صندوق رقم 62:**

- ملف 700، دفتر يشمل أوقاف مدارس الحاضرة ماعدا المدرسة الباشية (1281-1305هـ/ 1864- 1887م) .
- نفسه، مراسلات صادرة عن رئيس جمعية الأوقاف إلى الوزير الأكبر متعلقة أغلبها بالأحباس وبالتصرف في ريعها .

- **صندوق رقم 63:**

- ملف 723، أوامر علّية ومراسلات متعلقة بالمدرسين وبتنظيم الدراسة بالجامع الأعظم وبالمدرسة الصادقية.
- ملف 726، أمر علّي صادر عن محمد الصادق باي متعلق بتنظيم مكتبة جامع الزيتونة.
- ملف 727، مراسلات صادرة عن المشايخ النظار بجامع الزيتونة متعلقة بالدروس والمدرسين.
- ملف 728، مراسلات صادرة عن المشايخ النظار بجامع الزيتونة متعلقة بالدروس والمدرسين .
- ملف 732، مراسلات صادرة عن المشايخ المدرسين بجامع الزيتونة إلى الوزير الأكبر تعلقت أغلبها بطلب ترقيات من طبقة إلى طبقة وبإعانات مالية.

[1]– وهي مرتبة ترتيبا هجائيا مع إهمال أداة التعريف "أل" و"ابن" و"أبو" أثناء الترتيب .

- ملف 733، مراسلات صادرة من المشايخ المدرسين بجامع الزيتونة إلى الوزير الأكبر تعلقت أغلبها بمطالبتهم بالترفيع في أجورهم .
- ملف 734، مراسلات صادرة من مشايخ مدرسين بعدة مناطق من البلاد التونسية موجهة إلى الوزير الأكبر وأوامر علّية لتولية مدرسين .
- ملف 736، مراسلات وقائمات بأسماء القادرين على التدريس بمختلف المناطق من البلاد التونسية .
- ملف 737، دفتر شهادات طلبة جامع الزيتونة .
- ملف 738، دفاتر تضمن أسماء طلبة جامع الزيتونة المواظبين على القراءة ونسخة من أمر علي في إعفاءهم من أداء المجبى .
- ملف 739، قائمات إحصائية لمدارس الحاضرة وبيان بعض مصاريفها .
- ملف 740، رسالة من تلامذة الشيخ ابن ملوكة بالمدرسة الجديدة إلى الوزير الأكبر مصطفى خزندار .
- ملف 742، أوامر علية ومراسلات متعلقة بتعليم القران بالحاضرة وببقية بلدان المملكة .

- **صندوق رقم 64**:

- نهاية ملف 571، إعلان المدرسة الصادقية.
- ملف 746، مراسلات صادرة عن مدير المدرسة الصادقية إلى الوزير الأكبر متعلقة بالتدريس والمدرسين والطلبة .
- ملف 749، مراسلات صادرة من وكيل أوقاف المدرسة الصادقية إلى الوزير الأكبر متعلقة بأحباس المدرسة .
- ملف 750، نسخ اتفاقيات مبرمة بين الوزير الأكبر ووزير الخارجية وبين بعض المدرسين حول توليهم التدريس بالمعهد الصادقي .
- ملف 752، مراسلات واردة على الوزير الأكبر خير الدين متعلقة بإمكانية إرسال الأوائل من التلاميذ لمواصلة دراستهم بباريس 1877- 1881م .
- ملف 753، جداول تحتوي على بيانات متعلقة بمدرسي وموظفي بالمدرسة الصادقية ونتائج الطلبة .

- ملف 762، مراسلات متعلقة بطلب قنصل فرنسا قطعة أرض لأحداث مقبرة للمسيحيين ومدرسة لتعليم البنات بباجة .
- ملف 770، مراسلات تتعلق بمدرسة سان شارل وبطلب إعفائه من الادعاءات القمرقية على البضائع المستوردة .

- **صندوق 183**:

- ملف 1018، مراسلات وأوامر علية متعلقة بنظام التدريس والامتحانات والغيابات بالمدرسة الحربية بباردو، واتفاقات مع ضباط أجانب حول تعليم تلامذة المكتب الحربي اللغة الفرنسية وفنون الحرب والجغرافيا .
- ملف 1019، مراسلات خاصة بتوجيه تلميذين من المدرسة الحربية بباردو للدراسة بسان سير بفرنسا وأخرى تتعلق بإرسال إطارات من وزارة الحرب الفرنسية لإدارة المدرسة الحربية بباردو .

2.1.1. السلسلة C2 :

- رسوم أراضي وقف جامع الزيتونة ومؤذنيه وقرائه .
- رسوم أراضي وقف الجامع الأعظم بسوسة .

3.1.1. الدفاتر الادارية والجبائية:

- دفتر رقم 2144، يشتمل على الإحسانات المقدمة للبعض من سكان سائر أماكن البلاد وبعض الزوايا والبلدان المجاورة: الجزائر والمغرب والصحراء. .
- دفتر رقم 2304، يشتمل على بيان محصول أوقاف المدرسة الشماعية، وعلى بيان المصروف الخارج من ذلك في مصالح المدرسة (1186- 1199هـ/ 1773-1785م) .
- دفتر رقم 2353، يشتمل على إحصاء الكتب الموجودة بمسجد قصر الباي أحمد باشا مبوبة حسب المواضيع.

2.1. المخطوطات:

- برنار أحمد، إعلام الأعيان بتخفيفات الشّرع عن العبيد والصّبيان، مخطوط رقم6242، دار الكتب الوطنية، تونس.
- مجهول، رسالة في تعليم الصغار، مخطوط رقم6327، دار الكتب الوطنية، تونس .

3.1. الكتب المطبوعة:

- برنار، أحمد، الشهب المخرقة لمن أدعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة، تقديم وتحقيق الطاهر المعموري، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م .
- بيرم، محمد الخامس التونسي، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ط1، المطبعة الإعلامية، مصر، 1302هـ/ 1885م .
- بيسونال، أندريه، الرحلة إلى تونس، ترجمة وتحقيق محمد العربي السنوسي، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003م .
- التونسي، خير الدين، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم محمد الحدّاد، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 2012م .
- ابن جماعة، بدر الدين، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، تحقيق محمد بن مهدي العجمي، ط3، دار البشائر الإسلامية ، بيروت، 2012م .
- ابن حمادوش، عبد الرزاق الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983م .
- ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدمة – كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر – ، ط8 ، دار الكتب العلمية، بيروت ، 2008م .
- خوجة، حسين، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1975م .
- ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ط1، المطبعة التونسية، تونس، 1869م.
- الرياحي، عمر، تعطير النواحي بترجمة الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي، ط1، مطبعة بكار وشركائه، تونس، 1320هـ/ 1902م .
- ابن سحنون، محمد، كتاب آداب المعلمين، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطو، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، 1972 م .

- السراج، محمد بن محمد الأندلسي، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984م، (الكتاب في 3 مجلدات) .
- السنوسي، أبو عبد الله محمد بن عثمان، مسامرات الظريف بحسن التعريف، تحقيق وتعليق محمد الشاذلي النيفر، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994م .(الكتاب في 4 أجزاء) .
- ابن أبي الضياف، أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999م، (الكتاب في 4 مجلدات، 8 أجزاء).
- ابن عبد العزيز، حمودة بن محمد، الكتاب الباشي، تحقيق محمد ماضور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970م، (الكتاب في جزأين، الجزء الثاني لا يزال مخطوطا) .
- العياضي، محمد المختار الباجي، مفاتح النصر في التعريف بعلماء العصر، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، النشرية العلمية للكلية الزيتونية، ع 4، 1976م .
- السمعاني، أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منضور، كتاب أدب الإملاء والإستملاء، دراسة وتحقيق أحمد محمد عبد الرحمان محمد محمود، ط1، مطبعة المحمودية، جدة، 1993م، (الكتاب في جزأين).
- مارمول، كربخال، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجّي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1988- 1989م .
- مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1930م، (الكتاب في جزأين) .
- مذكرات خير الدين باشا، تعريب محمد العربي السنوسي، بيت الحكمة، تونس، 2008م.
- المسعودي، أبي عبد الله محمد الباجي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، ط2، مطبعة بيكار وشركائه، تونس، 1916م .
- مقديش، محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواوي ومحمد محفوظ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، (الكتاب في مجلدين) .

- الناصري، أبي عبد الله محمد بن عبد السلام، الرحلة الناصرية الكبرى، دراسة وتحقيق المهدي الغالي، ط1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، المملكة المغربية، 2013م، (الكتاب في جزأين) .
- النيفر، محمد، عنوان الأريب عمّا نشا بالبلاد التونسية من عالم أديب، تذييل واستدراك علي النيفر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م، (الكتاب في جزأين) .
- هابنسترايت، ج. أو، رحلة إلى الجزائر وتونس وطرابلس(1145هـ / 1732م)، ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، ب. ت . ن .
- الورثيلاني، الحسين بن محمد، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار-الرحلة الورثيلانية- ، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006م .
- ابن يوسف، محمد الصغير، الْمَشْرَع الْمُلْكي في سلطنة أولاد علي التركي، تقديم وتحقيق أحمد الطويلي، ط1، المطبعة العصرية، تونس، 1998م .

4.1. المصادر الفرنسية:

- Daumas, M. Philippe,Quatre ans à Tunis ,Tissier , Alger,1887.
- Landais,G, Impressions de deux voyages en Tunisie 1889-1893, George Carré et C. Naud Ed, Paris,1897.
- Marcel, J.J, Description de cette régence par le Dr Louis Frank, Ed Bouslama, Tunis, S.D .
- Peyssonnel et Desfontaines, Voyages dans les régences de Tunis et D'Alger, Pub par M. Dureau de la Malle, T2, Librairie de Gid, Paris, 1838 .
- Shaw Thomas, Voyages de M. Shaw dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant,T1, trad de l'anglais, Jean Neaulme, La Haye,1743.

2. المراجع:

1.2. الكتب:

- الأرقش، دلندة، والأرقش، عبد الحميد، وابن طاهر، جمال، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي،تونس، 2003م .
- الإمام، رشاد، سياسة حمودة باشا في تونس (1782-1814م)، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1980م.

- أمين، أحمد، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، ب.ت.ن.
- الانكشاري، الهادي بن يونس بن محمد ، الدولة الحسينية(1705- 1855م)، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، ب. ت . ن .
- بنبلغيث، الشيباني، أبحاث في تاريخ تونس الحديث والمعاصر، ط1، دار نهى، صفاقس، 2008م.
- ----------، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859- 1882م)، تقديم عبد الجليل التميمي، م. ت. ب. ع. مع، زغوان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، 1995م .
- ----------، فصول في تاريخ الأوقاف في تونس، ط1، دار نهى للطباعة والنشر والتوزيع، صفاقس، 2004م .
- التوزري، إبراهيم العبيدي، تاريخ التربية بتونس، الشركة التونسية للتوزيع، تونس،1967م، (الكتاب في جزأين) .
- حسين، محمد الخضر، تونس وجامع الزيتونة، جمع وتحقيق علي رضا التونسي، المطبعة التعاونية، دمشق، 1971م .
- الحشايشي، محمد بن عثمان، العادات والتقاليد التونسية – الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية–، دراسة وتحقيق الجيلاني بن الحاج يحي، تقديم محمد اليعلاوي، دار سراس للنشر والتوزيع، تونس، 1994م .
- ----------، تاريخ جامع الزيتونة، تقديم وتحقيق الجيلاني بن الحاج يحي، دار نهى للطباعة والنشر والتوزيع، صفاقس، سبتمبر 2006م .
- الحلوجي، عبد الستار، دراسات في الكتب والمكتبات، ط1، مكتبة مصباح، المملكة العربية السعودية، 1988م .
- بن خروف، عمار، العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس في القرن 12هـ/18م، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2017م .
- ابن الخوجة، محمد، تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد، تحقيق وتقديم الجيلاني بن الحاج يحي وحمادي الساحلي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م .
- ----------، الرزنامة التونسية، مطبعة الرائد التونسي، تونس، 1323هـ/1905م.

- ابن الخوجة، محمد، صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م .
- راسل، برتراند، أثر العلم في المجتمع، ترجمة صباح صديق ملوجي، مراجعة حيدر حاج إسماعيل، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008م .
- الرافعي، عبد الرحمان بك، عصر محمد علي، مطبعة الفكرة، ط3، القاهرة، 1370هـ/1951م .
- زبيس، سليمان مصطفى، بين الآثار الإسلامية في تونس، منشورات دار الثقافة، تونس، 1963م .
- الزّمرلي، الصادق، أعلام تونسيون، تقديم وتعريب حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م .
- الزمزمي، محمد، الزاوية وما فيها من البدع والأعمال المنكرة، مطبعة أسبارطيل، طنجة، 1999م .
- الزيدي، علي، دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية في الفترة المعاصرة، منشورات منتدى الفرابي للدراسات والبدائل، صفاقس، 2014م .
- زوزو، عبد الحميد، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830- 1900م)، موفم للنشر، الجزائر، 2009م .
- الساحلي، حمادي، فصول في التاريخ والحضارة، ط 1،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م .
- ابن سالم، بلقاسم، التعليم العصري ونظام التوجيه المدرسي في تونس، سلسلة علوم التربية، تونس، 1988م .
- سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م ، (الكتاب في 5 مجلدات، 10 أجزاء) .
- ----------، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنّابي صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م .

- السعداوي، أحمد، تونس زمن حسين بن علي وعلي باشا (1705-1756م) وثائق أوقاف من العهد الحسيني، ط1، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2015م .
- شترة، خير الدين، الطلبة الجزائريون في جامع الزيتونة (1900- 1956م)، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر 2009م، (الكتاب في جزأين) .
- شحلان، أحمد، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفُرقة، ط1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2009م .
- شريف، محمد الهادي، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993م .
- صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة عبد الرزاق محمد حسن بركات، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م .
- طقوش، محمد سهيل، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (698-1343هـ/ 1299- 1924م)، دار النفائس، بيروت، 1999م .
- ابن طاهر، جمال وآخرون، المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، تنسيق الهادي التيمومي، بيت الحكمة، تونس، 1999م .
- طلس، محمد أسعد، التربية والتعليم في الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012م .
- الطويلي، أحمد، تاريخ مدينة تونس الثقافي والحضاري من الفتح إلى أواخر القرن التاسع عشر، ط1، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2002م .
- -------، مراكز الثقافة والتعليم بمدينة تونس في العهد الحفصي: الجوامع والمدارس والمكتبات، ب.م.ن، تونس، 2000م .
- ابن عاشور، محمد الطاهر، أليس الصبح بقريب، دار سحنون للنشر والتوزيع، ط1، تونس، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2006م.
- ابن عاشور، محمد العزيز، جامع الزيتونة المعلم ورجاله، دار سراس للنشر، تونس، 1991م.

- عبد الرحيم عبد الرحمان، عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517-1798م)، المجلة التاريخية المغربية، تونس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م .
- عبد السلام، أحمد، المؤرخون التونسيون في القرون 19/18/17، نقلها من الفرنسية إلى العربية أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي، بيت الحكمة، تونس، 1993م .
- ---------، المدرسة الصادقية والصادقيون، ط1، بيت الحكمة، تونس، 1994م .
- ---------، مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1987م .
- عبد المولى، محمود، المدرسة الحربية بباردو، ط1، ب.م.ن، تونس، 2003م .
- عبد الوهاب، حسن حسني، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، 1953م .
- ----------، شهيرات التونسيات، المطبعة التونسية، تونس، 1934م .
- ----------، كتاب العمر، مراجعة وإكمال محمد لعروسي المطوي وبشير البكوش، الدار العربية للكتاب، تونس 2001م، (الكتاب في 4 أجزاء) .
- ----------، ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس، 1964م .
- عثمان، نجوى، مساجد القيروان، دار عكرمة، دمشق، 2000م .
- العياشي، مختار، الزيتونة والزيتونيون في تاريخ تونس المعاصر 1883- 1958م، مركز النشر الجامعي وجامعة الزيتونة، تونس، 2003م .
- --------، في تاريخ المدرسة التونسية خلاصة 32 قرنا من الكتابة والمعرفة والتعليم (1101ق.م – 2007م)، مركز النشر الجامعي والمركز الوطني للتجديد البيداغوجي والبحوث التربوية، تونس، 2012م .
- الغزي، الهادي حمودة، الأدب التونسي في العهد الحسيني (1705-1881م)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972م .
- قرين، دون أرنولد هنري، العلماء التونسيون، ترجمة حفناوي عمَايريّة واسماء معَلَّى، ط1، نشر مشترك بين دار سحنون للنشر والتوزيع والمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 1995م .

- القصّاب، أحمد، تاريخ تونس المعاصر (1881- 1956م)، تعريب حمادي السّاحلي، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986م .
- كريم، عبد المجيد وجلاّب، الهادي، الحركة الإصلاحية بالبلاد التونسية بين (1815 – 1920م)، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، 1994م .
- الكعاك، عثمان، محاضرات في مراكز الثقافة بالمغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر،جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، 1958م.
- لزغم، فوزية، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، وهران، ب.ت.ن .
- الماجري، حياة، من تعليم الصبيان إلى التعليم الابتدائي في مدينة تونس في العهد العثماني، مخبر دراسات مغاربية، ودار نقوش عربية للنشر، تونس، 2014م .
- ابن مامي، محمد الباجي، مدارس مدينة تونس من العهد من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2006م .
- محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994م ، (الكتاب في 5 أجزاء) .
- مزالي، محمد صالح، الوراثة على العرش الحسيني ومدى احترام نظامها، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969م .
- مشرفية، مديحة، أولى المدارس الفرنسية بالإيالة التونسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر (1830 – 1855م)، ط1، المغاربية للطباعة والإشهار، أريانة، 2009م .
- ابنت معجب بن سعيد الحامد، نورة، الصلات الحضارية بين تونس والحجاز – دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية 1256- 1326هـ/ 1840- 1908م، دارة الملك عبد العزيز، السعودية، 2005م .
- المعموري، الطاهر، جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي، الدار العربية للكتاب، تونس 1980م .
- الرزنامة التونسية، مطبعة الرائد التونسي، تونس، 1323هـ/ 1905م .

2.2. المجلات والدوريات:

- الأرقش، دلندة، "جدلية التجديد والتواصل في الحياة الفكرية في الإيالة التونسية في العهد العثماني"، م.ت.مغ، ع 57- 58، جويلية 1990م .
- بلعيد بن حمدة، وسيلة، "الزاوية ودورها التربوي والاجتماعي"، م.هـ، ع 4 ، جانفي 1995 م .
- بنبلغيث، الشيباني، "دور الجنرال حسين في الحركة الإصلاحية بتونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، م. ت .ع . للد.ع، ع 11-12، أكتوبر 1995م .
- بوطيبي، محمد، "المعهد الصادقي ودوره في الإشعاع العلمي والفكري التونسي في مطلع القرن العشرين"، م . ب . ت، ع 5 ، سبتمبر 2018م .
- التميمي، عبد الجليل، "دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس"، م . ت . مغ، ع3، جانفي 1975م.
- ----------، تاريخ المهمات والتبادل الثقافي بين إيالة تونس واسطنبول"، م. ت .ع . للد.ع، ع 31، ديسمبر 2010م .
- ----------،"الحياة الحرفية والدينية لمدينة القيروان من خلال دفتر حسابات مسجد السادة الأنصار (1816- 1824م)"، م. ت .ع . للد.ع، ع 29، أكتوبر 1999م.
- الحبيب، محمد، "تاريخ الصحافة التونسية"، م . ز، مج6، ج1، رجب 1364هـ/ جوان 1945م .
- ابن الخوجة، محمد، "متى كان ظهور الطباعة بالأحرف العربية في تونس"، م . ز، مج 4، ج5، محرم 1360هـ/ فيفري 1941م .
- ----------،" كيف نشأت خزائن الكتب لدراسة العلوم بجامعة الزيتونة المعمور"، مج1، ج1، رجب 1355هـ/ سبتمبر 1936م .
- الزواوي، علي، " الزاوية النورية وتأثيرها على الحركة التعليمية والعلمية خلال القرن الثامن عشر"، م . ت . مغ، ع 57- 58، جويلية 1990م .
- سعيدوني، ناصر الدين، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس الغرب) من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري/ السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ميلادي"، ح .آ . ع . إج، ع 31، 2010م .

- سلامة، حليم، "قضية محمود بن عياد...أو حيث ينحاز التحكيم المالي الأوربي ضد تونس"، ج. آ. خ. أ، 11 محرم 1441هـ/ 10 سبتمبر 2019م .
تم الاطلاع على المقال عبر الموقع الإلكتروني: www.akherkhabaronline.com ، بتاريخ 11 صفر 1441هـ/ 10 أكتوبر 2019م .
- الشربطي، المنصف،" الإحسانات الموزعة على الزوايا في القرن الثامن عشر: الدلالات السياسية والاجتماعية والدينية "، م . ت . مغ، ع 99 – 100، ماي 2000م .
- شويتام، أرزقي، "العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية – الفترة العثمانية–"، م . د .ت، ع 13، 2011م .
- الصادق، محمد باي، "ترتيب التعليم الزيتوني"، ج.ر.ت، ع5، 5صفر 1293هـ/ 1 مارس 1876م .
- ابن عاشور، محمد الفاضل، "العلامة الرئيس الشيخ مصطفى رضوان"، م . ز، مج 9، ج5، 1374هـ/ 1955م .
- ----------،"الشيخ محمد السنوسي"، م . ز، مج 9، ج3، 1374هـ/ 1955م .
- عبد الوهاب، حسن حسني، "جامع الزيتونة يؤدي رسالة الدين الإسلامي منذ 1243 عاما"، مج 3، ج 2، ذي الحجة 1357هـ/ فيفري 1939م .
- عصامي، سكينة، " آليات ومناهج تعليم الكتاتيب بالجريد التونسي من بداية القرن التاسع عشر إلى سنة 1889م"، م . ب . ت، ع3، جانفي 2018م .
- العنابي، محمد بن الشاذلي، "المكتبات عناية الأمم الحية بها وتفريطنا فيها"، م . ز، مج 1، ج 4، شوال 1355هـ/ ديسمبر 1936م .
- فروة، محمود، "النظام النقدي في تونس في القرنين الثامن والتاسع عشر: مدخل لدراسة أحد مؤشرات إقتصاد الإيالة التونسية (1740- 1891م)"، م. ت .ع . للد.ع، ع 1-2، جانفي 1990م .
- قاسم، أحمد، "الكتاتيب بالبلاد التونسية "، م . ت . مغ، ع 89-90، ماي 1993م.
م . ز، مج1 ، ج1، رجب 1355هـ/ سبتمبر 1936م .

- ابن القاضي، محمد الشاذلي، "الجامعة الزيتونية ماضيها، حاضرها، مستقبلها"، م . ز، مج 9، ج 6، 1374هـ/ 1955م .
- ماكن، ريشارد، "لوي ماشويل والإصلاح التربوي بتونس خلال السنوات الأولى للحماية الفرنسية"، م . ت . مغ، ع3، جانفي 1975م .
- ابن مامي، محمد الباجي، "جوامع مدينة تونس في العهد العثماني دراسة تاريخية وفنية ومعمارية"، ج . م . 24، 5 ذي القعدة 1436هـ/ 19 أوت 2015م .
تم الاطلاع على المقال عبر الموقع الإلكتروني: machahid24.com ،بتاريخ 2 ذي القعدة 1438هـ/ 25 جويلية 2017م .
- ابن محمود، محمد المختار، "جامع الزيتونة"، م . ز، مج2، ج2، رمضان 1356هـ/ نوفمبر 1937م .
- ابن يوسف، زهير، "جامع الباي بمدينة باجة ومدرسته:دراسة تاريخية"، ك.ت، ع 214-215، السداسيان 1و2، 2012م .
- مجهول، "التقدم بالمعارف"، ج.ر.ت، ع40، 8 شوال 1293هـ/ 25 أكتوبر 1876م.
- المرزوقي، فتحي، "المؤسسات الدينية والمؤسسات الخيرية بمدينة تونس في القرن الثامن عشر: مقوماتها الاقتصادية ووظائفها الاجتماعية"، م . ت . مغ، ع 83-84، جويلية 1996م .
- المزالي، محمد صالح، "تحبيس محمد الصادق باشا عدة أملاك لفائدة المعهد الصادقي"، م . ت . مغ، ع 6، جويلية 1976م .
- المعموري، محمد الطاهر، "وثيقة عن تحابيس جامع صاحب الطابع"، م . ت . مغ، ع 55- 56، ديسمبر 1989م .
- النيفر، إبراهيم، "ترجمة الشيخ صالح الكواش"، م . ز، مج 1، ج 8، صفر 1356هـ/ أفريل 1937م .
- النيفر، محمد البشير، " تاريخ الحركة العلمية بجامع الزيتونة "، م . ز، مج 1، ج 10، ربيع الثاني 1356هـ/ جوان 1937م .
- الهيلة، محمد الحبيب،" المادة التاريخية في كتاب قرة العين"، م . ت . مغ، ع 23- 24، نوفمبر 1981م .

3.2. أعمال الندوات والملتقيات:

- خوالدية، أسماء، "الوظائف التعليمية لزوايا الجنوب الغربي للبلاد التونسية خلال العصر الحديث: بين خُلوة المعلم ورحلة المتعلم"، أعمال الندوة العلمية الدولية بعنوان:"حركة المعارف والمؤسسات التعليمية بالمجال العربي والمتوسطي"، إعداد وتنسيق مختار العياشي، ط1، تونس، 2017م .
- السلامي، صدق، "بوادر تنظيم التّعليم الزّيتوني في عهد حسين بن علي باي"، الندوة العلمية حول: "جامعة الزيتونة أثر وتاريخ وعلوم"، نزل روايال سالم بسوسة، 15-16 نوفمبر 2014م .
- السلامي، صدق، "مرجعية مؤلفات الإمام سحنون في النّصوص الحنفية المتأخرة بتونس"، الندوة الدولية بعنوان: "موقع القيروان في الثقافة الإسلاميّة من تاريخ التأسيس إلى اليوم"، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، أيام 21- 23 أفريل، 2009م .
- جابر، ليلى، "المدرسة المرادية بقابس"، أعمال المؤتمر الثامن لمدونة الآثار العثمانية حول: "العمارة المدنية في العهد العثماني: "الدور والمدارس والقناطر والحمامات". م. ت. ب. ع. مع، نوفمبر 2009م .

4.2. الرسائل الجامعية:

- بنبلغيث، الشيباني، سياسة الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار الدينية والتعليمية، شهادة الكفاءة في البحث، إشراف عبد الجليل التميمي، الجامعة التونسية، تونس، 1986م .
- الزيدي، علي، التعليم بصفاقس قبيل إنتصاب نظام الحماية الفرنسية على البلاد التونسية في عهد محمد الصادق باشا باي (1275-1298هـ / 1859 -1881م) ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الكفاءة في البحث، إشراف عبد الجليل التميمي، جامعة تونس، 1978م
- ديب، صفية، التربية والتعليم في تونس الحفصية (7- 10هـ/ 13-16م)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف بوبة مجاني، جامعة الجزائر-2-، 2011-2012م.

- الحناشي، محمد علي، الحياة الدينية والعلمية بمدينة الكاف خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف جمال بن طاهر، جامعة تونس، 2005/2004م .
- عبد النوز، فتيحة، الروابط الثقافية بين الجزائر وتونس ما بين 1860-1954م ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف صبيحة بخوش، المدرسة العليا للأساتذة، جامعة الجزائر، 2013-2014م .
- دركوش، أحمد، مواقف الطرق الصوفية من الاستعمار في الجزائر وتونس (1830-1914م)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، إشراف بن يوسف تلمساني، جامعة الجزائر -2- ، 2010-2011م .
- الميزوري، العروسي، التعليم في تونس منذ قيام الدولة الحسينية إلى انتصاب الحماية، أطروحة دكتوراه دولة، إشراف وسيلة بلعيد بن حمدة، جامعة الزيتونة،1993 – 1994م
- المصعبية، بلقاسم، التعليم والتدريب العسكري بالإيالة التونسية في القرن التاسع عشر (1837 – 1881م)، بحث لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العالم المتوسطي وحضارته، إشراف جمال بن طاهر، جامعة منوبة، 2009/ 2010م .
- المناعي، عبد الكريم، التونسيون وقضية التعليم الابتدائي للبنت المسلمة (1881-1956م)، أطروحة لنيل شهادة الدراسات المعمقة، إشراف حسين رؤوف حمزة، جامعة تونس الأولى، 1996- 1997م .
- المهاجر، محمد فوزي، إصلاح التعليم الزيتوني بين 1258 – 1351هـ/ 1842-1933م، بحث جامعي لنيل شهادة الدراسات المعمقة في الحضارة الإسلامية، إشراف أحميدة النيفر، جامعة الزيتونة، 1996- 1997م .
- القاسمي، فتحي، الجدل الديني في تونس (1875- 1931م)، أطروحة دكتوراه دولة، إشراف كمال عمران، جامعة منوبة، 2006- 2007م، ج1 .
- المقدم بن عبا، هادية، الكتب والمكتبات في الإيالة التونسية منذ تأسيس المطبعة الى نهاية عهد خير الدين باشا (1857- 1877م)، أطروحة لنيل شهادة الكفاءة في البحث، إشراف عبد الجليل التميمي، جامعة تونس الأولى، 1987- 1988م .

5.2. موقع التواصل الاجتماعي :

- ابن مامي، محمد الباجي، "تاريخ التعليم بجامع الزيتونة وبمدارس العلم الشرعي بتونس منذ التأسيس إلى العهد الحفصي،مع ذكر العلوم والكتب التي درّست فيها"،ج1. المقال منشور على صفحة جمعية دار الحديث الزيتونية، بتاريخ 5 ذي القعدة 1433هـ/ 20 سبتمبر 2012م.

تم الاطلاع على المقال عبر es-la.facebook.com، بتاريخ 18 جمادى الثانية 1439هـ/ 05 مارس 2018م .

6.2. المراجع الفرنسية:

1.6.2. الكتب:

- Abdel Maoula, Mahmoud, L'université Zaytounienne et la société tunisienne, C.N.R.S, Tunis,1971.
- Cherif , M. H, Pouvoir et société dans la Tunisie de H'usayn Bin'Ali (1705- 1740), T2, P. U. T, 1986. (2 Tomes)
- De la Rive, Abel Clarin, Histoire générale de la Tunisie (1590-1883), Int M . P. Mignard, Pub E. Demoflys,Tunis,1883.
- Guellouz, Azzedine et Masmoudi, Abdelkader et autres ,Histoire générale de la Tunisie -Les temps modernes-,T3, Sud Ed,Tunis, 2010.
- Guérin, Victor, La France catholique en Tunisie, à Malte et en Tripolitaine , Ed T. A. M.F,1886 .
- Machuel, Louis, L'enseignement public dans la régence de Tunis, Imp nationale, Paris, 1889.
- Revault, Jacques, Palais et demeures de Tunis XVIIIème et XIXème siècles, Ed C.N.R.S, Paris, 1971,Tome II.
- Zeys, Paul, Code annoté de la Tunisie : Recueil de tous les documents composant la législation écrite de ce pays au 1er janvier 1901, Prf Maurice Bompard, T1, Nancy Imp Berger-Levrault et Cie, Tunis,1901.

2.6.2. المجلات والدوريات:

- Arnoulet, François , « la pénétration intellectuelle en Tunisie avant le protectorat », R.A, N° 438- 439, 1954 .

- Arnoulet, François, « les problèmes de l'enseignement au début du protectorat Français en Tunisie 1881-1900» , IBLA , N° 167, 1991.
- Bannour, Abderezak, « Aperçu sur l'enseignement du français en Tunisie de 1830 a 1883 », DHF.LESBM ,V1 ,N°27, Décembre 2001.

تم تحميل المقال من موقع: http://journal.openedition.org/dhfles/2604 ،

بتاريخ 15 ربيع الثاني 1438هـ/ 13 جانفي 2017م .

- Rousseau,A , « Les bibliothèques publiques de Tunisie », R.A, N°33, 1862 .
- Zemerli, S, « Une fugure oubliée Youssef Saheb Et Tabaà », R.T, N° 21,1935.

الفهارس العامة

1. فهرس الجداول
2. فهرس الأشخاص والأعلام
3. فهرس الأماكن والبلدان
4. فهرس الشعوب والقبائل والجماعات
5. فهرس المحتويات

ملاحظة: ننبه بأننا أسقطنا بعض الأسماء التي تكررت باستمرار في غالب صفحات الدراسة، مثل: التونسيون، مدينة تونس، إيالة تونس .

1. فهرس الجداول

عنوان الجدول	الصفحة
توزيع الزوايا الطرقية عبر مختلف مناطق الإيالة .	47 -46
نماذج لبعض الزوايا التي تم تأسيسها في الفترة الحسينية .	53 - 52
نماذج لبعض المدارس بعدد غرفها وطلبتها .	173
الطلبة الوافدين على الحاضرة لطلب العلم .	180 -179
الطلبة المهاجرون لطلب العلم .	181-180
هيئة التدريس بمعهد "سان لويس"Saint Louis" .	216
عدد المتمدرسين وتوزيعهم حسب جنسياتهم أو ديانتهم .	217
الطاقم التربوي بمدرسة الرابطة الإسرائلية للذكور .	224
تطور عدد التلميذات الملتحقات بمدرسة أخوات القديس يوسف للبنات "Les sœurs de saint Joseph de l'apparition"	230 -229
البرنامج التعليمي الذي كان متبعا بمدرسة أخوات القديس يوسف للبنات"Les sœurs de saint Joseph de l'apparition"	231 -230
حالة ووضعية الكتاتيب بمدينة صفاقس وعمالتها وما تحتاجه من مصاريف .	239-236
هيئة التدريس بالمدرسة الحربية بباردو .	243
قائمة الكتب التي كانت تدرس بالمدرسة الحربية بباردو .	244
قائمة لبعض الكتب التي تمت ترجمتها إلى اللغة العربية .	249-248
قائمة بأسماء المدرسين المالكيين والحنفيين .	251
العلوم التي كانت تدرس بجامع الزيتونة من خلال كتب رتبت على ثلاث درجات .	261 -260
مواظبة الشيوخ المدرسين بجامع الزيتونة .	264 -262
مواقيت الدراسة بالمدرسة الصادقية .	270
عيّنة لبعض التلاميذ الذين تم طردهم أو انقطاعهم عن الدراسة .	272 -271
عيّنة لبعض أسماء المؤدبين والمدرسين بالمدرسة الصادقية .	274 -273
إحصاءات للتلاميذ المسجلين بالمدرسة الصادقية من داخل وخارج العاصمة.	276-274
أوقاف الكتاتيب لسنة 1169هـ/ 1756م- مدينة تونس أنموذجا- .	292-290

أحباس بعض المدارس .	297 -293
أنماذج من أوقاف بعض الجوامع والمساجد .	300 -298
العلوم التي حبست عليها الكتب وعدد المجلدات المحبسة عليها .	303
قيمة بعض الإحسانات المقدمة لفئة المؤدبين .	308-306
قيمة الإحسانات التي استفادت منها بعض الزوايا .	311-310
قيمة أجر مؤدبي الكتاتيب .	313 -312
قيمة الأجر اليومي أو الشهري للمدرس .	317-316
عيّنات لأجور الموظفين ببعض المؤسسات التعليمية .	322-319
أنموذج لقيمة المنحة التي كان يتقاضاها الطالب ببعض المدارس لسنة 1293هـ/ 1876م .	325 -324
مصاريف صيانة المدرسة الشماعية في جمادى الأولى 1183هـ/ 1770م	326
مصاريف أخرى لصالح المدارس .	330-327

2. فهرس الأعلام

– أ–

إبراهيم الجمل، 139- 149- 164 .

إبراهيم الجمني، 29- 31-1-50-51- 76–83-103- 111- 113- 135- 137 .

إبراهيم الرياحي، 40-45- 47- 53- 58- 67- 75- 109- 118- 126- 132- 134- 138- 143.

إبراهيم السنوسي، 264- 265 .

إبراهيم المزاج الأندلسي، 165 .

إبراهيم بن علي شعيب الباجي، 83 .

أحمد بن أحمد الشّرفي ،17 .

أحمد أفندي، 21 .

أحمد البارودي، 153 .

أحمد الباهي، 75-289 .

أحمد البرجيني، 162 .

أحمد بوخريص،179 .

أحمد بورقعة، 179 .

أحمد بن حسين، 3- 40- 179 .

أحمد الدمنهوري، 113- 123 .

أحمد الريغي، 77 .

أحمد بن سليمان، 179 .

أحمد الشريف، 24- 26- 112 .

أحمد الشريف الأندلسي، 112 .

أحمد الطوبي ، 81 .

أحمد عاشور،251 .

أحمد بن علي بن الصادق الطرابلسي، 180 .

أحمد العوادى، 314 .

أحمد القروي، 250 .

أحمد الكسراوي،240- 313 .

أحمد الماكودي،114- 116- 117- 118- 119- 121- 128- 131 .

أحمد بن تامر أقنونو،141 .

احمد بن حسين الكافي ،40 .

أحمد بن عبد الصادق ،111 .

أحمد بن متيشة،73 .

أحمد بوعبده، 90 .

أحمد زروق، 166- 192- 317 .

أحمد مزيو، 179 .

أخوات القديس يوسف ،219-228- 230 .

أرتونا ،216 .

أرنست دي تافارن ،245 .

أرنولي ،89 - 212- 214- 216- 219 .

إسبينا ،215 .

أبي إسحاق إبراهيم المزغّني ،122 .

أسطا مراد ،63 .

إسماعيل التميمي، 63 - 148- 153- 160- 165- 167- 170- 179- 187

إسماعيل بن مامي ، 174 .

أبو الأسود الدّؤلي،115 .

أبو الإقبال مسعود الباجي، 115- 116 .

الإمام مالك ،107 - 303 .

آمنة 39- 225- 226

انجل بيار ، 217 .

إنريكاز، 213 .

إيستر، 212 .

إيميلي فيالار،230 .

- ب -

بايان، 215 .

براهم بوكاك، 222 .

أبو بكر الأجنف، 238 .

ابن البناء ،124 .

أبو بكر صدام، 178.

بلقاسم العفيفي، 179 .

بليش صالومون، 223 .

بول كمبون،276- 278 .

- ت -

تاج العارفين البكري،23 .

- ح -

الحاج عبد الواحد المغراوي، 52 .

حسن الجبرتي، 123 .

حسن الشريف 130- 133- 183- 201

حسن بن الطيب التونسي،53 .

حسن عباس، 284 .

أبو الحسن علي الأومي،180 .

أبي الحسن علي الباز،308 .

أبي الحسن علي الجزيري، 100 .

أبي الحسن علي المصمودي،100 .

حسن بن الخوجة، 251 .

حسن بن عمر ، 101 .

حسن فرشيش،251 .

حسن قلايجي،251 .

أبي الحسن اللخمي،50- 51 .

حسن الهدّة، 78 – 180 .

حسونة القصرى، 155 .

حسين البارودي،81 - 200- 250 .

حسين الثاني،71 .

حسين بن علي ،39- 52- 56- 63- 70- 76- 77- 78- 163- 171- 200- 292- 293 .

حسين بن محمود، 52 – 125 .

حسين خوجة،23 - 24- 27- 29- 30- 33 .

أبي حنيفة النعمان، 112 .

حمودة الرصاع، 118 .

حمودة الريكلي، 123- 165 .

حمودة باشا،25- 29- 30- 34- 52- 56- 58- 74- 82- 125- 140- 168- 194- 196- 197- 200- 201- 225- 234- 266- 291- 300- 301- 306- 307- 310- 331 .

حمودة باشا المرادي،29- 30- 34- .

حمودة بن باكير، 39- 200- 225- 226

حمودة بن عبد العزيز،70- 71-89- 108- 111- 117- 119- 157- 158- 200- 288 .

حمودة الطرابلسي،179 .

حميدة المفتي،112- 134 .

حياة الماجري، 30 .

- خ -

ابن خلدون،80- 88- 92- 93- 105- 107- 110- 120- 176- 202- 260- 314 .

الخبيصي، 113 .

خسرو التركي، 112 .

الخليل بن أحمد، 116 .

– د–

د. سار، 215 .

الدهماني،126 .

دوماس،54- 202 .

ديل كاسي،ل242 .

– ر–

رجب بن مامي،69 .

رشاد الإمام ،125- 201 .

رمضان أفندي،21- 26- 29- 60 .

رمضان باي،63- 214- 220- .

– س –

ابن سالم، 63- 214- 220 .

أبي السعود، 107-130-163-165 .

سان لوي، 185- 214- 215 .

ابن سحنون/ سحنون، 40-42- 43- 110- 313 .

سعد الدين التفتزاني، 80 .

سعيد الشريف، 110- 111- 114- 115- 118- 121- 162- 164- 170 .

سولما، 212- 215- 216 .

سوليه ،249 .

ابن سينا، 125- 126 .

ساسي بن فريجة، 58 .

سالم بوحاجب ،166- 169- 203- 205- 208- 210- 262- 281- 284- .

سليمان، 28- 46- 64- 68- 69- 73- 134- 169- 179- 215- 316 .

سنان باشا ،26 - 151 .

السنوسي27، - 38- 39- 44- 45- 48- 52- 68- 69- 70- 81- 82- 101- 109- 111- 113- 114- 115- 116- 117- 118-119- 121- 122- 126- 128- 130- 132- 134- 136- 137- 138- 148-149- 152- 153- 156- 157- 159- 161- 165- 166- 167- 168- 169- 170- 176- 189- 200- 203- 205- 210- 211- 227- 253- 257- 260- 264- 265- 271- 279- 281 .

سنوف موس،223 .

سيبويه ، 116 .

سيتروك ماردوشي،224 .

سيدي أبي حديد، 69 .

سيدي أبي لبابة الصّحابي، 53 .

سيدي البشير71،- 299- 300 .

سيدي خليل المسدوري،64- 65 .

سيدي سعيد الشريف، 111.

سيدي عبد السلام الأسمر،74 .

سيدي عبد القادر الجيلاني، 76- 77 .

سيدي عبد الله الجمّوسي،101 .

سيدي علي بن صالح، 51- 76 .

سيدي علي داود، 111 .

سيدي لونيس،299- 300 .

سيدي محمد البشير الزواوي، 52 .

سيدي نصر القرواشي، 41- 52 .

سيدي الوحيشي،238 .

– ش –

الشاذلي بن صالح، 250 .
ابن شاكر،66- 239 .
الشبرخيتي، 162 .
شعبان الأندلسي، 26 .
الشيخة مسيكة، 58 .

- ص -

صالح بوحمبل،76 .
صالح الشوشان، 237 .
صالح بن عبد الجبّار، 91 .
صالح الكواش، 113- 119- 122-
154-156- 160- 161- 165-
167- 178- 180- 183- 187
الصغير بن يوسف،39- 43- 56- 57-
62- 65- 66-67- 68- 69- 70-
73- 77- 80- 81- 82- 129-
307- 323 .

- ض -

ابن ابي الضياف،39 - 43-56- 57-
83- 100 .

- ط -

الطاهر بن عاشور،43- 59- 81- 93-
98- 103- 105- 106- 107-
113- 115- 119- 124- 127-
134- 159- 195- 209- 225-
249- 258 .
أبو الطيب صدام،178 .

- ف -

فالكا،215 .
أبو الفداء إسماعيل التميمي،38 .
فرانك،125 .
فرج التميمي،249 .
فيربي،241 .

- ق -

قاتني نسيم، 223 .
أبو القاسم ابن غانم العباسي،118 .
قاسم الغماد،129 .
أبو القاسم النابلي،302 .
قاسم المحجوب ،114 - 116- 157 .
قاسم المؤخر، 77- 123- 137 .
قاسم بن عبد الملك، 308 .
القاضي البيضاوي، 106 .
القزويني،96- 121 .
قطب الدين الشيرازي،121 .
قرسين،222 .
قرين،42- 45- 51- 75- 78- 99-
135- 151- 152- 203-234-
252- 256- 280- 280- 283-
284 .
القلصادي، 122- 123 .

- ع -

أبي العباس أحمد،123- 41- 165- 202 .
أبي العباس أحمد عزوز، 138 .
عثمان داي، 26- 65- 299 .
عبد الرحمان بكار180
عبد الرحمان الكامل179
عبد السلام21- 22- 24- 25- 26-
29- 30- 32- 51- 71- 72- 74-
83- 94- 103- 105- 109- 110-
112- 115- 117- 119- 120-
121- 141- 142- 157- 163-

169- 192- 193- 194- 195-
198- 200- 205- 207- 208-
209- 210- 233- 235- 256-
257- 264- 265- 266- 268-
269- 271- 275- 276- 299-
303- 315- 321
عبد السلام بن مشيش71- 299
عبد العزيز الفراتي180
عبد العزيز المراكشي236
عبد القادر الجبالي124
عبد الله السوسي111- 141
عبد الله بن أبي زيد110
عبد الله محمد الفرياني313
أبو عبد الله محمد القسنطيني89
أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز111
أبو عبد الله محمد بن عمران111
أبو عبد الله محمد زروق75
أبي عبد الله محمد الشرفي77
أبي عبد الله محمد الغراب81
العربي الشريف250
ابن عرفة51- 98
عقبة بن نافع27- 28
علي أفندي21
علي الأزهري307
علي باشا39- 41- 43- 57- 61- 62-
65- 66- 67- 68- 69- 70- 73-
76- 80- 81- 82- 84- 88- 106-
107- 109- 116- 117- 118-
121- 124-142- 147- 150-
154- 156- 158- 159- 164-
171- 178- 291- 301- 302-
307- 308
علي باي25- 31- 39- 52- 63- 70-
71- 72- 76- 94- 102- 106-
108- 111- 116- 119- 135-
150- 155- 156- 157- 158-
159- 160- 161- 165- 172-
184- 200- 225- 226-288-
295- 299- 304
علي باي الثاني39- 52- 63- 70- 71-
94- 102- 106- 108- 116-
119- 135- 150- 155- 156-
157-158- 159- 160- 161-
165- 172- 184- 200- 225-
226- 295- 299- 307
علي الحليوي179
علي الدرويش المفتي249
علي ذويب الصفاقسي179
علي بن زياد51
علي بوحجر48
علي بن الشّاهد المنيي124
علي بن صالح51- 76
علي عزوز 41- 289
علي العفيف136- 250
علي بن علي زيد المعروف بالزرلي178
علي العميني238
علي الغراب179
علي الغرياني113- 162
علي محسن101
علي بن محمد المؤخر50
علي بن مراد
علي المقدمى31

علي النوري الصفاقسي89
عمر أبو حدية179
عمر المحجوب82- 138
عمر بن أحمد الكديسي180
ابن العنابي140- 199
العياضي23- 68- 111- 113- 114-
115- 116-117- 118- 121-
122- 124- 131- 150- 164
عبد الوهاب26- 32- 40- 70- 81-
123- 126- 135- 165- 185-
204- 226- 227

- غ -

ابن غازي124
أبي الغيث القشاش24

- ك -

كاترو212
كازاس دافيد223
كاليقاريس241
كامبنون241
كلو215
ابنكمال باشا112
كوهان موس223
كوهان هيجو224

- ل -

لاجيه215
لاراتوندا212
لافيجري218
لبابة الأنصاري32
لومبار215
لوي فيسكوتي248
لوي ماشويل72
لياه المليح222

- م -

ماشويل72
ماناه 23
ابن المحجوز112
محمد الأبي75
محمد الأمين بن الخوجة283
أبو محمد حسن الشرفي179
محمد الأخضر الماجري237
محمد البارودي249
محمد باي المرادي31- 32- 34- 76-
152- 162-
محمد البكوش256
محمد البنا111- 250
محمد بيرم114- 116- 118- 119-
134- 140- 193- 203- 208-
250- 251- 252- 253- 260-
261- 265- 266- 278- 280-
281- 283- 284- 303- 315
محمد بيرم الأول114- 118- 119
محمد بيرم الثالث134- 253
محمد بيرم الرابع250- 252
محمد الجلولي83
محمد بن الحاج حسين48
محمد الحجيج الأندلسي27- 162
محمد الحجيج بن أبي الحسن الأشمرلي118
محمد الخضار123- 249
محمد الخضراوي38- 55- 107- 116-
123- 139- 149- 151- 164-

306
محمد بن الخوجة27- 53- 80- 240- 255- 262- 266- 272- 282
مديحة مشرفية214- 229
محمد بن الرائس250
محمد الرشيد39- 70- 145- 160- 235-292 323
محمد الرصّاع23
محمد زيتونة55- 56- 107- 109- 110- 113- 114- 118- 119- 121- 130- 151- 155- 162- 170
محمد الستار249- 261
محمد سعادة56- 155- 176- 302- 316
محمد بن سعيد133- 179
محمد بن سلامة38- 159
محمد السنوسي114- 134- 167- 169- 170- 203- 210- 211
محمد سويسي 238
محمد الشاذلي بن المؤدب249
محمد الشافعي التونسي43
محمد الشاهد129- 250- 261
محمد الشحمي115-122- 159
محمد الشنقيطي128- 250
محمد الطاهر بن مسعود134
محمد طريفة الصفاقسي38- 96
محمد الطوبي153
محمد بن عاشور249
محمد عباس المفتي249
محمد بن عبد الله السّوسي111
محمد الصغير داود37- 38- 115- 240- 80- 53- 27
محمد الصفار111
محمد العزيز بوعتور256- 257- 266
محمد بن علي بن خليفة الغرياني180
محمد بن علي القرقوري154
محمد عظوم162
محمد بن عمار الميزوني الغربي48
محمد بن عيسى45- 234
محمد الغراب50- 81
محمد الغربي162- 238
محمد الغرياني113- 124- 138- 162- 165
محمد الغمّاد31- 11- 118- 164
محمد غماري184
محمد الفاسي75- 167- 201
محمد فتاتة24- 111- 162
محمد قاسومة249
محمد القبايلي المفتي249
محمد القلشاني133
محمد قويسم 24- 25- 149- 153- 164
محمد بن محمد بوراس178
محمد المصمودي100
محمد معاوية209-239- 250
محمد بن ملوكة 72- 118- 123- 133- 166- 168- 169
مَحمد بن ناصر الدرعي141
محمد بن نصر القابسي38
محمد الهدة السوسي137
محمود باي75- 81- 300- 305
محمود بن باكير249

محمود بن عياد193- 205- 206
محمود عزيز146- 234
محمود قابادو43- 123- 168- 169-
170- 203-207- 209- 210-
241- 246- 252- 280
محمود مقديش29- 50- 125- 135-
143- 153- 180- 181
مخلوف25- 27- 37- 50- 70- 71-
80- 83- 107- 113- 115- 116-
118- 119 -132- 136- 149-
150- 159- 162- 163- 164-
166- 167- 168- 202- 208-
226- 237- 277- 280-
مراد باي الثاني163
مراد باي الثالث164
مصطفى أفندي82
مصطفى النميشي57
مصطفى بن إسماعيل185- 276
مصطفى بن عزوز45- 48
مصطفى بيرم 140- 209- 250- 253
مصطفى رفقي الأيوبي82
مصطفى قردناش26
المعموري21- 28- 33-48- 58- 74-
106- 136- 145- 172- 178-
287- 293- 311- 318- 319-
327
ملاه 215
الملّوي119
منلا أحمد21
المهتار بن رجب123
موربورقو213
ميمون موسى223

3. فهرس الأماكن

– أ –

أريانة 293

إستانبول 85- 160- 168- 169- 177- 178- 180- 183- 196-199- 200- 206- 208- 210

الإسكندرية 83- 176- 177

إشبيلية 26

أوربا 194- 196- 198- 200

ايطاليا 66

– ب –

باب البنات 273- 289

باب الجديد 291- 294

باب الجزيرة 291

باب السكاجين 292

باب السويقة 27- 58- 66- 73- 290- 292- 293- 294

باب القرجاني 72

باب اللفة 292

باب المنارة 292- 294

باجة 29- 31- 32- 111- 112- 134-

179- 180- 294- 295

بجاوة 299

برج نفات 293

بغداد 79

بلاد الجريد 77- 293

بنزرت 32- 292- 299

بئر الحجار 69- 167- 173- 174

– ت –

تركيا 196- 249

تستور 41- 44- 52- 179

توزر 32- 34- 46- 76- 264

– ح –

حمام القشاشين 64

حمام زارقون 291

الحمامات 52

حومة السبخاء 59

– ج –

الجامع الجديد 61-64- 57- 163- 172- 292- 299- 310

جامع الزيتونة/ الجامع الأعظم 20- 23- 24- 29- 33- 34- 60- 64- 68- 69- 75- 78- 80- 84- 85- 148- 149- 151- 152- 153- 155- 157- 162- 163- 165- 166- 167- 168- 169- 172- 174- 176- 187- 201- 203- 205- 209- 262- 264- 267- 269- 278- 282- 285- 292- 297- 298- 299- 302- 316- 318- 321- 292- 296

جامع يوسف داي 21- 163

جبنيانة 48- 237

جربة 50- 51- 76- 90- 103- 111- 135- 149- 162- 175- 180- 182- 209- 214- 230- 323
الجزائر 21- 48- 55- 79- 114- 140- 160- 162- 163- 176- 178- 214- 275- 276
جمنة 140
الجنوب التونسي 48
جنوة 213
- د -
الدولة العثمانية 194- 199- 206
- ر -
الربض الشمالي
ربض باب الجزيرة
ربض باب السويقة
- ز-
زاوية أبي زمعة البلوي 30
زاوية الباهية 75- 149
الزاوية البكرية 59- 74- 114- 308
زاوية الحمارنة 162
زاوية الشيخ إبراهيم الرياحي 47
زاوية الشيخ القرداوي 309
زاوية الشيخ سيدي إبراهيم الجمني/ الجمنية 51- 103- 111- 135- 137- 149- 323
زاوية الشيخ سيدي أحمد بن عيسى 234
زاوية الشيخ سيدي البشير الزواوي 71- 299- 300
زاوية الشيخ سيدي الحلفاوي 309
زاوية الشيخ سيدي علي بوحجر 48
زاوية الشيخ سيدي غيث بن قاسم عباس الغرياني 309
زاوية الشيخ سيدي مصطفى بن عزوز 48
زاوية الشيخ الزقاق 77
زاوية الشيخ سيدي علي النوري/ النورية 49- 50- 76- 149- 155- 236- 308
زاوية القابسي 309
الزاوية القادرية 48- 76
زاوية الوحيشي 309
زاوية سعد الهمامي 309
زاوية سيدي أبي زمعة البلوي 30
زاوية سيدي العيوني 309
زاوية سيدي الكلاعي 309
زاوية سيدي بوحميدة 309
زاوية سيدي محرز بن خلف/ المحرزية 27- 30- 49- 51-
الزاوية العيساوية 237- 238
زغوان 29- 41- 46- 111- 175- 294
زنقة سيدي أبي السعيد 291
- س -
سان لويس 185- 214- 215
سانية القابسي 292
سانية خرابة 292
سانية قارينة 292
سانية موسى 293
سطارة 26
سوسة 25- 28- 46- 76- 77- 103- 123- 154- 178- 180- 181- 209- 213- 230- 233- 233- 264- 274- 298- 307

سوق البشماقيين 206
سوق الترك 296
سوق الحلفاوين 58
سوق الشبارليين 292
سوق القلفة 296
سويقة الجرو 69
– ص–
صفاقس 28- 29- 30- 46- 49- 50-
51- 77- 78- 83- 103- 122-
123- 125- 132- 147- 149-
154- 155- 168- 172- 175-
179- 180- 181- 182- 209-
230- 233- 235- 237- 292- 295
– ع–
العالم الإسلامي 87- 150- 192- 196-
198- 208- 329
عين صمادح 293
– غ –
غرناطة 26
– ف –
فاس 80- 111- 201- 255
فندق الزبيب 292
– ق –
قابس 31- 32- 53- 76- 141- 162-
164
قرطبة 26
قرقنة 237- 238
القرم 241
قرنبالية 276- 294
قنطرة ابن شاكر 66- 293
القيروان 24- 25- 28- 30- 32- 33-
41- 46- 53- 59- 77- 79- 98-
110- 135- 233- 264- 294-
298- 309- 316-
– ك –
الكاف 26- 30- 32- 34- 46- 48-
51- 52- 76- 160- 165- 179-
180- 209
– ل –
ليفورن 213- 220
– م –
مازونة 48
ماطر 52- 146- 160- 234- 294-
295- 299- 300
مالطة 211
مجردة 293
مدارس إخوان المذهب المسيحي 216
مدارس الرابطة الإسرائيلية 222
مدرسة أخوات القديس يوسف للبنات 228
المدرسة الأندلسية 327
المدرسة الباشية 64- 67- 81- 134-
150- 151- 171- 172
المدرسة البشيرية 71
المدرسة الحربية بباردو 169- 185- 203-
207- 240- 247- 248- 264-
268- 271- 285- 329
المدرسة الحسينية الصغرى 62- 63- 149-
161- 171- 172- 174- 238-
291- 295- 310- 313- 317-
321- 322- 324

المدرسة الحسينية الكبرى/ المدرسة الجديدة 63- 64- 70- 106- 156- 169- 171- 172- 173- 174- 175- 293- 295- 314- 318- 322- 326
المدرسة السليمانية 64- 68- 118- 119- 134
المدرسة الصادقية 185- 186- 187- 208- 210- 256- 264- 265- 266- 268- 269- 273- 275- 277- 278- 279- 281- 283- 284- 285- 294- 295- 311- 315- 319- 321- 329
مدرسة النخلة 69- 149- 164- 172- 292- 295- 314- 322- 327
مدرسة بئر الحجار 69- 163- 174- 294- 322
مدرسة حوانيت عاشور/ العاشورية 66- 124- 156- 167
مدرسة سان لويس 185- 214- 215
المدرسة المنتصرية 60- 110- 156- 165
مدرسة يوسف صاحب الطابع/ الطابعية 58- 74- 83- 106- 136- 307- 311- 314- 321- 322
المدرشيم 220- 221
مسجد الحجر 292
مسجد القبة 291
مصر 22- 28- 49- 77- 81- 83- 84- 85- 121- 151- 162- 163- 176- 180- 181- 182- 183- 188- 192- 196- 197- 199- 210- 221- 280
مصراتة 168
معهد قالاتا سراي 206
مقام الشادلي 66- 309
مقام سيدي لبابة الأنصاري 32- 53
ملونش 237
منزل تميم 160- 179
المنستير 34- 46- 181- 230- 274- 303
منطقة الساحل 50- 195

- ن -

نابل 155
نبلة 166
نفزاوة 46- 162
نفطة 46- 48- 77- 172- 237- 292
نهج الديوان 52
نهج العرافين 52
نهج القصبة 216
نهج الكتبيين 68
نهج سيدي الصوردو 63- 77
نهج سيدي العلوي 74
نهج سيدي المرجاني 216- 217- 293
نهج سيدي صابر 228- 230

- هـ -

هنشير الباجيين 297
هنشير القويس 293
هنشير بني وشفان 266
هنشير بير الضفا 293
هنشير صمادح 293
هنشير عين الجنان 299
هنشير قرفال 293

هنشير قعفور 276- 294
- و -
واد عقارب 237
الوطن القبلي 276- 293- 294

4. فهرس الشعوب والقبائل

- أ -
أخوات القديس يوسف للبنات 228
إخوان المذهب المسيحي 216- 217- 218
الأسرة الحسينية 20- 32- 37- 41- 52-
57- 79- 80- 101- 106- 110-
116- 145- 159- 263- 295-
296- 299- 301- 322-
الأغالبة 79
الآفاقيين 104- 166- 170- 188-
273- 174
آل بكري/ البكريين 23- 24- 152
آل بيرم/ البيارمة 210- 277
آل عظوم24
الأندلسيون 22
أولاد بوعلي 238
أولاد يانق 237
- ب -
الباجيين 297
-ح -
الحفصيين 37- 308
-ج-
الجالية الايطالية 212
الجزائريين 124
- ز -
الزواوة 162- 176
- س -
سكان البدو
- ص -
الصفاقسيون 181- 182- 188
- ع -
العثمانيون 21- 22
- م -
المغاربة 121- 176- 177- 182- 183
- ي -
اليهود/ الجالية اليهودية 213- 215- 220-
222.

5.فهرس المحتويات:

المحتـــــــــــوى	الصفحة
مقدّمـــــــة	18 – 10
مدخل:الوضع الثقافي والفكري في تونس قبل الفترة الحسينية	34 –20
1. الوضع الثقافي والفكري في تونس مع مجيء العثمانيين	29 –20
2. دور الأسرة المرادية في إعادة بعث الحياة العلمية	32 –29
3. النكسة العلمية ومحنة العلماء في عهد آخر بايات الأسرة المرادية	33 –32
الباب الأول:التعليم التقليدي	189 –35
الفصل الأول: المؤسسات والمراكز التعليمية	85 –37
1. القصور ودور العلماء	40 –37
2. الكتاتيب	44 –40
3. الزوايا والرباطات	53 –44
4. المساجد	59 –53
5. المدارس	79 –60
6. المكتبات	84 –79
الفصل الثاني: الأطوار التعليمية ونظامها	143 –87
1. الطور الأول: التعليم في الكتاتيب –التعليم الابتدائي–	103 –87
1.1. سن ومدة تمدرس الصبي	90 –87
2.1. المقررات الدراسية وطرائق التمدرس	97–90
3.1. الثواب والعقاب	101–97
4.1. أيام الدراسة والعطل	103–101
2. الطور الثاني: التعليم ما بعد الكتاتيب – التعليم الثانوي والعالي–	143–103
1.2. سن الالتحاق بالطور الثاني	104

2.2. المواد والمحتويات الدراسية	104 –133
3.2. أيام الدراسة والعطل	133–137
4.2. الإجازات العلمية	137– 142
الفصل الثالث: فئة المدرسين والطلبة	145– 189
1. فئة المدرسين	145– 170
1.1 المؤدبون	145–147
2.1. الشيوخ المدرسون	147–170
1.2.1.طريقة الانتصاب للتدريس	148–152
2.2.1.الحالة المادية للمدرسين	152–155
3.2.1.مسكن– إقامة – المدرسين	155–156
4.2.1.علاقة المدرسين العلماء بالسلطة	156–162
5.2.1. أشهر المدرسين	162– 170
2. فئة الطلبة	170– 187
1.2.الطلبة في المدارس	170–176
2.2. رحلة الطلبة للعلم	176–183
3.2.علاقة الطالب بشيخه	183– 185
4.2.تشجيع الحكام لطلبة العلم	185–187
الباب الثاني: إصلاح التعليم التقليدي	190– 329
الفصل الأول: التعليم التقليدي طور الإصلاح	191– 232
1. دوافع الإصلاح	192– 200
1.1.دوافع داخلية	192– 196
2.1. دوافع خارجية	196–200
2. رجال الإصلاح وأفكارهم الإصلاحية	200– 211

3. المؤسسات التعليمية وأنماط التعليم الأجنبي	211– 212
1.3.التعليم لدى الجالية الأوربية	212– 220
1.1.3.تعليم الجالية الايطالية	212–214
2.1.3.تعليم الجالية الفرنسية	214–220
2.3.التعليم لدى الجالية اليهودية	220–225
– المدرشيم	221–222
– مدارس الرابطة الإسرائيلية – المدارس الحديثة–	223–225
3.3.تعليم الفتيات المسلمات والأوربيات	225– 231
1.3.3.تعليم الفتيات المسلمات	225–228
2.3.3.تعليم الفتيات الأوربيات	228–231
الفصل الثاني: الإصلاحات الأحمدية والصادقية	234– 287
1. إصلاح تعليم الكتاتيب	234– 240
2. إصلاح تعليم ما بعد الكتاتيب	341– 283
1.2.إصلاحات أحمد باشا باي – الأحمدية –	341– 257
1.1.2.الاهتمام بالتعليم العسكري	241– 250
2.1.2.إصلاح التعليم الزيتوني	250–255
3.1.2.تأسيس المكتبة الأحمدية	255–257
2.2.إصلاحات محمد الصادق باي – الصادقية –	257– 283
1.2.2.مواصلة مشروع إصلاح التعليم الزيتوني	257–265
2.2.2.تأسيس المدرسة الصادقية	266–278
3.2.2.تأسيس المكتبة العبدلية	278–281
4.2.2.تشجيع الصحافة والطباعة	281–283
3. مصير الإصلاحات التعليمية	283– 286
الفصل الثالث:	289– 331

مصادر تمويل التعليم ونفقاته	
1. مصادر تمويل التعليم	289– 311
1.1.الأوقاف	289– 305
1.1.1.أوقاف الكتاتيب	290– 293
2.1.1.أوقاف المدارس	293– 298
3.1.1.أوقاف الجوامع والمساجد	298– 301
4.1.1.أوقاف الزوايا	301– 302
5.1.1.أوقاف المكتبات	302– 304
2.1.الإحسانات والصدقات	305– 311
1.2.1.الكتاتيب	305– 309
2.2.1.المدارس	309– 310
3.2.1. الزوايا	310– 311
2. النفقات والمصاريف	312– 325
1.2.الأجور والمرتبات	312– 324
2.2.منحة الطلبة	324– 325
3. نفقات أخرى	325– 330
الخاتمــة	333–337
الملاحق	339– 371
قائمة المصادر والمراجع– البيبليوغرافيا –	373– 390
الفهارس العامة	392– 406
فهرس المحتويات	407– 410

نوقشـــــت يـــوم 22 جـــوان 2020م